خطط الطرابيلى

أحياء القاهرة المحروسة

أحياء القاهرة المحروسة

خطط الطرابيلى

عباس الطرابيلى

طبعة خاصة
تصدرها الدار المصرية اللبنانية
ضمن مشروع مكتبة الأسرة

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

مقدمة

بعد أن انتهيت من إعداد الطبعة الأولى من كتابى « شوارع لها تاريخ » فى مارس ١٩٩٦م ، كان لزاماً علىّ أن أصدر كتاباً عن تاريخ إنشاء مدينة القاهرة ، ومراحل تطورها ، إلى أن أصبحت على ما هى عليه فى أول القرن الواحد والعشرين . . خصوصاً وأن كثيرين من المؤرخين لم يقتربوا كثيراً من هذا النوع ، الذى يؤرخ لنشأة العاصمة المصرية تاريخياً ومعمارياً . . تخطيطياً وبشرياً بالتفصيل الذى يروى غلة القارئ ، بل والباحث أيضاً . ولم يقترب أحد ـ كثيراً ـ بالبحث عن أصول أحياء القاهرة ونشأتها ، وكيف ظهرت وكيف تطورت هذه الأحياء . .

وبقيت حوالى ٦ سنوات أنقب وأبحث وأجمع كلمة من هنا وسطراً من هناك وأدقق فى كل ما أجد ، لكى أقدم كتاباً دقيقاً ومدققاً ليصبح مرجعاً شاملاً عن نشأة القاهرة ، وعن تاريخ أحيائها القديمة و الحديثة ، لمن شاء أن يعرف أصل هذه المدينة التى سلبت ألباب المثقفين والمستشرقين الأجانب ، أكثر مما سلبت ألباب المثقفين العرب . .

وقرأت معظم الكتب القديمة والوسيطة والحديثة ، التى تحدثت عن القاهرة . فوجدت بحراً زاخراً ، ولكن بأسلوب تقديم لايقبل عليه قارئ القرن الواحد والعشرين . ثم كان علىّ أن أرفض أى معلومة ، أو أى رواية غير موثوق بها . لقد أردت كتاباً بلغة عصرية يقدم المعلومة والمعرفة . . الحقيقة والطرفة بعيداً عن الخرافات ، لكل من يسكن بالمحروسة أو يمر بها أو يحبها .

إن من حق الذين يسكنون المدينة ، أى مدينة ، أن نروى لهم حكاية هذه المدينة . . من الذى أنشأها . ومن الذى قسّم أحياءها . وكيف كانت بدايتها . . شوارعها بمعالمها ، بل وأشهر أحداثها ، ومن الذى عاش فيها . فما بالنا بمدينة مثل القاهرة ، عاصمة عمرها الحقيقى يتجاوز ١٤ قرناً ؛ إذ لايجوز قصر الحديث على ما يحمل اسم القاهرة وحدها ، لأن العواصم الإسلامية لمصر التحمت بالقاهرة ، وأصبحت إما جزءاً منها ، أو أصبحت فى قلبها . من هنا فإن القاهرة هى كل العواصم الإسلامية لمصر. . من الفسطاط فى الجنوب ، إلى العسكر . . إلى القطائع ، إلى العاصمة الفاطمية ، وهى رابع عواصم مصر الإسلامية . . أى القاهرة . .

●● هى إذاً تلك المدينة « الطولية » التى تمتد من حلوان فى أقصى الجنوب إلى شبرا الخيمة فى أقصى شمالها . عاصمة يمتد طولها أكثر من ٤٠ كيلو متراً . وإن كان عمقها ـ عند القلب ـ لايتجاوز ٣ كيلو مترات : من النهر إلى الجبل . وهى مدينة لم تكن على النهر !! بل كان النهر يبتعد عنها باستمرار . . أو تبتعد هى عن النهر . ولكنها الآن أصبحت جزءاً من النهر ، بل التصق فيها وبها النهر ، وأصبحت لاتذكر القاهرة ، إلا وذكر النهر . والنهر هو هذا النيل ، أو البحر ، بحر النيل أطول وأشهر وأجمل أنهار الدنيا .

●● وعلينا ـ ونحن نؤرخ للقاهرة كعاصمة سياسية لمصر ـ ألا نفرق بينها وبين العواصم الثلاث الأولى ؛ ليس فقط لأن الكل التحم وأصبح مدينة واحدة متصلة ، بل لأن الموقع نفسه يفرض ذلك . .

فالعاصمة الأولى لمصر الإسلامية نشأت حول فسطاط القائد الشهير عمرو بن العاص فاتح مصر . ولنا أن نتخيل حجم هذه العاصمة الوليدة ، ليس بأن نعود إلى مساحتها عند إنشائها ، ولكن بمساحتها التى نتخيلها لها الآن مجرد حى فى جنوب العاصمة الحالية ، يحيط بأول مسجد بنى فى مصر ، وهو مسجد عمرو بن العاص . والفسطاط هذه كانت بدايتها يوم الأول من المحرم عام ٢١هـ الموافق ٩ من ديسمبر ٦٤١م . وهنا نتذكر اليمام الذى باض وأفرخ فى فسطاط عمرو ؛ أى خيمة القائد عمرو، ومن هنا جاء اسم العاصمة .

أما العاصمة الثانية فكانت عباسية اسمها « العسكر » ، وتعود إلى بداية الدولة العباسية ، عندما أمر القائد صالح بن على « عسكره » أن يبنوا لأنفسهم . فقامت مدينة العسكر عام ١٣٣هـ ، وقامت شمال العاصمة الأولى الفسطاط ، بكيلومتر واحد . ولم تتعد مساحة « العسكر » من غرب الفسطاط إلى حى السيدة زينب الآن . أى كانت بين حى المدابغ الحالى عند سور العيون وحى زين العابدين .

وكانت العاصمة الإسلامية الثالثة لمصر هى القطائع . . أنشأها أحمد بن طولون ، الذى كان أول من استقل بمصر عن الخلافة العباسية ، أى جعل مصر دولة مستقلة . ولم يكن للخلافة من سلطان إلا الدعاء للخليفة فى خطبة الجمعة . وأراد ابن طولون أن تكون له عاصمة تفخر بها مصر المستقلة ، فأقامها شمال شرق « العسكر » عام ٢٥٦هـ . ولم تزد مساحة القطائع على كيلو مترين مربعين : من الجبل إلى الجامع . والجبل هنا هو جبل يشكر ، والجامع هو جامع ابن طولون ، أما عرضها فكان من ميدان القلعة « الآن » إلى مشهد زين العابدين .

وأقام ابن طولون جامعه ودار الحكم ، فكان بينهما ١٨٠٠ متر تقريباً . ولم يبق من العسكر» شيء سوى الأطلال . ولم يبق من القطائع إلا الجامع فريد الطراز ، الذى أنشأه على غرار جامع مدينة سر من رأى « سامراء » مدينة ابن طولون نفسه فى العراق ، وكانت القطائع محصورة بين الجبل والخليج المصرى . .

●● وبعد مرور ١٠٠ عام بالتمام والكمال على إنشاء أحمد بن طولون لعاصمته القطائع ، بنى جوهر الصقلى عاصمة الفاطميين ـ القاهرة ـ وكانت البداية عندما وضع أساسها يوم ٥ يوليو ٩٦٩م الموافق ١٧ شعبان ٣٥٨هـ . وبناها أيضاً بعيداً عن النيل ، وعلى مساحة ٣٤٠ فداناً .

هذه العواصم الأربع التحمت فى عاصمة واحدة ، هى التى نعرفها الآن باسم القاهرة . ويعرفها العامة باسم مصر . فإذا سئل الصعيدى أو البحراوى : إلى أين أنت ذاهب ؟ كانت إجابته : رايح مصر . . فالقاهرة هى مصر ، ومصر هى القاهرة . ومن

هنا فإن العامة يصفون الفسطاط أول عواصم مصر الإسلامية بأنه « مصر العتيقة » أى مصر القديمة ، التى أصبحت واحدة من أشهر أحياء العاصمة . وليس أدل على أن المصرى يعرف القاهرة بأنها مصر ، من أن محطة القطارات فيها اسمها الرسمى والشعبى هو « محطة مصر » . ويقصدون بها أحيانا محطة باب الحديد ، بل انتقل هذا الاسم : محطة مصر إلى محطة السكك الحديدية فى الإسكندرية . فنجد العامة والمسئولين يطلقون عليها أيضا اسم محطة مصر ، لأنها المحطة التى يتوجه منها أهل الإسكندرية إلى القاهرة . . أى إلى مصر . .

هذه العاصمة تطورت بسرعة مذهلة . وعاشت أياماً بيضاء عديدة شهدت عز مصر ومجدها . كما عاشت أياماً سوداء كانت هى أيام انكسارها . ولكنها من أكثر عواصم العالم تطوراً واتساعاً . فقد كانت مجرد بيوت من الطوب الأخضر ، وبعض الأحجار الجيرية وسعف النخيل أيام الفسطاط . ثم كانت مساحة القطائع لا تزيد على ٨٠٠ فدان من المقطم إلى الخليج . . ثم جاء جوهر الصقلى قائد جند المعز ليبنى القاهرة على مساحة ٣٤٠ فدانا لا أكثر ؛ لأنه أرادها مقراً وسكنا للخليفة الفاطمى ، وليست سكناً للشعب . وظلت كذلك إلى نهاية حكم المستنصر ، عندما سمح للناس بالسكن فيها ، وربما لهذا السبب زاد وزيره بدر الجمالى مساحتها بما يعادل ٦٠ فدانا أخرى لتصبح المساحة الكلية للقاهرة الفاطمية هى ٤٠٠ فدان .

●● ولنا أن نتخيل كل ذلك . ونحن نرى القاهرة تتسع وتتشعب . .

فإلى الجنوب نشأت جنوب الفسطاط أحياء البساتين و المعادى و المعصرة وطرة إلى أن نصل إلى حلوان . وإلى الغرب نشأت أحياء قاهرة الخديو إسماعيل مثل حى الإسماعيلية « التحرير » وأحياء وسط العاصمة لتصل القاهرة الى النيل بعد أن كانت تقف عند الضفة الشرقية للخليج المصرى ، الذى ظل يحدها من الغرب لقرون عديدة . ووجدنا المدينة تتسع شمالاً فتعبر باب الحديد إلى شبرا و إلى روض الفرج ، إلى أن تصل حدود شبرا الخيمة التى هى من زمام محافظة القليوبية . ولا يعرف هذه الحدود إلا موظف العوايد أو الشرطة .

وأخذت القاهرة تتسع ، فنشأت أحياء الظاهر والعباسية ومنشية البكرى والقبة وحدائق القبة وكوبرى القبة إلى حلمية الزيتون وعين شمس والمطرية . ومع منتصف القرن العشرين نجد مدينة نصر التى تزحف إلى طريق السويس الصحراوى ، وفى بداية القرن العشرين نجد مصر الجديدة تزحف إلى طريق السويس الصحراوى ، ثم نجد مصر الجديدة تزحف فى أول القرن ٢١ إلى طريق الإسماعيلية الصحراوى . وهكذا.

●● وحتى نعرف بالأرقام مساحة القاهرة ، نقول إن القاهرة الفاطمية التى كانت مساحتها ٣٤٠ فدانا ثم ٤٠٠ فدان أيام المستنصر ، نجد أنها أصبحت ١٩٤٨ فدانا أيام الحملة الفرنسية على مصر ، ونجدها تقفز إلى ٢٩٠٠ فدان فى أواخر أيام الخديو إسماعيل . أما الآن فإن مساحتها تتجاوز ٧٠ ألف فدان ، بعد أن غزت الصحراء وانتهت جغرافياً صحراء الريدانية أى العباسية ، وصحراء الحصوة و الجبل الأصفر .

ولم تقف عند ذلك ؛ فقد تجاوزت العاصمة الشاطئ الشرقى للنهر، الذى كانت تقف عنده جغرافياً ، لتعبر إلى الشاطئ الغربى ، لتضم عملياً مدينة الجيزة من المنيب جنوباً إلى أحياء المساحة و الدقى والعجوزة وإمبابة شمالاً. وتمتد غرباً أكثر لنجد حى المهندسين الذى حمل من البداية ومن النصف الثانى لخمسينيات القرن العشرين اسم مدينة الأوقاف ، التى امتدت إلى أحياء أخرى ، غربها معظمها عشوائى مثل أرض اللواء وبولاق الدكرور ، بعد أن نعبر خط السكة الحديد المتجه إلى الصعيد .

ومن هنا كان قرار إطلاق اسم « إقليم القاهرة الكبرى » على كل هذه المدن : القاهرة، الجيزة ، وشبرا الخيمة فى منتصف ستينيات القرن العشرين ، عندما تم إنشاء اللجنة العليا لتخطيط القاهرة الكبرى لتشرف على تخطيط حياة العاصمة : المكان والسكان فى هذه المدينة المتروبوليتان . وتخطط وسائل الانتقال بين أجزاء هذه العاصمة التى أصبحت مترامية الأطراف : من الصحراء إلى الصحراء ؛ أى من صحراء السويس شرقاً وصحراء طريق الإسماعيلية شمالاً ، إلى صحراء طريق الإسكندرية الصحراوى

غرباً ، بعد أن كانت محصورة بين الجبل و الخليج ؛ مما دفع الحكومة إلى إنشاء محاور مرورية جديدة للربط بين مناطق هذه المدينة مترامية الأطراف من الجبل إلى الجبل . ومن منف عاصمة مصر القديمة ، إلى عين شمس إحدى عواصم مصر الفرعونية أيضاً . . من الجنوب إلى الشمال الشرقى ، مثل محور المنيب و الطريق الدائرى . .

ووجدنا محور ٦ أكتوبر من مدينة نصر شرق القاهرة إلى الدقى غرباً ، ومحور ١٥ مايو من منطقة الإسعاف إلى أبو العلا إلى الزمالك إلى ميدان سفنكس ، ثم إلى محور مدينة ٦ أكتوبر غرباً عابراً ميت عقبة إلى الصحراء الغربية !! ثم محور كوبرى روض الفرج . . هذه المحاور كلها هدفها تسهيل نقل الحركة من شرق العاصمة إلى غربها عبر النهر . .

أصبحت القاهرة إذاً مدينة متعددة المدن !! فيها العواصم الأربع القديمة : الفسطاط ، العسكر ، القطائع ، والقاهرة الفاطمية . . بالإضافة إلى قاهرة إسماعيل . ثم إلى « مدينة » نصر و «مدينة » مصر الجديدة ، وامتداداتها إلى مدينة القاهرة الجديدة ومدينة السلام . . إلى مدينة الصحفيين . ومدينة الضباط ومدينة أساتذه الجامعة ، وأحياء الدقى و العجوزة . ومدينة إمبابة ، وكلها غرب النيل . وفى الجنوب نجد «مدينة » المعادى « ومدينة » حلوان .

وأصبحت العاصمة المصرية مدنًا وراء مدن . . وراء مدن ، حتى إنها تخطت الاسم الجغرافى المتعارف عليه جغرافياً باسم المدينة المتروبوليتان التى لم تكن تتعدى مدينتين أو مدينة وثلاث ضواحى مثل نيويورك التى تمتد من مانهاتن إلى بروكلين إلى ستاتين .

ولم تعد القاهرة مدينة يسكنها عدة آلاف ، بل مدينة يسكنها الملايين . . وكان عدد السكان فى أول إحصاء ـ وهو الذى أجرته سلطات الاحتلال الفرنسى عام ١٧٩٩ـ هو ٢٦٠ ألف شخص . ثم أصبح مع تحديث المدينة أيام الخديو إسماعيل ٣٧٥ ألفاً . فإذا قفزنا حوالى ١٠٠ عام نجد أن عدد سكان القاهرة عام ١٩٦٦ هو ٤ ملايين و٢٢٠ ألف شخص . وبعد ١٠ سنوات يرتفع عدد سكان العاصمة إلى ٦ ملايين و١١٥

تقريباً . أى زاد عدد سكانها حوالى مليونى نسمة خلال ١٠ سنوات . والآن يصل عدد سكان العاصمة إلى ١٠ ملايين ، وإن كان عددهم يبلغ فى النهار ١٣ مليوناً يعملون فيها إذ يدخلها كل صباح نحو ٣ ملايين ، يخرجون منها كل مساء ؛ لأنهم يعملون بها ، ولاينامون أو يقيمون فيها .

●● واشتهرت القاهرة القديمة ـ وبالذات الفاطمية ـ بتعدد مسالكها . . هناك : الميدان ، و الشارع ، والحارة ، والدرب ، و الزقاق ، وكانت الحارة هى أساس تخطيط المدينة قديماً ، ومنها يتفرع الدرب والزقاق ، إلى أن نصل إلى العطفة ، ثم إلى الخوخة .

و الحارة كان يقيم فيها إما أبناء المهنة ، أو الحرفة الواحدة ، ومازال أبناء « الحتة » الواحدة يتحدثون عن أبناء الحارة الواحدة بقولهم : « عيب دا إحنا أولاد حارة واحدة» أى هناك ما يربطنا .

وإذا كانت الخوخة هى الأ صغر ، فإن الرحبة هى التى كانت توجد أمام بيوت الأمراء و الكبراء والأغنياء . . وجمعها رحاب . أما الزقاق فغالباً ما كان مغلقاً فى نهايته ، أى هو عبارة عن مدخل لعدة بيوت . وكان غالباً ما تتفرع من الزقاق عدة أزقة ، أما الدرب فكان هو الأكبر الذى يبدأ من الباب الكبير للحارة عندما كان لحارات القاهرة بواباتها .

والزقاق غير « الزنقة » فى تونس والمغرب . فإذا كان الزقاق عندنا صغيراً فى الطول والعرض ، إلا أن الزنقة عبارة عن شارع ، ولكن أقل اتساعاً وطولاً من الشارع الطبيعى .

ولكن انتهت الحارات . . وانتهت الدروب . . وانتهى عصر الأزقة . . كما انتهى ـ من زمن ـ لفظ الخط أو الخطة التى تساوى الآن الحى أو المنطقة ، لنجد فى عصرنا لفظ الأحياء وأقسام الشرطة ، ذلك أنه فى التقسيم الإدارى للمدن الآن نجد أن قسم الشرطة ينقسم إلى أحياء أو مناطق ، فنقول مدينة المهندسين ، أو حى المهندسين الذى هو من أحياء قسم العجوزة . . وهكذا .

****

الباب الأول
حكاية عاصمة أسمها المحروسة

إذا أردنا أن نتحدث عن القاهرة كعاصمة سياسية لمصر الإسلامية ، علينا أن نعود إلى اللحظة ، التى قرر فيها فاتح مصر عمرو بن العاص أن ينشئ عاصمة للدولة الجديدة ، التى انتزعها الفاتح الإسلامى من الإمبراطورية الرومانية . .

وهكذا كانت الفسطاط أول عاصمة لمصر الإسلامية ، منذ نزل ابن العاص أرض الكنانة فى عام ٢٠ هجرية ـ ٦٤١ ميلادية واختار موقع عاصمته غير بعيد عن النيل . . وفى الوقت نفسه نفذ تعليمات عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بألا يجعل بينه ـ فى المدينة المنورة ـ وبين جنوده فى مصر عائقاً أو بحراً فلا يستطيع نجدتهم . .

●● وظلت الفسطاط عاصمة لمصر ١١٢ عاماً من عام ٦٤١م إلى عام ٧٥٠م إلى أن زالت دولة بنى أمية . .

●● ومع عصر الدولة العباسية تم بناء « العسكر » لتصبح عاصمة لمصر لمدة ١١٨ عاماً من عام ١٣٢هـ إلى ٢٥٤هـ « ٧٥٠م إلى ٨٦٨م » . وإن ظلت « العسكر » مجرد ضاحية لمدينة الفسطاط ، من ناحيتها الشمالية الشرقية .

وكان حائط مجرى العيون يحد « العسكر » من الجنوب ، بينما يحدها من الشمال خط بعضه شارع الخليج المصرى ، وبعضه ميدان السيدة زينب ، وبعضه شارع مراسينا إلى جامع الجاولى ، ويحدها من الشرق خط يمتد من جامع الجاولى إلى شارع الأشرف ، إلى السيدة نفيسة . ويحدها من الغرب شارع الخليج المصرى من قنطرة السد عند تقابل شارع الخليج بشارع مدرسة الطب ، إلى جنينة لاظوغلى . .

●● ثم انتقلت العاصمة إلى « القطائع » التى أنشأها أحمد بن طولون «٢٥٤هـ ـ ٢٩٣هـ » « ٨٦٨م ـ ٩٠٥م » ؛ أى إن القطائع أصبحت عاصمة لمصر لمدة ٣٩ سنة هجرية ، وكان يحدها من الغرب شارع السد ، ومن الجنوب حارة الشيخ سليم بالبغالة ثم إلى قلعة الكبش ، فجنوبًا ميدان صلاح الدين . ومن الشرق ميدان صلاح الدين المعروف أيضاً باسم ميدان محمد على حيث كان ميدان « قره ميدان » . ومن الشمال كان يحدها شارع شيخون وشوارع الصليبة والخضيرى ومراسينا إلى ميدان السيدة زينب . .

ولكن سرعان ما عادت العاصمة إلى الفسطاط ؛ إذ عاد الولاة إلى الفسطاط ثانية من عام ٢٩٣هـ ـ ٣٥٨هـ «٩٠٥ م ـ ٩٦٩ م » أى لمدة ٦٥ سنة هجرية .

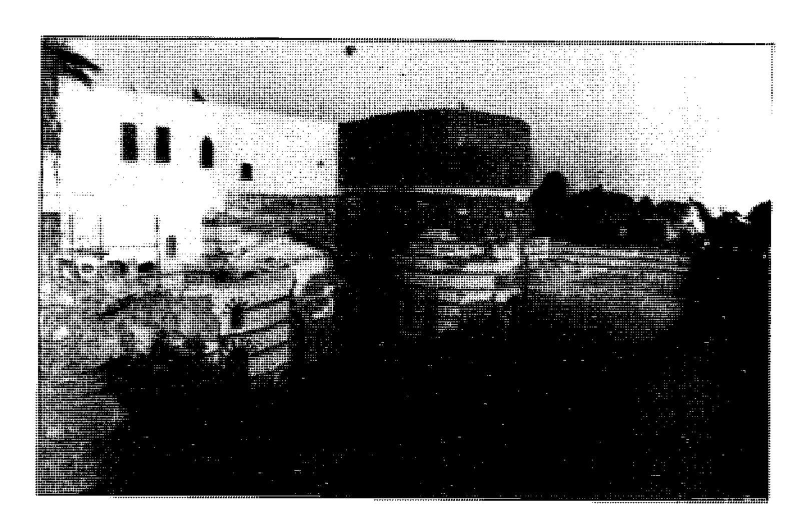
وعندما أحرقت الفسطاط التى أصبح العامة يعرفونها باسم : مدينة مصر عام ٥٦٥هـ ـ ١١٧٠م ، كان عمرها إذ ذاك ٥٤٥ سنة هـ ، ظلت منها فى الواقع ٣٤٢ عاماً عاصمة لمصر . .

وخلفتها القاهرة عام ٣٦٢ هـ ـ ٩٧٣م ، التى كانت تبعد عن رأس الدلتا الى الجنوب ٢٣ كيلو متراً

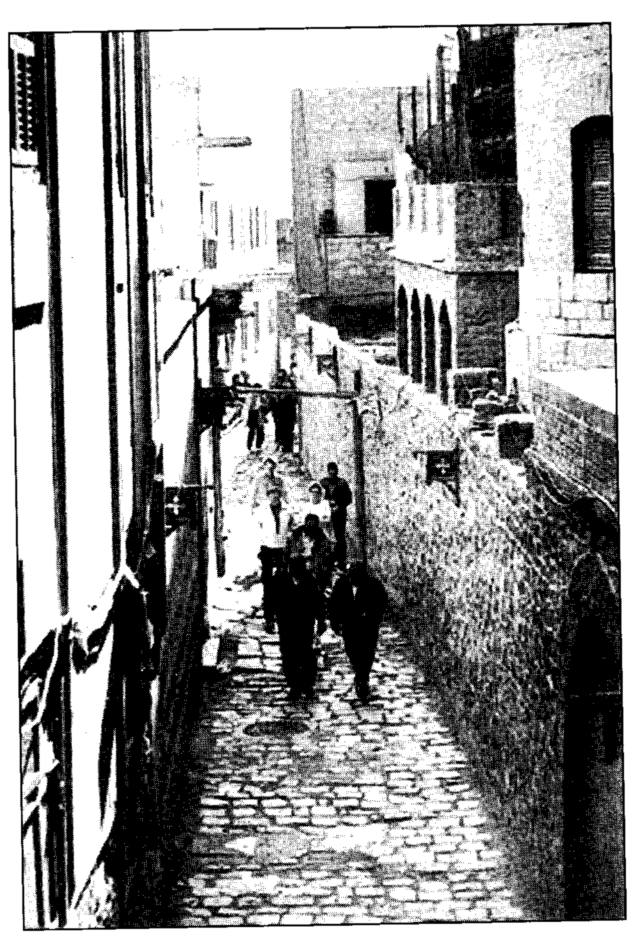
ومصر القديمة ـ جغرافياً ـ هى الآن الجزء الغربى من مدينة الفسطاط القديمة ؛ إذ كانت الفسطاط مكونة من قسمين : قسم شرقى وهو المجاور للجبل ، وهو الفسطاط الأصلية التى وقع فيها حريق شاور وزير الخليفة الفاطمى عام ١١٦٨م . وكله خراب وتلال ولم يبق فيه إلا جامع عمرو وقصر الشمع . . ثم قسم غربى يقع على النيل . وهو الذى يعرف اليوم بمصر القديمة ويسميها العامة : مصر عتيقة . ويحده من الشرق القسم الشرقى من الفسطاط . ومن الشمال المكان المقامة عليه قناطر مجرى الماء ، المعروفة الآن بحائط أو سور العيون ، والتى تنتهى من الغرب بسواقى مجرى الماء التى كانت تنقل مياه النيل إلى القلعة وبساتينها . . ومن الغرب مجرى سيالة جزيرة الروضة الذى يمتد بين شرق النيل ومنطقة جاردن سيتى الحالية .

العاصمة تتجه دائماً نحو الشمال

واللافت للنظر أن العاصمة كانت تتجه باستمرار نحو الشمال منذ كانت فى منف ـ البدرشين الحالية ـ ففى البداية الإسلامية نجد الفسطاط فى أقصى الجنوب كأول عاصمة إسلامية لمصر ، وهى أمام الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة .



بقايا حصن بابيلون آخر ما بقى من الآثار والمبانى الرومانية فى مصر .



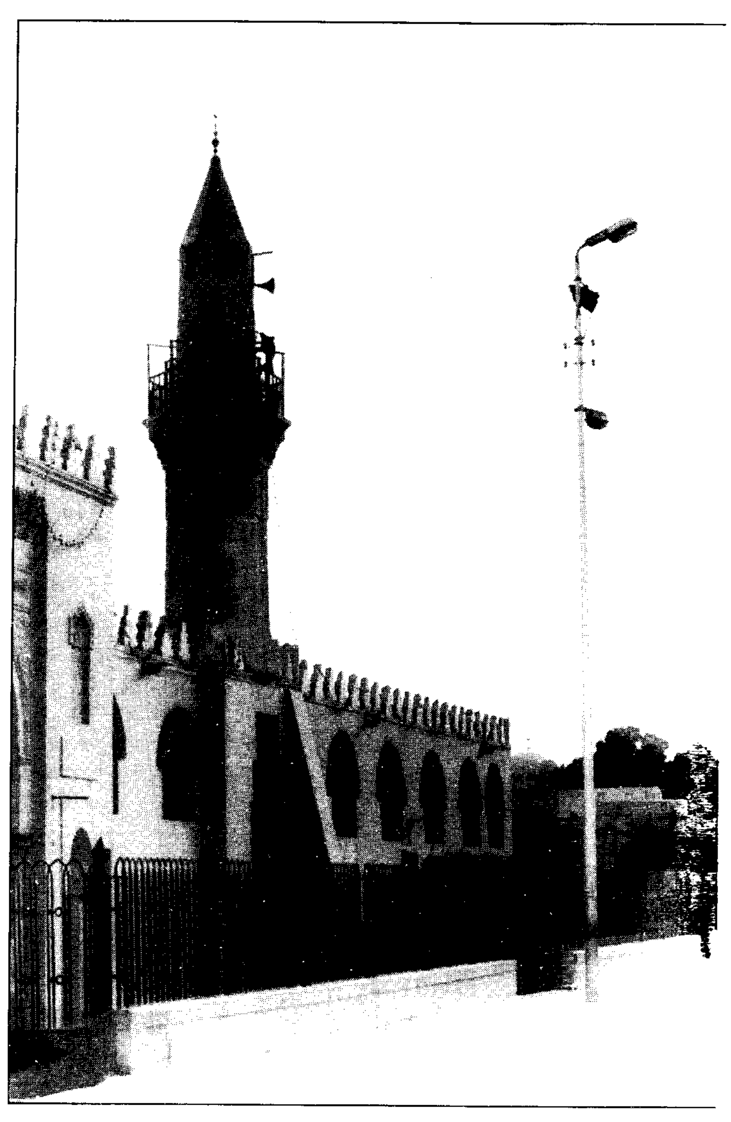
فى مصر القديمة الطريق المؤدى إلى المغارة التى اختبأت فيها العائلة المقدسة .



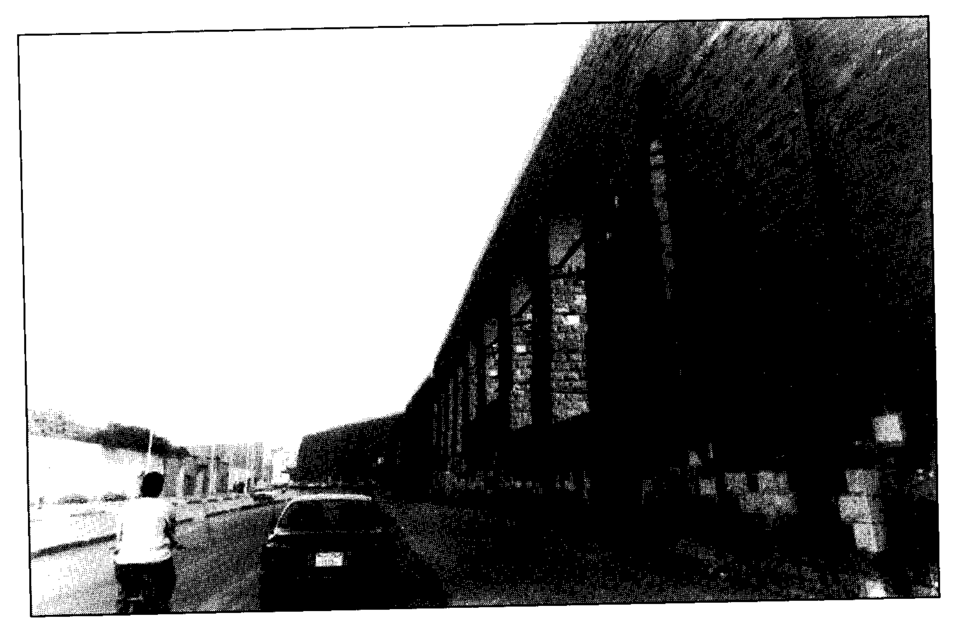
واجهة جامع عمرو بن العاص فى مصر القديمة ، الفسطاط سابقاً حيث أقيمت أول عاصمة لمصر الإسلامية .



صورة بانورامية لمسجد عمرو بن العاص الذى كان يتوسط مدينة الفسطاط ومازالت المئذنة القديمة
صامدة فى واجهة المسجد .



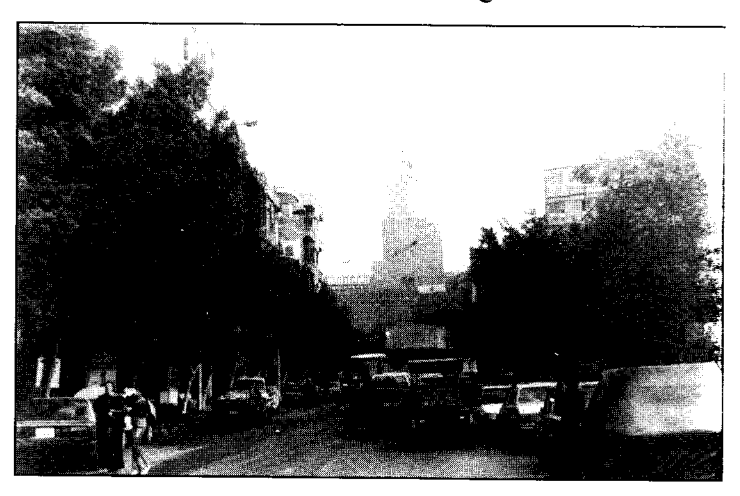
منارة جامع عمرو بن العاص تزين واجهة أول مسجد بنى فى أفريقيا .



مجرى العيون من بدايته عند فم الخليج كان يعتبر الحد الشمالى للفسطاط .



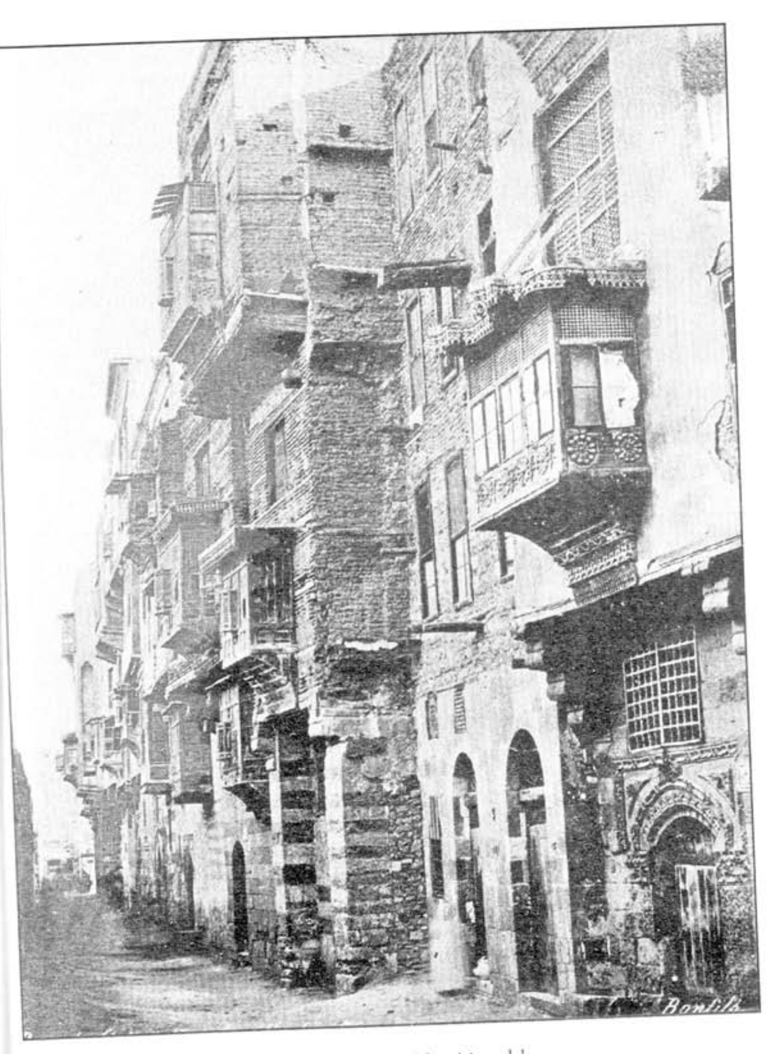
هنا كانت ـ وقامت ـ مدينة القطائع عاصمة أحمد بن طولون الذى استقل بمصر عن الدولة العباسية .



جامع ابن طولون بمنارته غير التقليدية التي أقامها نسخة من منارة مسجد مدينة سامراء أو « سر من رأى » في العراق .



إحدى غرف النوم فى فندق هليوبوليس قبل أن يتحول إلى مقر رسمى للحكم .



حى طولون وشارع الزيادة وبقايا المشربيات عام ١٨٧٠م .

ثم تحركت العاصمة شمالاً بإنشاء مدينة العسكر ثانية العواصم الإسلامية لمصر . .
ثم جاء التحرك الثالث عندما أنشئت مدينة القطائع شمال مدينة العسكر ، وجاء
التحرك الرابع شمالاً بإنشاء القاهرة الفاطمية .

وعلى الدارس أن يلاحظ أن التحرك نحو الشمال مستمر حتى الآن ـ فى العصر الحديث ـ وبداية هذا الاستمرار كانت مع إنشاء ضاحية مصر الجديدة ـ هليوبوليس ـ ثم عين شمس ، ثم مدينة نصر .

ويلاحظ أيضاً أنه منذ عصر الميلاد الأول ، كانت العاصمة الإسلامية بالقرب من النيل لضمان مصدر المياه . . ولكنها أخذت تتجه شمالاً باتجاه الشرق إلى حد ما ، ويتضح هذا فى القاهرة الفاطمية . . فهل كان ذلك لأن النيل نفسه كان بقرب الفسطاط قبل أن يتحرك غرباً . . وأن خط المدينة كان باستمرار ناحية الشمال ، ولكن النهر نفسه كان هو الذى يتجه غرباً ، ويغير مساره ؟!

وظهرت مشكلة . .

إذ كلما ابتعدت العاصمة عن النيل ، كان لابد من تدبير مصدر للمياه . فكان مرة الخليج المصرى . وكان أخرى الخليج الناصرى . وكانت ثالثة البرك التى انتشرت داخل هذه العواصم الأربع : الفسطاط . . العسكر . . القطائع . . القاهرة ، وكان مرة رابعة فى مجرى العيون ، الذى كان ينقل المياه من النيل ، عند فم الخليج إلى القلعة وسكانها من الحكام : ولاة . . أو سلاطين أو مماليك ، أو باشوات . .

ونصل إلى القاهرة : رابعة عواصم مصر الإسلامية . .

مصر الفاطمية .. و القاهرة

فقد نزل جوهر الصقلى قائد الجيش الفاطمى ، الذى فتح مصر باسم الخليفة الفاطمى الرابع : المعز لدين الله . . نزل الى ساحل الفسطاط وقت الزوال من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر شعبان سنة سبع وخمسين وثلثمائة . . نزل بحرى الفسطاط فى الأرض التى يوجد فيها اليوم الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى

وبين القصرين وما جاورها من الأماكن التى بين الجبل و الخليج . وكانت هذه البقعة رمالاً فيما بين مصر الفسطاط وعين شمس التى تسمى الآن بالمطرية . . ويمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس فيما بين الخليج المعروف فى أول الإسلام بمصر بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والخليج المعروف باليحاميم لمروره بجوارها . . . و اليحاميم هو اسم الجبل الأحمر الكائن شرق العباسية . وعندما نزل جوهر الصقلى بهذه الأرض الرملية لم يكن بها بنيان غير البساتين ، وأماكن قليلة منها بستان الإخشيد محمد بن طَغج المعروف بالكافورى . وكان هذا البستان شرقى الخليج ومحله الآن مابين جامع الشعرانى والسكة الجديدة « الموسكى » قريباً من قنطرة الموسكى، ممتداً من الجهه الشرقية إلى النحاسين ، وكانت مساحة هذا البستان ٣٦ فداناً .

بانى مصر .. رومى الأصل :

ولكن اللى بنى مصر لم يكن حلوانياً . . بل كان رومى الأصل !!

ذلك أن جوهر الصقلى هذا هو : أبو الحسن جوهر بن عبدالله القائد الرومى المعزى المعروف بالكاتب . وأصله مولى للمعز لدين الله أبى تميم معد العبيدى الفاطمى ، وكان من كبار قواد أستاذه المعز . ثم جهزه أستاذه المعز لفتح مصر بعد موت « الأستاذ» كافور الإخشيدى ، فملك جوهر مصر بعد حروب عدة . وتسلم مصر فى يوم الثلاثاء ١٨ شعبان ٣٥٨هـ . وفى جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ شرع جوهر فى بناء القاهرة و الجامع الأزهر ، فتم بناء الجامع فى رمضان ٣٦١هـ .

أما المعز ـ أستاذ جوهر الذى يعود أصله إلى جزيرة صقلية ـ فهو أبو تميم معد ابن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدى عبدالله الفاطمى المغربى الملقب باسم المعز لدين الله ، و الذى تنسب إليه القاهرة المعزية ، المولود بمدينة المهدية يوم الاثنين ١١ رمضان عام ٣١٩هـ . وبويع بالخلافة فى المغرب « وقد زرت وأسرتى مدينة المهدية هذه خلال زيارتى لتونس عام ٢٠٠٠ وهى مدينة صغيرة ، ولكنها جيدة

تخطيط ، هواؤها نقى فهى ساحلية تعيش على الصيد وتكثر فيها البساتين ، وتطل على البحر من كل جانب » . .

نهم أن المعز جاء من المغرب إلى مصر ، واستلمها من قائده جوهر ابن جزيرة صقلية فى شهر رمضان عام ٣٦٢هـ ، وهو أول خليفة من بنى عبيد « الخلفاء المعزيين» فى مصر .

ولمن لا يعلم كانت مساحة مدينة القاهرة عندما بناها جوهر الصقلى ٣٤٠ فداناً . منها ٧٠ فداناً بنى فيها القصر الكبير و٣٥ فدانا للبستان الكافورى ، ومثلها للميادين . ويكون الباقى ٢٠٠ فدان تم توزيعها على الفرق العسكرية للجيش الفاتح ، وتم تقسيمها إلى ٢٠ حارة توزع فيها جنود الجيش والقبائل التى أتت معه من المغرب ، وتم رسم هذه الحوارى العشرين بجانبى قصبة القاهرة ؛ أى شارع المعز لدين الله الآن .

وكانت القاهرة مدينة مربعة الشكل تقريباً ، ويصل طول ضلعها إلى ١٢٠٠ متراً !

●● ولم تكن القاهرة مدينة لعامة الشعب . بل كانت مقراً للحكام وللحكومة وقادة الجيش و الوزراء . بل لم تكن عندما أنشأها جوهر قاعدة أو داراً للحكم والخلافة . .

كان يقصد ـ فى بادئ الأمر ـ أن تكون سكناً للخليفة الفاطمى وحرمه وجنده وخواصه . ومكاناً يتحصن فيه ويلجأ إليه عند الضرورة . وكانت المدينة متواضعة كعاصمة للدولة وللخلافة الفاطمية . واستمرت فتره مجرد مدينة عسكرية تشمل فقط قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة ، وخزائن المال و السلاح . ولم تصبح عاصمة للخلافة الفاطمية إلا بعد إنشائها بأربعة أعوام ، عندما انتقل إليها المعز لدين الله وأسرته ، بل واصطحب معه بقايا جثث أجداده من المغرب ، واتخذ مصر موطناً له فى عام ٩٧٣م ـ ٩٨٣م .

ولم يكن لسكان مصر أن يدخلوا القاهرة ـ المدينة الملكية ـ إلا بإذن مكتوب يسمح لحامله أن يدخل إليها من أحد أبواب القاهرة .

بل كان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون للمشاركة فى الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم قبل أن يصلوا إلى القصر ، فيمرون بين صفين من الجنود . . . وهكذا كانت أسوار القاهرة وأبوابها المحروسة جيداً تحجب الخليفة عن الشعب . .

بناء القاهرة .. المحروسة

وفى يوم ٦ يوليو عام ٩٦٩م ، بدأ إنشاء القاهرة . اختط جوهر الصقلى موقع القصر الذى قرر إقامته لمولاه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، وذلك تنفيذاً لأوامر المعز . . وبنى جوهر سوراً خارجياً من الطوب اللبن على شكل مربع ، طول كل ضلع ١٢٠٠ متر . وكانت مساحة الأرض داخل هذا المربع حوالى ٣٤٠ فداناً . وخصص ٢٠٠ فدان لتوزيعها على الفرق العسكرية التى جاءت معه من المغرب ، وأخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تألف منها جيش جوهر « قطعة » أى «خطة » . فاتخذت قبيلة زويلة الخطه المعروفة باسمها إلى الآن حول باب زويلة . . وأخذت جماعة أو قبيلة البرقية القطعة أى الخطة التى تعرف للآن باسم الحارة البرقية واختطت الروم حارتين ، هما : البرانية و الجوانية بالقرب من باب النصر . .

كان ما بناه جوهر فى الأيام الأولى سوراً من اللبن جعله يدور حول قواته . . وجعل داخل هذا السور الجامع « الأزهر » و القصر ، وحفر خندقاً من الجهة الشمالية ليحمى قواته ومدينته من احتمال غزو القرامطة لمصر ، وكانوا ينافسون الفاطميين على الفوز بمصر .

وكانت القاهرة الأولى تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الذى أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط . ومن الشرق بموقع باب البرقية و الباب المحروق المواجهين للمقطم . ومن الغرب بموقع باب سعادة المطل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين ، وبعيداً عنه بحوالى ٣٠ متراً .

وقال المقريزى ـ فى خططه ـ إنه لم يبق من آثار هذا السور شىء فى عام ١٤٠٠م . وذكر أنه شاهد جزءاً طويلاً من هذا السور قائماً على بعد ٥٠ ذراعاً من السور ، الذى

..د صلاح الدين فى المنطقة الواقعة بين باب البرقية ودرب بطوطة حتى دمرت عام ١٤٠٠ ـ ١٤٠١م .

كان هذا إذًا هو السور الأول الذى أقيم حول القاهرة .

أما السور الثانى للقاهرة ، فقد بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر .. ضمى عام ١٠٨٧م خارج السور الذى بناه جوهر ، وليس على أساسه ، وكان سور ح.. من اللبن للجدران ، ومن حجر منحوت للأبواب و الأبراج .

والسور الثالث بدأ إقامته صلاح الدين الأيوبى عام ٥٦٦هـ ، عندما كان وزيراً ..خليفة العاضد لدين الله ، آخر الخلفاء الفاطميين . فلما استولى صلاح الدين على حكم عام ٥٦٩هـ ـ ١١٧٣م ـ ١١٧٤م ، وصار سلطاناً ندب للعمل فى السور ..شى بهاء الدين قره قوش الأسد . فبناه بالحجارة كما عرف عنه . . وبدلاً من أن ..يط القاهرة وحدها بهذا السور ، قرر أن يحيط به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط . . ..كن صلاح الدين توفى قبل أن يتم كل ذلك .

●● وكان للقاهرة ٨ أبواب ، لكل جانب من أجنابها الأربعة بابان .

ففى الجنوب باب زويلة وكان فى الأصل بابين بنتهما قبيلة زويلة ، وهى من قبائل .. ، وكان البابان عند مسجد ابن البناء ثم باب الفرج . .

وفى السور الشمالى : باب النصر ، وباب الفتوح بجوار مسجد الحاكم بأمر الله آخر .. المعز الآن . .

وفى الجهة الشرقية كان هناك باب القراطين المحروق وباب البرقية ، وكانا يطلان على .. مقطم . .

.. فى الجهه الغربية أى فى الجهة المطلة على الخليج الكبير ، فكان هناك باب سعادة .. أبواب السوق الغربى ، وباب القنطرة أو الجسر . .

..ن أصبحت حدود القاهرة تمتد مع مجرى النيل حوالى ٤٠ كيلو متراً من حلوان .. فم ترعة الإسماعيلية فى شبرا الآن شمالاً !!

وحتى نعرف حجم هذه الأسوار والأعمال على حقيقتها ، نقول إن بدر الجمالى هدم السور الغربى عام ٤٨٦هـ ، وبنى سوراً جديداً عرضه ١٠ أذرع ، وبلغت مساحة القاهرة عندها ٤٠٠ فدان أى أضاف الجمالى للقاهرة ٦٠ فداناً .

وعندما شرع صلاح الدين الأيوبى فى بناء سوره عام ٥٦٦هـ ، كان هدفه إحاطة القاهرة ومصر أى الفسطاط والقلعة ، بهذا السور ، وبناه بالحجارة ـ بسبب تطور الأسلحة ـ وجعل خلفه خندقاً وبلغ طول السور الذى بناه ٢٢ ألف متر أى ٢٩٣٠٢ ذراعاً .

وبقيت القاهرة هكذا إلى عام ١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م عند وصول حملة بونابرت . . فقاسوا سور المدينة فوجدوه ٢٤ ألف متر . وبه ٧١ باباً ، منها ما هو داخل القاهرة فى السور القديم ، ومنها ما هو فى السور المحيط بها . ولم تتغير مساحة القاهرة فى القرن التاسع الهجرى ، وإن ظل أطول شوارعها هو ذلك الواصل بين بوابة الحسينية ، إلى بوابة السيدة نفيسة وطوله ٤٦١٤ متراً . وكانت مساحة المدينة القديمة بما فيها الميادين و الحارات و الشوارع و المبانى ١٩٤٨ فداناً ، منها ١٧١٦ فداناً هى المساحة المشغولة بالمبانى و المنازل ، ومنها ٢٣٢ فداناً مشغولة بالشوارع والحارات والميادين .

●● وهنا يجب أن نصحح خطأ يقع فيه الناس ؛ ففى منطقة الموسكى عند تقاطعها مع شارع بورسعيد « الخليج المصرى » كان هناك شارع يطلقون عليه خطأ : شارع بين الصورين . . بينما الصواب هو بين السورين ؛ لأن الشارع بوضعه الحالى يقع بين السورين: القديم الذى بناه بدر الجمالى والسور الأخير الذى بناه صلاح الدين الأيوبى ! !

وأصبحت القاهرة .. مدينة للشعب

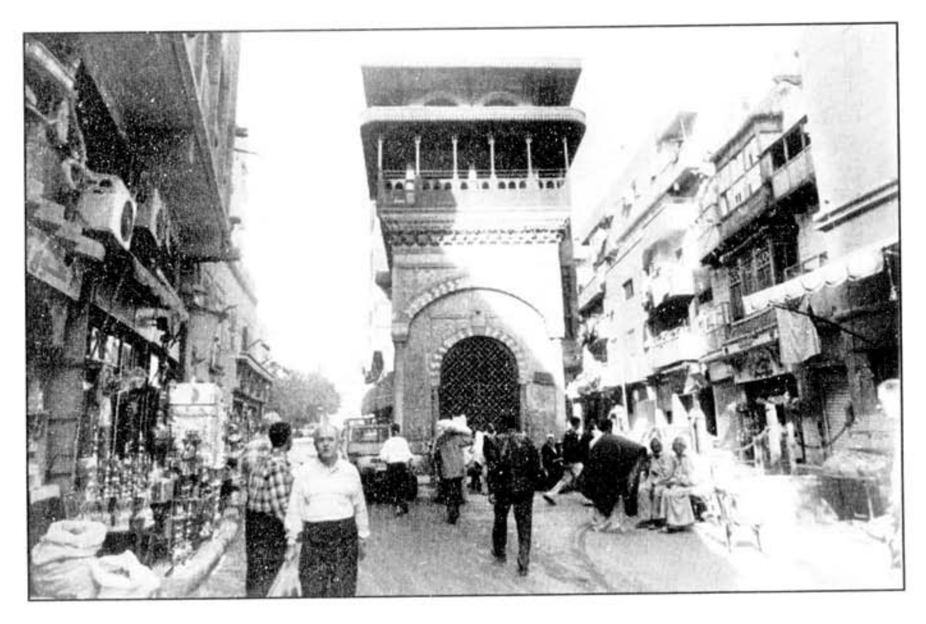
عرفنا إذًا أن القاهرة لم تكن مدينة للعامة ، أو للشعب ، بل كانت مدينة للحكام . . للسلاطين وجنودهم وقوادهم . بينما كانت الفسطاط هى المدينة الشعبية أو هى العاصمة الفعلية وذلك خلال الحكم الفاطمى . . وكانت القاهرة هى المدينة الحصن التى يتحصن بها الحاكم ، ولهذا حصنوها وبنوا حولها الأسوار وأقاموا الأبواب



مجموعة قلاوون بشارع المعز تزين الشارع التاريخى .



شارع النحاسين أحد أجزاء شارع المعز لدين الله .



سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا من أجمل أسبلة القاهرة كلها أقامه عاشق الآثار الإسلامية الذى رمم
وأحيا معظم المبانى الإسلامية ، وفى مقدمتها الجامع الأزهر .

والأبراج . ولم يسكن الناس بالقاهرة إلا فى أواخر الحكم الفاطمى ، عندما ضعفت سلطة الخلفاء . وعندما انتهى حكم الفاطميين ، سمح صلاح الدين والأيوبيون للناس بالإقامة فيها والبناء . وأخذ رجال الدولة يبنون حولها البساتين والقصور . وبمضى الزمن بنى الناس فى الفضاء ، وفى أرض البساتين ، وحول البرك والأراضى التى انسحب منها النيل واتجه غرباً . . وهكذا أخذت القاهرة فى الاتساع . .

وربما يكون الناصر محمد بن قلاوون هو أكبر المنشئين بسبب حبه للبناء . وسمح للناس بأن يقيموا بيوتهم حول الخليج الناصرى ، الذى حفره قلاوون حتى أصبحت القاهرة فى عصره ، يحدها جبل المقطم من الشرق إلى المطرية . . إلى أثر النبى جنوباً . . وكثرت البساتين حول القاهرة ، وعمرت بالميادين شمالاً مثل منية السيرج وشبرا .

●● وقسمت القاهرة ـ مثل الفسطاط ـ إلى أثمان وأخطاط ، وكل خطة تحتوى على شوارع ، والشوارع بها دروب وحارات وعطف ، وأغلب الحارات والعطف غير نافذة إلا إلى الدرب ؛ أى كانت القاهرة عبارة عن عدة قرى متلاصقة .

وكانت القاهرة فى أواخر أيام المماليك مدينة غير نظيفة ، وكانت القاذورات تلقى بجوار الحارات ، وعلى أبواب الأزقة . وما ينشأ عن الهدم يلقى بجوار باب المدينة ليصير تلالاً ، إذا نسفتها الرياح تكون منها فوق المدينة سحابة تراب كريه الرائحة . فتنتشر الأمراض : المجذوم والأبرص والمجدر والأعمى ، وكانت المدينة محاطة بالتلال ضيقة المسالك ، مبنية على غير انتظام لا تدخلها الشمس ولا الرياح ، فانتشرت الأمراض .

كانت القاهرة مدينة بلا صحة !! وكانت المقابر تنتشر وسط المدينة : مقبرة السيدة زينب و القاصد . بل دفن الناس موتاهم أحياناً فى منازلهم ، وفى المدارس والمساجد. .

وكان لكل حى ، أو منطقة نشاطها التجارى . .

فكان أكثر ما يباع فى الجمالية ما يرد من بلاد الشام و الحجاز وحضرموت ، وكان يباع فى الحمزاوى الجوخ و الحرير وما يرد من الهند وبلاد الإفرنج ، وكان خان الخليلى يباع فيه ما يرد من تركيا .

أما المأكولات و العطارة فكانت تنتشر فى كل المناطق .

وكان لأهل البلد أسواق وقتية ، كل سوق فى يوم معين : سوق الجمعة . . الاثنين . . الخميس ، ومنها ما يكون كل يوم « بعد العصر » كسوق العصر . .

كانت إذاً الصوره قائمة كما قدمها لنا على باشا مبارك للقاهرة فى خططه التوفيقية فى أواخر العصر التركى المملوكى . وكانت القاهرة ـ فى هذا العصر ـ مقسمة إلى ٦٣ حياً أو حارة ، وكانت لكل حارة أو حى بوابة تتقدم مدخل الشارع المؤدى إليها ، وظل باب حى المبيضة الذى أنشئ عام ١٠٨٣هـ ـ ١٦٧٣م قائماً حتى أواخر القرن ١٩ .

وكان لكل حى شيخه الذى كان كثيراً ما يكون هو شيخ الطائفة الحرفية نفسه التى تسكن معظم أجزاء الحى . . وكانت وظيفة شيخ الحارة هى واسطة الاتصال بين السلطة والشعب . ومن ثم إذا حدثت أزمة ولتكن حول الأسعار أو التموين ، كان الباشا أى الوالى العثمانى يفوض أغا الانكشارية لحل الأزمة ، فكان يعقد الاجتماعات لشيوخ الطوائف الحرفية ، ويتفق معهم على إعداد قائمة بالأسعار المقترحة . . وكان دور شيوخ الحرف هو إقناع أبناء الحرفة التابعة لهم على السير على ما تم الاتفاق عليه مع السلطة .

القاهرة .. أيام بونابرت

ونصل بالعاصمة المصرية إلى الصورة التى كانت عليها القاهرة أيام الحملة الفرنسية ، التى غزت مصر بقيادة بونابرت عام ١٧٩٨م . .

كانت القاهرة باستثناء بولاق ومصر القديمة لا تزيد مساحتها على ٧٣٠ هكتاراً . والهكتار مقياس فرنسى يساوى ١٠ آلاف متر . وبداخل هذه المساحة كانت توجد مناطق واسعة خالية من البناء مثل البرك ، التى كانت تغمر بالمياه وقت فيضان النيل ، وتصبح بقية العام أراضى واسعة معشبة ومتربة . و كانت أكبرها بركة الأزبكية وكانت مساحتها ١٩ هكتاراً ، وبركة الفيل ومساحتها ١٤ هكتاراً . وكانت البساتين المنتشرة

.. ت فى الجانب الغربى لخليج أمير المؤمنين ١٦,٤ هكتار ، والمقابر غرب المدينة
. تى كان عدد كبير منها يستخدم للدفن حتى أيام الحملة الفرنسية وكانت مساحتها
. ٣ هكتار ، بالإضافة إلى الميادين والرحاب الواسعة فى سفح المقطم مثل الرميلة وقره
ميـ ن «ميدان القلعة» ١١,٥ هكتار . . ويبلغ مجموع مساحة هذه المواضع نحو ٧٠
هكتاراً .

وبذلك . . فإن المناطق المبنية بالفعل داخل القاهرة كانت تبلغ ٦٦٠ هكتاراً تحوى
الشوارع والأزقة وبعض الرحاب والخليج . وكان حى الحسينية ٢٦ هكتاراً بنسبة . .
. ٣٪ من المساحة الكلية ، بينما كانت القاهرة الفاطمية مساحتها ١٥٣ هكتاراً بنسبة
. ٢٣٪ . . وكان الحى الجنوبى الممتد من باب زويلة حتى طولون ٢٦٦ هكتاراً أى
. ٤٠٪ من المساحة الكلية ، بينما كان الجزء الواقع فى البر الغربى للخليج مساحته
٢١ هكتاراً أى ٣٢,٦٪ . .

وكان أكثر أحياء القاهرة نشاطاً أيام الفرنسيين هى الأحياء الواقعة داخل الحدود
الفاطمية ؛ أى المنطقة التى تحتوى الأسواق الرئيسية وأكبر عدد من الوكالات وأكبر
تكدس للمنشآت الدينية وذات الطابع الاجتماعى . وأصبحت المناطق المتاخمة لبركة
الفيل هى الحى الرئيسى لسكن الأرستقراطية القاهرية فى العصر العثمانى . وكان
الشاطئ الأيمن للخليج الذى تحده القاهرة الفاطمية من الشمال وحى القلعة من الشرق
بين سنتى ١٦٥٠م و ١٧٥٠م هو المكان المفضل لسكنى الغالبية العظمى من بكوات
وأمراء القاهرة .

ميادين القاهرة

ما زالت الدولة الفاطمية كان فى القاهرة ١٠ ميادين ، وبقيت كذلك خلال
العصرين الأيوبى والمملوكى ، ولكن فى آخر العصر العثمانى ـ المملوكى لم يكن بالقاهرة
سوى ميدانين ، هما : ميدان الأزبكية فى غرب القاهرة ، وميدان قره ميدان فى قبلى
القاهرة ، تحت قلعة صلاح الدين . ويقول المقريزى إنه فى آخر هذا العصر انعدمت
الميادين التى كانت تصل إلى ٤٩ ميداناً ورحبة . .

ولما سمح للناس بالبناء خارج القاهرة ، اتجه الناس للبناء فى البساتين التى كانت موجودة خارج القاهرة من جهاتها القبلية والغربية والبحرية . وكانت هذه المناطق عبارة عن قصور وبساتين تتخللها الميادين .

●● ففى الجهة القبلية ، كان هناك ميدان ابن طولون وميدان الملك العادل أمام قلعة الكبش على بركة الفيل . وميدانا الناصر محمد بن قلاوون . . الأول المعروف بميدان المهارة ، والآخر المعروف بالميدان الناصرى . وكانا فى الأرض الواقعة تجاه قصر العينى و القصر العالى ، كما يقول على باشا مبارك .

●● وفى الجهة البحرية كان هناك ميدان قراقوش ، الذى يوجد فى بعض مساحته جامع الظاهر بيبرس .

ولما صارت مصر ولاية عثمانية ، احتكر الناس أرض البساتين والميادين والرحب ، وبنوا فيها . ولما تولى محمد على باشا حكم مصر بدأ تنظيم الحارات و الشوارع القديمة ، وفتحت الشوارع والحارات وعملت الميادين الجديدة ، فصار فى القاهرة وخارجها ١٦ ميداناً .

وكانت القاهرة تحت حكم الحملة الفرنسية عليها بوابات على الدروب والحارات والعطف . وكل بوابة كانت تغلق عند العشاء ، ينام خلفها بواب بأجرة من أهلها . ولا يتأخر أحد بعد العشاء إلا للضرورة مع تنبيهه على البواب حتى إذا حضر يفتح له . . وكان الأهالى يصفحون الأبواب بالحديد ، ويسمرونها بالمسامير الكبيرة ، ويجعلون بأكتاف الباب السلاسل المتينة . ويجعلون للباب الضبة والضبتين فى الخارج والداخل . ويزيدون من الداخل الترباس وهو خشبة طويلة ينقرون لها بالحائط نقراً تبيت فيه ، وكانوا يتفننون فى الحيل لمنع الضبة من الفتح بعمل الدواسيس وشق المفاتيح ووضع السواقط .

ولم يكن هناك طراز معين للبيوت . وكان الناس يبنون على هواهم . كل حسب حاجته ، ووجاهته . مثلاً كان بيت الشرقاوى مساحته ٤ أفدنة « ١٧ ألف متر » وكثيراً

ـ كان موجوداً مثله فى سوق السلاح . وسويقة العزة . . وفى منطقة عابدين .
ولأسف تحولت تلك البيوت الكبيرة إلى أحواش يسكنها العامة . وأغلب الأحواش
صلها بيوت فاخرة دمرتها الأحداث ، وكان فيها أماكن لتخزين الحاصلات
خبوب . . والاصطبلات ، وكان بكل بيت بئر أو ساقية ، وكان به أيضاً الطاحونة
لتجهيز الحبوب وطحنها . .

خنادق .. تحمى القاهرة

ولأن المدينة كانت هى الحصن الذى يتحصن داخله الحاكم ، كانت القاهرة أيام
معز لدين الله الفاطمى تحيط بها ٣ خنادق .

* خندق فى الناحية القبلية وهو الذى حفره عمرو بن العاص ، وكان شرقى قبر
الإمام الشافعى .

* وخندق اليحاميم وأوله الجبل الأحمر المسمى باليحاميم .

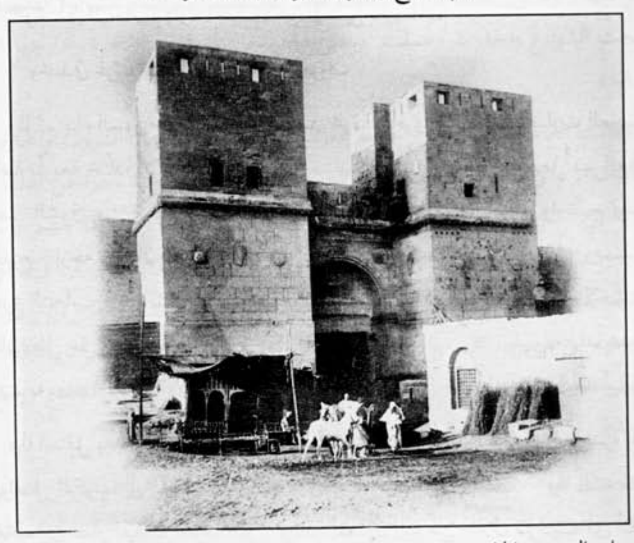
* وخندق غرب المدينة وهو الخليج المعروف .

ولما تم بناء السور حولها تم حفر الخندق الرابع بحرى القاهرة ، فصارت العاصمة
محصنة بأربعة خنادق . وأدخل فى السور بستان الإخشيد وميدانه ، وجعل دير العظام
والقصر الشوق من ضمن القصر الكبير ، فكان البستان بين القصر والخليج وصار
الخليج خارجه . وكان البستان كبيراً جداً ومحله الآن حارات اليهود والخرنفش ويمتد إلى
سوق النحاسين . وأنشأ هذا البستان الأمير أبوبكر بن محمد بن طغج ابن الإخشيد ،
وكان يطل على الخليج واعتنى به وجعل له أبواباً من حديد . وكان يقيم به أياماً عدة ،
وعنى به بعده أولاده : الأمير أبو القاسم والأمير أبو الحسن على أيام إمارتها بعد أبيهما .

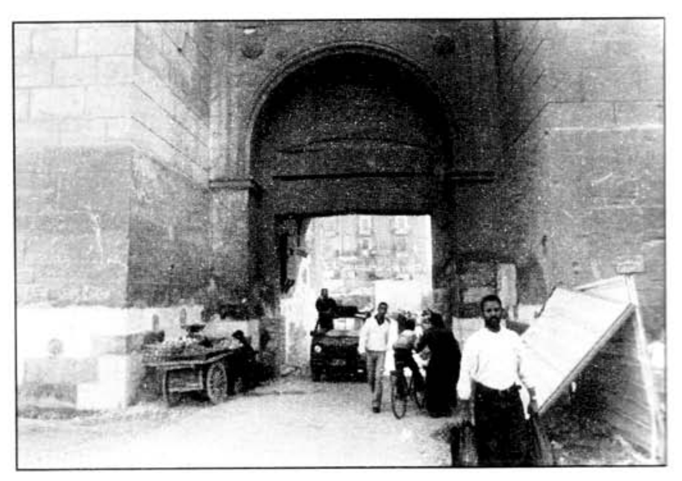
ثم استقل بعدهما بحكم مصر أبو المسك كافور الإخشيدى كان كثيراً ما يتنزه به .
ويكثر من الركوب إلى الميدان الذى به ، وكانت خيوله بهذا الميدان . ولما آلت مصر
للفاطميين صار الميدان متنزها لهم ، وكانوا يصلون إليه من خلال سراديب أى أنفاق



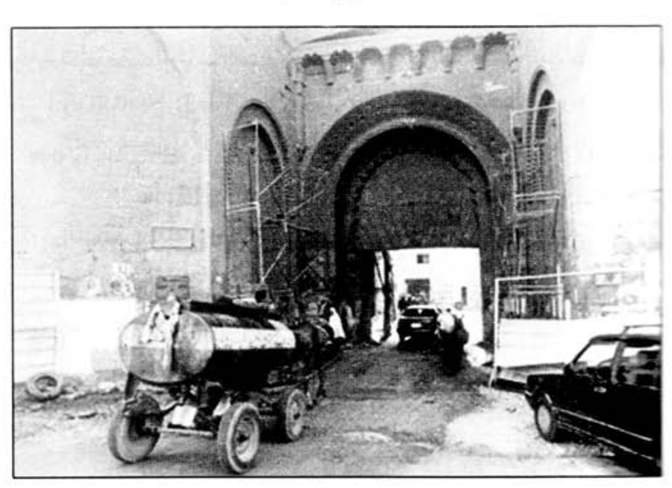
باب الفتوح فى القرن ١٨ بريشة باسكال كوست .



باب النصر من الخارج من ناحية الحسينيه كما كان يبدو خلال الحملة الفرنسية على مصر



باب النصر من داخل القاهرة الفاطمية بينما فى الخارج تبدو بدايات حى الحسينية حيث كانت تعود الجيوش المنتصرة .



باب الفتوح تحول إلى باب لخروج السيارات وعربات الكارو إلى الحسينية بعد أن كان باباً لخروج الجيوش للفتح . . وظل باب النصر باباً للدخول إلى القاهرة وكان طريقاً لعودة الجيوش المنتصرة .

مبنية تحت الأرض ينزلون إليها من القصر الكبير ، ويسيرون فيها بالدواب ـ تخيلوا ـ إلى البستان ومناظر اللؤلؤة بحيث لا تراهم الأعين ، فلما زالت الدولة الفاطمية حكر هذا البستان وتجددت فيه المبانى عام ٦٥١هـ . .

أبواب القاهرة ..

مادامت هناك أسوار . . كان لابد من وجود أبواب رئيسية على هذا السور أوذاك .

فقد كان بالسور الذى بناه جوهر الصقلى عند بناء القاهرة عدة أبواب . كان فى الجهة البحرية باب النصر القديم ، وكان بجوار زاوية القاصد ، وباب الفتوح القديم وكان بجوار حارة بين السيارج التى فى خارج الباب ، وكان مكان جامع الحاكم بأمر الله خارج السور . .

وكان بالجهة القبلية بابان متلاصقان يسميان بابى زويلة : أحدهما بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين ، والآخر بجواره . وكان أحدهم وهو المجاور للزاوية المذكورة يسمى باب القوس ، وهو الباب الذى دخل منه المعز عند قدومه إلى مصر ، واستعمل الناس هذا الباب وهجروا الباب الآخر ولهذا تمت إزالته .

●● وفى الجهة الشرقية كان هناك الباب المحروق القديم ، وكان فى غير موضعه الجديد . . وباب البرقية وكان خارج حارة البرقية التى اختطها جماعة من أهل برقة وهى التى تعرف الآن بالدراسة . وبقرب موضعه اليوم الباب المعروف باسم باب الغريب ، وكان هناك باب ثالث يغلب على الظن أنه كان بين هذين البابين .

●● وفى الجهة الغربية كان هناك باب سعادة ومحله بجوار الحد القبلى لسراى الأمير منصور باشا ، بقرب جامع إسكندر الذى هدم ، وتحول إلى ميدان أمام منزل منصور باشا . وكان هذا الباب على رأس زقاق هدم بين ما هدم من الأبنية لإنشاء هذا الميدان . وكان هذا الزقاق من درب سعادة . وباب آخر يسمى باب القنطرة لكونه بنى فوق القنطرة ، التى بناها جوهر الصقلى على الخليج ليمر منه الناس من باب مرجوش إلى

باب الشعرية ، ثم هدم بعد عام ١٢٧٠هـ لخلل وقع به . . وكان هناك باب ثالث يعرف بباب الفرج تمت إزالته وكان موقعه بعد حمام المؤيد وبجواره . وباب رابع يعرف بباب الخوخة كان بشارع قبو الزينية ومحله أمام جامع الشيخ فرج .

محمد على .. و القاهرة المحروسة

عانت القاهرة الكثير ، وزادت حالتها سوءاً سنوات عديدة ، حتى قبل وصول قوات بونابرت إلى القاهرة ، بسبب الصراع الرهيب بين إبراهيم بك ومراد بك اللذين كانا يتنافسان على السلطة فى مصر ـ بسبب ضعف الوالى ، أو الباشا التركى . . وبالتالى لم يكن أحد يفكر فى تطوير القاهرة ، أو يواجه مشاكلها الصحية والتعميرية . وجاءت حملة بونابرت عام ١٧٩٨م ، ورغم من رافقها من علماء وأطباء ومهندسين . . . إلا أنه بسبب الحروب والثورات لم تنعم القاهرة بشىء يذكر من التعمير و التطوير . واستمر هذا الوضع ما يقرب من عشرين عاماً بسبب الصراع ومحاولة الاستيلاء على السلطة ، إلى أن تمكن محمد على باشا من السيطرة على الأمور عام ١٨٠٥م . ولكن محمد على عانى الكثير بسبب ثورات الجند ، ومعاركه مع المماليك . ولكن لأن الرجل كان له مشروعه الطموح لتطوير البلاد فى كل المجالات ، بدأ يعيد النظر فى عاصمة بلاده ، وربما يكون قراره عام ١٨١٦م بعمل حصر للمبانى الآيلة للسقوط ؛ تمهيداً لهدمها محافظة على الأرواح ، هو أول قرار للاهتمام بالقاهرة .

فقد أمر محمد على فى ذلك العام بهدم المساكن والدور التى يخشى من تهدمها ، وأن يعاد تعميرها ، خاصة عند بركة الفيل وجهة الحبانية وبولاق على النيل . كما أمر فى السنة التالية بكنس الأسواق ومواظبة رشها بالماء ، وإيقاد القناديل على أبواب البيوت . وأن يخصص لكل ثلاثة حوانيت قنديل ، وكان محتسب القاهرة يتابع تنفيذ هذه الأوامر بنفسه .

وابتداء من عام ١٨٢٠م ، بدأت أعمال نظافة عامة فى المدينة ، انعكست على الصحة العامة ، حيث ندرت الأوبئة بعد هذه السنة ، ويعد الوباء الذى حدث عام

١٨٣٥ استثناءً من ذلك . ومن أجل ذلك عمل محمد على باشا على تركيز الصناعات الأساسية التى بدأ بإدخالها فى منطقة السبتية شمال شرق بولاق . كما أزال الأنقاض التى كانت تحيط بالقاهرة فى شمالها ، وفى غربها ، والتى كانت تعد مواطن للقاذورات ، والتى كانت تحمل سمومها إلى المدينة عند هبوب أى عاصفة ، وتمكن باستخدام الأتربة المنقولة من هذه الأنقاض أن يبدأ فى عام ١٨٢٧م فى ردم كثير من البرك ، التى كانت تنتشر فى القاهرة . .

وفى عام ١٨٢٩م أزيل الكثير من التلال « الكيمان » التى كانت ملاصقة للنيل شمال قصر العينى ، والتى كانت تعرف باسم : تل العقارب ، ولاحظوا الاسم الذى كان يدل على مدى خطورة هذه التلال ، وكانت مساحتها حوالى تسعة أفدنة . . كما تمت إزالةالتلال الواقعة بين حى الناصرية ومنطقة جاردن سيتى الحالية ، وكانت مساحتها ٣٨ فداناً وتمت زراعتها بأشجار الزيتون . وكانت هناك تلال بجوار قنطرة الليمون «كوبرى الليمون فى باب الحديد حالياً » وكانت تسد الطريق إلى شبرا ، وتم تحويل هذه المنطقة إلى متنزه .

واستمرت أعمال تعمير وتجميل القاهرة فى عصر محمد على ، ففى عام ١٨٣١م صدرت الأوامر بتعمير أراضى الخرائب سواء كانت مملوكة للأفراد ، أم موقوفة ، وذلك بعد أن يتم تحديد مساحتها .

على أن أول عمل منظم لتجميل القاهرة وتعميرها بدأ عندما أصدر محمد على يوم ٨ ذى الحجة عام ١٢٥٩هـ ـ ديسمبر ١٨٤٣م أمراً بإنشاء مجلس للإشراف على تزيين وتجميل القاهرة ، وتعديل طرقها ، أسوة بما حدث فى الإسكندرية . . أى إن تجميل الإسكندرية كان سابقاً على تجميل العاصمة !!

المهم كان مجلس تجميل القاهرة مؤلفاً من :

١ـ رشيد أفندى مفتش الأبنية الأميرية .

٢ـ لينان دى بلفون مهندس القناطر . .

ـ المهندس مصطفى بهجت رئيس قسم الهندسة بديوان المدارس ، وهو من أوائل المهندسين المصريين ، الذين أوفدهم الباشا ضمن البعثات العظيمة التى أوفدها إلى أوروبا .

ويذكر لمحمد على باشا أن فى عهده بدأ ترقيم وتسمية شوارع القاهرة ، وذلك عام ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م ، بصدور الأمر الصادر بذلك إلى « مجلس تنظيم المحروسة » . . التى كان بجوار لجنة تجميل القاهرة ، كان هناك « مجلس تنظيم المحروسة » ؛ أى هو البداية الحقيقية لإدخال نظام البلديات إلى مصر .

وفى العام نفسه ـ ١٨٤٧م ـ بدأت عمليات واسعة لتطوير وتعديل شوارع المحروسة . وبدأ هذا العمل التعميرى بتوسيع شارع من باب الحديد إلى الظاهر ، وهو الذى يوصل الى طريق السويس ، وكذلك بدأت أعمال توسيع شوارع درب الجماميز . . . خلق . . المشهد الحسينى . وتم غرس الأشجار فى هذه الشوارع وغيرها ، وتمهيد طريق عصرى بين مصر (!!) وشبرا ليصبح هذا الشارع أجمل شوارع المحروسة ، إذ تم شقه وتمهيده فى خط مستقيم ليصبح أوسع شوارع مصر ، وأكثرها استقامة ، وكان يصل بين العاصمة وقصر محمد على فى شبرا . وعلى جانبيه تم غرس أشجار الجميز . . . ، مع تعيين عمال مهمتهم رش الشارع بالمياه مرتين فى اليوم ، لأنه أصبح أجمل طريق نزهة فى مصر كلها .

وفى العام نفسه « ١٨٤٧م » بدأ ردم مساحات من بركة الأزبكية تمهيداً لتحويلها إلى . . . ، كما غرست الأشجار على حافتى طريق الرميلة وقره ميدان تحت القلعة .

وقبل ذلك بعام أى فى ١٨٤٦م ، أصدر محمد على باشا أمراً إلى ديوان المدارس فى ٩ ربيع الثانى ١٢٦٢هـ يقول « حيث إنه سبق التنبيه بتوسيع أزقة وفتح شوارع الموسكى ، وقطع كوم الشيخ سلامة وشارع بولاق ، وفم الخليج ، وشارع القلعة ، وغير ذلك من الشوارع اللازم فتحها وتوسيعها لراحة العباد من ضيق الأزقة وتزيين البلدة . . لذلك

يلزم شراء الأماكن التى تدخل فيها من أربابها وخصم أثمانها من جانب الميرى !! أى نزع ملكيتها وتعويض أصحابها عنها . .

وكان لمحمد على باشا فضل التفكير فى السكنى على شط النيل ؛ فقد أقام لابنته زينب قصراً كبيراً هو قصر النيل الذى حوله الوالى سعيد باشا بعد هدمه وتطويره الى قصر فخم ، أصبح بعد ذلك مقراً للجيش ؛ أى ثكنات قصر النيل التى ظلت باقية إلى أن تم هدمها فى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين ؛ ليقام مكانها فندق هيلتون النيل ومقر جامعة الدول العربية ، ومبنى الاتحاد الاشتراكى . . . وهكذا .

ثم يأتى دور إبراهيم باشا القائد العظيم ابن محمد على ، الذى طلب من المهندس بونفور إزالة الأكوام والأنقاض الواقعة بين النيل وبولاق ومصر والفسطاط ، وطلب منه إنشاء متنزهات خاصة مكانها ، فتجلت الرياض الفيحاء تزينها الأشجار الباسقة ـ كما يقول على مبارك فى خططه ـ واختفت تلال حى الناصرية والظاهر والفجالة ؛ وكانت تلقى الأنقاض فى البرك المجاورة مثل بركتى الرطل والطبالة وغيرهما ، حتى تخلصت القاهرة من هذه البرك ، وحلت محلها البساتين والمزارع ، وجفت أكثر البرك والمستنقعات التى كان الفيضان وعدم العناية بها يحولها إلى مستنقعات تضر بالصحة العامة .

القاهرة الحديثة .. من صنع إسماعيل :

من المؤكد أن « مصر المحروسة » تدين بتحديثها وتطويرها إلى الخديو إسماعيل . فهو بحق صاحب الطفرة الهائلة ، التى عاشتها العاصمة على مدى قرن كامل . .

إذ عندما تولى إسماعيل حكم مصر فى ١٨ يناير ١٨٦٣م بعد وفاة عمه سعيد باشا ، هاله ما انحدرت إليه حال البلاد ، بل وأحزنه أن يجد عاصمة بلاده لا تزيد على مدينة صغيرة تمتد من سفح المقطم والقلعة ، وتنحدر غرباً لتنتهى عند ميدان العتبة الخضراء ، وتحيط بها ، وتتخللها ، مجموعة من الخرائب والمستنقعات ، وأحزنه توقف عجلة الإصلاح التى بدأت فى عهد جده محمد على ، بل التى أفنى فيها حياته .

كانت القاهرة تبعد عن شط النيل بأكثر من أربعة كيلومترات . . تكثر فيها البرك والمستنقعات والهضاب والتلال . فى المنطقة ـ من ميدان العتبة الحالى إلى شاطئ النيل عند بولاق ـ وكانت تلك البرك مصدراً خطيراً للناموس ، حتى أن الملاريا ضربت العاصمة فى السنة الأولى من حكم إسماعيل ، وفتكت بالكثير من السكان . .

لم يكن بالقاهرة أى نظام لتوزيع مياه شرب صحية ، ولا أى نظام للصرف الصحى . وكانت المخلفات تجمع فى المجارير فتتسرب مياهها إلى البرك ، التى يحصل منها سكان العاصمة على المياه !! فساعد ذلك على انتشار التيفود وأنواع عديدة من الأمراض . وكانت هذه المجارير كثيراً ما تطفح فى الشوارع و الحوارى ، عندما يرتفع منسوب الفيضان فى شهور الصيف . وارتفع منسوب المياه الجوفية مما هدد البيوت بالانهيار . وكانت تحيط بالقاهرة حقول الفجل عند شمال القاهرة « باب الحديد » حيث المحطة . . وكانت المقابر تحيط بالقاهرة ، بل تتخلل أحياءها . . وكانت التلال تحد المدينة من الغرب ، أما الجهة الجنوبية فكانت هناك بقايا وخرائب مصر العتيقة والفسطاط وتلال زينهم .

كانت إذًا مهمة صعبة أمام إسماعيل ، الذى كان يحلم بأن تصبح عاصمة ملكه هى باريس الشرق . . بعد أن عاش ودرس فى باريس الأصلية عاصمة فرنسا . .

وكان مشروع تحديث مصر المحروسة يقوم على ٧ قواعد ، حتى أنه أطلق عليه اسم « المشروعات السبعة » ؛ لأنه كان يحتوى على ٧ مشروعات حيوية .

كان المشروع الأول هو « تحويل مجرى النيل » ، وبمعنى أدق تثبيت مجرى النيل عند القاهرة . . إذ كان المجرى الرئيسى يمر فى الجهة الغربية محاذيًا لشارع الدقى الآن ماراً فى الكيت كات وإمبابة . وكان الفرع الشرقى أو النيل الحالى عبارة عن « سيالة » ضيقة تنحسر عنها المياه أكثر شهور السنة بسبب ارتفاع منسوب القاع . وكان السقاؤون ينقلون منها المياه إلى أحياء القاهرة . . وبسبب تلوث مياه النيل عند هذه السيالة شبه

الراكدة ، انتشرت الأمراض لأن هذه السيالة كانت مرتعاً للناموس ، فلما تولى إسماعيل حكم مصر ، وضع فى مقدمة مشروعاته لتطوير العاصمة مشروع تحويل مجرى النيل الأصلى من الجهة الغربية « عند الجيزة » إلى الجهة الشرقية محاذيًا للقاهرة .

ولمن لا يعلم . . كان مجرى النيل يتجه باستمرار نحو الغرب ، بل كان مجرى النيل يسير تقريباً عند شارع منصور الحالى . . أى كانت كل منطقة الوزارات الحالية ومجلس الشعب ومقر مجلس الوزراء ، كانت كلها فى . . غرب النيل . . فما بالنا بكل حى جاردن سيتى و المنيرة . .

وبدأ إسماعيل مشروع تحويل مجرى النيل فى أواخر العام الأول من حكمه (١٨٦٣)، عندما بدأ ديوان الهندسة بإقامة جسر فى النيل يبدأ من مدينة الجيزة ويمتد إلى إمبابة ، واستمر هذا العمل حوالى عامين كان ينقل فيهما الطمى والرمل والأحجار ليردم ما بين هذا الجسر والأرض غرب النيل ، وكان الهدف تثبيت مجرى النيل بأى ثمن . هذا الجسر هو الآن شارع النيل من كوبرى الجلاء حالياً إلى إمبابة . . وهو شارع النيل والجيزة من كوبرى عباس الحالى إلى كوبرى الجلاء ، ويلاحظ أن هذه الشوارع تعلو كثيراً عن مجرى النيل . . بينما تنخفض الأراضى غربى هذه الشوارع ، أى هى الجسر الذى صنعه إسماعيل لمنع استمرار تحرك النيل غرباً .

وهكذا كسبنا مساحات هائلة من الأراضى ، هى الآن مناطق حدائق الحيوان والأورمان والمساحة والدقى والعجوزة .

وبذلك أصبح المجرى الرئيسى للنيل عند القاهرة هو المجرى الشرقى من شمال جزيرة الروضة إلى بولاق . . وتحول المجرى القديم الأصلى من شط الجيزة ليصبح هذا المجرى هو المجرى الضيق ، هو البحر الأعمى بين كوبرى الجلاء وكوبرى الزمالك إلى أن تنتهى جزيرة الزمالك أمام إمبابة .

كان هذا إذًا هو أول مشروعات إسماعيل لتحديد مساحة القاهرة والسيطرة على النيل . .

وكان مشروع الحيوى الثانى هو إزالة التلال والخرائب التى كانت تحيط بالقاهرة أو تتوسطها وتمهيد أرضها وإعدادها للبناء ، وأيضاً ردم البرك والمستنقعات التى كانت منتشرة وسط القاهرة . وبلغ ما قام بردمه ٢٠ بركة ومستنقعاً زادت مساحتها على ٢٠٠ فدان . أى تعادل بالضبط كل المساحة التى خصصها جوهر الصقلى لسكنى القاهرة الفاطمية !!

ثم شرع فى نقل المدافن التى كانت تقع وسط القاهرة وتحويل أراضيها إلى ميادين وأحياء سكنية . ومن أشهر تلك المدافن ما كان موجوداً فى المنطقة المحيطة بميدان العتبة وأول شارع الأزهر الحالى وأول شارع عبد العزيز . وقد جمع العظام من هذه المدافن ودفنها فى بئر أقام عليها جامعاً يعرفه العامة الآن باسم « جامع العظام »، الواقع على يمين المتجه من العتبة إلى عابدين ، وهو فى النصف الأول من الشارع . . وبدأ التفكير فى وضع نظام لتزويد العاصمة بمياه الشرب الصحية المرشحة لوقاية الناس من استخدام المياه الراكدة . . وتجفيف الأراضى والتفكير فى تنفيذ مشروع لمجارى العاصمة. ولكن هذا المشروع لم يتحقق إلا عام ١٩٠٩م ، فى عصر حفيده الخديو عباس حلمى الثانى على يد المهندس كاركت جيمس .

ووضع إسماعيل برنامجاً لشق عديد من الطرق والشوارع والميادين وغرسها بالأشجار وتنقيتها من القاذورات ، ثم إنشاء عديد من الحدائق و المتنزهات ، وتعمير الأحياء القديمة وإصلاحها وإصلاح مداخل العاصمة . .

وحتى ينفذ إسماعيل مشروعاته هذه وغيرها ، كان بحاجة إلى مهندس كبير بجواره. ووجد ضالته فى على باشا مبارك ، الذى كان أحد أعضاء البعثات التى أرسلها محمد على للدراسة فى أوروبا ، وعاد بعد أن أنهى دراسته ، بعد أن مات محمد على باشا . . وبدأ إسماعيل أعماله بإنشاء وزارة الأشغال عام ١٨٦٥م . وبالطبع لم تكن بالاسم ذاته. ولكنها قامت بعمل هذه الوزارة خير قيام . ووضع على مبارك لائحة من ٣٤

مادة ، تحدد إطاراً للمشروعات التى كان يحلم بها إسماعيل باشا ، وذلك فى يوليو عام ١٨٦٨م . وهذه اللائحة أو الدراسة هى التى اعتمد عليها جراند بك عندما كلفه إسماعيل باشا بوضع خريطة للقاهرة عام ١٨٧٤ م ، واستوحى هذه الخريطة من أفكار ومقترحات المهندس الفرنسى هوسمان .

●● ففى أثناء زيارة إسماعيل لباريس لمتابعة المعرض الدولى التقى بالمهندس هوسمان أشهر مهندسى فرنسا ، والذى قام بإعادة تنظيم مدينة باريس ، وحول مجارى باريس من قنوات مكشوفة إلى أنفاق مغطاة . . واتفق إسماعيل مع هوسمان على أن يحضر إلى القاهرة ليضع تخطيطاً جديداً لها ، ويفكر فى بناء أحياء جديدة وميادين جديدة . . وفى باريس أيضاً التقى إسماعيل مع مسيو بيير جراند بك ، الذى عهد إليه إدارة مصلحة الطرق و الكبارى . كما التقى مع مسيو بيريلى دى شامب ، الذى أقام غابة بولونيا غربى باريس ، وطلب منه تصميم حديقة أو غابة مماثلة لغابة بولونيا مكان بركة الأزبكية ، وكان بيريلى هذا هو الذى صمم حدائق قصر الجيزة ، وقصر الجزيرة أيضاً .

أحياء جديدة لصعوبة تطوير القديمة :

وواجه إسماعيل لتنفيذ مشروع تطوير عاصمته الكثير من المشاكل بسبب طبيعة إنشاء القاهرة القديمة وقبلها الفسطاط والقطائع والعسكر . . وهكذا جاءته فكرة إنشاء أحياء جديدة على أحدث طراز ، مادامت عمليات تجميل القاهرة القديمة تواجه هذه المشاكل . . ومن هنا جاءته فكرة إنشاء واجهة أوروبية جديدة ، على شكل أحياء جديدة تلصق بالحدود الغربية للعاصمة أى فى اتجاه شاطئ النيل . ومن هنا نشأت فكرة إنشاء أحياء الإسماعيلية ، وباب اللوق ، والأزبكية ، والأورمان ، وكل المنطقة الممتدة من ميدان الإسماعيلية « التحرير الآن » إلى منطقة التوفيقية ؛ لتصبح هى قلب العاصمة ، كما أنشأ حى عابدين ، عندما قرر الانتقال للإقامة فى مقر الحكم الجديد فى . . قصر عابدين . .

سكان القاهرة .. ومياه الشرب :

ومن أوائل مشروعاته توصيل مياه الشرب لسكان عاصمته . .

وهذه المياه حكايات . .

كانت القاهرة تعيش على مياه النيل ، ولكنه كان بعيداً عنها . ومن هنا كان الخليج المصرى ـ خليج أمير المؤمنين ـ هو المصدر الأول لتوفير مياه الشرب للسكان . فكان السقاؤون يحملون منه المياه إلى المنازل و إلى المساجد والوكالات . .

فلما ابتعد النيل غرباً أكثر ، حفر الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى لتسهيل مهمة الحصول على الماء .

وعندما كان الفيضان يأتى فى أغسطس من كل عام ، كان يتم « جبر الخليج » أى فتح السد المقام عند « فم الخليج » فى احتفال كبير لتنطلق مياه الفيضان عبر خليج أمير المؤمنين ، وكان عرضه حوالى ١٠ أمتار ، فينطلق غرب القاهرة « ومكانه الآن شارع بورسعيد من السيدة زينب إلى باب الشعرية إلى غمرة إلى الوايلى . . . » .

●● وبفتح الخليج كانت مياه النيل تنطلق فى الخليج لتمر على البرك ، التى كانت تنتشر فى العاصمة لتملأها وتنتعش ، فيحصل الناس على حاجاتهم من المياه بسهولة ، طوال فتره الفيضان . .

وكانت قناطر المياه « سور العيون » وسيلة أخرى لنقل المياه ـ أعلى السور ـ من عند فم الخليج أيضاً إلى القلعة حيث مقر الحكم وجنود السلطان . . وحيث بساتين ميدان الرميلة « ميدان القلعة » .

ولتوفير المياه للقاهرة ، فكر محمد على باشا فى حفر ترعة فمها عند شرق إطفيح على أن تصب فى الخليج المصرى ليجرى فيه الماء صيفاً وشتاءً داخل القاهرة ، ليواجه مشاكل نقص المياه بعد انحسار الفيضان ، ولكن الفكرة لم تر النور .

ثم فكر عباس الأول فى عام ١٢٦٥هـ فى مشروع لتوزيع المياه باستعمال الآلات الرافعة ، وتوزيعها بالمواسير داخل القاهرة ، وكلف المهندسين بدراسة الفكرة . ولما

أخبروه أن المشروع يتكلف ١٣٠ ألف جنيه رفض التنفيذ بسبب تكاليفها العالية ، وطلب تأجيل المشروع . .

ولما تولى إسماعيل الحكم كلف به شركة مساهمة ، فقامت بتنفيذه بواسطة شركة الماء والغاز . وبدأ توزيع المياه فى القاهرة وضواحيها . وفى عهد ابنه الخديو توفيق بلغت كمية المياه الموزعة بالقاهرة ١٠ ملايين و ٧٦٤ ألفاً و ٥٨٠ متراً مكعباً سنوياً ، وبلغ طول المواسير الناقلة للمياه حوالى ١٥٠ ألف متر من الحديد الزهر بالشوارع والحارات .

وقد بدأت شركة توزيع المياه عملها ، بعد أن صرح لها إسماعيل بالعمل كشركة مساهمة يوم ١٧ مايو ١٨٦٥م ؛ أى بعد عامين فقط من توليه حكم مصر . . وفى ١٤ يونية ١٨٨٠م امتد نشاط الشركة إلى أسيوط ، وفى ٥ أبريل ١٨٨٨ امتد نشاطها إلى حلوان ، وهى الشركة التى عرفت باسم : شركة مياه القاهرة .

وكانت البداية عندما منح الخديو إسماعيل امتياز ضخ المياه إلى مسيو كورديبه فى مايو ١٨٦٥م ، وتولت الشركة إقامة أول محطة لضخ المياه بالقرب من قصر العينى عند فم الخليج ـ أى المنطقة نفسها التى كان يبدأ من عندها نظام نقل المياه ـ عبر سور العيون ـ إلى القلعة . . وهو المكان نفسه الذى كان يبدأ من عنده خليج أمير المؤمنين . . . الخليج المصرى بعد ذلك !!

الخديوى إسماعيل .. وتحديث المحروسة :

وفى كتاب إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، الذى صدر بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على وفاة الخديو إسماعيل « ١٨٩٥ ـ ١٩٤٥ » ، وصف كامل لكيفية إدخال نظام توزيع المياه للعاصمة ، يقول تحت عنوان « المياه الجارية فى القاهرة » : يشمل نظام توزيع المياه فى القاهرة منشأة رئيسية فى جهة معمل البارود على طريق مصر القديمة ، يوفر الماء إلى داخل المدينة كلها ، بما فيها القلعة والأحياء العالية ، ومنشأة مساعدة فى بولاق تمت فى سنة ١٨٧١م ، توزع الماء للأحياء الواطئة وتقوم بحاجة الرش ، وخزان

كبير فى العباسية تم إنشاؤه عام ١٨٧٢م طاقة أحواضه ومرشحاته ٣٠ ألف متر مكعب ، وهو يستمد الماء من منشأة بولاق ، ويوزعها على الأحياء المجاورة .

وفى ٢٣ شعبان ١٢٩٠هـ - ١٨٧٣م ، أصدر الخديو إسماعيل أمراً كريماً ، تعالوا نقرأه لنعرف أن كثيراً من تكاليف هذه المشروعات تحملها الخديو إسماعيل من أمواله الخاصة .

يقول الأمر الخديوى الكريم :

« بما أن معظم سكان القاهرة يتمونون بالماء من حنفيات شركة الماء لسهولة ورخص ثمنه ، ونظراً إلى أن المياه التى يستهلكها الجمهور تجلب إلى المدينة من الترعة الإسماعيلية ، لا من النيل الأصلى بواسطة وابورات الشركة المركبة فيها ، وطبيعى أن ماء الترعة المذكورة ليس كماء النيل لا فى اللذة ، ولا فى الجودة ، وحيث إن الماء الذى يستهلكه عامة الشعب من المرافق العامة الضرورية ، التى لها أبلغ الأثر فى الصحة العمومية ، وبناءً على ماهو ملتزم لدينا من أن يكون الشعب مستريحاً مطمئناً من ناحية استهلاك الماء ، فهذه الاعتبارات كلها كانت قد أوجبت البحث عن طريقة تضمن للأهلين الحصول على حاجتهم المائية بيسر وسهولة ، فكنا أصدرنا إلى حضرتكم أوامرنا وتعليماتنا فى هذا الصدد . .

« وقد علمنا مما عرضتموه أخيراً ، أنكم بناء على أوامرنا قد درستم الموضوع ، فظهر أنه وإن كان من الممكن تحقيق الغرض الذى ننشده بحفر قناة بين النقطة التى ركبت فيها وابورات الشركة وبين النيل وتركيب وابور فى فم القناة عند اللزوم ، إلا أن هذه العملية تحتاج إلى وقت طويل ، مع أن الحالة القائمة الآن تتطلب إيجاد حل سريع عاجل ، لذلك اقترحتم أنه ريثما يتم مشروع حفر القناة ، إذا ركبت الآن الوابورات بصفة مؤقتة ، فأوصل بواسطتها ماء النيل إلى آبار الشركة ؛ فبهذه الطريقة تتحسن المياه ، بيد أن هذه العمليات ، سواء كانت تشغيل الوابورات المؤقتة وتركيبها أو حفر القناة المشار إليها فيما بعد ، تحتاج إلى تكاليف تقدر بخمسمائة وخمسين ألف فرنك ،

مع العلم بأن الشركة ليس عندها المال فى الوقت الحاضر ، فلا تقدر على تحقيق مشروعات فوق العادة من هذا القبيل . .

« نعم علمنا هذا ، ونشعركم بما أن إرادتنا تقتضى أن يوفر للشعب الماء الذى يعد من المرافق العامة الضرورية ، على أن يكون جيداً سهل التناول ، فقد رأينا أن تقوم دائرتنا بصرف النفقات اللازمة للعمليات التى أشرتم إليها ، وحيث إن لدائرتنا فى صندوق الشركة ١٢٠٠ حصة ، كل حصة قيمتها ٥٠٠ فرنك ، فتكفى ١١٠٠ حصة منها لتكاليف العمليات المارة الذكر . وإنى تنازلت عن هذه الحصص إلى الشركة ، بشرط أن تنفق قيمتها للعمليات المذكورة . وإذا علمتم ذلك فعليكم بالعمل على صرف هذه المبالغ التى اختيرت لتوفير الراحة والرفاهية للشعب ، على العمليات المتقدمة الذكر خاصة ، وبذل الهمة والمساعى لتحقيق الغرض المنشود ، كما أمر الخديو أن تتحمل الحكومة تكاليف تركيب المواسير والحنفيات المخصصة لرش الطرق . . » .

هذا عن توفير مياه الشرب الصحية لسكان القاهرة ، فماذا عن إنارة القاهرة . .

لتلك حكاية أخرى . .

إنارة القاهرة .. بالغاز :

فى ١٥ فبراير ١٨٦٥م ، منحت الحكومة المصرية مسيو شارل ليبون امتيازاً لإنارة القاهرة بالغاز ، على غرار الامتياز الذى حصل عليه قبل ذلك لإنارة مدينة الإسكندرية . وجاء امتياز القاهرة لمدة ٧٥ عاماً ، على أن يقوم مسيو شارل ليبون بجميع الأعمال اللازمة لإنشاء مصنع للغاز ووضع الأنابيب اللازمة بمدينة القاهرة وتوابعها [بولاق ومصر القديمة] ، وذلك تحت مسئوليته .

وبعد عامين تقريباً ، أى فى أبريل ١٨٦٧م ، كان ميدان باب الحديد قد أضىء بالغاز احتفالاً بدخوله كخدمة عامة . ومن بين الأماكن التى أضيئت منطقة الأزبكية ، وهى الإسماعيلية « التحرير والمنطقة بين التحرير الآن وشارع ٢٦ يوليو » والشوارع الكبيرة وقصور الخديو .



العتبة الخضراء مبنى المطافى من أهم علامات الميدان العريق مع مبنى البوستة العمومية .

وقد تم وضع المواسير ـ أنابيب الغاز ـ بداية من المصنع الذى أقيم فى السبتية ببولاق. وفى الليلة السادسة من هذا الشهر الإفرنكى « ٦ مايو ١٨٦٨ » نوّر باب الضبطية ـ مقر المحافظة على مشارف ميدان العتبة وما جاورها ، وبهذا سيعم الإشراق!! وتكون هذه أول مرة دخل على الأهالى بالفرح والسرور ، واجتمعوا للتفرج عليه من كل مكان داعين للجناب الخديوى المعظم ببقائه غرة فى جبهة الزمان» . وفى مايو ١٨٦٩م أصدر الخديو إسماعيل أمراً بتوصيل الغاز وتنوير الشوارع بالغاز إلى الشوارع الجديدة . وكذلك عمل أثمان البيوت والعمليات اللازمة لفتح سكة (شارع) محمد على وسكة فؤاد والسكة الموصلة من الأزبكية إلى باب الحديد . . و السكة المارة من الفجالة لباب الحسينية ، و الخرابة المار فيها شارع محمد على وشارع عبد العزيز يعمل فيها سويقة لمبيع الأشياء المعتاد مبيعها فى أمثال ذلك بأوروبا ؛ بحيث تكون فى غاية النظام !!

وهذه السويقة المقصودة هى سوق ميدان العتبة الحالية على يمين أول شارع الأزهر ؛ فقد رأى إسماعيل أسواق باريس ، فقرر بناء سوق على هيئتها هو السوق الذى مازال قائماً حتى الآن . وعلى غراره تم بناء سوق آخر فى ميدان باب اللوق . . وأصدر الخديو أمراً بتوصيل المياه والغاز من شركة ليبون لإنارة السوق وتوفير النظافة له محافظة على الصحة العامة . . وكان هذا فى عام ١٨٦٩م !!!

وكما حدث فى مشكلة توصيل المياه ، تدخل الخديو إسماعيل لإنقاذ شركة ليبون للغاز ، ففى ١٧ أبريل ١٨٦٦م علم الخديو أن الشركة تواجه مشاكل فى الحصول على قطعة أرض ، تلائم حاجة المشروع ، فقرر إسماعيل منح الشركة قطعة أرض من أملاك الحكومة على مشارف المدينة . .

وفى ٣١ مارس ١٨٧٠م تم نشر عقد الامتياز للإنارة بالغاز فى مدينة القاهرة ، وجاء فى المقدمة « قد رخص سمو الوالى للمسيو شارل ليبون ، صاحب امتياز الإنارة بالغاز فى مدينة الإسكندرية ، فى أن يقوم بجميع الأعمال اللازمة لإنشاء مصنع للغاز ووضع

الأنابيب « مد الأنابيب تحت الشوارع » اللازمة بمدينة القاهرة وتوابعها (بولاق ـ مصر القديمة) وذلك تحت مسئوليته . .

وتطورت عملية إنارة القاهرة سريعاً . . حتى أنه فى عام ١٨٨٢م كان هناك حوالى ٢٥٠٠ فانوس تضئ ٧٠ كيلو مترا من الشوارع ، وفى أيام الخديو توفيق كان عدد الفوانيس الموزعة ٢٨٠١ فانوسًا منها بالإسماعيلية « الحى » والأزبكية والفجالة وعابدين والباقى داخل البلد .

واستمرت خدمات شركات الغاز ، لتوصيل غاز الاستصباح لاستهلاك القاهرة . مع توفيره ليس فقط للإنارة ولكن لاستخدام المنازل والمطابخ . وكانت شبكة هذا الغاز ـ أو ما بقى منها ـ تمتد فى الزمالك وجاردن سيتى . ومازال الكثير من قصور القاهرة وشركاتها تستعمل هذا الغاز ، حتى بعد أن تم تأميم شركة ليبون فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .

أول بلدية .. للمحروسة

ولأن إسماعيل كان يحلم بمدينة عصرية ، تنافس العواصم الأوربية التى رآها أو عاش فيها مثل فيينا وباريس وروما التى زارها ، كان لابد لها من « قيادة » تتولى إدارة المدينة والإشراف على نظافتها وتعميرها . . فكان لابد من . . البلدية !!

وجاء القرار بإنشاء بلدية القاهرة يوم ١٤ المحرم ١٢٨٦هـ ـ ٢٧ أبريل ١٨٦٩م ؛ فقد صدرت إرادة سنية لرئيس القومسيون الخصوصى من الخديو إسماعيل بإنشاء وتشكيل وترتيب جمعية خصوصية بشكل « مونسبليه » أى مجالس بلدية للقاهرة . . حيث إن الأنظمة والأعمال النافعة الجارى عملها فى مدينة القاهرة ، والمقرر إجراؤها فى المستقبل ، كلما تقتضى الضرورة ، وأن إدارة البلدة واستحصال لوازمها تقتضى ذلك ، كما هو جار فى سائر البلاد ، لتتولى تنظيم وعمران المدينة ، ويكون كل ذلك بمعرفة هذه « الجمعية الخصوصية » ؛ وحيث إنه من الضرورى منح الجمعية المذكورة صلاحية تقدير زيادة بعض المصروفات الخاصة لاحتياجات البلدة كلما تمس الحاجة ، مع طرح

رسوم وعوائد بمعرفة الجمعية خلال الرسوم والعوائد المقررة لغاية الآن ؛ لحصول التوازن فى الإيرادات والمصروفات !! وتقرر فصل إيراد ومصروفات القاهرة عن نظارة المالية وإسناد ذلك إلى البلدية .

وحتى تستكمل القاهرة أجهزتها وخدماتها ، كان لابد من إنشاء قسم للمطافئ . وكان لابد من الاستعانة بالخبرة الأجنبية . وطلب الخديو إسماعيل من مستر ستانتون قنصل عام إنجلترا أن يرسل إلى حكومته ؛ لكى ترسل خبيراً كبيراً ليدرس الموضوع على الطبيعة ، فيرسل القنصل العام الإنجليزى فى مصر رسالة إلى وزارة الخارجية الإنجليزية يوم ٨ فبراير ١٨٧٥ ، يقول فيها « يود الخديو استشارة اليوزباشى شو رئيس فرقة المطافئ فى لندن ، فى الإجراءات التى تتخذ ضد الحريق ، وتنظيم فرقة المطافئ بالقاهرة . وقد كلفنى الخديو بأن أطلب من سعادتكم أن تتفضلوا فترخصوا لليوزباشى شو فى المجئ إلى مصر للإقامة فيها بضعة أيام ، للإدلاء برأيه فى هذا الشأن » .

وكان لابد من تنظيم المرور فى العاصمة ، بعد أن اتسعت ؛ ولهذا أصدر الخديو إسماعيل نطقاً كريماً إلى مأمور ضبطية مصر يوم ٩ المحرم عام ١٢٨٠هـ ـ ١٨٦٣م ، يقول نصه « من المعية إلى مأمور ضبطية مصر : صدر النطق الكريم بإجراء ترتيب المقدار الكافى من « القواصة » السوارى على الطرق الطويلة ، مثل شبرا ومصر عتيقة وبولاق والشوارع الأخرى ، لمراقبة سير العربات ، حيث وصل إلى مسامع الحضرة الخديوية أنها جارية بسرعة . وبهذا السبب جارى اصطدام بعض الأهالى بسبب سيرها بسرعة ، مع إلقاء التنبهات الشديدة على القواصة المذكورين بعدم تعرضهم إلا لمن كان سائراً بسرعة ، وإنه إذا لوحظ مثل ذلك بأن يتعقبوه ويضبطوه لأجل معاقبته، ليكون عبرة لغيره ، ووقاية لعابرى الطريق من عباد الله . »

الأجانب كيف رأوا قاهرة إسماعيل :

ولكن كيف كان الأجانب يرون ما يجرى فى القاهرة فى عصر الخديو إسماعيل . تعالوا نقرأ شهادة مجموعة من المسئولين الأجانب :

يقول مستر بيردسلى قنصل الولايات المتحدة فى رسالة إلى وزارة الخارجية الأمريكية ، بعث بها من القاهرة يوم ٩ نوفمبر ١٨٧٢ : رأى إسماعيل ما يترتب من الفوائد على إنشاء مركز دائم لحكومته ، تلتف حوله شتى الوزارات ، فقرر ألا يجعل القاهرة عاصمة ملكه فحسب ، بل أن يجعلها عاصمة تليق بمصر ، لذلك أنفق أموالاً كثيرة وبدأ الجهود فى همة قلما يتحلى بها أمير شرقى ، فعكف على العمل فى السنوات الخمس الأخيرة ، لتجميل هذه المدينة ، التى يمكن تفضيلها اليوم على عدة عواصم أوروبية!!»

ويقول فى رسالة أخرى وأيضاً إلى وزارة الخارجية الأمريكية ، بعث بها يوم ١٥ سبتمبر ١٨٧٣ من القاهرة :

«بلغ التجميل والتبديل فى القاهرة من بضع سنوات ، مدى يصعب على الأجنبى تقدير طبيعته ومداه حق التقدير . وسكان القاهرة نصف مليون نسمة ، وهى قائمة بالقرب من المقطم ، وعلى مسيرة ميل ونصف من النيل (لاحظوا) ومنذ ست سنوات لم يكن الحيز الواقع بين القاهرة و النيل وبولاق إلا أرضاً واسعة منخفضة ، تغمرها مياه الفيضان ، ولا يزرع منها غير بقع عند انحسار هذه المياه . وهذا الحيز اليوم هو الحى الجديد الجميل ، ويسمى بحى الإسماعيلية ، تكريماً لسمو الخديو . وقد ردم على ارتفاع يتراوح بين ست أقدام وثمان بالأتربة التى جلبت من أنحاء المدينة . وقد خططت فيه طرق واسعة لسير العربات، تحف بها الأشجار ، ومنحت الأرض بالمجان «لاحظوا» لمن يتعهد بأن يقيم عليها بناء معين الرسم . وهكذا أنشئت مدينة جديدة تتألف من أبنية رائعة ، تمتد من المدينة القديمة إلى ضفاف النيل ، فكأنها نشأت بفعل من السحر . .

ويمضى قنصل عام أمريكا ، يقول فى تقريره لوزارة خارجيته ، وهو يصف القاهرة فى عهد الخديو إسماعيل :

«كانت البقعة الشاسعة المعروفة باسم الأزبكية ، تقوم على جوانبها مجموعات من الدور الأوروبية ، يتألف منها الحى الأفرنجى . ولم تكن هذه البقعة أيام الفيضان إلا

بحيرة واسعه ، فإذا انحسرت المياه أصبحت مأوى للكلاب ، ومسرحاً للجنايات ، ومجتمعاً للسوقة . . وقد استحالت اليوم إلى حديقة عمومية رائعة الجمال ذات ممرات رملية وطرق ظليلة ومروج خضراء . ومما يأخذ فيها بالألباب بحيرة صناعية هى آية فى الجمال ، وتحف بهذه الحديقة أبنية أخاذة المنظر منسقة على طراز واحد . .

« وفى داخل المدينة ، خطت طرق جديدة واسعة ، توفر سبل المواصلات ، وتجلب الهواء و النور إلى أحياء تزدحم بالسكان وتوفر الآلات الماء العذب لأحياء المدينة بأسرها، مقابل مساهمة فى النفقات اللازمة ، وهناك مصنع للغاز يورد ٦٠٠٠ متر مكعب فى اليوم ينير الطرق والميادين العامة .

« والطرق الجديدة كلها مرصوفة رصفاً متقناً ، ومحفوفة بالأفاريز « الأرصفة » وبها مجار !! وأنشئ فى شمال المدينة حى جديد اسمه « الفجالة » ، وفى الشمال الشرقى خط حى جديد آخر ، وتجرى الأعمال لردم الحفر ولتعبيد الأرض . وقد تراكمت عليها أكوام من الأتربة نقلت إليها من أطراف المدينة على مر الأحقاب . . ويخترق هذين الحيين طريق واسع ، يوصل إلى موقع هليوبوليس القديم وإلى العباسية ، على طرف الصحراء، حيث تقوم المدارس الحربية »

ويختتم قنصل عام أمريكا فى مصر مستر بيردسلى تقريره إلى وزارة الخارجية الأمريكية فيقول :

« وكذلك أنشىء طريق جميل جداً للعربات ينتهى إلى الأهرام ، ويجتاز الجسرين الجديدين فى الجزيرة « يقصد كوبرى قصر النيل القديم وكوبرى الجلاء » ويجرى العمل على تحويل هذه الجزيرة « يقصد جزيرة الزمالك » تحويلاً سريعاً إلى حديقة عمومية غناء . وسيقام فيها أيضاً المتحف المنوى إنشاؤه عن قريب . . . وكذلك يشرع فى إنشاء حديقة شاسعة شرقى الجزيرة . وشيد الخديو مسرحاً كبيراً جداً للأوبرا الإيطالية ، وآخر أصغر منه للكوميديا الفرنسية وبنيت حنفيات عمومية كبيرة ومساجد وقصور عديدة وفى كل النواحى نشاهد آيات النشاط والتحسين ، تذكر نشاط الغرب ، أكثر مما تذكر عادات الشرق . . »

أما رينى بك فيذكر ، فى كتاب صدر عام ١٨٧٣ ، أن طول الطرق العامة زاد من ١٨ ألف متر إلى ٤١ ألفا و ٨٠٠ متر . وزادت مساحة الطرق من ١٤٧ ألف متر مربع إلى ٥٤٧ ألف متر مربع !! كما بنى فى القاهرة فى عصر إسماعيل ٢٠ مسجداً جديداً منها مسجد الرفاعى المبنى على طراز فخم بالقرب من القلعة ، وقد قامت بنفقاته سمو الأميرة والدة الخديو . ولهذا المسجد ملحقاته : ملجأ للأيتام وتكية للنسوة العاجزات . . »

المحروسة .. فى أواخر عصر إسماعيل

●● وعلينا أن نعترف بأن القاهرة التى بدأت بمساحة كلية هى ٣٤٠ فداناً عام ٩٦٩م قد اتسعت وزادت مساحتها فى عصر أسرة محمد على باشا ١٠٠٠ فدان ، معظمها تم فى عصر الخديو إسماعيل . ولكن ماذا عن التقسيم الإدارى ، بعد أن اتسعت المحروسة وأصبحت بهذا الاتساع الكبير ؟

يقول على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية التى كتبها وطبعت بأمر الخديو توفيق فى مطبعة بولاق الأهلية بين عامى ١٨٨٨ و ١٨٨٩م ، وصدرت الطبعة الثانية منها عام ١٩٦٩م : كانت أقسام وأحياء القاهرة أيام الخديو إسماعيل وابنه الخديو توفيق مكونة من ١٠ أحياء أو أثمان ، هى أثمان : الموسكى . . الأزبكية . . باب الشعرية . . الجمالية . . الدرب الأحمر . . الخليفة . . عابدين . . السيدة زينب . . مصر العتيقة . . بولاق .

وكان فى الأثمان المذكورة ٤٨ قره قول أى أقسام للشرطة ، موزعة داخل البلد وخارجها لإقامة العسكر بها ، والآن ـ يضيف على مبارك ـ بطل أكثرها ولم يعد باقياً منها إلا القليل .

وكان كل ثمن فيه : بيت للصحة يقيم به حكيم وحكيمة وكاتب وتمورجى للكشف على من يموت ، وتطعيم الجدرى ومعالجة بعض المرضى وإعطاؤهم بعض الأدوية ، وقيد من يولد ومن يموت فى دفاتر مخصوصة ، ترسل إلى ديوان الصحة «وزارة» وإخبار

بيت المال عمن يموت وهو تابع لمجلس الصحة العمومية ، يتلقى منه المخاطبات ويخبره عن جميع الحوادث الصحية .

وفى كل ثمن معاون وكاتب وبضعة عساكر ، وهم تابعون لديوان المحافظة . ووظيفته النظر فى المنازعات و الخصومات ، فما يمكن صرفه . . صرفه (!!) وإلا أرسله إلى جهة الاختصاص .

وبدلاً مما يقال الآن : فلان راح النقطة أو القسم . . . كان يقال : « فلان . . راح التمن » أو بدلاً مما يقال الآن : « والله أروح فيك القسم . . » كان يقال : « والله أروح فيك . . التمن » !!

●● وكان كل ثمن ينقسم إلى شياخات ، تكثر أو تقل بالنسبة لكبر الثمن وصغره، ولكل ثمن شيخ يعرف باسم شيخ الثمن ، وله مرتب يصرف من المحافظة قدره ١٠٠ قرش صاغ شهرياً . وبكل شياخة شيخ يعرف بشيخ الحارة ، ولكن ليس له راتب من المحافظة ، وإنما يتكسب من النقود التى يأخذها باسم « الحلوان » من سكان الأملاك التى فى زمام شياخته ؛ لأن العادة أن من أراد أن يؤجر بيتا فى حارة من الحارات يكون ذلك بمعرفة شيخ الحارة ، وبعد تأجيره للبيت يدفع له أجرة شهر برسم الحلوان!!

وكانت الحكومة تستعين بهؤلاء فى توزيع « الفردة » والطلبات ، ويظهر مما كتبه عبد الرحمن الجبرتى أن هذا الترتيب لم يحصل إلا فى زمن الفرنساوية ، أى أيام الحملة الفرنسية على مصر ، التى جاءت عام ١٧٩٨م ، فهم الذين ابتدعوه ووضعوه ، وبقى مستعملاً من بعدهم إلى الآن . . « أيام على باشا مبارك ، ويضيف : ولم أر ذلك فى خطط المقريزى ، فإنه لم يتكلم عن تقسيم القاهرة ولا الفسطاط إلى أثمان . .

ويقول على باشا مبارك : كان عدد الحارات والعطف والدروب والشوارع فى القاهرة حوالى ١٢٩٠ ، منها ١٣٣ شارعاً كبيراً . وعدد الحارات ١٦ حارة . والعطف ٧١٩ عطفة و ٢٠٨ دروب و ٢٤ سكة ، وفروع السكة ١٦ ، والطرق ١٩ ، وكان طول كل ذلك ٥٤٥٥٩ متراً .

ولكن فى عصر إسماعيل وبعد إنشاء حى الإسماعيلية وحى الفجالة وغيرهما من حصر شبرا وجسر أبى العلا ، وطريق مصر العتيقة بلغ طول الشوارع والحارات [illegible] أمتار ومساحتها ٣٣٢ فداناً ؛ أى إن مساحة ما استجد من الشوارع والحارات يبلغ ١٠٠ فدان ، وهو ما يقرب من نصف عدد الحارات القديمة .

وصارت شوارع القاهرة وحاراتها كالآتى :

[illegible] شارعاً طولها ٨٢١٧٦ متراً .

و٣٠٧ حارة طولها ٤٣٦١٩ متراً .

و٨٧٢ عطفة طولها ٤٤٢١١ متراً .

و٢١٩ درباً طولها ٢٨٣٣٦ متراً .

و١٦ ميداناً طولها ١٨٩١ متراً ومساحتها ٣٤ فداناً . .

وكانت مساحة حى الإسماعيلية الجديدة ٣٥٩ فداناً ؛ أى أكثر من مساحة القاهرة الفاطمية ، عندما أنشأها جوهر الصقلى بحوالى ١٩ فداناً !! وبذلك أصبحت مساحة [illegible] الساحرة ٢٩٠٠ فدان ؛ أى زادت فى عصر أسرة محمد على نحو ١٠٠٠ فدان فى عصر إسماعيل .

جوامع مصر .. ومساجدها :

وكان عدد الجوامع ٢٦٤ جامعاً ، منها المدارس التى كانت مدارس للتعليم وأماكن للعبادة ، وكان عدد المدارس ٧٠ مدرسة . بينما كان عددها أيام المقريزى ٨٨ جامعاً و٧٠ مدرسة ، وبذلك يكون ما استجد فى القاهرة بعد المقريزى إلى عهد خطط على باشا مبارك ١٠٦ جوامع .

وإلى عام ٥٦٠ هـ كانت صلاة الجمعة تقام فى القاهرة ومصر العتيقة فى ٨ جوامع فقط ، هى : جامع عمرو بن العاص . . جامع العسكر . . جامع ابن طولون بالقطائع . . والجامع الأزهر بالقاهرة . . و الجامع الحاكمى ؛ أى جامع الحاكم بأمر الله فى القاهرة الفاطمية . . وجامع المقس . . وجامع القرافة . . وجامع راشدة .

وفى أيام المماليك الجراكسة كثرت عملية بناء الجوامع حتى بلغت فى آخر عصرهم ١٣٠ جامعاً تقام فيها صلاة الجمعة ، وكان منها بمصر العتيقة ١٠ جوامع ، وبالقرافة ١١ جامعاً وبجزيرة الروضة ٥ جوامع وبالحسينية ١٢ جامعاً . وعلى النيل خارج القاهرة (!!) ٤٠ جامعاً وبين القاهرة ومصر العتيقة ٣٢ جامعاً ، وبالقلعة ٤ جوامع ، وخارج القاهرة بالترب ٧ جوامع ، وداخل القاهرة ١٧ جامعاً .

وكان الجامع المدرسة على غرار مدرسة ومسجد السلطان حسن ، ومسجد قلاوون ومسجد برقوق والأزهر نفسه . وقد اندثرت هذه المدارس ، وأصبحت جوامع ولم يبق منها مخصصاً للتدريس . وللمدرسين فيه رواتب ، إلا الجامع الأزهر فقط . . ويقول المقريزى إن هذه المدارس لم تكن معروفة زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدثت بعد عام ٤٠٠هـ . وأول مدرسة بنيت فى بغداد عام ٤٥٧هـ ، وكانت مصر فى ذلك الوقت فاطمية . وأول من أقام درساً كان فى خلافة الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله فى الجامع الأزهر ، وكان الوزير يعقوب بن كلس يقرأ درساً فى بيته ، وكتاب فقه على مذهبهم الشيعى ، وعمل مجلساً بجامع عمرو بن العاص . .

أما أول مدرسة أقيمت على المذهب السنى . . فكانت فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وألغى المذهب الشيعى ، وأقامها بجوار الجامع العتيق عام ٥٦٦هـ ، وعرفت بالمدرسة الناصرية وكانت للشافعية . وبنى فى العام نفسه المدرسة القمحية بقرب الناصرية للمالكيين ، ومدرسة السيوفية للشافعية . وبانتهاء الدولة الأيوبية كان فى القاهرة ٢٥ مدرسة ، منها : ٧ للمذهب الشافعى ، و٦ مدارس للمذهب المالكى ، و ٤ مدارس للمذهب الحنفى ، ومدرسة واحدة للمذهب الحنبلى . .

وتارة كان يدرس بالمدرسة مذهبان ، فكان للشافعية والمالكية معاً ٤ مدارس ، ومثلها للشافعية و الحنفية . . وكان عدد المدارس فى آخر حياة المقريزى كما قال فى خططه ٤٥ مدرسة فى نحو ٢٨٠ سنة ، وصار فى القاهرة ٧٠ مدرسة . .



كوبرى قصر النيل القديم أول كوبرى معدنى كبير فى مصر أقيم فى عصر الخديو إسماعيل وفى الضفة الشرقية للنيل نجد على اليسار ثكنات قصر النيل وعلى اليمين فندق سميراميس القديم وهو تحت الإنشاء !!



وكوبرى قصر النيل الجديد ، الذى أطلق عليه الملك فؤاد اسم والده العظيم الخديو إسماعيل عندما أعيدت إقامته عام ١٩٣٣م .



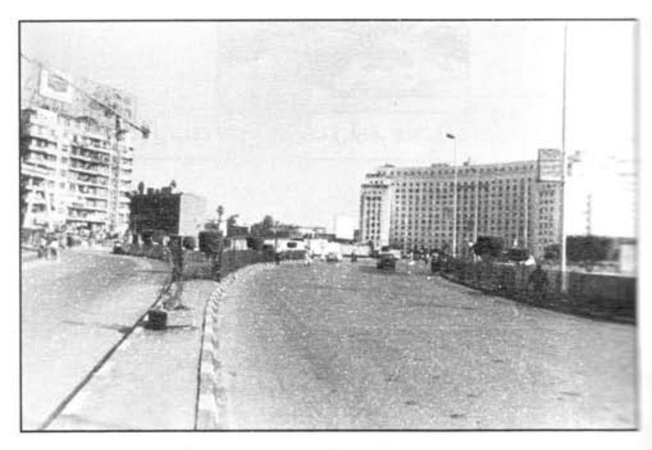
قاهرة الخديو على اليمين والمباني الحديثة والمتحف المصرى على اليسار .



تمثال مصطفى كامل يتوسط الميدان الذى يحمل اسمه . . وبقايا مبانى عصر الخديو إسماعيل .



تمثال طلعت حرب يتوسط الميدان الذى يحمل اسمه . . بعد أن كان اسمه ميدان سليمان باشا
ولاحظوا تخطيط الشوارع التى تتفرع من الميدان الدائرى على غرار باريس .



مجمع المصالح الحكومية أشهر وأكبر مبنى حكومى فى أفريقيا .



تمثال سليمان باشا الفرنساوى يتوسط ميدانه فى النصف الأول من القرن العشرين .



تمثال إبراهيم باشا فى ميدانه الشهير بالأزبكية فى أواخر الثلاثينيات ولاحظوا موديل السيارات .



ميدان إبراهيم باشا الأوبرا سابقاً يتوسطه تمثال البطل إبراهيم باشا وخلفه بقايا حديقة الأزبكية



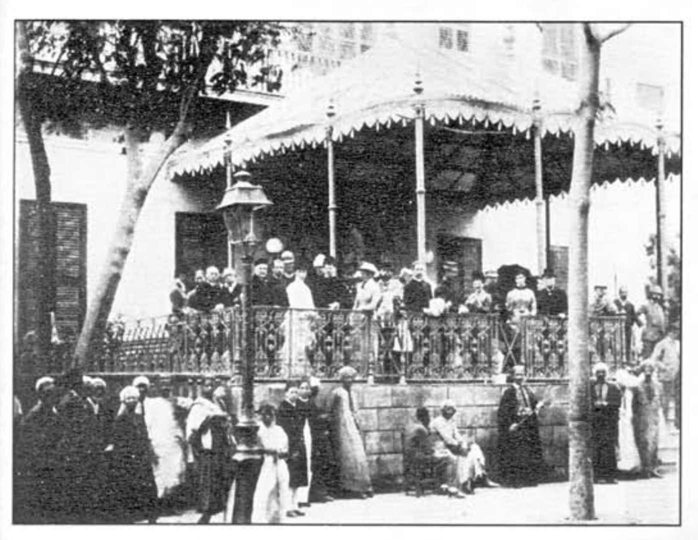
... سليمان باشا الفرنساوى فى حديقة قصره فى ... يحمل اسمه إلى الآن فى حى مصر القديمة .



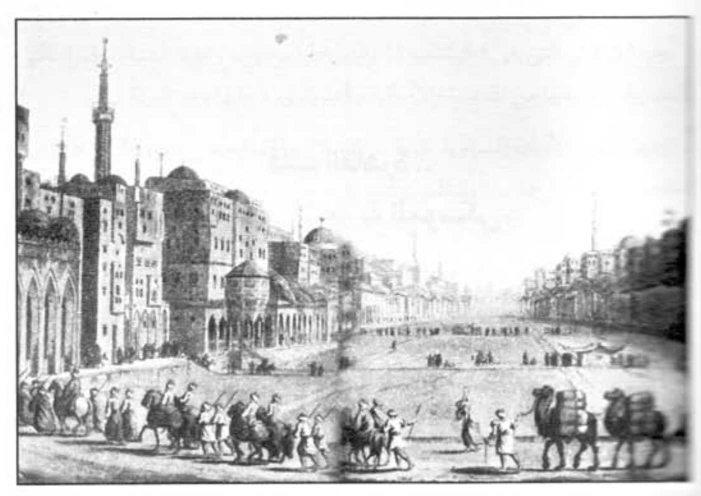
سليمان الفرنساوى رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى عصر محمد على .



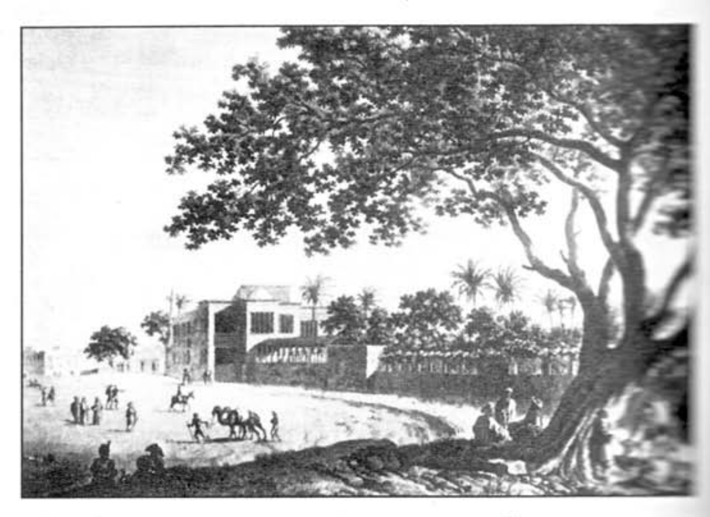
تمثال سليمان باشا الفرنساوى جد الملك فاروق لأمه . . قبل أن ينزلوه من ميدانه . .



شرفة فندق شبرد القديم كما كانت تبدو عام ١٨٨٠م وهو الفندق الذى أقيم مكان قصر محمد بك الألفى فى الأزبكية واحترق الفندق يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ أثناء حريق القاهرة .



جانب من ميدان الأزبكية أيام حملة بونابرت وحوله قصور الأمراء المماليك .



قصر محمد بك الألفى حيث مقر قيادة بونابرت فى مصر من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١م .

قلب القاهرة ..
من باب الشعرية للموسكى

مثلث كبير هو بكل المقاييس « قلب القاهرة الشعبية » وقلبها التجارى والترويحى والثقافى . وهو ما يقال عنه فى الدول الكبرى « المدينة » أو « السيتى » أو « الداون تاون» . . هكذا كان هذا المثلث منذ مئات السنين ، وهكذا سيظل لمئات أخرى مهما تحرك القلب التجارى ، مرة إلى شوارع قاهرة إسماعيل فى شوارع فؤاد وشريف وقصر النيل وسليمان باشا وعدلى وثروت . . أو تحرك إلى الضواحى كما هو الآن فى مصر الجديدة ومدينة نصر . .

هذا المثلث فيه أحياء : باب الشعرية . . درب الجنينة . . الموسكى . . العتبة . . المناصرة . . والأزبكية . ويمتد من الفجالة وبركة الرطل شمالاً إلى الموسكى وكوم الشيخ سلامة والمناصرة جنوباً ، ومن أمير الجيوش وبرجوان والخرنفش وحارة اليهود شرقاً . . وحارة النصارى ووجه البركة والأزبكية وباب الحديد غرباً .

وكما فيه حارة اليهود من الشرق . . فيه حارة النصارى من الشمال الغربى . وكان فيه دار إعداد كسوة الكعبة المشرفة . . وفيه الكثير مما دخل الوجدان المصرى من أسماء أحياء وشوارع . . فيه باب البحر ، وما علاقة قلب القاهرة بالبحر . وهو ليس البحر المالح ، وليس بحر النيل الذى كان يصل إلى هذا المكان عند باب الحديد ، ولكنه يعود إلى سيدى الشيخ محمد البحر !! وفيه غيط النوبى . . والجامع الأحمر والوسعة . . التى كانت سبة فى جبين القاهرة ، تماماً مثل منطقة كلوت بك فترة من الزمن .

وفيه خرنفش التى هى الخرشتف !! وفيها حارة برجوان ، وفيه العتبة الخضراء التى كانت زرقاء وتوابعها من المناصرة والأزبكية والعشماوى ، وفيها وجه البركة . .

وفيه تلتقى الأديان السماوية كلها : الإسلام و المسيحية و اليهودية بما فيها من مساجد وزوايا وأضرحة . . وكنائس وكاتدرائيات . . ومعابد يهودية . . فيها المدارس الإسلامية والكتاتيب والأسبلة ، وفيها المدارس الأجنبية والإرساليات . . مما يعطى الرمز التى تفخر به مصر من سماحة . . وفيها مستشفيات إسلامية وقبطية ومسيحية غربية وإسرائيلية أيضاً .

●● وطبقاً لخريطة القاهرة التى طبعتها مصلحة المساحة المصرية عام ١٩١٠م، نجد فى هذه المنطقة من المساجد و الجوامع : جامع الطواشى . . جامع سيدى أحمد شهاب الدين . . جامع سيدى عيسى التركمانى . . جامع سيدى على الفرا . . جامع سيدى الشيخ محمد البحر . . جامع أولاد عنان . . جامع القاضى يحيى . . جامع الست . . الجامع الأحمر . . جامع السلطان الأشرف . . جامع قلاوون . . جامع محمد الناصر . . جامع برقوق . . جامع السلحدار . . جامع مزهر . . جامع مراد باشا . . جامع سيدى الشعراوى . . بل كانت هناك دار إعداد كسوة الكعبة ، التى ظلت مصر تكسو بيت الله الحرام مئات عديدة من السنين . .

●● ونجدها عامرة بالكنائس المسيحية ، ولكل المذاهب : فنجد كنيسة الأقباط الأرثوذكس . . كنيسة الأرمن « الغرغورى » . . كنيسة الكلدان الكاثوليك . . كنيسة الأرمن الكاثوليك . . كنيسة الأفرنج الكاثوليك . . بل مقر البطركخانة القبطية المصرية للأقباط الأرثوذكس . . وكاتدرائية مار مرقس فى قلب حارة النصارى . ونجد مقر جمعية الشبان المسيحيين .

●● وكان بها عدد من المعابد اليهودية : كنيس بالقرب من جامع برقوق . . و ٦ معابد يهودية فى وحول شارع صقالبة . . وكنيس قرب شارع بين السورين . . وآخر بين شارع حبش وشارع الموسكى .

●● وكان بها عدد من المدارس الدينية: مدرسة البنات الأمريكان قرب شارع الفجالة . . وكلية الفرير بالخرنفش على بعد خطوات من دار الكسوة . .

●● وكان بالمنطقة أقسام للشرطة : الموسكى . . باب الشعرية . . الأزبكية . . وعدد من القنصليات والسفارات والفنادق الكبرى . . والبوسطة العمومية . . والمطافئ . . والمحكمة المختلطة . . ومن البنوك : الكريدى ليونيه . . وأمريكان إكسبريس . . وأيضاً . . مقر صندوق الدين . .

●● وفى هذا المثلث الكبير الذى قاعدته شارع الخليج المصرى من الشرق ، وشارع الفجالة من الشمال ، وشارع عباس ـ نازلى ـ النهضة « رمسيس الآن » من الغرب ، ثم سرة القاهرة عند العتبة والأزبكية ، وباب الحديد الذى كان فيه عصب الحياة للعاصمة المصرية . .

كان فيه المحافظة فى باب الخلق « مديرية الأمن الآن » . . ومحكمة باب الخلق «الاستئناف الآن » . . والكتبخانة « دار الكتب » . . والمتحف الإسلامى .

وكان فيه شارع البركة ، وشارع وجه البركة ، وشارع قنطرة الدكة، وشارع القبيلة . . ولكننا لم نعد نجد أثراً للبركة ولا للدكة ولا لأى قبيلة . . . فقد انتهى كل ذلك . . تم ردم البركة ، وأزيلت القنطرة . . بل أزيلت الدكة التى كان يجلس عليها الخليفة أو السلطان أو الوالى ، وهو يستعرض أسطوله البحرى قبل خروجه للغزو أو الدفاع ، عندما كان نهر النيل يصل إلى هنا ، إلى حيث باب الحديد . . وأزيل مكان تحصيل الجمارك « المكس » عندما كان هنا مقر المكس أو المقس . كل هذا انتهى ، ولكن ظلت الشوارع تحمل كل هذا التاريخ على كاهلها ، أو على لافتات الشوارع والحارات والأزقة والدروب والعطف .

وكان فيها : شارع سوق الزلط ، والجباسة، والجيارة ، وفيها شارع الفجالة «الفجل» والطبالة « صاحبة الطبلة » ، والفوطية ، والقماعين .

وكان فيها جزء لن ينسى من تاريخ العاصمة . . كان فيها صندوق الدين الرهيب ، الذى فرضته أوروبا على الخديو إسماعيل ليراقب الإنفاق المصرى . ومازال المبنى قائماً حتى الآن مقر مديرية الصحة ؛ وفيها أول مقر للمحكمة المختلطة التى نوبار باشا أول رئيس لوزراء مصر ؛ ليحاكم أمامها الأجانب بدلاً من أن يلجأوا إلى قنصلياتهم ليحتموا بالحماية الأجنبية . وكان موقع هذه المحكمة خلف دار الأوبرا القديمة . . وفيها المقر الرسمى للبوستة العمومية . . والمطافئ . . والتياترو « المسرح القومى » ودار الأوبرا نفسها . وكان فيها أشهر فنادق العاصمة : شبرد القديم الذى احترق يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢م ، والكونتننتال وفيكتوريا وبريستول . . . وأيضاً كان بها أرخص الفنادق !!

وكان فيها مقر إدارة جيش الاحتلال البريطانى بين ميدان الخازندار عند شارع الجنينة وبين حديقة الأزبكية .

وفيها حى باب الشعرية ، الذى لا علاقة له بها نشربه فى الشوربة ، أو نأكله من شعرية .

وكان فيها أماكن اللهو القديم . . والتسالى . . والبوز « البوظ » الخمارات . .

●● هذا هو قلب القاهرة الحيوى ، الذى ينافس شارع قصبة القاهرة المسمى المعز لدين الله الفاطمى ، الذى كان عصب الحياة المصرية ، منذ اختط القائد جوهر الصقلى مدينة القاهرة الفاطمية . .

تعالوا لنغوص فى هذا القلب الحيوى للعاصمة المصرية . .

● باب الشعرية .. والشعرانى .. والموسيقار العبقرى :

لن نستخف بعقل القارىء ، فنقول كما يقول العامه إن اسم باب الشعرية يعود إلى صناعة الشعرية . . فقد حسم هذه القضية إمام المؤرخين الذين وصفوا مصر وخططها : « المقريزى » عندما قال : إن « الشعرية » هم طائفة من قبائل البربر يقال

لهم بنو الشعرية هم ومزانة . . وزيارة . . وهوارة من أحلاف لواته ، الذين نزلوا بالمنوفية . . ومعنى هذا أن حى باب الشعرية يعود إلى بداية نشأة القاهرة ، والذين جاءوا مع جوهر الصقلى ضمن الجيش الفاطمى ، الذى جاء من المغرب لفتح مصر . .

ويؤكد هذا أن الخليفة الفاطمى العزيز بن المعز بنى منظرة اللؤلؤة على الخليج بالقرب من باب القنطرة جهة جامع الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، وكانت من أحسن منتزهاتهم ؛ إذ كانت تشرف على الخليج من جهة الغرب ، وعلى البستان الكافورى من الشرق ، وجعل لها سرداباً تحت الأرض « نفقاً » متصلاً بالقصر الكبير، وكان يركب فى هذا السرداب من القصر الكبير إلى اللؤلؤة ، ويتجول فيها فى أيام زيادة منسوب المياه فى الخليج بحرمه وخواصه ، وكانت تطل على بستان المقسى « عند باب الحديد الآن» . . وكان هذا البستان كبيراً جداً يمتد إلى شاطىء النيل ، عندما كان يصل إلى هذا الموقع عند باب الحديد. وكان مكان بستان المقسى هو أول شارع الجمهورية «إبراهيم باشا سابقاً » ؛ حيث جامع أولاد عنان الذى مكانه الآن جامع الفتح ،وكان هذا البستان يصل إلى بركة الأزبكية والموسكى . .

كما بنى العزيز داراً للصناعة « لبناء السفن » بالمقس أى المكوس أى الجمارك ، بالقرب من موضع جامع أولاد عنان ، وأنشأ المراكب التى لم ير لها مثيلاً من قبل عظمة ومتانة وحسناً . وكان ليوم خروج الأسطول رسوم واحتفالات ومهرجانات ، ذكرها المقريزى فى خططه. وكان الخلفاء الفاطميون يخرجون للفرجة ؛ فيمتلىء وجه النيل وساحله بالمتفرجين ، ويكون ذلك اليوم من المواسم المشهورة .

وكان فى باب الشعرية رقعة للقمح بجهة العدوى بشارع الزعفران بثمن باب الشعرية ، يباع فيها القمح والشعير والفول والذرة .

●● وباب الشعرية ذكره الفرنسيون خلال حملة بونابرت باسم باب العدوى؛ لوجوده مقابل جامع العدوى الموجود الآن بأول سكة الفجالة من ناحية الخليج المصرى شمال سور صلاح الدين ، الذى كان يصل من القلعة إلى باب الحديد .. وباب

الشعرية كان فى الامتداد الذى مده قره قوش من باب القنطرة إلى باب البحر ، فهل يعنى هذا أنه أيوبى الأصل ؟!

وفى عصر الخديو إسماعيل ، ولسهولة الضبط والربط . . تم تقسيم القاهرة إلى ثمانية أثمان « أقسام إدارية » ، وكل ثُمن ينقسم إلى شياخات تكثر وتقل بالنسبة لكبر الثمن وصغره ، ولكل ثُمن شيخ كان يعرف بشيخ الثمن مرتبه شهرياً من المحافظة ١٠٠ قرش صاغ .

ولكل شياخة شيخ يعرف بشيخ الحارة ليس له راتب من المحافظة ، وإنما يحصل على رزقه مما يكسبه من نقود يأخذها برسم « الحلوان » من سكان الأملاك التى فى شياخته ، لأن العادة كانت أن كل من أراد أن يؤجر بيتاً فى حارة ، يكون ذلك بمعرفة شيخ الحارة . وبعد تأجيره البيت يدفع له أجرة شهر برسم الحلوان ، أين هذا مما نعيشه الآن بعد حوالى ١٠٠ عام مما نتحدث عنه . . ؟!

وكانت أثمان القاهرة ، هى : ثمن الموسكى . . ثمن الأزبكية . . ثمن باب الشعرية . . الجمالية . . الدرب الأحمر . . الخليفة . . عابدين . . السيدة زينب . . مصر عتيقة . . بولاق . .

وكان ثمن باب الشعرية هو ثانى أكبر الأثمان ، التى يتم فيها تحصيل العوايد بعد ثمن الأزبكية الذى كان يأتى فى المقدمة . . وبعده ثمن الجمالية ، ثم ثمن بولاق . . نقول هذا لنبين أهمية ثمن باب الشعرية أيام الخديو إسماعيل ، وكان ثمن مصر القديمة هو الأقل ؛ أى إنه فقد أهميته القديمة رغم أنه كان ميناء القاهرة الأول ، قبل أن يتدهور حاله .

ومن حيث عدد المبانى و المحال ، كان الأول هو ثمن الأزبكية ،ثم بولاق ثم الجمالية، ويأتى ثمن باب الشعرية فى الترتيب الرابع ، والأخير ثمن قوصون . .

وفى الخطط التوفيقية للعلامة على باشا مبارك وصف تفصيلى لشوارع وحوارى

وعطف وأزقة حى باب الشعرية .. فما حالة هذا الحى وشوارعه عند عام ١٨٧٥ـ١٨٨٠م ؟

يقول على باشا مبارك :

كان أكبر شوارع باب الشعرية هو الشارع الطولى ، الذى يبدأ من قره قول « قسم شرطة » باب الشعرية ، وانتهاؤه بوابة مسجد السيدة زينب رضى الله عنها .. وهى بوابة الخلاء القريبة من زاوية الحبيبى ، وطوله ٣٦٠٠م . وهذا الشارع حين يقابل القره قول الذى بجوار السيدة زينب ينعطف جهة اليمين حتى يمر على قناطر السباع ، وكانت أكبر القناطر على الخليج أمام السيدة زينب والشيخ العتريس . ثم ينعطف إلى اليسار ماراً على الجهة الغربية من مقام ومسجد السيدة بطريق مصر العتيقة ؛ حتى ينتهى إلى بوابة الخلاء المعروفة ببوابة السيدة .

وشارع الشعرانى : ابتداؤه من قره اقول باب الشعرية ، وينتهى إلى ضريح سيدى على الحمار .. وعلى يسار المار به حارة كبيرة تعرف بحارة الشعرانى تجاه جامع الأستاذ الشعرانى يسلك منها لحارة برجوان وللخرنفش .. وبها ٧ عطف : الأولى عطفة الفرن، وعطفة الزاوية ، وعطفة سيدى على وفا ، والعطفة الصغيرة ، وعطفة الجداوى ، وعطفة الغندور ، والعطفة الضيقة ، وبهذه الحارة حمام الشعرانى .

ومن جهة اليمين نجد فيها جامع الشعرانى ، وهو ضريح الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعرانى صاحب التآليف الشهيرة ، داخل الجامع المعروف باسمه ، وهو على يمين الذاهب من شارع باب الشعرية إلى شارع الموسكى .. أنشأه القاضى عبد القادر الأرزبكى نسبة للأمير أرزبك أحد أمراء الجراكسة ، وجعله مدرسة ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة وشعائره مقامة من ريعها إلى الآن (زمن على مبارك) ، ويعمل لسيدى عبد الوهاب حضرة كل أسبوع ومولد كل عام . وبأسفل هذا الجامع سبيل تابع له ، كان يملأ كل سنة من الخليج المصرى ، وبجواره مباشرة ضريح يعرف بضريح الخضر .

وبجوار مسجد الشعرانى ، عاش الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب . وعندما كان محمد عبد الوهاب يتكلم عن طفولته ، كان يذكر بكل إعزاز مولد سيدى الشعرانى ، وحلقات الذكر التى كانت تنصب كل مساء . ومنه وخلالها حفظ التواشيح الدينية والابتهالات التى كانت تشتهر بها الموالد ، وأثر كل هذا فى وجدان الفنان الكبير . ومن المؤكد أن الشيخ الشعرانى ينسب لهذه القبيلة المغربية البربرية الأصل . .

وبأول الشارع زاوية أبى العشائرعند باب القنطرة ، ويقال لها أيضاً جامع أبى الأشائر ، وعرف المسجد أو الزاوية باسم منشئها أبى السعود بن أبى العشائر ، وكان من أجلاء مشايخ مصر . وبآخره زاوية خوند بجوار ضريح الأربعين ، منقوش على بابها فى الحجر اسم فاطمة خوند ، وهى مقامة الشعائر وبها منبر ، وكانت تعرف أولاً بمدرسة أم خوند ، وكان سيدى عبد الهاب الشعرانى يتعبد بها .

وبهذا الشارع أيضاً ثلاثة أضرحة : أحدها ضريح أبى الحمائل داخل زاويته تجاه زاوية خوند ، ثم ضريح سيدى عصفور .

يقول الشعرانى :

وكان تجاه زاوية أبى الحمائل زاوية مدفون فيها سيدى إبراهيم بن عصيفير الذى حرفه العامة إلى عصفور ، وكان خطه الذى يمشى فيه من باب الشعرية إلى قنطرة الموسكى وإلى جامع الغمرى . وثالثها ضريح سيدى على الحمَّار وهو أحد مشايخ الشعرانى .

هذا هو وصف شارع الشعرانى فى وقت على مبارك . أما فى الأزمان القديمة فكان يعرف بخط باب القنطرة . . وقال المقريزى :

وخط باب القنطرة كان يعرف قديماً بحارة المرتاحية وحارة الفرصية والرماحين . وكان ما بين الرماحين الذى يعرف اليوم بباب القوس داخل باب القنطرة وبين الخليج فضاء لا عمارة فيه !! بطول ما بين الرماحين إلى باب الخوخة ، وإلى باب سعادة وإلى باب الفرج .

ولم يكن إذ ذاك « أيام المقريزى » أى عمائر على حافة الخليج . وإنما العمائر من جانب الكافورى وهى منظرة اللؤلؤة وما جاورها من قبليها إلى باب الفرج ـ وتخرج العامة عصريات كل يوم إلى شاطىء الخليج الشرقى تحت المناظر للتفرج ، فإن بر الخليج الغربى كان فضاء (!!) مابين بساتين وبرك . .

هكذا يقول المقريزى : « وسبحان مغير الأحوال حيث أصبحت هذه المنطقة هى أكثر مناطق مصر كثافة فى السكان الآن ، بل هى من أكثر مناطق العالم كله كثافة!! . . »

أما المرتاحية والفرصية فهى طوائف من عسكر الدولة الفاطمية ، سكنوا فى هذه المنطقة ، فعرفت باسمهم . . ونسبت إليهم . .

●● أما شارع باب الشعرية الصغير :

« يقول على مبارك فى خططه التوفيقية : فكان يبدأ من شارع الطنبلى بجوار قنطرة العدوى ، وينتهى لشارع باب الشعرية الكبير ، وطوله ٢٤٠ متراً وبه من جهة اليسار ٣ عطف غير نافذة ، هى: عطفة المصطاحى ، وهى فوق قنطرة قديمة على الخليج بناها الفاطميون . . والثانية هى عطفة زند الفيل (!!) وعطفة قرباصة . أما من جهة اليمين . . ففيها عطفة المستوقد ، بداخلها مستوقد حمام الطنبلى ، وبآخره زاوية تعرف بزاوية بهاء الدين المجذوب .

وبهذا الشارع نجد جامع المغاربة ، ويعرف باسم جامع الجنينة على شط الخليج ، وبه سبيلان : أحدهما وقف الشيخ مصطفى الجلالى وفوقه أماكن للسكنى ، والآخر وقف الحرمين . وعدة وكائل ، منها : وكالة القمح القديمة المعروفة أيام على مبارك باسم وكالة البرتقال ، ووكالة الجلالى كانت لبيع الحصر، ووكالة حسن كتخدا لبيع الأخشاب ، ووكالة الجاموس لتشغيل النجارة .

●● وشارع باب الشعرية الكبير : أوله من بداية شارع الشعرانى آخر شارع مرجوش ، وينتهى شارع قنطرة الدكة وطوله ١٣٠٠م ، وينقسم إلى ٤ أقسام .

●● القسم الأول :

شارع باب الشعرية الكبير الذى يبدأ من شارع مرجوش ، وينتهى إلى شارع أبى بدير ويقطعه الخليج المصرى ، وبه من اليسار عطفتان غير نافذتين : إحداهما بجوار الخليج من الجهة الغربية ، والأخرى بجوار حمام الخراطين .

ومن جهة اليمين فيها حارة المغربل . ودرب الرزاق ، ومحله بعض شارع باب الشعرية ، وبهذا الشارع سبيل السليمانية . وفى مقابله قره قول باب الشعرية ، وكان يقيم به « معاون الثمن » وبه وكالتان : إحداهما وكالة الشكلى من وقف حسن كتخدا ، ووكالة الزيت .

●● القسم الثانى :

هو شارع أبى بدير ، يبدأ من آخر شارع باب الشعرية ، وآخره أول شارع سوق الخشب . وبه من جهة اليمين درب سيدى مدين ، وبداخله جامع سيدى مدين وزاوية سيدى غيث . وهذا الدرب يسلك منه إلى شارع سوق الزلط من درب الطباخ إلى شارع الطواشى ، وبهذا الشارع جامع أبى بدير ، ويقابله جامع الزاهد .

●● القسم الثالث :

شارع سوق الخشب وأوله آخر شارع أبى بدير ، وآخره شارع باب البحر . وبه من جهة اليسار بآخره جامع الست سلمى الحلبية ، ومن جهة اليمين درب الركراكى الغربى ، ثم درب سعيدة ، ويسلك منه سوق البقر ، وبآخر هذا الدرب ضريح الشيخ العجمى .

●● القسم الرابع :

شارع باب البحر . . أوله من آخر شارع سوق الخشب وآخره شارع قنطرة الدكة ، وبه جامع الشيخ محمد البحر ، وبداخله قبره وقبر الشيخ تاج الدين ، ولهما مولد . ومن جهة اليسار ٣ عطف ثم درب التركمانى وجامعه . ومن اليمين عطفة سوق

البقر، وعطفة العراقى ، وعطفة الأخضر، وعطفة الأشعل ، والسيوفى والغنامة . وهناك حمامان وجباسة المعلم عبادة أحمد . .

وشارع الدرب الواسع : أوله من آخر شارع باب البحر غربى جامع الفرا ، وينتهى لشارع درب القبيلة وطوله ٣٠٦ أمتار ، ومن عطفه : عطفة شق الثعبان ، وعطفة كنيسة الأقباط .

وشارع الدرب الإبراهيمى : أوله من شارع باب البحر بجوار جامع أولاد عنان ، وآخره شارع درب القبيلة ، ويقطعه شارع كلوت بك .

وشارع ميدان القطن ، ويبدأ من شارع باب الشعرية ، وينتهى لشارع القنطرة بجوار سيدى عبد السلام وطوله ٢٠٠م .

وشارع التمار ، الذى يبدأ من أمام جامع السعيد بشارع ميدان القطن وآخره عطفة نخلة وطوله ٣١٦ متراً وعن يمين المار به ٦ عطف ، وفيه زاوية التمار وبداخلها ضريح سيدى محمد أبى الحسن التمار .

وشارع بئر الخمص وأوله من آخر حارة الميدان وشارع الغيط ، وآخره أول شارع وسعة الجير .

أما شارع وسعة الجير ، فيبدأ من آخر شارع بئر الحمص تجاه عطفة قشاش ، وينتهى لشارع البيلى بجوار جامع الرويعى وطوله ٣٠٠م ، وبه عدة عطف أبرزها عطفة سماسم . . وعطفة العويل . . وعطفة الغسالة ، ومن الجهة البحرية منازل الوسعة ، ومن الجهة الشرقية سكة الوسعة . و كانت بهذه المنطقة مقابر فى درب النوبى ، بيعت أرضها إلى محمد أفندى على « التراب » وشركائه خليل التراب وحسن التراب ومساحتها ٣٠٠٠ متر وكسور . وكانت تحيط بها منازل درب النوبى من الجهة القبلية ، ومن الجهة البحرية منازل الوسعة ومن الجهة الشرقية سكة الوسعة ، وزاوية الشيخ حماد وضريح الشيخ البحيرى ، الذى جدده محمد أفندى على التراب . .

وفى عام ١٢٩٦هـ ، باعت الحكومة أرض هذه المقابر إلى محمد أفندى على التراب وشركائه الحاج خليل إبراهيم التراب وحسن أفندى التراب بسعر المتر نصف بينتو . . وبنوا فيها عدة بيوت ، سكن بها النساء الفواحش ، على حد تعبير على باشا مبارك . وأصبحت هذه المنطقة « منطقة وسعة الجير مشهورة بالوسعة وبسكانها من النساء سيئات السمعة فى الردح والسلوك والعنف . وهذا هو سر وصف أى سيدة سيئة إنها جاءت من الوسعة !! وهناك جباسة المعلم حسن عباسى ، وربما كانت هذه الجباسة وراء تسمية المنطقه باسم « وسعة . . الجير » .

●● وشارع الفوطية الذى يبدأ من أول شارع سوق الخشب وآخر شارع أبى بدير ويمتد لشارع البيلى ، ودرب القطة وطوله ١٦٠م ، وهناك سبيل محمد عيد الشيمى ، الذى أنشىء عام ١٢٨٧هـ .

وشارع البيلى يبدأ من آخر شارع الفوطية ، وينتهى بشارع البكرية وشارع الرويعى وطوله ٢١٠ أمتار ، وبه ضريح الشيخ البيلى . .

●● ثم شارع درب رياش ، الذى يبدأ من شارع البيلى بجوار الجامع الأحمر ، الذى جدده الأمير سليمان أغا السلحدار عام ١٢٢٧هـ ، وينتهى لشارع القبيلة وطوله ٢١٢ متراً ، ويقطعه شارع كلوت بك ، وبأوله الجامع الأحمر ، وكان خلف الجامع مقبرة قديمة ، تعرف بترب الجامع الأحمر ، مساحتها فدان ونصف فدان ، اشتراها أيضاً محمد على التراب وشركاؤه ، وقسموها بيوتاً وحارات ولم يبق للمقبرة أثر .

وبقرب الجامع حمام يعرف بحمام الجامع الأحمر ، ويقال له أحيانا حمام الرويعى ، أنشأه السيد أحمد الرويعى صاحب جامع الرويعى بقرب جامع البكرى . وبهذا الشارع من جهة اليمين عدة عطف ودروب ، منها : درب الدحديرة وبداخله كنيسة السبع بنات . ومن جهة اليسار دروب ، منها : درب عبد الخالق ، ودرب القطة أوله من آخر شارع الفوطية ، وآخره شارع درب رياش ، ودرب الخواجات .

●● وشارع درب القبيلة ، ويبدأ من آخر شارع درب رياش ، وينتهى لشارع قنطرة الدكة ، وشارع وجه البركة وطوله ٤٠٠م ، وشارع درب طياب ٩٠م ، وشارع الغيط

ويقال له شارع درب مصطفى ، وأوله من شارع بئر الحمص وآخره شارع العلوة وطوله ٣١٦م . وشارع العلوة وفيه الجامع المعلق ، الذى يشرف على الخليج المصرى ، وشارع القنطرة الجديدة ، ويبدأ من آخر شارع ميدان القطن بجوار سيدى عبد السلام، وينتهى أول شارع البندقية وطوله ٢٦٤م وعرف بالقنطرة التى انشأها محمد على باشا ليتوصل من فوقها إلى الخرنفش ، وهذا الشارع به عديد من الكنائس ، مثل : الموارنة ، وكنيسة الشوام ، وكنيسة الأرمن الكاثوليك .

وشارع البندقية من آخر القنطرة الجديدة ، وينتهى لشارع درب المزين ، وشارع حوش الحين ، وشارع درب المزين يبدأ من آخر شارع البندقية ، وأوله شارع حوش الحين وينتهى لشارع الموسكى تجاه حارة الفرنج . أما شارع حوش الحين . . فأوله من آخر شارع البندقية ، وأول شارع درب المزين ، وآخره درب البرابرة وطوله ١٥٤م .

وشارع السكة القديمة يبدأ من شارع الموسكى ، وينتهى بشارع الموسكى غربى كوم الشيخ سلامة ، وبداخل درب البرابرة جامع يوسف عزبان .

●● أما شارع البكرية . . فيبدأ من آخر شارع البيلى ، وينتهى لباب الهواء وطوله ١٧٥م ، وبوسطه جامع الشرايبى ، وهوعن يسار من يسلك من الموسكى إلى الجامع الأحمر ، أنشأه الحاج قاسم ابن الخواجا الحاج محمد الدادة الشرايبى عام ١١٤٥هـ ، ويعرف أحياناً باسم جامع البكرى لدفن المجذوب السيد على البكرى به ، الذى كان يمشى عريانا يحمل نبوتاً كبيراً ، وهو لاينسب لعائلة البكرى ، ولكنه حمل الاسم لأنه سكن بسويقة البكرى .

وشارع الرويعى ويبدأ من أول شارع البكرية ، وينتهى لشارع وجه البركة ، وطوله ١٤٠م ، وبأوله جامع الرويعى بقرب جامع البكرى . أنشأه السيد أحمد الرويعى شاه بندر التجار بمصر فى القرن التاسع الهجرى ، وبداخله صهريج . وفى مقابله مدفن السيد أحمد الرويعى المذكور . . وإلى هنا انتهى بيان أوصاف شارع جهة باب الشعرية ، وما يليها من جهة باب البحر والفوطية وجهة ميدان القطن والبكرية وغيرها .

●● أما شارع السكة الجديدة . . فيبدأ من جهة ترب الغريب ، وينتهى أول شارع الموسكى ، وهو الذى أمر بفتحه محمد على باشا عام ١٢٦٠هـ ، بعد أن سكن الإفرنج الأزبكية والموسكى وفيه ٧ عطف ، منها : عطفة السبع قاعات التى بها ضريح الشيخ عيد ، وهو صاحب الحمام المعروف بالسبع قاعات .

وشارع الموسكى . . أوله من آخر شارع السكة الجديدة من عند قنطرة الموسكى بجوار القره قول « قسم شرطة الموسكى » ، وآخره شارع العتبة الخضراء . وهو ينسب للأمير عز الدين موسك ، قريب السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وهو الذى أنشأ القنطرة المعروفة بقنطرة الموسكى ، ومات بدمشق . وبهذا الشارع من جهة اليسار حارتان : الأولى حارة الفرنج يسلك منها للدرب الجديد ، وحارة حوش الدماهرة يتوصل منها لدرب الزيات ، وشارع الدرب الجديد بجهة اليسار من شارع الموسكى وطوله ١١٠م يصل إلى حارة الفرنج ، وبه جامع العجمى .

وشارع العلوة . . أوله من شارع الموسكى وآخره زاوية الشيخ سلامة ، وشارع كوم الشيخ سلامة بشارع العلوة من جهة اليمين وطوله ١٢٠م ، وبه جامع كوم الشيخ سلامه برأس شارع الموسكى ، ويعرف أيضاً بجامع الشيخ عبد الغنى ؛ لأن خطيبه كان هو الشيخ عبد الغنى الملوانى المالكى ، أحد علماء الأزهر وشيخ السجادة البيومية ثم زاوية الساكت .

●● وشارع المناصرة . . أوله من سكة قنطرة الأمير حسين بقرب جامع المرصفى وآخره شارع السويقة ، وطوله ٤٦٠م ، وكان بهذا الشارع درب قديم يعرف بدرب كوسا ، ذكره المقريزى ؛ حيث قال :

هو الآن يسلك فيه على شاطىء الخليج الكبير من قنطرة الأمير حسين إلى قنطرة الموسكى ، وعرف بحسام الدين كوسا أحد مقدمى الخلفاء أيام الملك المنصور قلاوون . ومات بعد عام ٦٨٤هـ ، ومحله الآن أول هذا الشارع من عند جامع المرصفى إلى آخر بيت الشيخ المفتى .

وشارع سويقة المناصرة . . أوله من آخر شارع المناصرة ، وآخره شارع العشماوى . ويقطعه شارع محمد على وطوله ٣٦٠م ، وبه من اليسار ٤ دروب ، هى : درب الصباغة . . درب القصاص . . درب أبى طبق بجوار زاوية الأربعين التى تحولت إلى مكتب لتعليم الأطفال ، ودرب المنجمة . أما من جهة اليمين ، ففيها ٥ عطف وحارة قلعة الكلاب ! !

وشارع الخليج المرخم وشارع درب الطواب ، وشارع القراعلى ومنه إلى حارة شق الثعبان وشارع التميمى . .

حى الحرف .. والخمارات !!

وباب الشعرية هو بأى مقياس حى الحرف والصنايعية من كل الحرف . وفى نهاية القرن ١٩ كان مشهوراً بأنه حى العلافين والقزازين والقماشين والزياتين والعطارين . . وبحكم تواجد هذه العمالة اليدوية الكثيفة ، وبحكم تلاحم الأزقة ، والدروب والعطف . . كثرت به الخمارات ، ومحال إعداد وبيع وتقديم البوظة التى كتبها على باشا مبارك « البوزة » . . وهى غير الجيلاتى الذى يطلق عليه أهل لبنان والشام : البوظة . أما البوظة المصرية . . فهى تصنع من مخلفات الخبز و الشعير ؛ حيث يتم تخميرها وتقديمها كمشروب يذهب بالوعى ، وهى تقدم إما فى قصعة من الفخار الأحمر ، أو نصف ثمرة القرع بعد تفريغها ، وكانت تسمى « القرعة » .

و إذا كان « ثُمن الأزبكية » يأتى فى مقدمة أثمان القاهرة ، من حيث : عدد المقاهى ودكاكين العطارين والخمارات والبوز والعلافين والقزازين والقماشين والزياتين ، فإن ثُمن باب الشعرية يأتى فى الترتيب الثالث حيث كان به ٦٦ مقهى و٥٦ خمارة و٣ بوز . . و١١٢ عطاراً و١٣٨ قزازاً و٧٨ زياتاً و٢٤ قماشاً و٤٤ علافاً بمجموع ٥٢١ محلاً . . بينما كان ثُمن الجمالية فيه ٥٦٣ محلاً .

وكان فى باب الشعرية اثنتان من الأجزاخانات ، بينما كان هناك ٦ بشارع كلوت بك و٨ بشارع الموسكى ، و٥ بالأزبكية . . وهكذا . . ويلاحظ ارتفاع عدد الخمارات

والبوز فهما معاً يقتربان من عدد المقاهى ، فهل كانت الخمور متوافرة إلى هذا الحد فى هذا الحى الشعبى العريق ؟ . . أم أنها طبيعة أهل الحرف ، الذين يريدون نسيان واقعهم الأليم ؟! .

ومع كل هذا كانت هناك رقعة « أو عرصة » بجهة العدوى بشارع الزعفرانى بثمن باب الشعرية ، يباع فيها القمح و الشعير و الفول و الذرة . .

باب الحكم و المحكمة .. ودار الكتب

●● إذًا باب الشعرية هو الباب الذى يؤدى إلى الحى أو المكان الذى سكنته قبيلة الشعرية البربرية القادمة من المغرب . كما أن باب زويلة هو المؤدى إلى الحى الذى سكنته قبيلة زويلة زميلتها القادمة أيضاً من المغرب مع جوهر القائد فا تح مصر . وباب اللوق هو الذى يؤدى إلى أرض اللوق ، وكذلك باب النصر وباب الفتوح حيث كانت تخرج الجيوش المصرية من باب الفتوح . . وتعود للقاهرة عبر باب النصر بعد أن يكتب لها الله النصر على أعدائها . .

ولأن القاهرة المعزية ـ عندما أنشأها جوهر القائد ـ كانت مدينة لسكن الخليفة وكبار موظفيه وقادة جيوشه ، ولم يسمح للناس بالإقامة فيها . . فإن الناس أقاموا بالقرب منها ؛ ليتمكنوا من الدخول إليها للعمل و التجارة . . ثم العودة إلى أماكن سكنهم خارجها . ولم يتمكن هؤلاء من السكن فيها إلا فى زمن الضعف الفاطمى خصوصاً أيام الشدة المستنصرية وبعدها وهكذا سكن الناس أقرب الأماكن إلى مقر الحكم . فكان الاختيار أرضًا باب الشعرية ، الذى تلاصق حدوده الشرقية الحدود الجنوبية لحى قصبة القاهرة الفاطمية حيث شارع المعز الآن . وحيث القصر الكبير والقصر الصغير ـ عند بيت القاضى الآن ـ تماماً كما ظلت مدينة مصر هى حى الفسطاط أول عاصمة لمصر الإسلامية . . وظلت العسكر و القطائع خارج مقر الحكم فى القاهرة الفاطمية .

إذًا بحكم قرب باب الشعرية من مقر الحكم ، ظل هذا الحى هو حى العمال والعمالة الضرورية . وظل هذا الوضع قائماً طوال العهود التالية : الأيوبى والمملوكى

الشعرانى . . والأسرة العلوية . ولهذا السبب أصبح باب الشعرية هو الحى الأكثر كثافة فى عدد السكان . بل إن هذا الحى يأتى فى المرتبة الأولى من حيث نسبة كثافة السكان إلى المساحة ، ويدل على ذلك أن به أكبر نسبة من الأزقة و الحارات و العطف المفتوحة أو غير النافذة ، وانعكس هذا على سعر متر الأرض ، ويدل على ذلك أيضاً كثرة عدد المساجد و الدكاكين وأيضاً المقاهى و الخمارات . . والبوظ !!

وهل هناك أدل على أهمية هذا الحى من أن مقر المحافظة الذى أصبح مقراً للأمن ومديرية الأمن كان به ، ومقر للعدل إذ به كانت محكمة الاستئناف ـ فى باب الخلق ـ وعندما أراد الخديو إسماعيل « خامس حكام مصر من أسرة محمد على التى حكمت مصر حوالى ١٥٠ عاماً » أن ينشئ أول مكتبة قومية ، اختار هذا الحى ، وعند باب الخلق لينشئ دار الكتبخانة المصرية « دار الكتب » ، وبجوارها تماماً أنشئ المتحف الإسلامى . . كل هذا على شاطئ الخليج المصرى .

وإذا كان تعبير فتوات القاهرة يلصق بحى الحسينية المجاور . . إلا أن التاريخ يحمل أيضاً الوصف نفسه ، فكان هناك حرافيش وفتوات باب . . الشعرية .

وفى العصر الحديث لا يمكن أن نغلق ملف حى باب الشعرية ، دون الحديث عن شخصيتين من أبرز الذين عاشوا فيه أو عملوا ، أو عايشوا أهله . .

الأول هو الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب ، الذى عاش طفولته كلها فى هذا الحى العريق . وما من حديث أدلى به عن طفولته ، إلا وكان لباب الشعرية أحلى الكلام ؛ إذ يروى كيف عاش بالقرب من مسجد سيدى عبد الوهاب الشعرانى وكيف أنه كان حريصاً ـ خلال أيام مولد الشيخ الأستاذ ـ على متابعة حلقات الذكر ، وكانت تشده الأناشيد الدينية والتواشيح والدفوف والطبول وأرغفة الخبز بالفول النابت . وكيف كان يهرب من أسرته ؛ ليختبئ خلف السرادقات ، ثم يتسلل من تحتها ليقترب من المنشدين والمشايخ فيهتز معهم ويردد تواشيحهم . وهكذا شرب محمد عبد الوهاب

عشقه الفنى الأول من رحاب الشيخ الشعرانى ، وعبر عن ذلك بكثير من أعماله الدينية، لعل أبرزها توشيحه : « أغثنا يارسول الله . . » .

إنسان آخر عاش فى باب الشعرية ، بدأ من القاع كما بدأ كل أبناء الحى . . عاملاً بسيطاً . . هو سيد جلال البرلمانى العملاق الذى صال وجال تحت القبة حتى أصبح شيخاً للبرلمانيين . . هذا النائب العملاق بدأ حياته « عربجياً » على عربة كارو بحمار، ولأنه كان يحس وينفعل بمشاعر ومشاكل أبناء الحى . . رفعوه فوق الأكتاف ، حتى أصبح نائبهم المفضل . وعندما عاد بعد عودة الحياة البرلمانية ، ركب سيد جلال عربة كارو وارتدى ملابس العربجى ، ووضع على ذراعه وعلى صدره العلامة النحاسية الصفراء ، التى كان يفخر بها ، ولم يكن مسموحاً إلا لمن يحملها بالعمل فى المهنة . وانطلق سيد جلال بهذه الصورة التى تمثل بدايته وفى يده الكرباج يطرقع به ، وهو يهتف من فوق الكارو : العربجى سيد جلال رجع لكم . . يارجاله . . وبكى أبناء الحى وحملوه على الأعناق إلى أن أجلسوه على مقعده فى البرلمان . ومازال أثر سيد جلال شاهداً على بعض ما قدمه الرجل لأبناء الحى . إنه مستشفى سيد جلال بباب الشعرية، الذى بناه الرجل وقدمه هدية للذين حملوه إلى . . البرلمان . .

****

النيل .. كان عند باب الحديد !

لأن باب الشعرية كانت تصل حدوده مع شارع باب البحر إلى ميدان باب الحديد الآن . . فلابد من أن نحكى حكاية هذه المنطقة التى كانت حدودها تمتد من الأزبكية إلى شارع الجمهورية الآن ، إلى جامع الفتح ـ مكان جامع أولاد عنان ـ فإننا لابد أن نتوسع لنصف كيف كان نهر النيل يصل إلى هذا المكان بالضبط . . وإذا كان مكان جامع أولاد عنان هو الشاطئ الشرقى للنيل فى هذا الموقع ، فإنه لم يكن بينه وبين الشاطئ الغربى للنيل ، حيث الجيزة . . أى عمار أو منشآت . . .

وبين منطقة الأزبكية وخليج الذكر وقنطرة الدكة إلى باب الحديد . . كانت هناك قرية مصرية قديمة قبل الفتح العربى لمصر هى « أم دنين » . يقول على باشا مبارك فى خططه ، نقلاً عن المقريزى فى خططه إن قرية أم دنين هذه كانت تعرف أيضاً بالمقس . والمقس اسم قديم كان فى أيام الرومان يعرف بأم دنين . وكان فيها دير وكنيسة ، وفى هذا المكان أنشأ المعز لدين الله الفاطمى موقعاً لصناعة السفن الحربية البحرية الضخمة ؛ أى الأسطول المصرى . وفى الموقع نفسه أنشأ الحاكم بأمر الله الفاطمى جامع المقس الذى تسميه العامة ـ أيام المقريزى ـ جامع المقسى ، الذى كان يطل على الخليج الناصرى أيام على باشا مبارك آخر أيام الخديو إسماعيل وأول أيام الخديو توفيق ، ويقال إن الحاكم بأمر الله أنشأ هذا المسجد مكان الدير والكنيسة ، التى أمر بهدمها لبناء هذا المسجد . .

وجامع أولاد عنان ـ هو جامع المقس ، الذى بنى بقرب قنطرة الخليج ، الذى أصبح جزءاً من ترعة الإسماعيلية الحلوة التى كانت تخرج من تحت أقدام كوبرى ٦ أكتوبر الحالى بين فندق هيلتون رمسيس ومبنى الاتحاد الاشتراكى ؛ حيث كانت هناك كنيسة إنجليزية هدمت فى منتصف السبعينيات لتفسح مكاناً لكوبرى ٦ أكتوبر . .

وفى عام ٧٧٠هـ جدد الجامع الوزير الصاحب شمس الدين عبدالله المقسى ، وهدم القلعة التى كانت موجودة ، والتى يقال إن صلاح الدين الأيوبى هو الذى أمر ببنائها ، عندما بدأ بهاء الدين قراقوش بناء سور القاهرة ، الذى كان يصل إلى مكان جامع المقس هذا . وتحول مكان هذه القلعة بعد أن هدمها عبد الله المقسى هذا ، إلى جنينة للعامة ، وأطلق العامة على المسجد اسم المقسى لأنه هو الذى جدده وبيضه ، وبه ضريح سيدى محمد بن عنان .

●● ونقل المقريزى عن القاضى أبى عبدالله القضاعى أن المقس كانت ضيعة تعرف بأم دنين ، وإنما سميت المقس لأن العاشر كان يقعد بها وصاحب المكس فقيل المكس . . وقلب الاسم فقيل المقس . ثم نقل عن ابن عبد الظاهر أنه قال فى كتاب خطط القاهرة : وسمعت من يقول إنه المقسم بالميم . قيل لأن قسمة الغنائم عند الفتوح كانت به . ثم قال : وقال العماد محمد بن أبى الفرج الأصفهانى فى كتابه سنى البرق الشامى : « وجلس الملك الكامل محمد بن السلطان العادل الأيوبى فى البرج الذى بجوار جامع المقسم فى السابع والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة . وهذا المقسم على شاطئ النيل يزار . وهناك مسجد يتبرك به الأبرار ، هو المكان الذى قسمت فيه الغنائم عند استيلاء الصحابة على مصر .

●● وذكر عند الكلام على منظرة المقس أنها كانت من جملة مناظر الخلفاء الفاطميين ، وكانت بجوار جامع المقس من الجهة البحرية ، وهى مطلة على النيل ، وكان حينئذ ساحل النيل بالمقس ، وكانت هذه المنظرة معدة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول للغزو . ويقول على باشا مبارك « وقد خربت هذه المنظرة وكان موضعها

برجاً كبيراً صار يعرف فى عصر الدولة الأيوبية بقلعة المكس « المقس » ، فلما جدد الصاحب شمس الدين المقسى الجامع على ما هو عليه أيام على مبارك ، هدم هذا البرج ، وجعل مكانه جنينة شرقى الجامع ، ومحل هذه الجنينة بعض الشارع الذى تجاه جامع أولاد عنان « جامع الفتح الآن » ، وقد بقى أثرها أيام الحملة الفرنسية ، ووضعوها على خرائطهم، ولم تكن هناك ـ وقتها ـ أى مبان على الضفة المقابلة للجامع التى بها الآن سبيل أم حسين بك ، نجل محمد على الصغير المعروف بسبيل أولاد عنان التى أنشئ عام ١٨٦٩م .

وفى هذا المكان كان الخليفة يستعرض قوات الأسطول المصرى البحرى عند خروجه للغزو . . أو للدفاع ، وتجرى استعراضات بحرية عظيمة . ثم ينحدر الأسطول إلى دمياط ، وهناك يخرج إلى البحر المالح « البحر المتوسط » .

●● وفى زمن الحملة الفرنسية كان شارع قنطرة الدكة غيرمعمور . وكان المار فيه من عند قنطرة الدكة إلى باب الحديد يجد عن يمينه قبوراً بجوار المنزل الذى سكن فيه لينان باشا . ومحل هذه القبور تكية سكنها بعض الدراويش ، ويجد عن يساره براحاً هو موضع منزل نوبار باشا (أيام الخديو إسماعيل) ، وما جاور ذلك من الطرفين كان بستانا . وربما بسبب وجود بيت نوبار باشا « أول رئيس للوزراء فى مصر » أطلق اسم نوبار على هذا الشارع ، أى شارع نوبار ، وظل هذا الاسم باقياً إلى أن تحول إلى اسم شارع إبراهيم باشا . . الذى أصبح الآن شارع الجمهورية . .

أما جامع أولاد عنان فقد تم فكه فى التسعينيات من القرن العشرين ، وإضافته إلى جامع السيدة عائشة . وأقيم مكانه جامع الفتح الذى به منارة هى الأعلى فى كل مصر . . وأعيد دفن سيدى محمد بن عنان ، وتم بقرار من رئيس وزراء مصر تعديل الاسم الرسمى لجامع الفتح إلى أن أصبح جامع الفتح وأولاد عنان ، ليظل اسم أولاد عنان باقياً على مدى ١٠ قرون .

****

العتبة .. كانت زرقاء !!

ميدان العتبة الخضراء هو الحد الجنوبى، الذى يفصل حى باب الشعرية عن حى الموسكى . .

والعتبة قبل أن تكون خضراء . . كانت زرقاء !! كيف كان ذلك ؟! تعالوا لنحكى حكاية حى العتبة . . سرة القاهرة ، ومركز النشاط التجارى منذ أخذ الخديو إسماعيل يخطط عاصمته الجديدة بإنشاء الأحياء الجديدة مثل الإسماعيلية « التحرير الآن » وجاردن سيتى والقلب التجارى بين شارع فؤاد من الشمال إلى ميدان الإسماعيلية فى الجنوب ، ومن شارع رمسيس غرباً إلى الأزبكية شرقاً . .

كان ياما كان فى ميدان العتبة . . كان يوجد بيت يقال له « الثلاثة ولية » ، وكانت هناك سراية العتبة ، صاحبها الذى بناها الحاج محمد الدارة الشرايبى شاه بالأزبكية . وهو صاحب جامع الشرايبى بالأزبكية الذى يعرف باسم جامع البكرى . ثم تملك هذه الدار من بعده الأمير رضوان كتخدا الجلفى ، فجددها وبالغ فى زخرفتها بعد عام ١١٦٠ هـ ، ثم اشتراها الأمير محمد بك أبو الدهب ، الذى كان اليد اليمنى للمملوك الكبير على بك الكبير ، الذى استقل بمصر عن السلطنةالعثمانية ، ثم غدر به تلميذه وقائد جيوشه أبو الدهب هذا ، وهو صاحب المسجد الكبير المجاور للجامع الأزهر .

وتزوج محمد بك أبو الدهب محظية رضوان كتخدا صاحب البيت أو السرايا ذات العتبة الخضراء . . ثم انتقلت ملكية سراية العتبة هذه إلى الأمير طاهر باشا الكبير ،

الذى كان ينافس محمد على الكبير على السلطة ، ثم تملك السرايا قريبه الأمير طاهر باشا الذى ولاه محمد على نظارة الجمارك ، واستمرت السراية أو السرايا بيد ورثته إلى أن اشتراها عباس باشا ، ثالث ولاة أسرة محمد على ، فهدمها ووسعها وبناها من جديد على أن تخصص لإقامة والدته أرملة الأمير طوسون ، واستمرت كذلك إلى زمن الخديو إسماعيل . وعندما قرر إسماعيل تخطيط منطقة الأزبكية وردم ما بقى من البركة ، راح جزء كبير من السراية بسبب هذا التنظيم ، وإن بقى منها القصر العظيم الذى أصبح محله المحكمة المختلطة خلف دار الأوبرا القديمة ، وبجوار صندوق الدين ، الذى هو الآن مقر مديرية الصحة بالقاهرة بجوار مبنى البوسطة العمومية .

وإذا عدنا إلى بانى السراية الحقيقى بعد مالكها الأول الشرايبى ، نجد أن رضوان كتخدا الجلفى أنشأ عدة قصور ، بالغ فى زخرفتها خصوصا هذه السراية ، التى أنشأها على بركة الأزبكية . وكان على بابها عمودان ملتفان ، وعرفت عند العامة باسم «ثلاثة ولية» . وعقد على مجالسها العالية قبابًا عجيبة الصنع منقوشة بالذهب واللازورد والزجاج الملون . لم لا وقد مكن أميراً لمصر ، حتى مات فى مؤامرة من مماليك ابن أخيه إبراهيم كتخدا .

●● أما طاهر باشا الكبير - كما يقول الجبرتى - فهو الأمير الكبير طاهر باشا الأرنؤدى الذى كان محافظاً للديار المصرية من قبل الدولة العثمانية ، ثم صار واليا على مصر نحو ٢٦ يوماً ، وكانت له دار فى الحبانية وقتله الإنكشارية بتحريض من محمد على باشا ،عندما عجز طاهر عن دفع مطالب وأجور الجند الإنكشارية .

وآلت السراية إلى الأمير أحمد باشا طاهر ناظر ديوان الجمارك ، فأضاف إليها وجعلها مثل القلعة . وعندما تعب ومرض واقترب انتهاء البناء ، سافر للإسكندرية لتبديل الهواء فمات هناك ، وعادوا به ليدفنوه فى مدفنه بجوار السيدة زينب بقناطر السباع . وعين محمد على باشا ابنه محل أبيه .

●● أى إن السراية عندما بناها الحاج قاسم ابن الحاج محمد دارة الشرايبى كانت

عتبتها زرقاء . . وبعد أن اشتراها الوالى عباس باشا الأول وهدمها ، وأعاد إقامتها
جعل العتبة خضراء لأنه لا يحب اللون الأزرق . وتوفى قاسم الشرايبى عام ١٧٣٤م .

أما القصر فقد دخل جزء منه فى ميدان العتبة ؛ ولهذا أطلق اسم العتبة الخضراء على
الميدان ، وأطلق اسم ميدان أزبك على جزء آخر من المنطقة . ثم أصبح ما تبقى من
السراية مقراً للمحكمة المختلطة ، قبل أن تنتقل المحكمة إلى المبنى الجديد « دار القضاء
العالى ».

وفى فترة تغير اسم الميدان من العتبة الخضراء إلى ميدان محمد على باشا . ولما تزوج
الملك فاروق من صافيناز ذو الفقار وحملت اسم : الملكة فريدة ، أطلق اسمها على
ميدان العتبة الخضراء ، كما أطلق اسمها على شارع عبد الخالق ثروت وامتداده من
ميدان الأوبرا الى العتبة ، وبعد الطلاق أعيد لميدان العتبة الخضراء وشارع ثروت
اسماهما . . واختفى الآن اسم : الخضراء وبقى اسم العتبة مجرداً ، ربما بسبب اختفاء
الخضرة التى كانت موجودة وتتوسط الميدان ، عندما كان سرة القاهرة ، وكانت تنطلق
منه كل خطوط الترام التى عرفتها العاصمة للمرة الأولى عام ١٨٩٦ . ثم أصبح الميدان
منطقة انطلاق خطوط الترولى باص ، الذى انتهى عصره أيضاً فى السبعينيات من
القرن العشرين .

وظلت العتبة الخضراء هى القلب التجارى للعاصمة . وأقيمت حوله وفيه سلسلة
من العمارات الضخمة ، جعلت الميدان يبدو كمربع كبير . وتحولت هذه العمارات إلى
رمز للميدان ، وكان فى إحداها مقهى متاتيا الذى كان ملتقى للثوار الذين مهدوا للثورة
العرابية ، فكان يلتقى فيه صفوة شباب مصر حول الثائر جمال الدين الأفغانى . وفى
الميدان كان واضحاً أن السلطة تريد أن تؤكد مركزيتها ، فكان فيه ومازال : المقر
الرئيسى للبوسطة العمومية ، ومقر المطافئ ، وقسم شرطة الموسكى ، فضلاً عن صندوق
الدين و المحكمة المختلطة . . وكان فيه التياترو الخديوى « المسرح القومى الآن » ودار
الأوبرا . وفيه من الناحية الأخرى أول سوق مركزى للخضر والللحوم و الفواكه
والأسماك على غرار الأسواق التى رآها الخديو اسماعيل ، عندما كان يدرس فى باريس .

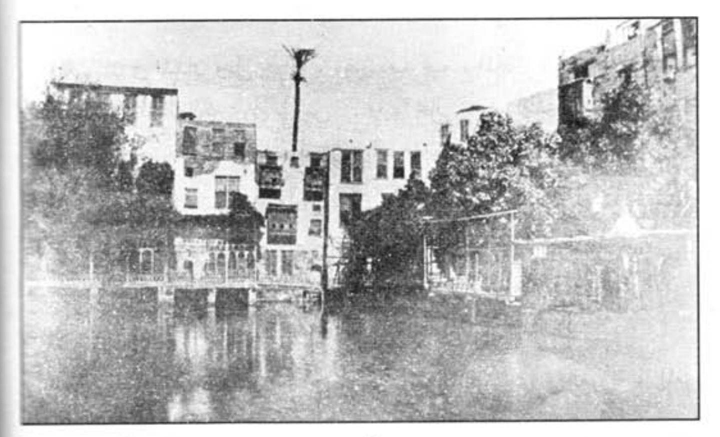
●● وكان فى الميدان وعلى حوافه ، وغير بعيد عنه ، المحال الكبرى التى قامت أيضاً على غرار المحال الكبرى فى باريس . . وفيها محال : عمر أفندى ـ أوروزدى باك سليم وسمعان صيدناوى و البيت المصرى وداود عدس .

واعتبر المهندس الفرنسى هوسمان ، الذى استدعاه الخديو إسماعيل لوضع معالم تخطيط القاهرة العصرية ، اعتبر العتبة وتابعتها الأزبكية نقطة الوسط التخطيطى . ومن ميدان العتبة تم فتح شوارع محمد على وعبد العزيز والأزهر وفاروق « الجيش الآن » وكلوت بك وغيرها .

وانتقل النشاط التجارى من شارع الأزهر وتابعه الحمزاوى و الغورية و المعز والموسكى إلى ميدان العتبة .

وكان قرب العتبة من الجامع الأزهر . . والمشهد الحسينى وحى خان الخليلى من أهم عناصر أهمية هذا الميدان . . كما كان قربه من باب الحديد عبر شارع كلوت بك من أهم أسباب نشاطه التجارى . .

***



الخليج المصرى وكان اسمه خليج أمير المؤمنين عند منطقة باب الخلق الآن .

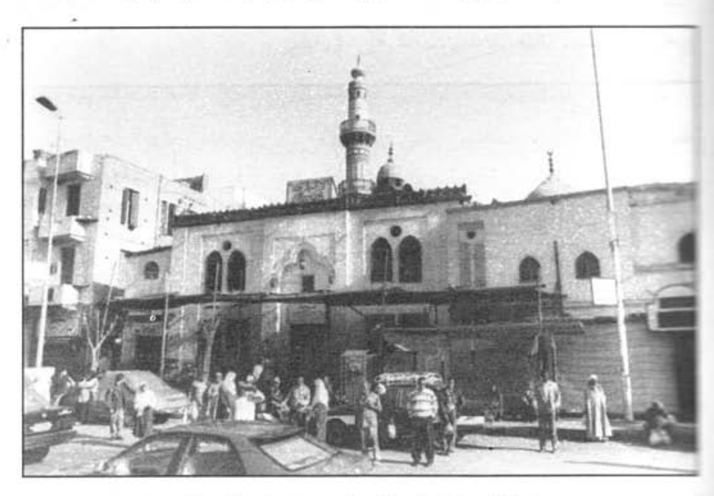


ميدان باب الخلق كما كان يبدو فى بداية القرن العشرين . . وفى هذا المكان تم بناء دار الكتب السلطانية ومتحف الفن الإسلامى عام ١٩٠٣ .

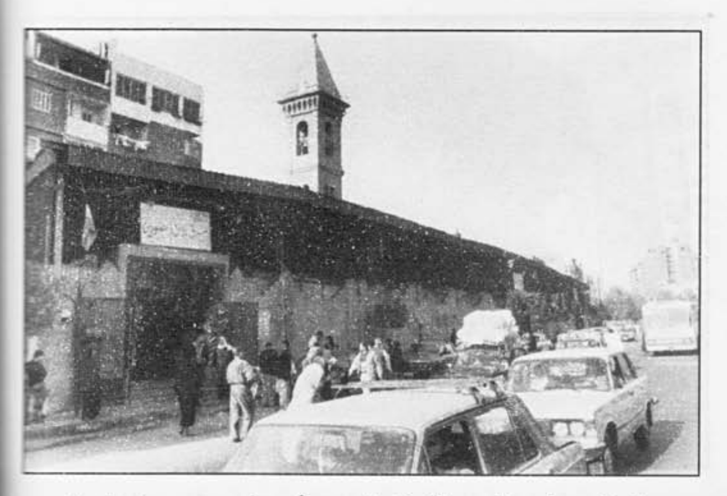
وهنا كان يمر الخليج المصرى قبل أن يردم ويتحول إلى شارع بورسعيد الآن .



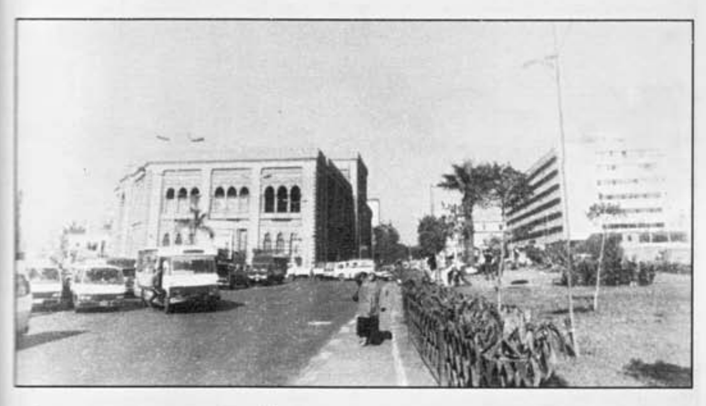
ميدان باب الشعرية يتوسطه تمثال هزيل للفنان الموسيقار محمد عبد الوهاب .



مسجد الإمام عبد الوهاب الشعرانى بميدان باب الشعرية .



حى الموسكى وسوق بين السورين الذى كتبوا اسمه خطأ « بين الصورين » وهو تابع لحى باب الشعرية .



ميدان باب الخلق يتوسط شارع بورسعيد و إلى اليسار متحف الآثار الإسلامية و إلى اليمين مديرية أمن القاهرة حيث مكان الضبطية الأولى .

الطبالة و الفجالة .. اسمان لمنطقة واحدة

إذا كانت المدن و المناطق تحمل أسماء الملوك والسلاطين . . فإن عندنا منطقة تحمل اسم فنانة . . أو مطربة . . أو حتى طبالة أى تدق على الطبول !!

ففى زمن الخليفة الفاطمى المستنصر فى مصر ، كان الصراع على أشده على زعامة المنطقة : كان يتنازع عليها الخليفة العباسى ـ السنى ـ فى بغداد القائم بأمر الله . . والخليفة المستنصر بالله الفاطمى ـ الشيعى ـ فى مصر .

وحدث أن وقعت معركة حربية انهزم فيها الخليفة العباسى ، فانطلقت السيدة نسب طبالة ومطربة الخليفة الفاطمى تغنى وتطرب معلنة ـ ابتهاجها بهزيمة العباسيين . . وسمعها الخليفة الفاطمى فأشجته وأسكرته وأطربته . . وفى لحظة فرح وابتهاج أقطعها إقطاعية . . منحها أرضاً هبة لها ، بدلاً من المنح و العطايا التى كانت غالباً من المال : من الدنانير والدراهم .

ولأن الخليفة كان كريماً ، وجاءت كلمات أغانيها على الوتر الحساس ، فهى بعد أن أسعدته بهزيمة منافسه الخليفة العباسى . . بشرته بقرب زوال حكم منافسه . . فكان قراره منحها أرضاً واسعة قرب باب البحر .

وكان نهر النيل يصل حتى هذه المنطقة . ولم يكن أحد يعرف وقتها اسم هذه الفنانة التى حصلت على هذه المنحة الغالية بعد أن أطربت الخليفة . ولكن الناس كانوا يعرفون مهنتها . . كانت مجرد « طبالة » تدق الطبول وتغنى على دقاتها ما تشاء . .

وتسلمت هذه الطبالة الأرض . . فعرفت باسم « أرض الطبالة » تلك هى بداية حى : الفجالة ؛ أى كانت جائزتها حياً بكامله هو حى الفجالة ، وحملت المنطقة لسنوات عديدة اسم الطبالة . .

إلى أن جاء أمير الجيوش بدر الجمالى فبنى بالقرب منها وحولها عدداً من البساتين ، عرفت باسم البساتين الجيوشية ، وكان أولها من زقاق الكحل المعروف الآن بشارع الدشطوطى .

ومع الزمن تحولت المنطقة إلى برك وتلال ، بعد أن أخذ النيل ينحسر عنها وعما حولها ويتحرك غرباً . . وبدأت القرى تتحول إلى مناطق مهملة ، وكان أكبرها قرية كوم « أبو الريش » .

وعاد التاريخ يذكر اسم المنطقة أيام الحملة الفرنسية على مصر ، ففى عام ١٨٠٠ عندما ثارت القاهرة ضد الجنرال كليبر خليفة الجنرال بونابرت ، تحولت منطقة كوم «أبوالريش » إلى مركز للثوار ، يتحصن فيه الثوار والأتراك ، وأصبح هذا الكوم نقطة ارتكاز قوية للثوار ، لأنه قائم على أكمة تقطع الطريق والمواصلات بين جامع الظاهر، الذى أقام فيه الفرنسيون قلعة مسلكوسكى والمعسكر العام للجنود الفرنسيين فى الأزبكية ، فعهد كليبر إلى جنود الجنرال رينيه باحتلاله ، فهجم الجنود بقيادة الجنرال روبان على هذه الأكمة أو التل ، وبعد معركة ضارية احتل الجنود الموقع وتحصنوا فيه، واحتلوا كوم « أبو الريش » كله ، وأقاموا فيه الاستحكامات .

وعندما حاول الثوار استرداده مرات عديدة . . ردهم الجنود على أعقابهم ، واستمر القتال حوله إلى صبيحة يوم ١٣ أبريل ١٨٠٠م ؛ حيث رسخت فيه أقدام الفرنسيين .

وحول الفرنسيون أرض الطبالة هذه من أرض غير معبدة إلى شارع يمتد من قنطرة باب الحديد إلى قنطرة العدوى . وكان السالك فى هذا الشارع يجد عن يمينه فى جهة باب الشعرية القرية التى عرفت باسم قرية « كوم الريش » وقد تحولت إلى تلال . أى إن الفرنسيين هم الذين أصلحوا شارع الفجالة ، وجعلوه ممتداً من باب الحديد إلى باب العدوى عند المكان المعروف باسم الشيخ شعيب .

إلى أن جاء عصر الخديو إسماعيل لتدخل المنطقة عصراً جديداً ؛ لتتحول من مزارع وبرك ترويها مياه الفيضان إلى منطقة سكنية من أجمل مناطق القاهرة . .

وكان أول ما يستقبل الزائر أو السائح عند وصوله إلى القاهرة عن طريق السكة الحديد التى بدأت أيام سعيد باشا ، ثم قفزت أيام الخديو إسماعيل هو منطقة الفجالة .

وقد حملت هذا الاسم بسبب مزارع الفجل وحقوله التى تغذى أحياء القاهرة الفقيرة . وكان غذاء شعبياً يقبل عليه المصرى ، حتى أن الأجانب الذين حاولوا الهجوم على الخديو إسماعيل كانوا يصفون الفجل بأنه الغذاء القومى للمصريين . ومن أجل هذا حمل الحى اسم الفجالة نسبة إلى زارعى الفجل ، الذين كانوا يسكنون فى بقايا قرية «كوم أبو الريش» بعد أن تخربت وتحولت إلى مجموعة من الخرائب والأطلال ، وكانت تصد أقبح دعاية للقاهرة .

وكان ميدان المحطة الحالى عبارة عن مجموعة من التلال والكثبان ، فقام الخديو إسماعيل بإزالة تلك الخرائب والتلال ، واستخدم أتربتها وناتج الهدم فى ردم البرك والمستنقعات المنتشرة فى المنطقة الممتدة بين حى الفجالة وحى السكاكينى ، وقام بتسوية المنطقة كلها بما فى ذلك ميدان المحطة الحالى وقسمت أرضها وزرعت فيها الحدائق ، وشقت فيها الشوارع ، وبنيت فيها مجموعة من القصور الفاخرة لا يزال بعضها قائماً حتى الآن ، وتحولت المنطقة إلى حى من أجمل أحياء القاهرة السكنية . وأقبل الناس على السكن فيه ، وارتفعت قيمة الأرض ، ووصل سعر المتر فيها كما يقول د. سيد كريم إلى ما لا يقل عن جنيه ، بعد أن كان سعره لايزيد عن بضعة قروش ، وكان هذا فى منتصف الأربعينيات من القرن العشرين !!

وكان من أهم ما تم شقه من شوارع فى المنطقة شارع الفجالة نفسه ، وحدث هذا فى الوقت نفسه الذى شق فيه إسماعيل - كما يقول على باشا مبارك - شوارع كلوت بك ، ومحمد على ، وعابدين ، وعبد العزيز ، وإبراهيم ، والموسكى ، والسكة الجديدة .

وهكذا نهض حى الفجالة ، وبدأ الحى ينمو وينتظم ابتداء من ترعة الإسماعيلية إلى سور القاهرة عرضاً . ومن جامع أولاد عنان إلى بوابة الحسينية طولاً ، وبنيت الأرض المملوكة للحكومة ، وشيد فيها الأهالى مبانى عظيمة وقصوراً فاخرة تحيط بها الحدائق.

وممن سكن المنطقة وبنى فيها عائلة بطرس باشا غالى ناظر النظار ، وفيها ولد الدكتور بطرس بطرس غالى السياسى المصرى ، الذى أصبح سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة فى التسعينيات من القرن العشرين .

وبسبب قربه من باب الحديد حيث محطة السكك الحديدية ، كثرت فيه الفنادق واللوكاندات رخيصة الثمن ، والمطاعم التى كانت تقدم وجبات شعبية رخيصة الثمن .

وكعادة الأجانب الذين يفضلون سكنى المناطق الجديدة أقبل الشوام و الأروام ، ومعهم الأقباط ، على السكنى فى حى الفجالة . . ومعهم نسبة كبيرة من الخواجات والتجار . وحتى تكتمل الخدمات وضرورات الحياة ، أقيمت الكنائس لكل الطوائف المسيحية ، فوجدنا الكنيسة الأرثوذكسية ، والكنيسة الإنجيلية وكنائس الأروام . ووجدنا المدارس الأجنبية التى يقبل عليها ـ مع الأجانب ـ الإخوة الأقباط .

ولأن الشىء بالشىء يذكر ، وجدنا الحانات و البارات تنتشر فى حى الفجالة حيث الأجانب و الأروام ، ولم نجد المقاهى إلا فى العصر المتأخر ؛ لأن الحانات والبارات تجد زبائنها ممن يقيم فى المنطقة ،أما المقاهى فهى تنتشر حيث الأحياء الشعبية للمسلمين . .

وممن سكن الحى من الأدباء : سلامة موسى الصحفى الكاتب الاشتراكى فى البيت رقم ٥ بحارة ميخائيل جاد فى الثلث الأول من شارع الفجالة ، والدكتور جمال سرور أستاذ التاريخ الإسلامى الذى سكن فى ٩ شارع الفجالة ، والدكتور خليل صابات أستاذ الصحافة بالجامعة الذى أقام فى بيت أقيم عام ١٨٩٠م غير بعيد عن جنينة بازرعة خلف المقسى ، وكذلك أسرة كامل صدقى باشا الوزير الوفدى ، ولهذا يحمل

الشارع الآن اسم الرجل . . وكذلك الأديب والكاتب والمؤلف لمعى المطيعى الذى سكن لمدة ٤ سنوات فى المنزل رقم ٤٦ بشارع الفجالة وفيه قبض عليه . .

● من شارع للثقافة إلى شارع للأدوات الصحية

وشيئا فشيئا تحول شارع الفجالة إلى شارع للثقافة والكتاب فى مصر ، وليس للقاهرة وحدها . وفيه أقامت دور الثقافة فروعاً لها . . مثل دار نهضة مصر ، ودار المعارف ، ودار سعد ؛ لتصبح وغيرها مراكز للثقافة والمعرفة . ومن لايجد كتابا فى غيرها كان يجد غايته فى مكتبات الفجالة .

ولكن لماذا هذا المكان بالذات ؟! لقربه من باب الحديد ؛ حيث أبناء الأقاليم والمحافظات الأخرى . كانوا يأتون لشراء ما يحتاجون ، ثم يعودون سريعاً إلى بلدانهم . .

وامتد النشاط الثقافى للشارع إلى الكتب المدرسية ، وإلى الكتب الخارجية المساعدة للطلبة . ولكن شيئاً فشيئاً تحول شارع الفجالة من مكان للثقافة العامة لتغلب عليه صفة شارع الكتب المدرسية واحتياجات التلاميذ ، وانزوت مكتبات الثقافة العامة . .

ثم جاء التطور الثالث فانزوت - إلى حد ما - مكتبات الكتب المدرسية ، واقتصرت على مساحة قليلة من الشارع والحى . . لتتحول المحال أغلبها إلى تجارة . . الأدوات الصحية ! . وهكذا تغلبت الأدوات الصحية على الأدوات المدرسية . . وعلى الكتب الثقافيه معاً . . هل يعنى هذا صورة لما حدث لتطور المجتمع المصرى ؟! الجواب لك عزيزى القارئ !

● الفجالة .. فى بداية القرن العشرين :

وإذا رجعنا إلى خرائط القاهرة فى بداية القرن العشرين ، وبالذات عام ١٩١٢م، نجد الشوارع والحارات التالية على الخريطة وعلى أرض الواقع . . نجد ما عرف باسم شارع الملكة نازلى شمالاً من عند ميدان باب الحديد ، ونجد قسم شرطة الأزبكية بين شارعى الملكة نازلى « رمسيس حالياً » والفجالة . . ونجد شمالى شارع الفجالة شوارع :

قصر اللؤلؤة . . بستان الكافورى . . بستان المقسى أو المكس . وحول شارع الظاهر نجد فى بركة الرطل قصر اللؤلؤة . . وشوارع حبيب حلبى . . غالى . . الحكيم وتتقاطع كلها من الشرق مع شارع البكرية ثم بركة الرطل ، ثم شارع الجد فشارع الجميل ، ثم شارع أبو الريش ، وهو اسم القرية الأصل أو القرية الأولى .

وجنوبى شارع الفجالة الذى كان يحمل اسم سكة الفجالة من بدايتها عند شارع الخليج المصرى ، كنا نجد شارع الطبلة وربما كان المقصود « الطبالة » وامتداده شارع الشمبكى . . وامتداده الثالث يحمل اسم بين الحارات ، الذى يصب فى ميدان باب الحديد عند التقائه بشارع باب البحر ، وكان يتقاطع معه من الجنوب حتى باب البحر درب الإقماعية ، وسكة سوق الزلط .

وبحكم من سكن الفجالة من جاليات أجنبية عربية وشامية وغربية ، نجد عديدًا من المدارس الأجنبية ، و الكنائس . . و المساجد . .

● **من المدارس نجد :** مدرسة الروم الكاثوليك قرب شارع الملكة نازلى « رمسيس الآن » . . ومدرسة البنات للأمريكان بين شارعى الفجالة والشمبكى . . ومدرسة التوفيق للأقباط الأرثوذوكس على شارع بركة الرطل . . وغير بعيد عنها نجد كلية الفرير على شارع البكرية جنوبى الظاهر .

● **ومن الكنائس نجد :** كلية وكنيسة اليسوعيين على شارع الملكة نازلى ، ويحدها من الشرق شارع قصر اللؤلؤة وجنوب بستان المقسى ، وعلى شارع الفجالة نجد كنيسة الكلدان الكاثوليك . وغير بعيد عند حارة النصارى جنوب الفجالة نجد كاتدرائية مار مرقس ، والبطريكخانة ، ومدرسة للأقباط الأرثوذوكس غربى شارع كلوت بك . ونجد كنيسة الروم الكاثوليك بين شارعى الظاهر وقصر اللؤلؤة فى قلب الفجالة ؛ أى غير بعيد عن مدرسة الروم الكاثوليك ، ونجد كنيسة الأرمن بجوار المستشفى القبطى ، وكنيسة السريان بين شارعى نازلى و القبيسى .

● **ومن المساجد نجد :** فى أقصى الغرب مسجد أولاد عنان بين شارعى رمسيس و الجمهورية ، وكان اسمه وقتها شارع نوبار ؛ لأن نوبار باشا أول ناظر للنظار أقام بيته فيه . . ولا نجد شمال شارع الفجالة مسجداً واحداً . أما جنوبه فنجد : جامع الطواشى، وجامع سيدى أحمد شهاب الدين ، وجامع محمد عيسى التركمانى ، وجامع سيدى الفرا ، وجامع سيدى محمد البحر على حافة شارع باب البحر . فهل حمل الشارع الاسم من باب البحر حيث كان بحر النيل يصل إلى هذا الموقع ، أو نسبة إلى سيدى محمد البحر ؟ . . وكل هذه المساجد تقع بين الفجالة وحارة النصارى وباب البحر . .

ولأهمية الحى وللمساعدة على تعميره وتشجيع السكنى فيه ، تم ربطه بوسائل المواصلات العامة ، فكانت تقطعه وتخدمه خطوط الترام رقم ٣ من العتبة الخضراء ميدان الأوبرا ثم ميدان محطة مصر ثم ينتهى عند العباسية .

وخط ترام رقم ١٠ ، وكان يبدأ من العتبة الخضراء إلى ميدان الأوبرا ، إلى ميدان محطة مصر وينتهى عند السكاكينى . وكذلك خطوط ترام ١٥ و ١٧ السكاكينى ـ درب الجماميز والمحطة وقصر النيل . . وعابدين وهكذا . .

وكانت تخدم الحى من خطوط الأتوبيس الخط رقم ١٥ من ميدان محطة مصر إلى بيت القاضى ، وخط رقم ٢٥ بين ميدان الأوبرا والعباسية .

●● وفى خريطة القاهرة عام ١٩٥٢ نجد تغييرات كثيرة . . نجد بركة الرطل أصبحت بركة الرطلى ، وتغيرت بعض المسميات . . كلية العائلة المقدسة . . مدرسة الفنون الطرزية . . وأصبح شارع الفجالة يحمل اسم شارع كامل صدقى باشا ، ونجد بقايا سور مصر القديم بين شارعى كامل صدقى وباب البحر . أما شارع الملكة نازلى ، فأصبح اسمه شارع الملكة . . ثم سرعان ماحمل اسم شارع النهضة بعد إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية ، وبعد وضع تمثال نهضة مصر ، الذى نحته وأعده مثّال مصر العاصر محمود مختار . ونجد ميدان باب الحديد وقد حمل اسم ميدان المحطة ، واختفى اسم شارع الطبلة ، وكذلك اسم سوق الزلط . .

● **النيل .. كان هنا !**

ولكن ما حكاية المكس أو المقسى أو المقس ؟ هى أولاً المكوس أى الجمارك . وكان فى هذا الموقع يقع ميناء القاهرة النهرى لأن النيل كان يصل إلى هنا ، وظل هذا الموقع ميناء القاهرة حتى نقل إلى بولاق بعد أن تحرك النيل غرباً .

ولما قضى صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية ، وأنشأ دولته الأيوبية ، شرع يجمع العواصم الأربع : الفسطاط « ٦٤١م » ، و العسكر « ٧٥١م » ، والقطائع «٨٧٠م» ، والقاهرة المعزية « ٩٦٩م » فى صعيد واحد ؛ ليتخذ منها عاصمة موحدة تتفق وجلال إمبراطوريته . . ولكى تكون قادرة على رد هجوم الأعداء أخذ يحيطها بسور عظيم . ولكنه توفى قبل إتمامه ، فأتمه خلفاؤه . وهو يمتد من أثر النبى جنوبى الفسطاط فى مصر القديمة ، وينتهى عند قلعة المقس . . وهى القلعة التى حدد مكانها العلامة الجغرافى محمد بك رمزى بعمارتى الأوقاف وراتب باشا المجاورتين لجامع أولاد عنان « الآن مسجد الفتح » من الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد . .

وباب البحر منذ زمن الخليفة الفاطمى كان يخرج منه الخليفة ، عندما يقصد التوجه إلى شاطئ النيل بالمقس . وكان هو أحد أبواب القصر الشرقى الكبير ، الذى أقامه جوهر الصقلى فاتح مصر ليقيم فيه المعز لدين الله الفاطمى . .

وكانت منظرة الدكة يجلس عليها الخليفة فى الأيام الحارة يتنسم الهواء العليل على شط النيل ، وكان لها بستان عظيم بجوار المقس . وقد عمر البستان بالمبانى فيما بعد ، وصار يعرف بخط قنطرة الدكة ومنظرة المقس . .

وقد مد صلاح الدين سور بدر الجمالى من شماليه ويتجه غرباً حتى شاطىء النيل الشرقى ؛ حيث أقيم حصن المقس المنيع . وكان السور الشمالى يبدأ من غرب باب الفتوح ، ثم يسير غرباً إلى الجنوب الغربى ، ثم بالقرب من شارع الخليج المصرى إلى خلف سكة الفجالة وشارع الطبلة حتى ميدان باب الحديد، حيث نجد بقايا منه على طول هذا الاتجاه الذى ينتهى بقلعة المكس . وقد زالت القلعة ولم يبق لها أثر اليوم ، وكان قد شيد بجوارها جامع المقس ، الذى عرف باسم جامع أولاد عنان .

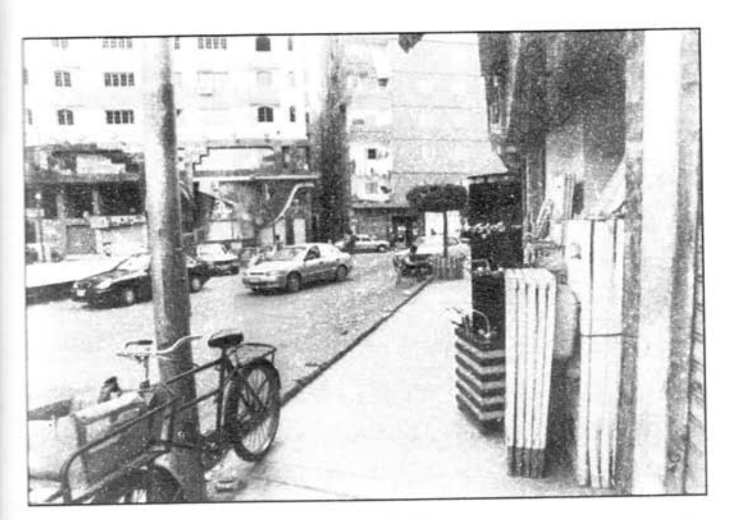
●● وعن قلعة المقس ومنظرة المقس وجامع المقس يقول المقريزى ص ٣٧٧ ج١ وص ٤٨٠ جزء ١ وص ٢٨٣ ج٢ : « إن السلطان صلاح الدين لما عمر السور الثالث للقاهرة عام ٥٦٦ هـ وقت وزارته للخليفة العاضد ، زاد فى هذا السور القطعة التى من باب الشعرية إلى باب البحر ، وبنى قلعة المقس على شكل برج كبير فى نهايته السور الغربى على شاطىء النيل بحرى جامع المقس فى مكان منظرة المقس ، التى كانت على النيل ، وقت أن كان يمر تحت المقس من الجهة الغربية . وكانت هذه القلعة قائمة إلى أن هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عبدالله المقسى ، عندما جدد جامع المقس فى عام ٧٧٠ هـ وجعل فى مكانها جنينة . . » .

وبما أن جامع المقس محل جامع أولاد عنان بشارع إبراهيم باشا ، الذى ظل حتى السبعينيات من القرن العشرين ليتم فكه ويقام مكانه جامع الفتح الآن ، كما أن أجزاء من السور الذى أقامه صلاح الدين بين باب الشعرية وباب البحر لا تزال قائمة إلى اليوم ، كما هو مبين على خريطة القاهرة الحالية . وبما أن هذه القلعة كانت واقعة فى نهاية هذا السور وعلى امتداده من الجهة الغربية ، فيكون مكانها الأرض القائم عليها اليوم عمارتا الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان - الفتح - من الجهة البحرية بميدان باب الحديد ، كما قال العلامة محمد بك رمزى .

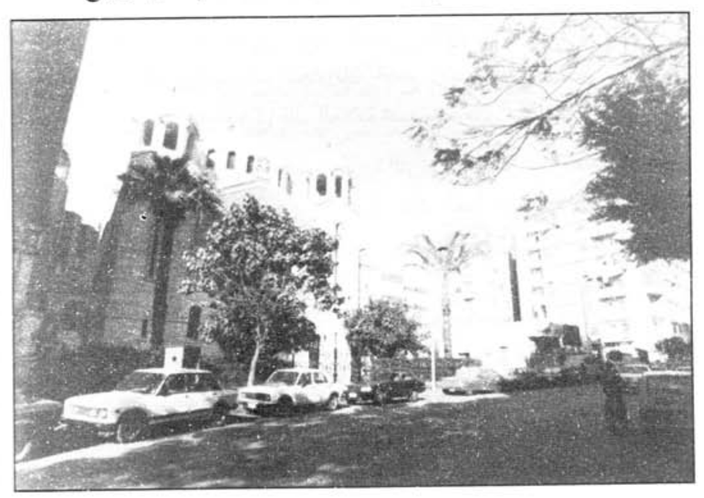
ويستفاد مما قاله المقريزى فى موضوع الجزيرة التى تربت ببحر النيل عام ٦٨٠هـ أن مجرى النيل القديم تجاه باب البحر ، كان إلى تلك السنة ماراً بميدان باب الحديد فميدان محطة مصر فشارع غمره فشارع مهمشة ، ومتجها إلى الشمال الغربى حيث يمر تحت سكن ناحية منية السيرج .

وبما أن باب البحر الذى يعرف اليوم بباب الحديد ، كان واقعاً على مدخل شارع باب البحر من جهة ميدان باب الحديد ، فيكون ساحل باب البحر الذى يشير إليه المؤلف واقعاً بميدان باب الحديد وما جاوره من شارع الملكة نازلى من جهته القبلية ، وما جاوره من محطة كوبرى الليمون من جهته البحرية .

****



. . وتحول شارع الفجالة إلى سوق لبيع الأدوات الصحية بعد أن كان يقدم للناس كل فروع الثقافة .



الفجالة . . حى حديث تنتشر فيه الكنائس لكل الطوائف المسيحية .



وتنتشر فيه المدارس الأجنبية .



بعض ما بقى من الثقافة فى حى الفجالة . . بالذات فى الشارع الرئيسى للحى . . شارع كامل صدقى .

باب الحديد .. على شط النيل !!

أفضل حى نتحدث عنه بعد حديثنا عن الفجالة هو باب الحديد . . ليس فقط بسبب القرب المكانى ، ولكن بسبب التاريخ المشترك والنشأة الواحدة . . ولايمكن أن نتحدث عن باب الحديد دون الحديث عن نهر النيل وتحركه غرباً . .

فقد كان النيل ـ عند الفتح العربى لمصر عام ٦٤٢م ـ يمر بهذه المنطقة، وأخذ ينتقل ببطء فى اتجاه الغرب .

وبسبب قرب النيل من هذه المنطقة خصوصاً فى عصر الدولة الفاطمية ، قرروا أن تصبح هذه المنطقة هى « ميناء القاهرة » . فإذا كان ميناء « مصر عتيقة » هو ميناء العواصم العربية الثلاث : الفسطاط والعسكر والقطائع ، ويربط هذه العواصم بالوجه القبلى . . فإن ميناء باب الحديد هو الذى يربط القاهرة الفاطمية بالوجه البحرى . وليس غريباً أن تصبح هذه المنطقة هى « منطقة جمارك العاصمة » ، ولهذا سميت المنطقه كلها باسم : المقس ، أو المكس أى المكوس وهى الجمارك . .

ويعتبر الخليفة الفاطمى العزيز بن المعز لدين الله أول من اهتم بعمارة هذه المنطقة . . فقد بنى داراً لصناعة السفن فى المقس فى الموقع الملاصق لجامع أولاد عنان ـ مسجد الفتح الآن ـ وبنى فيها المراكب التى لم ير مثلها قديماً عظمة ومتانة وحسناً . وكان يوم خروج الأسطول المصرى للفتح أو الدفاع من ميناء المقس يوماً مشهوداً ، حتى أن المقريزى كتب عن الاحتفالات التى كانت تصاحب خروج هذا الأسطول ، وكيف

كان الناس يتجمعون لمشاهدة هذا الأسطول العظيم فى هذا اليوم العظيم . وكان الخلفاء يخرجون أيضاً « للفرجة » أى استعراض الأسطول ، فيمتلىء وجه النيل وساحله بالمتفرجين ، فيكون ذلك اليوم من المواسم المشهورة .

وغير بعيد عن هذا المكان ، أقام الخليفة العزيز أيضاً « منظرة اللؤلؤة » على الخليج المصرى بالقرب من باب القنطرة جهة جامع الشيخ عبد الوهاب الشعرانى . وكانت هذه « المنظرة » من أحسن منتزهاتهم ؛ إذ كانت تشرف على الخليج من الغرب ، وعلى البستان الكافورى من الشرق . وجعل لها سرداباً تحت الأرض متصلاً بالقصر الكبير، وكان يركب فى هذا السرداب من القصر الكبير إلى اللؤلؤة ، ويتجول فيها فى أيام امتلاء الخليج بمياه النيل هو وحريمه وخواصه ، وكانت تطل على بستان يعرف بالمقس ، وكان كبيراً جداً يمتد إلى النيل ، وفى بعض محله بركة الأزبكية وخط الموسكى .

وتخيلوا نفقاً أو سرداباً واسعاً تحت الأرض يمتد من المنطقة المواجهة الآن لبيت القاضى ليصل إلى بر الخليج المصرى ، فمن الذى أتم شق هذا السرداب بهذا الاتساع حتى يركب فيه الخليفة فى موكبه الفخم ومعه حريمه وخواصه وحرسه ! وهل مازال هذا السرداب موجوداً ، وما مصيره ؟ . نقول هذا لأننا أحضرنا معدات حفر متطورة للغاية مع تكنولوجيا عالية لحفر نفق للسيارات من الدراسة ؛ أى غير بعيد عن بداية سرداب الخليفة ليصل إلى الأوبرا ، أى يعبر تحت شارع بورسعيد ، الذى هو مسار الخليج المصرى نفسه !!

●● ويأتى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ابن الخليفة العزيز ليبنى مسجداً كبيراً فى هذا المكان ، هو جامع المكس أو المقس على شط النيل . . ويقول بعض المؤرخين إنه بنى مسجده هذا فى مكان دير قبطى قديم ، عندما تقلب الحاكم بأمر الله ضد أقباط مصر ، وهو الموقع نفسه الذى أقام عليه أولاد عنان مسجدهم القديم . وهو الموقع نفسه الذى « فك » فيه مسجد أولاد عنان ليتم بناء مسجد الفتح القائم الآن فى ميدان باب الحديد ـ رمسيس ـ واستغرقت إقامته أكثر من ١٤ عاماً . وقيل يومها إن مسجد أولاد عنان سوف يعاد تركيبه بحجارته نفسها فى موقع آخر . .

وواصل الخليفة الحاكم أعماله فى منطقة المقس ، فأمر بهدم منظرة اللؤلؤة وهدم سور القصر الكبير وبناه ثانياً ، وجدد البا ب المسمى باب البحر . وفى عهد ابنه الخليفة أبى الحسن على الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله ، حفر البستان المقسى وأنشأ بركةماء تملأ من خليج فم الخور الذى كان عند قنطرة الدكة ، وأصله ترعة صغيرة . وكان يسمى أيضاً خليج الدكر ، وأوله عند قنطرة الدكة عندما كان نهر النيل يصل إلى المقس . ولم يزل يمتد مع انحسار النيل حتى صار فمه فى أيام السلطان الناصر قلاوون عند قنطرة سيدى « أبى العلاء » المجاورة لوابور المياه أى مسجد « أبو العلا » فى بولاق . .

وكانت فى هذا الموقع حول باب البحر وجامع أولاد عنان ـ قبل إنشائه ـ قريه تقع غربى الخليج المصرى هى قرية أم دنين ، وسرعان ما عرفت باسم المقس ؛ أى إن أم دنين هى أصل المقس ، وكانت من خطط القاهرة ، وتقع على يسار من يسلك شارع كلوت بك إلى السكة الحديد ، وتمتد إلى الشارع الواقع عليه جامع أولاد عنان أى شارع الجمهورية الآن ، الذى حمل اسم شارع نوبار باشا أول رئيس وزراء لمصر فى عهد إسماعيل ؛ لأن بيته كان يقع فى هذا الشارع ، وكان الخليج المصرى يفصل بينهما .

وكان فيما بين قرية أم دنين والشاطىء الغربى للخليج فضاء لابناء فيه ، ثم صار بعد بناء القاهرة ميداناً توضع فيه الغلال ، وسماه المقريزى فى خططه « ميدان القمح » ، وهو الآن من منطقة باب الشعرية . وكان الواقف بهذا الفضاء يرى النيل عن يمينه من بعد إذا استقبل الغرب ، وعن يساره بستان المقس مكان بركة الأزبكية وما بحذائها من الجهة القبلية .

●● وكان لباب الحديد دور فى مقاومة الحملة الفرنسية على مصر . . فى ثورة القاهرة الأولى . . ثم فى ثورتها الثانية . . ففى الثورة الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨م ، هدم الفرنسيون الكثير من المبانى ، من بينها جامع المقس الذى أقامه الحاكم بأمر الله ، وأقاموا مكانها « طابية » أطلقوا عليها اسم « كامان » ، وهو ضابط فرنسى كبير لقى مصرعه على سواحل الإسكندرية ناحية مريوط بالقرب من برج العرب ، على يد المقاومة التى قام بها العرب فى هذه المنطقة .

وهذه الطابية أقيمت بالقرب من قنطرة الليمون بالطريق الموصل إلى بولاق ويسميها الجبرتى : قلعة قنطرة الليمون . وكان الفرنسيون قد عرفوا أهمية هذا الموقع الاستراتيجى ؛ لأنها جاءت ـ تقريباً ـ أمام قلعة المقس أو برج المقس ، الذى أقامه صلاح الدين فى نهاية سور القاهرة على النيل فى هذا الموقع . .

أما فى ثورة القاهرة الثانية فى شهرى مارس وأبريل ١٨٠٠م ، فقد كان مما خربه ودمره القوات الفرنسية حارة المقس من قبل سوق الخشب « ولاحظوا الخشب الذى كان ضروريًا لبناء السفن ، عندما كانت هنا دار صناعة السفن الفاطمية » إلى باب الحديد ، وجميع مابين ذلك من الحارات والدور وصارت كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات » كما قال الجبرتى ، انتقاماً من أهلها على مقاومتهم للقوات والسلطات الفرنسية . .

ولكن الفرنسيين أقاموا بعض المنشآت غير الطابية ، فيقول الجبرتى فى يومياته يوم ٥ سبتمبر ١٧٩٨م « إنهم مهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون . وجعلوا فى أعلاه طاحوناً تدور بالهواء عجيبة « !! » وتطحن الأرادب من البر « الغلال » وهى «بأربعة أحجار يسمونها المسيوكونتى » ونسى الجبرتى الذى اندهش من هذه الطاحونة أن مصر عرفت طواحين الهواء قبل الحملة الفرنسية ، ويؤكد المؤرخون أنه كان بالإسكندرية طاحونة تدار بالهواء بثمانية أجنحة أى أكبر من طاحونة كوبرى الليمون . واعترف مسيو جيرار أحد مهندسى الحملة بأنه كان بالإسكندرية قبل الحملة الفرنسية سبع أو ثمانى طواحين هواء .

● باب الحديد .. وأسرة محمد على :

إلى أن جاء عصر محمد على ، وبدأ الميدان يأخذ اهتماماً خاصاً ، ويتحول إلى منطقة جديدة . . ففى ٢١ شوال ١٢٦٠ هـ « ١٨٤٤م » أصدر محمد على باشا أمراً إلى مدير ديوان المدارس بتحويل هذه المنطقة إلى متنزه عمومى . ويقول الأمر العالى : « إن محلات التلول التى صار إزالتها بجوار قنطرة الليمون وأرضية الإشارة قد صَمَمتُ على تنظيمها

متنزهاً عمومياً . فيلزم إحالة ذلك على مأمور تنظيم الأزبكية ، وما يلزم لها من الأشجار بسائر أنواعها تؤخذ من جنينة شبرا لأجل غرسها بها بمعرفة المأمور الموصى إليه . . . »

وفى عهد عباس باشا الأول ثانى حكام مصر بعد محمد على ، تم توقيع اتفاق مع الحكومة الإنجليزية لإنشاء خط للسكك الحديدية بين القاهرة والإسكندرية ، وخط آخر بين القاهرة والسويس . وتم إنجاز الجزء الأول من الخط الأول عام ١٨٥٤م ، قبل وفاة عباس الأول ، وإنجاز الخط الثانى عام ١٨٥٨م ، واستدعى ذلك ضرورة إنشاء محطة للسكك الحديدية فى منطقة باب الحديد عام ١٨٥٦م . وهى المحطة التى نسفت عقب الاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢م بسبب انفجار مخزن للذخيرة ، وضعها جيش الاحتلال فى إحدى غرف المحطة . . وانتهى عصر المحطة الأولى لتقام مكانها المحطة الثانية الحالية على الطراز الإنجليزى المعروف : محطة باب الحديد . .

ثم كان قرار إنشاء خط للسكة الحديد فى كوبرى الليمون بين عامى ١٨٨٩م و١٨٩٠م ؛ ليربط العاصمة بضواحيها مثل المطرية والزيتون شمالى المدينة ، وبميدان المحطة أى وسط القاهرة . . وهو الخط الذى حل محله الخط الأول لمترو الأنفاق فى بداية التسعينيات !!

● باب الحديد .. على مدى القرن العشرين

وتعالوا نتابع تطور منطقة باب الحديد من خلال ٣ خرائط : الأولى فى بداية القرن العشرين . . والثانية فى منتصف القرن . . والثالثة عند نهايته . . أى تحكى الخرائط الثلاث حكاية المنطقة على مدى قرن كامل .

●● فى الخريطة الأولى المطبوعة فى بداية القرن العشرين ، نجد بين شارع الفجالة وشارع عباس الأول « الملكة نازلى ثم رمسيس حالياً » كان يقع قسم بوليس الأزبكية . وجنوبه شارع بين الحارات فشارع باب البحر ثم شارع كلوت بك فشارع نوبار باشا (الجمهوريه الآن) ، وامتداد شارع كامل عند فندق شبرد القديم ، فشارع عابدين من

ميدان الأزبكية ، ثم شارع تجران باشا وإبرو ، ثم شارع عماد الدين إلى أن نصل إلى شارع عباس الأول « رمسيس » .

وعلى حافة شارع نوبار كان يقع جامع أولاد عنان ، وفى هذه المنطقة كنا نجد حارة النصارى ، وفيها كاتدرائية مار مرقس حيث مقر البطريكخانة القديم للأقباط الأرثوذكس بين شارعى كلوت بك والقبيلة ، وتصل الحارة إلى شارع نوبار . وجنوبها نجد منطقة وجه البركة ؛ حيث شارع القبيلة شمالاً ، ثم شارع وجه البركة وامتداده شارع قنطرة الدكة حيث كنيسة الروم الكاثوليك ، فشارع المهدى إلى أن نصل إلى حى الأزبكية .

وكان للإنجليز وجود حيوى فى هذه المنطقة بحكم موقعها الإستراتيجى ؛ حيث كانت هناك قشلاقات بوليس الجيش البريطانى فى ميدان المحطة بين شارع عباس وشارع سيدى المدبولى ، وسجن الأجانب ومكانه الآن مستشفى الهلال الأحمر . ومن الناحية الأخرى للميدان نجد بداية شارع السبتية وكوبرى شبرا المعدنى ، المؤدى إلى شارع شبرا إلى أن نصل إلى حى القللى . .

●● وفى خريطة منتصف القرن العشرين ، أى بعد الأولى بحوالى ٥٠ عاماً نجد الأماكن نفسها ، وإن تغيرت المسميات . وكان ذلك فى بداية ثورة يوليو ١٩٥٢ . نجد شارع عباس الأول الذى تحول إلى شارع الملكة نازلى ثم شارع الملكة فقط ، ثم تحول اسمه إلى شارع النهضة ، بعد أن تم نقل تمثال نهضة مصر الذى أبدعه مثال مصر الكبير محمود مختار من موقعه فى ميدان باب الحديد إلى أمام جامعة القاهرة ، ليحل محله فى باب الحديد تمثال رمسيس الثانى .

ونجد مستشفى الهلال الأحمر مكان سجن الأجانب، الذى كان سجناً للمعتقلين السياسيين قبل الثورة ، ونجد مبنى جمعية المهندسين المصرية ، ولم يكن مبنى نقابة المهندسين قد أقيم بعد . . ونجد شارع توفيق يحمل اسم شارع عرابى ، والجمهورية على نوبار وعابدين . . ونجيب الريحانى محل قنطرة الدكة . واختفى اسم حارة

النصارى وشارع الجلاء محل شارع الترعة البولاقية . وفى الناحية الأخرى من باب الحديد نجد منطقة الشماشرجى وأرض الطويل وقصورة الشوام والقللى . .

●● وبعد هذه الخريطة بحوالى ٥٠ عاماً ؛ أى فى نهاية القرن العشرين ، نجد أن شارع النهضة أصبح اسمه شارع رمسيس من بدايته عند الشاطىء الشرقى لنهر النيل إلى باب الحديد ؛ ليحمل الميدان اسم ميدان رمسيس ، ثم يمتد إلى العباسية ويعبر إلى طريق الأوتوستراد عند نادى السكة الحديد فى مدينة نصر . . ويختفى جامع أولاد عنان من ميدان باب الحديد ليقام مكانه جامع الفتح . . أى كان فى الموقع نفسه الدير القبطى ليقيم مكانه صلاح الدين الأيوبى برج أو قلعة المكس ، ثم يقيم الحاكم بأمر الله جامع المقس مكانه لتهدمه الحملة الفرنسية ، ثم يبنى محله أولاد عنان مسجدهم الشهير . . ليصبح فى نهاية القرن العشرين مسجد الفتح وصاحب أعلى مآذن القاهرة كلها . .

ويختفى مبنى محطة كوبرى الليمون لتقام مكانها محطة مبارك لمترو الأنفاق . . وعما قليل سيختفى اسم كوبرى الليمون . . الذى كانت بدايته سوقاً لليمون ، ثم قنطرة الليمون ثم قلعة أو طابية « كامان » ثم كوبرى الليمون . . ثم محطة كوبرى الليمون إلى أن تصبح محطة مبارك لمترو الأنفاق !!

ثم نجد شارع الجمهورية من باب الحديد إلى قصر عابدين ، بعد أن كان مقسماً بين نوبار وكامل باشا وعابدين . ونجد عماد الدين قد تم تقسيمه إلى قسمين : الأول من ناحية باب الحديد أصبح اسمه عماد الدين ، وباقيه من شارع ٢٦ يوليو أصبح اسمه شارع محمد فريد ، إلى أن يصل إلى الناصرية وعابدين . .

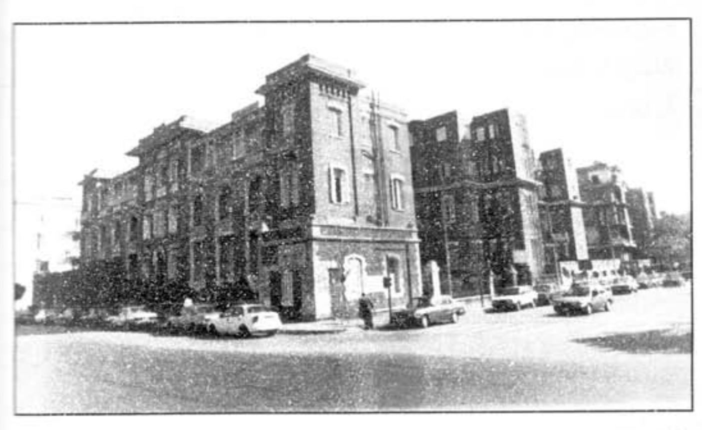
ولا تستطيع قوة أن تغير اسم شارع باب البحر ، فهو الأثر الوحيد الباقى على أن بحر النيل كان يصل إلى هنا . . فى ميدان باب الحديد . . ولن تغير قوة اسم الفجالة ، حتى ولو بعد أن غيروه إلى اسم شارع كامل صدقى . . لأن الفجالة اسم يعبر عن الحى كله . . وهو الاسم الشائع على لسان الناس كلهم حتى الآن .

●● وقد سجل المخرج السينمائى المجدد يوسف شاهين اسم « باب الحديد » فى واحد من أهم أفلامه ، هو فيلم « باب الحديد » من بطولته وبطولة هند رستم ؛ حيث سجل فيه الحياة الحية لمن يعمل ويعيش فى المنطقة وحول قطارات السكة الحديد وورش « أبو غاطس » . كما دار أكثر من فيلم حول هذه المنطقة ، وفيلم آخر تقاسم بطولته أحمد مظهر وشادية وعمر الشريف .

***



رمسيس الثانى أقمناه محل تمثال نهضة مصر فى موقع كان يجرى فيه نهر النيل قبل أن يغير النهر مجراه ويتجه غرباً .



المستشفى القبطى على حافة حى الفجالة عند تقاطعه مع رمسيس أقيم فى ثلاثينيات القرن العشرين .



محطة مصر عام ١٩٤٠ يعلوها التاج الملكى .



محطة مصر . . رمز القاهرة . . ودرة ميدان باب الحديد .



محطة كوبرى الليمون بميدان باب الحديد كانت هنا طابية أو قلعة أقامتها قوات بونابرت وعلى اليمـ
عربات مترو مصر الجديدة .

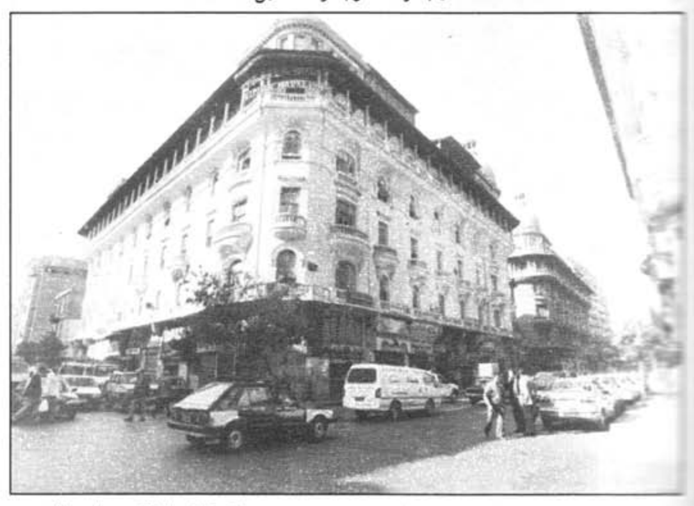


سبيل ابن محمد على باشا المعروف باسم سبيل أولاد عنان على حافة شارع الجمهورية وبجوار شارعى
باب البحر وعماد الدين .

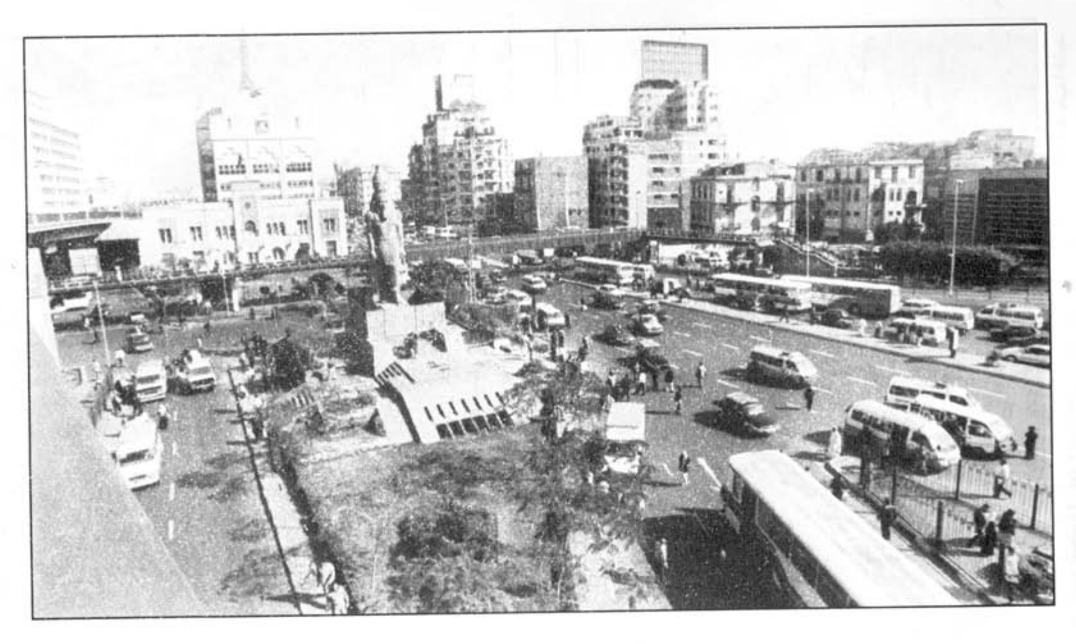


شارع فم باب البحر الذى يوصل بين ميدان باب الشعرية إلى أن يصل إلى ميدان باب الحديد عند حافة أو مدخل شارع أو حى الفجالة .

فى صدر الصورة نجد لوكاندة النيل تذكر الناس أن نهر النيل كان يصل إلى هنا . . إلى فم باب البحر والبحر هنا هو بحر . . النيل .



العمارات الضخمة الفخمة فى شارع عماد الدين ، غير بعيدة عن موقع قنطرة الدكة عند باب الحديد .



ميدان باب الحديد يتوسطه تمثال رمسيس الثانى وإلى اليمين كنيسة الادفنتس وبينهما شارع رمسيس ، الملكة نازلى سابقاً .

الباب الثانى
من قلعة لحماية القاهرة
إلى ميدان للرماية وحديقة غنّاء

لأن صلاح الدين الأيوبى نشأ فى بيئة عسكرية ، لايعرف إلا القتال والحرب . . ولأنه ولد وعاش وسط أجواء الحرب فى شمال شرق الشام ـ وبالمناسبة هو كردى الأصل ـ فقد قرر أن ينشىء قلعة فى القاهرة تحمى الحاضرة المصرية ، وتقف دون الأطماع الصليبية .

وعلى غرار قلاع الشام حيث كان لكل مدينة قلعة تحميها ، جاء قراره بإنشاء قلعة فى شرق القاهرة .

وهذا فى عام ١١٧٦م ، عهد صلاح الدين ببناء القلعة و السور الحجرى إلى يده اليمنى «بهاء الدين قراقوش » ، الذى أتم الجزء الأكبر منها عام ١١٨٣م بعد أن هدم الكثير من الأهرام الصغيرة فى منطقة الجيزة ، واستخدم أحجارها فى بناء القلعة . كأنه كان يريد لقلعته الخلود الذى تحقق للأهرام بفضل هذه الأحجار . وقد استخدم قراقوش الكثير من الأسرى الصليبيين فى بناء هذه القلعة . .

ورغم أن صلاح الدين بنى القلعة ليحتمى بها من أى غزو صليبى ، إلا أنه ـ فى الفترات القصيرة التى أمضاها فى القاهرة ـ لم يقم بالقلعة إقامة دائمة ، بل كان يتردد بينها وبين دار الوزارة بالقاهرة ، منذ كان وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد ، وكذلك فعل ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل .

وكان الملك الكامل محمد هو أول من انتقل للإقامة نهائياً من دار الوزارة إلى القلعة عام ١٢٠٧م . وهكذا فقدت القاهرة مكانتها كمركز للحكم . وبعد أن كانت القاهرة

« مدينة ملكية » أى لإقامة الخلفاء والوزراء وكبار قواد الجيش ، بدأت الأنشـ
التجارية والحرفية تتسرب إلى القاهرة ، وتنتشر فى موقع القصور الفاطمية ، وبالذا
حول الشارع الأعظم أو قصبة القاهرة . وتلك كانت البداية الحقيقية لأسواق القاهـ
الفاطمية مثل النحاسين والسروجية والسيوفية والخيامية والصناديقية وغيرها . ورغـ
هذا ظلت الفسطاط ـ أى مدينة مصر ـ رغم الأهوال التى مرت بها ، وأشهرها الحريـ
الذى استمر ٥٥ يوماً بأمر الوزير الفاطمى هى المدينة الأكثر اكتظاظاً بالسكان ـ
حيث عاد للإقامة بها بسطاء الناس وعوامهم .

ثم نقل الملك الكامل محمد الأيوبى سوق الخيل والجمال والحمير إلى الرميلة تحـ
القلعة ، فأخذ الناس فى تعمير ما حولها من الدرب الأحمر والمحجر وجهة القطا
والصليبة ، بعد أن كان بعضها مقابر وبعضها بساتين . وعاشت القلعة فترة ازدهار ـ
بعد أن انتقل الكامل محمد للإقامة بالقلعة وجعلها منزلاً للرسل الأجانب أى سفراء
الدول . إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين ، فبنى قلعة فى جزيرة الروضة ، ونقل
إليها مقر الحكم ، وبدأ عرش قلعة الجبل يضعف . .

إلى ان جاء السلطان الظاهر بيبرس ، فأعاد الحياة إلى قلعة الجبل هذه ، عندما بنى
قصراً سماه « الدار الجديدة » ، وكان يشرف على ميدان الرميلة ، وأنشأ حماماً بسوق
الخيل لولده الملك السعيد ، وهو القصر الذى هدم بعد ذلك ، ومحله القرة قول «قسـ
بوليس القلعة » وأيضاً عمارة والدة الخديو إسماعيل من ناحية ميدان محمد على .

كما بنى بيبرس « دار العدل » تحت القلعة عام ٦٦١هـ ، وأصبح يجلس فيها
ويستعرض قواته المسلحة يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع بفعل فكره وحياته
العسكرية التى تربى عليها. وهذه الدار هجرت أيام الناصر محمد بن قلاوون عام
٧٢٢ هـ ، عندما أمر بهدمها وأقام مكانها «الطبلخانة» ومحلها الآن شارع الدحديرة . .

وحدث أيام الظاهر بيبرس أن عم الغلاء وبلغ سعر أردب القمح ١٠٠ درهم ـ
وقل الخبز . فنادى السلطان فى الفقراء أن يتجمعوا تحت القلعة ، ونزل بنفسه فى يوم

الذى انتقلت فيه العديد من الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالنظام العسكرى المملوكى من القاهرة ؛ لتستقر حول ميدان الرميلة تحت القلعة ، مثل سوق الخيل والجمال وسوق الخيم « الخطط المقريزية ص ٣٦٤ » غير بعيد عن السروجية والسيوفية وسوق السلاح وتمركز النمو العمرانى للقاهرة حول هذه المنطقة ، وأقيمت العديد من المنشآت ، أبرزها مسجد السلطان حسن وجامع ، وخانقاه شيخون وغيرها . وجامع السلطان حسن يعد من أضخم الجوامع فى العالم الإسلامى . واستغرق بناؤه ٣ سنوات ، وافتتح للصلاة فيه عام ١٣٦٠م ، وتكلف أكثر من ٢٠ مليون درهم ؛ الأمر الذى يجعله من أكثر منشآت القاهرة تكلفة .

● قناطر العيون معجزة مائية :

ولا يمكن الحديث عن القلعة دون الحديث عن «قضية توفير المياه لسكانها » . وهى قضيه بدأت مع بدء إنشاء القلعة ؛ ذلك أن الخوف من الحصار كان وراء حفر « بئر يوسف » داخل أسوار القلعة لتوفير المياه ، وهى تنسب إلى «يوسف» صلاح الدين الأيوبى ، وليس كما يعتقد العامة خطأ إلى سيدنا يوسف . .

ثم جاءت فكره نقل المياه للقلعة ـ من النيل . . هنا فكر العقل الهندسى فى بناء هذه القناطر لحل مشكلة الفرق بين انخفاض مستوى المياه عند النيل . . وارتفاع أرض القلعة . فكان السور الحامل للقناطر المقام على هيئة عيون مرتفعاً عند بداية المأخذ عند فم الخليج ، ثم ينخفض ـ أو يرتفع السور بعد ذلك حسب ارتفاع أو انخفاض الأرض التى يعبرها السور الحامل للقناة أعلاه . .

وعند المأخذ فى فم الخليج تم بناء بئر عميقة كانت تنزل إليها الجمال والأبقار والبغال لتدير السواقى ، التى تسحب المياه من فرع النيل عند سيالة الروضة إلى أعلى القناطر ، حيث كانت هناك قناة فى هذا الارتفاع ، وينساب داخلها الماء الصاعد من السواقى ليصل إلى القلعة . وتم هذا العمل العظيم فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، صاحب المجموعة العظيمة فى النحاسين أمام بيت القاضى بالقاهرة .

ثم جاء السلطان قانصوه الغورى فهدم قناطر المياه هذه المحمولة على العقود أو السواكى ، وأعاد تشييدها من جديد . وفى هذه المرة كان الهدف رعاية النباتات والأشجار بجانب توفير المياه لسكان منطقة القلعة . وقام المهندسون بتشييد بئر متصلة بالنيل مع ٧ سواق ، تديرها الأبقار لرفع المياه إلى القناه التى شيدت فوق أقواس ، ترتكز على دعائم ـ هى سور العيون الباقى للآن ـ وكانت تتجه نحو الشرق متخذة طريق قناة الناصر محمد بن قلاوون إلى أن تصل إلى سور صلاح الدين الأيوبى، ثم تنعرج بعدها نحو شمال شرق حتى تبلغ الميدان و القلعة . وتم تشييد هذه القناطر التى يبلغ طولها ٣٤٠٠ أمتار ، من بينها ٢١٥٥ متراً شيدها الغورى ، خلال الفترة من مايو ١٥٠٧م إلى أكتوبر ١٥٠٨م .

●● وقد أبدى إبن إياس إعجابه الشديد بهذه القناطر ، ولكنه انتقدها فى الوقت نفسه ، وقال « جاءت هذه المجراة « القناطر » من العجائب والغرائب ، ولكن صرف على بنائها ما لا ينحصر من الأموال وغالبه من وجوه الظلم و المصادرات . . . » وهكذا أصبح ميدان القلعة حديقة باذخة بعد تأمين وصول المياه إليه . . وفى عام ١٥٠٩م وعام ١٥١٠م بدأت الشجيرات النباتية فى طرح زهور متنوعة للغاية ورائعة الجمال .

وكان السلطان الغورى يجلس متباهياً فوق منصة كبيرة «دكة» مطعمة بالعاج والأبنوس ، ويفرش فوقها مقعداً مخملاً وتظلله فروع الياسمين ، تقف حوله المماليك الحسان بأيديهم وأيديهن « المذبات » ينشون عليه . ويعلق على الأشجار أقفاصاً فيها طيور مسموعة «مغردة» مابين هزازات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل . وتارة يجلس على «البحرة » البحيرة التى طولها ٤٠ ذراعاً وتمتلئ كل يوم من ماء النيل بسواق نقالة من المجراة «قناطر المياه» تجرى ليلاً ونهاراً فيجلس على سرير«كرسى عرش» هناك فى غالب أيام الجمع . . » .

ويستمر إبن إياس فى وصف بستان ميدان الرميلة فيقول : « وفى هذا المكان كانت

تقام حفلات باذخة فى مناسبات وأعياد متنوعة . ويجرى أيضاً استقبال الوفود الرسمية والسفراء . » أى كانت مكاناً للفخر على مبلغ ما وصلت إليه مصر من ثراء وفن وحضارة» ، ويمتد الميدان عند سفح الأسوار حيث تجرى تدريبات رائعة على الفروسية. إن هذا الميدان شاسع للغاية ؛ إذ تبلغ أبعاده الكثير ، طوله أكثر من عرضه.

وتضاهى الحديقة الميدان فى اتساعها ، ويوجد فى وسطها كشك مكشوف يرتكز على أعمدة مغطاة بالنباتات الخضراء ، ويتدلى فوق كل عمود قفص فى داخله عصفور صغير مغرد. وكانت الحديقة مليئة بأشجار الرمان والكمثرى والتين والعنب والريحان وأنواع أخرى من الأشجار . .

●● أى أن ميدان القلعة «الرميلة» أيام قانصوه الغورى ، كان عبارة عن جنة وارفة الظلال تفوق حديقة الأورمان الحالية . بل كانت حديقة للطيور والحيوانات أيضاً . وكل هذا بسبب هذا المشروع «الغريب» كما وصفه ابن إياس . . مشروع سور العيون أو القناطر التى تنقل المياه من النيل إلى القلعة إلى هذا الحى العريق لتنعشه .

●● ولكن ما معنى «الرميلة» التى أصبحت اسماً للميدان سنوات طويلة خصوصاً فى العصر المملوكى المتأخر ؟!

كان المماليك مغرمين بالمسابقات وأعمال الفروسية بحكم أن نشأتهم عسكرية. وكما تم إنشاء ميدان باب اللوق ليكون مكاناً لهذه المسابقات والمنافسات الرياضية العسكرية والرمى بالنشاب تحول الميدان تحت القلعة إلى ميدان مشابه للفروسية والرمى بالسهام والقوس . . والبندق أى البندقية فى بداية ظهورها . وكانت هذه المسابقات تتم ليس فقط فى المواسم والأعياد ، بل على فترات متقاربة تشغل وقت الفرسان المماليك ، وحتى يحتفظوا بلياقتهم الجسمية والحربية ؛ أى تحول الميدان إلى ميدان للرمى. . والرماة والرماية . . ومن هنا جاء أصل الكلمة ميدان « الرُّمَيلة » والغريب أنه فى فترات الصراع السياسى والعسكرى بين المماليك ، ثم فى العصر العثمانى أن تحول

الميدان إلى ميدان حرب لضرب القلعة وإجبار ساكنها على الاستسلام . . وهناك من استخدم مسجد السلطان حسن كمكان أو قلعة تواجه القلعة سواء للتحصن به ، أو لضرب قلعة الجبل نفسها منه ، مما جعل قيام أحياء سكنية بهذه المنطقة أمراً غاية فى الصعوبة ؛ أى إن ثورات الجند ، وصراع أمراء المماليك ، و الخلافات بين الأمراء والولاة الضعفاء فى العصر العثمانى كانت وراء هروب السكان من السكنى فى منطقة القلعة ، وفضلوا الحياة بعيداً عنها . .

● وبسبب تزايد إقامة العسكريين فى المناطق القريبة من القلعة وحولها مثل سوق السلاح وسويقة العزّى «شارع سوق السلاح وشارع النبوية الآن » حتى نهاية القرن ١٨ ، دفع الطبقة الأرستقراطية إلى البعد عن ضواحى القلعة والمساكن القريبة منها حيث سكن الجند والعسكر . . لأن هؤلاء كانوا يفضلون أن يكونوا قريبين من مقر الحكم . . أى من القلعة . وكمثال على هروب الأعيان والتجار عن الإقامة بالقرب من القلعة أن يوسف كتخدا عزبان حوّل منزل والده المتوفى عام ١٦٩٤م ، والواقع فى سوق السلاح إلى وكالة تجارية . .

والمعروف أن وجود مقر الباشا «أى الوالى » وثكنات الانكشارية والعزب فى القلعة ساعد على اندلاع الفتن والاضطرابات المتتالية فى القاهرة خلال القرنين ١٧ و١٨ ، وكان غرضها فى الأساس احتلال القلعة . وبالتالى كان مسرح هذه الصراعات والعمليات هو المنطقة المجاورة لميدان الرميلة وجامع السلطان حسن . .

●● إلى أن جاء عصر محمد على باشا . وقرر الاهتمام بالقلعة ومبانيها ، ورأى أن من الواجب أن تعود كما كانت ثكنة عسكرية بمعنى الكلمة ؛ خصوصاً بعد أن تخلص من المماليك فى مذبحة القلعة المشهورة يوم الجمعة أول مارس ١٨١١م . وقرر محمد على أن يعيد القلعة كما كانت ، فأعاد تحصينها من الجهة الشرقية . وأزال أغلب منشآت المماليك التى كانت موجودة بها مثل الإيوان الكبير والقصر الأبلق ، وبنى لنفسه فى موضعها قصر الجوهرة ، الذى اتخذه مقراً للحكم ، يدير منه إمبراطوريته الواسعة

الممتدة من وراء جبال طوروس داخل شبه جزيرة الأناضول ؛ أى داخل عقر دار السلطنة العثمانية التركية والشام وفلسطين وكل شبه الجزيرة العربية من البحرين وقطر على الخليج العربى شرقاً إلى الحجاز على البحر الأحمر غرباً واليمن فى أقصى الجنوب ، وكذلك السودان . . وكان من هذا القصر يشرف على القاهرة من هذا الموقع المميز أعلى قلعة صلاح الدين . . وهو القصر الذى احترق فى سبعينيات القرن العشرين .

ثم مسجده الجامع الذى شيده على طراز مساجد إستانبول ، وفى العدد الثانى من « الوقائع المصرية » الصادر بتاريخ ٩ جمادى الآخرة عام ١٢٤٤هـ ، أصدر محمد على قراراً بإنشاء جامعه الكبير فى القلعة ، فوضع أساسه يوم الخميس ١٩ جمادى الأول عام ١٢٤٤هـ بحضور ولده إبراهيم باشا والى جدة ، وملا أفندى قاضى مصر والوجوه والأشراف والعلماء وكتخدا بك أى نائبه ، وهو منصب يعادل الآن منصب رئيس الوزراء ، كما حضر الحفل كبار الشورى . .

●● وأقام محمد على داخل أسوار القلعة مقار واسعة للجيش العصرى الذى أشرف على إنشائه وتولى قيادته ابنه البطل إبراهيم باشا . وتولى تدريبه وإعداده الكولونيل سيف أحد ضباط جيش نابليون ، الذى أسلم وأصبح رئيساً لأركان حرب الجيش المصرى ووزيراً للجهادية أى للدفاع . . كما أقام محمد على مصنعًا للأسلحة والبارود وداراً لضرب العملة ، كما أنشأ بها عديداً من دواوين الحكومة العصرية التى أنشأها . وفى الميدان الفسيح بالقلعة ، كان يقام سوق العصر الذى أصبح من أهم وأشهر أسواق القاهرة . وكان يلتقى فيه المشعوذون والحواة المدربون هم وحيواناتهم .

وعادت القلعة كما أنشأها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وبدأ بناءها عام ١١٨٣م وانتهى منها عام ١١٨٤م ، وظهر تخطيطها الأصلى على ما بناها بهاء الدين قراقوش قلعة تتخذ شكلاً رباعى الأضلاع . طول الضلع المتجه من الغرب إلى الشرق ٥٦٠ متراً . وطول الضلع المتجه من الشمال إلى الجنوب ٣٢٠ متراً ، ويبلغ امتداد الأسوار والأبراج ١٧٠٠ متر ، وتبلغ المساحة المسورة حوالى ٣٢ فداناً . وبعض أبوابها مستديرة

والأخرى مربعة . . أى عادت كما بدأ بناءها صلاح الدين . . وكما أكملها الملك العادل الأيوبى . . حيث كانت تعلوها شرفات مستديرة ، وهى فتحات يطلقون منها وسائل الحرب و القتال .

وبسبب الاستقرار الأمنى الذى تحقق فى عصر محمد على ، عاد الأمان و الهدوء إلى ميدان القلعة . . وذهبت الصراعات العسكرية حول الحكم إلى الأبد . . كل هذا شجع الأهالى على بناء مساكنهم فى المناطق القريبة من القلعة ، فانتعشت حركة العمران واتصلت مساكن حى القلعة بمساكن منطقة العتبة الخضراء والدرب الأحمر . . إلى أن جاء عصر إسماعيل باشا . .

وحقيقة بنى حكام مصر بعد محمد على وابنه إبراهيم وعباس الأول وسعيد قصوراً خارج القلعة . . إلا أن مقر الحكم ظل فى القلعة طوال عهودهم . . إلى أن جاء إسماعيل باشا فبدأ أولاً فى إصلاح ميدان الرميلة ، وغرس به الأشجار ، وأوصله بشارع محمد على فصار من أكبر ميادين القاهرة . بل إنه فكر فى إقامة تمثال لجده محمد على فى الميدان إلاّ أنه قرر إقامته فى الإسكندرية . . ويعود لإسماعيل باشا فضل تجديد أسوار القلعة عام ١٨٦٨م . ثم عندما فكر فى مد خط للسكة الحديد يصل القاهرة بضاحية حلوان الحمامات ، قرر أن يبدأ هذا الخط من ميدان القلعة . . قبل أن ينقل إلى باب اللوق .

ولكن لأن إسماعيل باشا كان يريد أن يكون قريباً من شعبه ، قرر أن يبنى قصر عابدين فى وسط القاهرة ليحيا بين الشعب ويحتمى به ،لا أن يحتمى بأسوار القلعة الحصينة . وبدأ إسماعيل بناء القصر عا م ١٨٦٣م ، وانتهى البناء لينتقل إسماعيل إلى قصر عابدين عام ١٨٧٢م ، وينتهى بذلك سلطان القلعة التى ظلت مقراً لحكم مصر منذ صلاح الدين الأيوبى ، ثم طوال العصر الأيوبى ، ثم عصر سلاطين المماليك البحرية ، ثم المماليك البرجية ، وطوال العهد الذى وقعت فيه مصر تحت الحكم

العثمانى من عام ١٥١٧م ، إلى أن انتهى دور القلعة كمقر للحكم فى عهد إسماعيل - عندما تركها ونزل ليقيم بين شعبه فى قصر عابدين عام ١٨٧٢م .

●● وإذا كان الفضاء الواسع تحت القلعة من ناحية الغرب قد حمل أسماء عديدة - منها : ميدان الرميلة ، وميدان محمد على . . فإنه قبل أن يحمل اسم ميدان القلعة حمل اسم ميدان القره قول . فقد كان فى هذا المكان يقام مركز الشرطة ، وهذا هو معنى القره قول . ولكن كمعظم الأسماء التى أصابها التحريف ، تحول اسم القره قول على لسان العامة إلى «الكراكون» ، وأصبح الناس يقولون : أروح فيك الكراكون . . أى إلى قسم الشرطة ، ولكن الاسم الشائع الآن هو ميدان القلعة ؛ حيث كانوا يلعبون كرة الصولجان «البولو» .

وكان من أفضل أعمال الخديو إسماعيل لتعمير حى القلعة ، قراره بشق شارع يصل بين القلعة وميدان العتبة الخضراء . . ليطلق عليه اسم جده العظيم : محمد على باشا . . ولينشىء بذلك محوراً مرورياً حتى ليقال إن شارع محمد على هو أول شارع عرضى ينشأ بالقاهرة !!

● شارع القلعة .. أم شارع محمد على ؟

●● ولايمكن الفصل بين القلعة وشارع محمد على !! فهذا الشارع هو الذى فتح الطريق أمام حى القلعة ؛ لكى ينشط ويتصل بالقلب الجديد للعاصمة المصرية . فضلاً عن أن هذا الشارع بامتداده الطبيعى الذى تم أيضاً أيام الخديو إسماعيل - ونقصد شارع كلوت بك - خلق محوراً جديداً للمرور يربط بين حى القلعة وميدان باب الحديد ؛ أى إلى الشريان الجديد للمواصلات المتمثل فى خطوط السكك الحديدية . وعندما تم شق شارع محمد على ، واتصل بشارع كلوت بك ، اقتربت المسافات ، وزاد التقارب عندما مدت خطوط الترام ، فكان من أول الخطوط خط العتبة - القلعة ، وخط العتبة - باب الحديد !! فما حكاية شارع محمدعلى؟!

كانت المنطقه الشرقية من ميدان العتبة عبارة عن مقابر وتلال ، وتعرف باسم ترب الناصرة وترب الأزبكية . وقرر إسماعيل إزالة هذه المقابر وإبعادها عن قلب القاهرة ، وتم جمع بقايا المدافن من عظام وغيرها ، وحفر بئراً عميقًا دفن فيها هذه العظام ، وبنى عليها مسجداً هو المسمى الآن باسم جامع العظام على يمين الداخل إلى شارع عبد العزيز من ناحية العتبة ، والمتجه إلى شارع البيدق . أما باقى العظام فتم نقلها إلى مقابر الإمام الشافعى ، وأزيلت مبان كثيرة منها جامع الأمير أزبك ، وأقيم محله تمثال إبراهيم باشا قبل أن ينقل إلى موقعه الحالى فى ميدان الأوبرا : ميدان إبراهيم باشا سابقاً .

وأزيل أيضاً جامع إسكندر باشا ، وامتازت الأحياء التى مر بها شارع محمد على من العتبة إلى ميدان القلعة - بطابع خاص ، وارتفع إيجار السكن فيها . وشيدت على ضفتيه عمارات كبيرة كالتى أنشأها الحاج محمد أبى جبل من التجار الموسرين ، وقصر حسن باشا الشريعى ، وقصر نعمانى باشا ، وسراى الأمير رستم باشا وغيرها . .

●● ويلاحظ أن الطراز المعمارى للمبانى التى أقيمت على طول الشارع ذات طابع إسلامى - عربى ؛ فالبواكى هى وحدة الإنشاء بهدف توفير مناطق للظل ؛ لحماية المشاة من حرارة الشمس صيفاً ، والأمطار شتاءً ؛ لأن الهدف أيضاً كان إنشاء منطقة للأسواق ، فكان لابد من توفير الظل والحماية للمشترين والبائعين معاً . ويلاحظ أيضاً أن الطراز نفسه ؛ أى طراز البواكى امتد مع شارع كلوت بك أيضًا لأنه الامتداد الطبيعى لشارع محمد على . وفى الشارعين محمد على وكلوت بك كثرت الحانات والبارات ، وأشهرها حانة العنبة فى شارع محمد على .

وكان إسماعيل باشا حريصاً على إنشاء عدد من المبانى العامة فى الشارع الذى سيحمل اسم جده الكبير ؛ فأقام دار الآثار العربية على ناصية الشارع مع ميدان باب الخلق . . ثم أنشأ دار الكتب الخديوية كأول وأكبر دار جمع فيها أمهات الكتب، بعد أن كانت متناثرة بين المكتبات الخاصة ومكتبات الأفراد والباشوات ومكتبات المساجد . .

●● واشتهر شارع محمد على بالفرق الموسيقية النحاسية ، وأشهرها فرقة حسب الله، التى يعتقد البعض أنها مجرد حكاية فنية ، بل هى حقيقة . وكان حسب الله هذا يعمل فى موسيقى الحرس الخديوى ، وعندما ترك موسيقى الحرس كون أول جوقة للموسيقى فى القاهرة تسير فى مواكب الأعراس . . وأيضاً أمام نعوش الموتى !! وكانت القاهرة قبل حسب الله لا تعرف هذا النوع من الموسيقى ، إلا فى المواكب الرسمية للخديو . . ويعود تاريخ « القهوة التجارية» إلى بدايات إنشاء الشارع نفسه . .وهى تقع فى أول شارع محمد على من ناحية ميدان العتبة .

وإذا كان شارع محمد على عرف الحانات و البارات ، إلا أنه أيضاً عرف المقاهى الثقافية ؛ إذ كانت هناك «مقهى الكتبخانة» أمام دار الكتب الخديوية . وكان يجلس إليها الشاعر حافظ إبراهيم فى أوقات عمله الرسمى فى دار الكتب ، يدخن الشيشة ويسمر مع موظفى الدار وزوارها من أمثال الشاعر عبد المطلب والشاعر حسن القاياتى ، والظرفاء أمثال محمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وأحمد جاد .

وعلى بعد قليل من هذا المقهى ، كان هناك محل للشراب البرىء يقدم منقوع الشعير والزبيب والخروب والسوبيا ، وكان صاحبه محمد صالح الشربتلى ـ فى النصف الأول من القرن العشرين ـ معروفاً لكل أهل القاهرة ، ويقصده الناس على الحمير الحصاوى والمطهمة والمزينة . وكان وراء دار الكتب مقهى بلدى لرجل عرف بشغفه بصراع الديوك ، كان اسمه « مقهى الديوك » .

●● وشارع القلعة أو شارع محمد على منذ يبدأ من ميدان العتبة ، يكون على يمينه شارع عبد العزيز الذى أنشأه أيضاً الخديو إسماعيل ، وعلى يساره شارع الأزهر ـ الذى شقه الملك فؤاد الأول ابن إسماعيل . وبينه وبين بداية شارع الأزهر توجد سوق الخضار، التى أنشأها إسماعيل باشا لتكون سوقاً نموذجية للخضر والفاكهة واللحوم والأسماك . ثم يخترق الشارع حى المناصرة ، ويتقاطع بعده على شارع حسن الأكبر ، عند ميدان باب الخلق ثم شارع غيط العدة ؛ حيث يصل إلى شارع الخليج المصرى ثم شارع درب الجماميز .

وعلى يسار شارع القلعة ـ بعد باب الخلق ـ نجد منطقة الداودية ، وغير بعيد نجد جامع الملكة صفية ، ثم المغربلين حيث جامع قوصون وحى الدرب الأحمر ، ثم حى السروجية ، وأهم مبانيها جامع جانم البهلوان . ثم يتقاطع مع شارع السروجية إلى أن يصل منطقة المنشية ليلتقى مع شارع سوق السلاح ، ليشرف على جامع الرفاعى وجامع السلطان حسن ، ويصب فى ميدان محمد على .

أما على يمين شارع محمد على منذ نترك ميدان باب الخلق ، فنجد تكية عباس باشا الأول ثم سكة الحبانية فجامع القاضى يحيى زين الدين . ثم منطقة الحبانية فشارع الدارس ، ثم مبنى دار الإفتاء القديم ، قبل أن نصل إلى شارع على باشا إبراهيم فشارع عابدى باشا حيث حى الحلمية ومدرسة بمبه قادن ، ثم شارع على باشا مبارك ليتقاطع شارع محمد على مع شارع الحلمية قبل جامع سيدى ألماس ، لنصل إلى تقاطع الشارع مع شارع المدفر ثم تكية المولوية إلى جامع السلطان حسن إلى منطقة السيوفية، حيث مدرسة القربية إلى ميدان محمد على باشا . .

وعندما كانت خطوط الترام تخدم أحياء وشوارع القاهرة ، كانت هذه المنطقة تخدمها خطوط أرقام ٤ و١١ و١٣و٢٢و٢٣ بينما كانت تخدمها خطوط أتوبيس أرقام البالو٢٣و٣٠و٣١ .

• شارع محمد على .. و الفن :

•• وبحكم قرب شارع محمد على من مسرح التياترو الخديوى ومسرح الكوميدى فرانسيز ، وغير بعيد عن الأوبرا ، اشتهر هذا الشارع بتواجد فرق الموسيقى النحاسية اللازمة لإحياء حفلات الزواج والطهور والموالد والحج وغيرها . وأيضاً نشأت فيه صناعة الآلات الموسيقية . . واشتهرت مجموعة من المقاهى كان يجلس إليها أعضاء هذه الفرق الموسيقية انتظاراً لوصول الزبائن ، وليست فرقة موسيقى حسب الله فرقة خيالية ، بل كانت هناك فرقة بهذا الاسم تأخذ مكانها فى شارع محمد على فعلاً كما أشرنا من قبل .

وبسبب شهرة الفرقة الفنية فى شارع محمد على أنتج ، عبد الغنى السيد ، الملاكم الذى كان يمتلك صوتاً رخيماً جميلاً فيلماً باسم «شارع محمد على » ، وتقاسمت البطولة معه الفنانة المطربة حورية محمد .

كما عرف تاريخ السينما المصرية فيلم « شارع الحب» وفيلم « لحن الوفاء » للعندليب الراحل عبد الحليم حافظ وحسين رياض وشادية وعبد السلام النابلسى وغيرهم . . وشهد المسرح مسرحية « شارع محمد على » التى قام ببطولتها فريد شوقى وشريهان .

وكانت « القهوة التجارية » مقراً لأجيال عديدة من الفنانين والفرق الموسيقية والطبالين والزمارين . . حتى نشأت «طبقة عوالم محمد على » ؛ حيث الرقص الشعبى وإحياء الأفراح والليالى الملاح !! بل إن معظم أعضاء هذه الفرق أقاموا وسكنوا فى حى المناصرة ليكونوا قريبين من مصدر رزقهم ، وكانت القهوة التجارية لصاحبها الحاج على منتدى للفنانين ، ومحل اجتماعهم ، وكانت بمثابة دار النقابة لهم يلتقى فيها فقراء الموسيقيين .

●● وانتهى عصر عوالم شارع محمد على ، وعصر موسيقى حسب الله ، وعصر الفن الجميل . بل انتهى عصر البواكى والعصر الذهبى لشارع محمد على . . وتم إلغاء خطوط الترام من القاهرة المحروسة . ولكن بقيت لافتات تدل على الشارع العظيم . مرة تحمل اسم : شارع محمد على باشا . . وأخرى تحمل اسم : شارع القلعة . . ولكن مازالت روائح التاريخ والذكريات تعطر المكان وتذكر كل المصريين بأنه كان ها هنا شارع . . له تاريخ .

● أين تمثال محمد على ؟

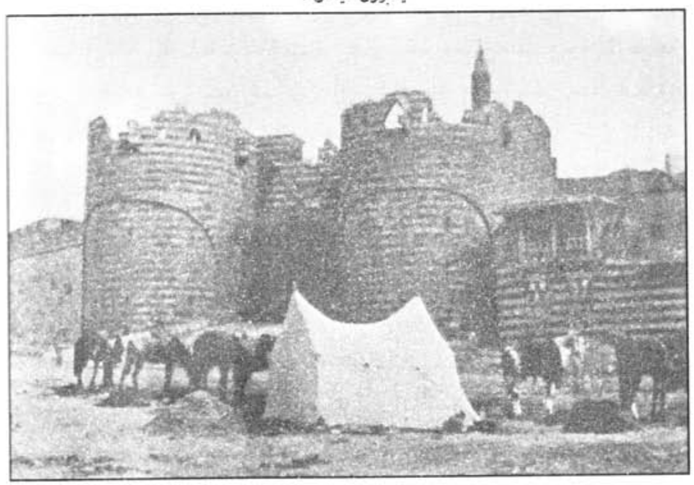
وأبدى الخديو إسماعيل اهتماماً كبيراً بحى القلعة . . ففى يوم ٢٩ أكتوبر ١٨٦٨م نشرت « الوقائع المصرية » فى العدد ٢٤٤ أن « الخديو إسماعيل قرر تحويل ميدان روملى وقره ميدان » إلى ميدان واحد وعمارة «تعمير» ما بأطرافه من أسوار القلعة ، وهدم الأبنية المختلة الحاجبة منظر جامع السلطان حسن . وبعد الفراغ من هذه المهمة « ستصور »

هنا صورة المرحوم محمد على باشا مجدد الحكومة المصرية ، بهيئة جسمية راكباً حصاناً من المعدن المعروف بالتنج . فلهذا ألغى اسم تلك الجهة القديمة . . وسميت الآن باسم : ميدان محمد على . ولتحويل المنطقة إلى ميدان عصرى تم كذلك نزع ملكية وشراء ٩١ محلاً بعد دفع ٩٨٦ كيسة « الكيس حوالى خمسة جنيهات » وترك البعض محله ولم يطلب تعويضاً ، وتم صرف الثمن لأصحاب المحال . . فى الحال . . هكذا قال على باشا مبارك فى خططه . .

أى إن الميدان ـ فى إحدى مراحله تمت تسميته باسم : ميدان روملى ، فهل المقصود: الرميلة ؟! كما تم إطلاق اسم قره ميدان . . وواضح أن هذا قبل أن يحمل الميدان اسم : قره قول الذى حرفه العامة إلى « كراكون » . أما تمثال محمد على المشار إليه . . فقد تم تنفيذه ولكنه وضع فى موقعه الحالى فى ميدان المنشية بمدينة الإسكندرية. وكان الأجدر أن يوضع فى ميدان العتبة الخضراء التى تغير اسمها إلى ميدان محمد على باشا .

* * *

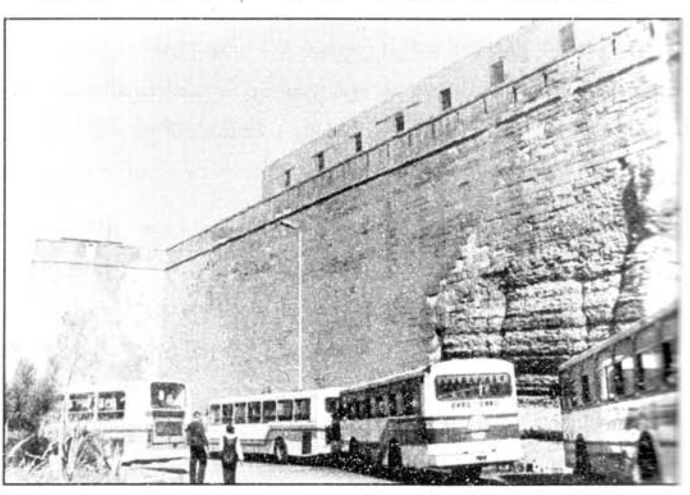
ميدان الرميلة ـ القلعة ـ فى عام ١٧٩٨م والأطفال يلهون بالمراجيح غير مبالين بجنود بونابرت الذين يعبرون الميدان .



باب العزب فى الواجهة الغربية للقلعة المطلة على مسجد السلطان حسن فى ميدان الرميلة . . عام ١٨٥٧م .



ميدان القلعة حيث مسجد ومدرسة السلطان حسن على اليسار ومسجد الرفاعى فى الوسط حيث دفن الخديو إسماعيل وفؤاد الأول وفاروق الأول ملكى مصر . . ثم مسجد قايت بك على اليمين .



أسوار قلعة صلاح الدين كانت تمنع امتداد العاصمة شرقاً وكانت تحميها من الغزاة .

الروضة .. من قلعة حربية إلى حى سكنى !!

جزيرة الروضة لم تكن موجودة فى العصر الفرعونى . وبدأت أهميتها الحربية أيام الفتح العربى لمصر . . كانت مجرد جزيرة بين حصن بابليون حيث مقر الحكم البيزنطى الرومانى وبر الجيزة . وكانت ذات منعة تزيد من قوة حصن بابليون لأنها كانت وسط النهر وتملك زمامه .

وكانت فى هذه الفترة تعرف باسم جزيرة مصر ، ولجأ إليها البيزنطيون أمام اكتساح المسلمين لمصر . لجأوا إليها بواسطة جسر من المراكب كان يصل بابليون بالجزيرة ، وعند حصار العرب لحصن بابليون تحصن الروم بجزيرة مصر هذه ، وأقاموا فى حصونها فى انتظار الفرج من القسطنطينية ، ولما لم يأت الفرج طلب المقوقس ـ عظيم مصر ـ الصلح .

وعلى أراضى جزيرة الروضة هذه دارت مفاوضات الصلح بين مندوبى عمرو بن العاص ومندوبى المقوقس . ولما فشلت المفاوضات هرب الروم من الجزيرة ليتم الصلح فى حصن بابليون ، وبعدها بقيت أسوارها وحصونها دون رعاية فتخربت حتى أيام ابن طولون .

●● وبدأ الاهتمام بالجزيرة فى العصر العربى ، ففى عام ٥٤هـ ـ ٦٧٤م أقام الوالى فيها داراً لصناعة السفن فى أعقاب هجوم البيزنطيين على البرلس فى معركة خسرها العرب .

وفى عام ٨٧٦م أعاد أحمد بن طولون بناء أسوارها وحصونها ، ومنذ ذلك الحين عرفت باسم جزيرة الحصن ، كما جعلها ابن طولون مقراً لخزائن أمواله ، ومقراً لديوان الجهاد ، وبنى فيها القصور . ولكن بعد وفاته طغت المياه على هذه القصور فدمرتها شيئاً فشيئًا ، إلى أن جاء محمد بن طغج الإخشيد منشىء الدولة الإخشيدية عام ٣٢١هـ ـ ٩٣٢م ، فبنى فيها بساتين وداراً ، سماها دار « المختار » ، وذلك مكان دار الصناعة القديمة التى كان يبنى بها السفن الحربية .

وظلت تقوم بدورها إلى أن أحرقها عام ٩٣٤م بعض الخارجين على الإخشيد . فبنى داراً جديدة للصناعة فى الفسطاط على الشاطىء الأيمن للنيل ، واستمرت تعمل بعد أن دخلت عليها تحسينات كبيرة فى العصر الفاطمى . وأقام الإخشيد دار المختار وبستانها فى موقع دار الصناعة وانتهى عصر دار المختار ، ولكن بقى فى موقعها شارع يحمل اسم . . شارع المختار تخليداً لهذه الدار الفخمة .

●● وفى أيام الفاطميين أصبحت جزيرة الروضة من أجمل المتنزهات ، وأنشئت فيها الفيلات الكثيرة التى كانت تسمى « المناظر » ، أى التى يجلس فيها صاحب الشأن لينظر منها إلى ما حوله من جمال . ومنها وصلت إلينا كلمة « المنظرة » التى تحورت إلى « المندرة » عند عامة الناس . وأشهر القصور أو المناظر الفاطمية تلك التى أقامها الخليفة الآمر بأحكام الله ، وسماها « منظرة الهودج » وأهداها لمحبوبته البدوية بجوار « قصر المختار » .

ولما قدم المعز لدين الله إلى مصر من بلاد المغرب عام ٣٦٢ هـ ، اتخذها متنزهًا له ومن بعده لخلفائه ، ولهذا عرفت باسم « روضة مصر » ، وهى أول مرة يظهراسم « الروضة » . وصارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس ، لها والٍ وقاضٍ . وكان يقال فى ديوان الخليفة الفاطمى عند الحديث عن العاصمة : « القاهرة . . ومصر . . و الجزيرة ـ أى الروضة » .

وفى عام ٤٨٨هـ أنشأ الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فى هذه الجزيرة مكاناً للنزهة

و التريض ، سماه « الروضة » . ومنذ ذلك الوقت صارت الجزيرة تعرف نهائياً باسم الروضة . وقد أكمل الأفضل شاهنشاه بستانه هذا المسمى « الروضة » عام ٤٩٠هـ - ١٠٩٦م وذلك فى النهاية الشمالية للجزيرة ؛ أى فى الموقع الذى أقيم فيه مستشفى المنيل الجامعى وفندق ميريديان الجديد . ويوضح كل هذا مدى عناية الفاطميين وأمرائهم بموقع الروضة التى صارت متنزها ومسكناً للأهالى .

●● وفى العصر الأيوبى أصبحت الجزيرة بما تحتويه ملكاً لابن أخى السلطان صلاح الدين . ولما تولى العرش الملك الصالح نجم الدين أيوب ، قرر بناء قلعة الروضة أو القلعة الصالحية فاستأجر الجزيرة من ناظر وقف مدرسة التقوية لمدة ٦٠ سنة ، وشرع فى حفر أساس القلعة فى يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ هـ. وفى العاشر من ذى القعدة بدأ هدم الدور والقصور والمساجد والكنائس ، التى كانت بالجزيرة ، وتحول الناس عن السكنى بالجزيرة . وقد هدم الملك الصالح كنيسة كانت للقبط بجانب مقياس النيل ، وأدخلها فى القلعة التى شيد فيها الدور والقصور ، وعمل لها ٦٠ برجاً وأقام بها جامعاً ، وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ونقل إليها عمد الصوان من المعابد القديمة وعمد الرخام من الكنيسة ومن البرابى والكنائس من منف وبابليون وعين شمس ، وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب ، وما يحتاج اليه من الطعام خشية من محاصرة الصليبيين له ، بعد أن استولوا على دمياط بقيادة ملكهم لويس التاسع ، عندما اعتزموا الزحف على القاهرة .

وكان الملك الصالح أيوب يشرف بنفسه على أعمال البناء ؛ حتى صارت تدهش الناظر بكثرة زخرفتها . ويقال إنه قطع فى هذا المكان الذى أنشأ فيه القلعة ١٠٠٠ نخلة مثمرة ، كان رطبها يهدى لملوك مصر لطيب طعمه ، وخرب الهودج و المختار. وهدم ٣٣ مسجداً ومصلى . وكانت مساحة هذه القلعة ٦٥ فداناً أسند حراستها إلى المماليك من جنده ، وأطلق عليها اسم المماليك البحرية نسبة إلى بحر النيل وقلعة الروضة .

وعندما عزم الصالح أيوب على بناء هذه القلعة الصالحية فى الروضة ، كان النيل فى الجانب الغربى فقط ؛ أى بين الروضة والجيزة . وكان قد انحسر عن بر مصر

«الفسطاط » ولا يحيط بالروضة إلا فى أيام الفيضان . فقام الملك الصالح بإغراق عديد من السفن فى البر الغربى تجاه باب القنطرة ، وحفر فى البر الشرقى بين الروضة ومصر «الفسطاط » ، ورفع ما كان فيه من الرمال حتى عاد الماء إلى بر مصر وتعود الروضة إلى جزيرة يحيط بها النيل من كل الجهات . .

●● وكانت الروضة ـ قبل الفتح الإسلامى ـ تتصل بساحل النيل الشرقى بواسطة جسر من المراكب . وكان هذا الجسر فى القرن ١١ مكوناً من ٣٦ مركباً كما قال الرحالة الفارسى ناصر خسرو . فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة وحفر ما بين بحر الجزيرة الغربى وبر الفسطاط ، أنشأ جسراً عظيماً يمتد من بر مصر إلى بر الروضة مكان الجسر القديم . وجعل عرضه عشرة أمتار ونصف المتر عرف باسم جسر الملك الصالح . وفى قلعته هذه وداخل قصره الذى أقامه داخلها مات الملك الصالح ، وأخفت زوجته شجرة الدر خبر موته حتى لاتتأثر الجيوش فى حربها مع جيوش الصليبيين ، وأرسلت إلى ابنه توران شاه ليعود سريعاً إلى القاهرة من شمال سوريا ليصبح سلطاناً على مصر . . بينما كان أكثر من ١٠٠٠ مملوك للملك الصالح يقيمون فى القلعة حول سلطانهم ، الذى نقل مقر الحكم من قلعة الجبل إلى قلعة الروضة .

●● واستمرت جزيرة الروضة عامرة حتى تولى السلطة عز الدين أيبك التركمانى، الذى تزوج من شجرة الدر بعد زوال ملك الأيوبيين عام ١٢٥٠م ، فأمر بتخريب القلعة الصالحية ، وعمر منها مدرسة المعزية التى أقامها بمدينة مصر بمنطقة « رحبة الحنة » واقتدى به غيره ممن هم ذوو جاه ، وبدأوا فى خلع السقوف والشبابيك ليبنوا بها قصورهم ، وتم بيع أخشابها ورخامها فى الأسواق . .

إلا أن الظاهر بيبرس ـ بحكم فكره وعصره العسكرى ـ أمر بإعادة تعمير القلعة وإعادة بناء ما تهدم منها ، وعين عليها الأمراء المماليك، لكل أمير منهم برج من الأبراج . وأمر أمراءه المماليك بأن يقيموا فيها ، وأن تكون بيوتهم كلها واصطبلاتهم بالقلعة . وسلمهم مفاتيح القلعة وأبراجها ، وكان ذلك عام ١٢٦٠ ميلادية . ومنح برج الزاوية

للأمير سيف الدين منصور قلاوون الألفى ، ووزع بقية الأبراج على الأمراء المقربين منه ، ولذلك عرف هؤلاء المماليك بالمماليك البحرية نسبة الى الروضة والبحر. وأمر بيبرس هؤلاء الأمراء ألا يغادروا القلعة ، ومن هنا اجتذبت الروضة العديد من الأهالى والباعة ، وأخذوا يسكنونها لتوفير الخدمات لسكان القلعة وجيشها .

ولكن لما تولى حكم مصر الملك المنصور قلاوون عام ١٢٧٩م ، وشرع فى بناء مارستانه والقبة والمدرسة المنصورية فى النحاسين بالقاهرة ، أمر بهدم مبانى قلعة الروضة ونقل منها ما يحتاج إليه فى مشروعه هذا من عمد الصوان وعمد الرخام التى كانت قبل بناء القلعة قد نقلت من البرابى والكنائس ، وأخذ منها رخاماً كثيراً وأعتاباً عديدة . بل إن ابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون فعل مثل أبيه ، فنقل ما بقى من أعمدة ورخام وأحجار من قلعة الروضة ، واستعملها فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل فى قلعة الجبل ، وبناء الجامع الناصرى بالنحاسين بجوار مشروع والده الملك المنصور .

●● وهكذا ذهبت قلعة الروضة كأنها لم تكن ، وبقى منها عقد جليل تسميه العامة « القوس » ، كان على الجانب الغربى للقلعة ، وظل باقياً حتى عام ١٤١٧م ، وبقى من أبراجها الستين عدة أبراج ، ثم انقلب أكثرها ، وبنى الناس فوقها بيوتهم المطلة على النيل . واختفت القلعة وبقى مكانها فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال شارع الملك المظفر ، ومن الغرب نهر النيل ، ومن الجنوب سلاملك حسن باشا المناسترلى ومقياس النيل ، ومن الشرق سيالة الروضة . وهذا السلاملك كان مكانه الجامع ، الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى عام ١٠٩٢م على النيل بجوار المقياس من الجهة الغربية ، وعرف بجامع المقياس . وظلت بقايا هذا الجامع قائمة إلى عام ١٨٥٠م ، عندما أزال حسن المناسترلى تلك البقايا ، وبنى هذا السلاملك فى مكان جامع المقياس ، وهو قصر المناسترلى الحالى الذى تحول إلى أثر وإلى موقع للسياحة والنزهة . .

وظلت إحدى قاعات قصر الملك الصالح أيوب باقية تقاوم الزمن إلى نهاية القرن

الثامن عشر ؛ حيث قدم لنا ج . ج مارسيل أحد علماء الحملة الفرنسية وصفاً تفصيلياً ومخططاً دقيقاً لها فى الجزء الذى خصصه لدراسة جزيرة الروضة والمقياس من الكتاب الأسطورة « وصف مصر » .

ولا ننسى هنا أن نقول إن الملك الصالح نجم الدين أيوب استخدم فى بناء قلعة الروضة عدداً كبيراً من أسرى الإفرنج « الصليبيين » ، الذين أسرتهم قواته بالشام وفلسطين .

●● وقبل أن ننهى حديثنا عن « الروضة » فى العصور القديمة ، تعالوا لنلقى الضوء على ما قاله الرحالة والمؤرخون عنها . .

يقول المقريزى فى خططه عند ذكر الروضة :

« الروضة هو اسم يطلق على الجزيرة الواقعة فى النيل بين مدينة مصر « الفسطاط » وبين مدينة الجيزة . عرفت فى أول الإسلام باسم الجزيرة وجزيرة الفسطاط . . وجزيرة مصر . ولما أنشىء فيها المقياس فى عام ٢٤٧ هـ ، عرفت باسم جزيرة المقياس .

وقال الكندى :

وتعرف قديماً بجزيرة الصناعة ، لأنه كان بها دار الصناعة الخاصة بإنشاء وتعمير السفن و المراكب من عام ٥٤هـ إلى عام ٣٢٣ هـ . .

ووردت فى المسالك لابن حوقل باسم الجزيرة ، وذكرها المقدسى فى كتاب«أحسن التقاسيم » فقال : الجزيرة « خفيفة الأهل » ويقع الجامع والمقياس على طرفها عند الجسر مما يلى مصر القديمة . وبها بساتين ونخيل ومتنزه أمير المؤمنين عند الخليج « سيالة الروضة » بموضع يسمى « المختارة » . ولما تكلم عن مدينة الجيزة قال : « ويلقى الخليج العمود « أى النيل » تحت الجزيرة عند المختارة » .

وذكرها الإدريسى فى « نزهة المشتاق » فقال : « ومن شاء الانحدار بطريق النيل من مصر القديمة إلى الإسكندرية خرج من مصر منحدراً إلى جزيرة انقاش » . وفى نسخ

أخرى منها وردت محرفة أيضاً باسم انفاس وابقاس و العاس ، وكلها غلط ـ كما يقول محمد رمزى فى القاموس الجغرافى ـ والصواب : جزيرة المقياس ، ثم قال : ومنها إلى نبابة « إمبابة » وهما مدينتان بين شطى النيل كانتا برسم تربية الوحوش فيهما فى مدة أحمد بن طولون .

ووردت فى « الانتصار » لابن دقماق باسم الروضة ، وكانت فى زمنه تابعة لمدينة مصر أى مصر القديمة . ولاتزال تعرف إلى اليوم باسم جزيرة الروضة . وفى دفتر المكلفة والمساحة باسم منيل الروضة ، وهى تابعة لمحافظة مصر فى أعمال الضبط والصحة والقرعة العسكرية . . ولمركز الجيزة فيما عدا ذلك ، كما يقول محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى المطبوع عام ١٩٤٥م .

● **مبانى الروضة وآثارها :**

●● لعل أول وأهم منشأة أقيمت فى جزيرة الروضة هى دار الصناعة ، التى أقيمت لأول مرة عام ٥٤ هـ ـ ٦٧٤م كما قال الكندى ، بعد أن أنزل الروم هزيمة بالمسلمين عند مدينة البرلس ، وقرر بعدها الولاة بناء دار لصناعة السفن لبناء أسطول حربى يكون مستعداً لملاقاة الروم ، الذين ظلوا يحلمون ويخططون لاستعمار مصر من العرب ، إذ كانت هى درة تاج الإمبراطورية الرومانية البيزنطية .

وقد أعيد بناء دار الصناعة فى عصر الطولونيين ، ثم فى زمن الوالى العباسى أبو موسى تكين عام ٢٩٧هـ ـ ٩١٠ م وسنة ٣٢١هـ ـ ٩٣٣م . ولكن هذه الدار أحرقت عام ٩٣٤م أيام محمد بن طغج الإخشيد الذى أمر بإقامة دار أخرى شمال مدينة الفسطاط على الشاطىء الأيمن للنيل ، واستمرت هذه الدار إلى العصر الفاطمى . . إلاّ أن بعض المؤرخين يقولون إن ما تم نقله إلى الفسطاط مكان بستان الطواشى هو جزء من دار الصناعة المحروقة فى الروضة ، ويؤيدون قولهم إنه كانت هناك داران للصناعة فى عهد الفاطميين : إحداهما بالروضة ، والأخرى فى الفسطاط . .

ولما طرح البحر فى المسافة بين الفسطاط ودير النحاس ، وتكونت أرض جديدة ، نقلت دار الصناعة إلى ساحل مصر تجاه « دار النحاس » أى دير النحاس ؛ حيث استقرت فترة طويلة ، ثم نقلت إلى ساحل بولاق فى أيام محمد على باشا الكبير .

● **مقياس النيل .. من العصر الفرعونى :**

●● اهتم المصريون القدماء بقياس منسوب النيل ، ليس فقط ليحدد الملك أو الفرعون مقدار الضرائب . . ولكن ليعرفوا هل هذا العام عام رخاء . . أم عام قحط ووباء ؛ ولهذا أقام الفراعنة والكهنة مقاييس عديدة للنيل ، حتى فى المعابد القريبة من النهر مثل منف وعين شمس وغيرها .

وامتد هذا الاهتمام إلى العصر الإسلامى ، فكان أول مقياس أقيم بها فى جزيرة الروضة عام ٩٧هـ ـ ٧١٥م ، أقامه أسامة بن زيد التنوخى عامل خراج مصر « الضرائب » أو (وزير المالية بلغة العصر) فى زمن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك . وأقيم فى الطرف الجنوبى من الجزيرة . وتمت صيانته عام ١٩٩ هـ ـ ٨١٤ م فى زمن الخليفة المأمون العباسى .

وكانت إدارة المقياس والإشراف عليه حتى العصر العباسى ، يتولاها الأقباط ، ولكن اعتباراً من عام ٢٤٧ هـ ـ ٨٦١م تولى هذه المهمة عبدالله بن عبد السلام ابن أبى الرداد مؤذن جامع عمرو بن العاص ، ورشحه لهذه المهمة القاضى بكار بن قتيبة . وظلت هذه الوظيفة يتوارثها أبناؤه حتى العصر العثمانى .

ثم جدد المقياس وأعيد بناؤه عدة مرات ، وهو اليوم من أهم الآثار العربية فى الطرف الجنوبى من جزيرة الروضة . ويطلق عليه المقياس الهاشمى ؛ لأنه آخر مقياس بنى فى مصر . .

● **الروضة .. والعصر الحديث ولماذا المنيل الآن ؟**

●● وفى العصر الحديث دخلت جزيرة الروضة مرحلة جديدة ، خصوصاً مع بداية عصر محمد على باشا وأسرته العلوية . .

ففى عام ١٨١١م ، أهدى محمد على جزيرة الروضة إلى صهره عباس باشا يكن . وكان الوصول إليها آنذاك بواسطة القوارب ؛ لأن كوبرى الملك الصالح القديم كان قد بلى وتداعى للسقوط . وكانت الروضة فى ذلك الوقت أرضاً زراعية ، فلما توفى عباس باشا يكن وزوجته تبادلها الورثة . ثم بيع الجزء الواقع إلى جنوب شارع الروضة الحالى إلى شركة توحيد الأراضى المصرية ليمتد . ويقول البعض إن حسن باشا المناسترلى ورث أرض حديقته وأرض منزله عن عباس باشا يكن ، وأنه رفض أن يبيعها للشركة المذكورة.

وفى عهد هذه الشركة تم إنشاء كوبرى الملك الصالح من جديد ، وأقيمت فوقه سكة حديد ضيقة تصل الروضة بجبل « أبو السعود » فى مدينة الفسطاط لنقل الرمال اللازمة لردم الجزيرة وتعلية أرضها . . وكانوا ينقلون الطمى من النيل للغرض نفسه بالكراكات.

ولكن بعد أن تم تمهيد أرض الجزيرة ، وأصبحت صالحة للتقسيم ، استولى عليها الجيش الإنجليزى ، وأقام عليها معسكراته . ثم رحل الإنجليز عنها فانتظمت للبيع طبقاً للمخطط السابق ، وتسارع الناس إلى تملكها . .

وفى أثناء تواجد معسكرات الجيش الإنجليزى بالروضة ، تم بناء كوبرى الخديو عباس حلمى الثانى ليصل بين جزيرة الروضة ومدينة الجيزة . وكذلك تم بناء كوبرى الملك الصالح من جديد ، واحتفظ باسم الملك الصالح تخليداً لذكرى الملك الصالح نجم الدين أيوب أشهر من اهتم بجزيرة الروضة . . وأقام فيها قلعته وقصره ، وأول من بنى جسراً بالمعنى المعروف ليربط الجزيرة ببر مصر . . الفسطاط !!

وقد تم إنشاء كوبرى عباس وكوبرى الملك الصالح عام ١٩٠٨م، وتم إنشاء طريق بينهما هو الآن شارع الروضة . . وتم تشغيل خط للترام ـ دائرى ـ من العتبة إلى الجيزة عبر دير النحاس ، ثم كوبرى الملك الصالح إلى شارع الروضة ، فكوبرى عباس إلى ميدان الجيزة . . ثم إلى منطقة الأهرام . .

وكان إنشاء هذين الكوبريين فاتحة عهد التعمير الحقيقى للروضة ، إذ بعد هذا التاريخ بدأ سيل العمران يصل إلى الجزيرة ، فتم تشييد مئات المنازل والعمارات وامتدت فيها شبكة هائلة من الشوارع ، أهمها :

● شارع النيل وأول من بنى فيه منزلاً هو محمود بك أبو النصر .

● شارع الإخشيد وأول منزل بنى فيه هو منزل الشيخ محمد بك زيد المدرس بمدرسة الحقوق .

● شارع المقياس وأول منزل بنى فيه هو منزل أحمد رشوان .

● شارع قلعة الروضة ، وكان أول منزل بنى فيه هو منزل قمحة بك .

● وشارع عاطف بركات لأن أول من بنى فيه هو عاطف بك بركات ، ثم تغير اسم هذا الشارع إلى شارع حافظ إبراهيم حكيمباشى الخاصة الملكية تخليداً لذكراه .

● شارع الملك الصالح ، وأول منزل بنى فيه هو منزل أمين رفعت ثم المدرسة الإنجليزية .

ويتقاطع مع هذه الشوارع : شارع الملك المظفر ، ثم شارع المماليك الذى يقع على تقاطعه بشارع المنيل ميدان المماليك البحرية ، ثم شارع المختار وشارع دار الصناعة ، وأول من بنى فيه منزلاً هو على باشا ثاقب المستشار السابق . .

وفى أوائل الأربعينيات من القرن العشرين ، امتلأت الروضة شمالاً وجنوبا بالمنازل الآهلة بالسكان ، وتضاعفت حركة المرور فى الشوارع وبالذات فى الشارع الرئيسى . فكان فيه خط ترام العتبة ـ الجيزة . كما تمر فى شارع المنيل والشارع الرئيسى بالروضة سيارات شركة ثورنكروفت الفاخرة ـ كما يقول فؤاد فرج فى مؤلفه عن مدينة القاهرة الصادر عام ١٩٤٢م ـ وكانت من أولى الشركات التى نظمت خطوطاً لنقل الركاب بالأتوبيسات السريعة الحديثة فى مدينة القاهرة .

●● ولكن لماذا منيل الروضة ؟!

فى العصر التركى بين عامى ١٥١٧م و ١٨٠٥م أيام محمد على ، نشأت قرية صغيرة فى شمال جزيرة الروضة عرفت باسم منيل الروضة ، أى إن القسم الجنوبى من الجزيرة هو الروضة وحدها . . والقسم الشمالى هو الذى حمل اسم المنيل . ويعتبر قصر الأمير محمد على توفيق الذى كان ولياً لعرش مصر ، هو أشهر مبانى منيل الروضة هذه ، وقد أقامه الأمير على مساحة تزيد على ١٧ فداناً عام ١٩٠١م ، وهو آية من آيات الفن المعمارى ، وقد صممه الأمير بنفسه الذى كان يتمتع بثقافة غربية وشرقية . . فجاء القصر تحفة فى العمارة الشرقية . وبحديقه القصر مجموعة نادرة من الأشجار ، ويحيط بالقصر سور على طراز هندى ، شيده الأمير بعد زيارته للهند . أما المسجد فقد شيده الأمير فى مطلع القصر ، فجاء تحفة من آيات الفن العربى الحديث .

وظل الناس ـ الأغنياء والفقراء ـ يقصدون جزيرة الروضة للنزهة ، منذ أقام القائد إبراهيم باشا ابن محمد على بستانا عظيماً للنزهة ، وكان الناس يترددون عليه أيام الأعياد وشم النسيم للاستمتاع بالأشجار التى جلبها من بلدان الشرق الأقصى ، وعلى أنواع الحيوانات والطيور والخلجان التى تجرى فيها المياه . . أى إن هذا البستان كان بداية لأول حديقة نباتات وحديقة للحيوان فى العصر الحديث ، سبقت مشروع الخديو إسماعيل فى منطقة الأورمان . .

وفى جزيرة منيل الروضة كان الناس يزورون « الشجرة المندورة » ، التى تشفى ـ فى اعتقادهم ـ الجروح المستعصية وتهب النسل للمرأة العاقر ، التى تمر تحت جذورها البارزة فوق سطح الأرض !! وكان العامة يذهبون إلى الجزيرة فى الأعياد وشم النسيم والمواسم ، يحملون طعامهم وشرابهم يغنون ويرقصون ويركبون الزوارق وسط أصوات الطبول والمزامير إلى ما بعد الغروب . . تماماً كما يفعل أحفادهم اليوم ، عندما يذهبون إلى حديقة الحيوان والقناطر الخيرية وبقية المتنزهات يوم . . شم النسيم .

وعلى الجانب الشرقى لجزيرة الروضة انتشرت قصور الأمراء والأغنياء ، منها قصر

سليم الجزائرلى . وبستان المندورة نسبة إلى هذه الشجرة العجيبة ، وأرض السيدة البارودية ، وأراضى حسن باشا يكن ، وقصر وحدائق على باشا شريف . وقصر وحديقة ذو الفقار باشا ، ثم قصر وبستان الخديو إسماعيل ، وهل هذا هو البستان الذى أقامه والده إبراهيم باشا ؟ . . ثم الطريق الموصل إلى مسجد قايتباى فى وسط الجزيرة ، وهى تفصل قصر إسماعيل عن قصر والدة عباس الأول .

وعلى الشاطىء الغربى للجزيرة المقابل لمدينة الجيزة ، يليه من الجهة الجنوبية قصر أمين باشا ، يليه أرض حسين باشا يكن ، ثم أراضى على شريف باشا فأرض الخديو إسماعيل ثم أرض الفريق أحمد المنكلى باشا وغيرها . .

أما فى طرف الجزيرة ، فقد أقيم معمل للبارود بعيداً عن المساكن ، تولى إدارته الفرنسى بارتلا ! !

●● ولكن أشهر ما بقى من قصور هذا العصر ، هو قصر المناسترلى ، وهو حسن فؤاد باشا المناسترلى الذى كان أول محافظ لمصر حمل هذا اللقب ؛ إذ عين من أول ربيع ١٢٧١هـ حتى ١٥ ربيع عام ١٢٧٢ هـ ، وذلك فى عهد محمد سعيد باشا الوالى الثالث بعد إبراهيم وعباس الأول . ولم يكن يسبق محافظ مصر فى البروتوكول إلاّ مدير الديوان ، وكان المحافظ وقتها بمثابة الكتخدا أى نائب الحاكم أو الوالى . .

وشغل المناسترلى وظائف عديدة فكان كتخدا خديو يتصرف فى أمور مصر بأمر واليها من ١٩ ربيع الأول ١٢٦٦ هـ إلى ٣٠ جمادى الآخرة ١٢٧٠هـ. وأحيل إلى رئاسة مجلس الأحكام من ٢٩ شعبان عام ١٢٦٨ هـ إلى ٣٠ جمادى الآخرة ١٢٧٠ هـ فى عهد عباس الأول . وفى عهد محمد سعيد باشا ، أصبح وكيلاً ثم ناظراً للداخلية من ٢ رمضان ١٢٧٣هـ إلى ٢٦ جمادى الآخرة ١٢٧٤ هـ ، وكان بذلك ثانى ناظر «وزير» للداخلية فى مصر ، بعد الأمير أحمد رفعت باشا ابن إبراهيم باشا والى مصر ؛ إذ كان أحمد رفعت باشا أول ناظر « وزير للداخلية » فى تاريخ مصر .

ومن الطريف أن جزيرة الروضة كانت تابعة لمركز الجيزة ، ثم تبعت للقاهرة فى العصر الحديث .

●● وعندما زاد الضغط على مستشفى قصر العينى ، قررت الحكومة إنشاء توسعات جديدة ، فأقامت فى المنيل ـ فى الجزء الشمالى من الجزيرة ـ مستشفى المنيل الجامعى الذى أشرف على إنشائه الدكتور الشهير على باشا إبراهيم . وحمل المستشفى الجديد اسم مستشفى فؤاد الأول لأنه كان تابعاً لجامعة فؤاد الأول ، وقد أقيم هذا المستشفى على مساحة ٥٢ فداناً فى المكان نفسه ، الذى كان فيه البستان الرائع الذى أقامه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى عام ١٠٩٤ م ، وهو البستان الذى أطلق عليه اسم « الروضة » .

ومستشفى فؤاد الأول هذا هو أول مستشفى عصرى ، يتم تخطيطه على هيئة مستشفى بما يحتويه من أقسام ومبان منفصلة متصلة . . وتم بناء المستشفى خلال ١٥ سنة ، وتكلف مع مبانى كلية الطب مليوناً و ٣٦٥ ألف جنيه ، خص المستشفى منها ٨١٥ ألف جنيه .

ولكن المنيل ـ الروضة شهد فترات اضمحلال وفترات نهوض ؛ إذ بقى فى المنيل ما يقال عنه : المنيل القديم . . مبان أقيمت بالطين والقش خصوصاً فى الجزء الشمالى بعد المنطقة التى أقيم عليها المستشفى الجامعى الجديد . ومازالت بقايا هذه البيوت الطينية قائمة بجوار كوبرى الجامعة ، الذى أقيم عام ١٩٥٨م للربط بين كليات الجامعة وأحياء المنيل ومصر القديمة . وساهم إنشاء هذا الكوبرى فى إزالة عديد من البيوت الطينية ، عند فتح الطريق أمام الكوبرى ، ثم سرعان ما قامت العمارات أمام الكوبرى الجديد . .

وذهبت بساتين الروضة . . وبساتين المنيل . . ولم يعد باقياً منها فى نهاية القرن العشرين إلاّ شريط ضيق من الحدائق المتواضعة ، يبدأ من خلف مبانى المستشفى الجامعى ، ويمتد حتى يصل إلى كوبرى عباس « الجيزة » على طول شارع الملك

عبدالعزيز آل سعود ، الذى يقطع الجزيرة من أقصى جنوبها عند الطرف الجنوبى للجزيرة إلى أقصاها شمالاً عند الطرف الشمالى للجزيرة ، ويكاد يلامس ظهر فندق المريديان الجديد ، الذى أقيم مكان الكازينو النهرى الشهير ، الذى كان يقبع عند الطرف الشمالى للجزيرة ويحمل اسم : فونتانا !!

● **كبارى الروضة .. من جسر المراكب .. إلى الكبارى العصرية .**

●● وبعد أن كان يربط بين الجزيرة وبر مصر عبر سيالة الروضة الجسر ، الذى أقامه الرومان فوق المراكب الصغيرة ، ثم الجسر الذى بناه الملك الصالح أيوب . . أصبحت جزيره الروضة تنعم بمجموعة من الكبارى العصرية أبرزها من الجنوب إلى الشمال :

● كوبرى عباس الثانى الذى يوصل بين الروضة ومدينة الجيزة ، أقيم أيام الخديو عباس حلمى الثانى ، وافتتح يوم ٦ فبراير ١٩٠٨م ، وتكلف ١٨٠ ألفاً و ١٠٠ جنيه مصرى لاغير . وكان طوله ٥٣٥ متراً ، أقامه المقاول الإنجليزى سير وليم أورل . وكان عرض الكوبرى ٢٠ متراً ، منها ١٥ متراً للطريق يمر عليه الترام ذهاباً وإياباً . وبسبب خطأ فنى فى بغال الكوبرى ، حدث هبوط وأصبح الكوبرى يمثل خطورة بسبب أحمال عربات الترا م . . ثم خطوط الترولى باص .

وهذا الكوبرى شهد أحداثاً دامية فى الأربعينيات عندما كان طلبة الجامعة والمدارس العليا تتظاهر ضد الاحتلال البريطانى ، ومازال حادث كوبرى عباس ماثلاً فى الأذهان .

ثم تم هدم هذا الكوبرى بعد أن فشلت محاولات إنقاذه ، وأعيد بناء كوبرى جديد محله عام ١٩٧٠م .

● وأمامه على الطرف الآخر الشرقى كوبرى الملك الصالح ، الذى أقامه نفس المقاول ، الذى أقام كوبرى عباس ، وتم معه فى العام نفسه ؛ أى عام ١٩٠٨م ، وكان طوله ٨٣ متراً وعرضه ١٥ متراً وتكلف ١٩ ألف جنيه !!

● ثم كوبرى الجامعة العصرى الذى أقامته شركة كروب الألمانية ، ليصبح أول كوبرى خرسانى فى مصر . وانتهى عام ١٩٥٨م ، وهو أيضاً أول كوبرى علوى يقام على النيل أى لا يحتاج إلى فتحه لتعبر الملاحة منه . . ويمتد عليه كوبرى قصر محمد على توفيق الذى يخترق المرور إليه نافذة شيم الشافعى ، بين مبانى أقسام مستشفى قصرالعينى . وبينه وبين كوبرى الملك الصالح تم بناء كوبرى سيالة الروضة فى أوائل الستينيات من القرن العشرين . .

● ثم كوبرى محمد على الذى أنشىء ليربط بين مبانى مستشفى قصر العينى القديم وجزيرة الروضة ، وحمل اسم محمد على لأنه أقيم ليوصل بين القاهرة وقصر الأمير محمدعلى توفيق شقيق الخديوعباس حلمى الثانى ، الذى تم فى عهده إنشاء هذا الكوبرى عام ١٩٠٨ بعرض ١٥ متراً وتكلف ١٦ ألفاً و٥٠٠ جنيه . ومازال هذا الكوبرى يقوم بعمله خير قيام ، ويعبره يوميًا الآلاف من طلبة الطب بين أقسام مستشفى قصر العينى ومستشفى المنيل الجامعى بأرديتهم البيضاء . ولا ندرى كم يتكلف هدم هذا الكوبرى . . لو تقرر ذلك لأن كل ماتكلفه فى البناء هو هذا الرقم الهزيل ١٦٥٠٠ جنيه .

●● أما لماذا أصبحت هذه الجزيرة تحمل اسم المنيل . . فإنه يقال إن محمد على باشا الكبير أقام مصنعاً فوق هذه الجزيرة لصنع « النيلة » لإنتاج « الصبغة » التى كانت تستخدم فى صباغة الأقمشة . والنيلة كانت أهم مواد الصباغة فى هذه الفتره . . أى إن « المنيل » هو اسم مكان لهذا المصنع !!

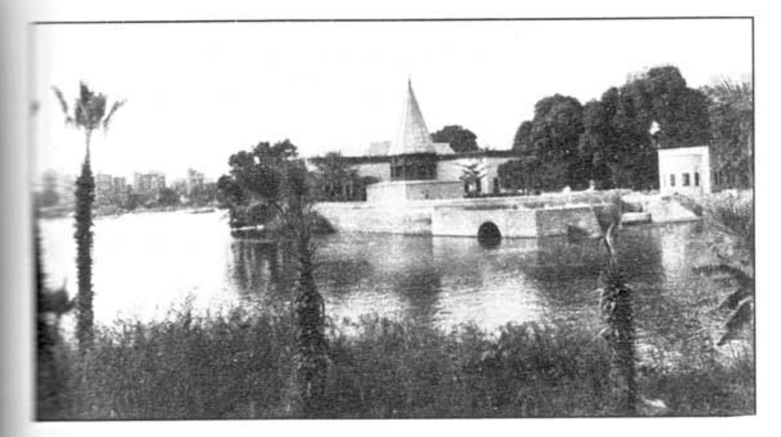


كوبرى الجيزة . .

أقيم مكان كوبرى عباس الذى أنشىء عام ١٩١٢ ليصل بين جزيرة الروضة ومدينة الجيزة .



وكوبرى الملك الصالح أقيم حيث أقام الملك الصالح أيوب الكوبرى الخشبى فوق المراكب ليصل بين مصر القديمة . . وجزيرة الروضة حيث قصره ومقر حكمه الذى نقله من قلعة القاهرة إلى قلعة الروضة .

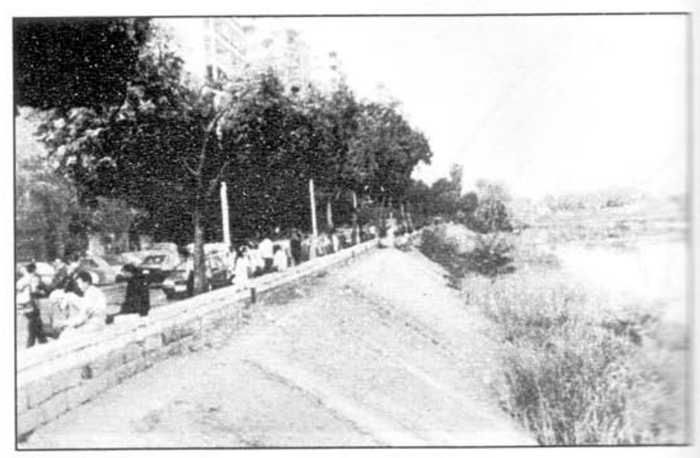


مقياس الروضة يتحدى الزمن بعد أن ظل قرونا يقيس لنا منسوب مياه النيل ، ومازال أيضاً فى موقعه رغم انتهاء مهمته التاريخية منذ أقمنا السد العالى .

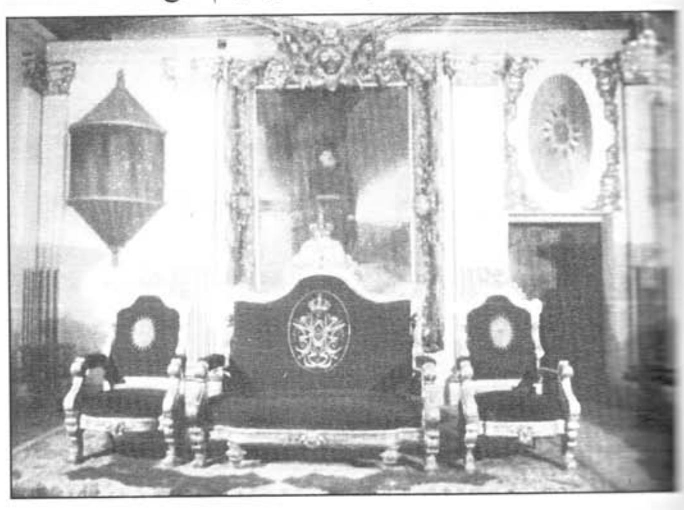


كوبرى للمشاة أقيم فوق الفرع الشرقى للنيل ـ سيالة الروضة ـ ليربط بين حى مصر القديمة فى الشرق والجزء الجنوبى من جزيرة الروضة من الغرب . .

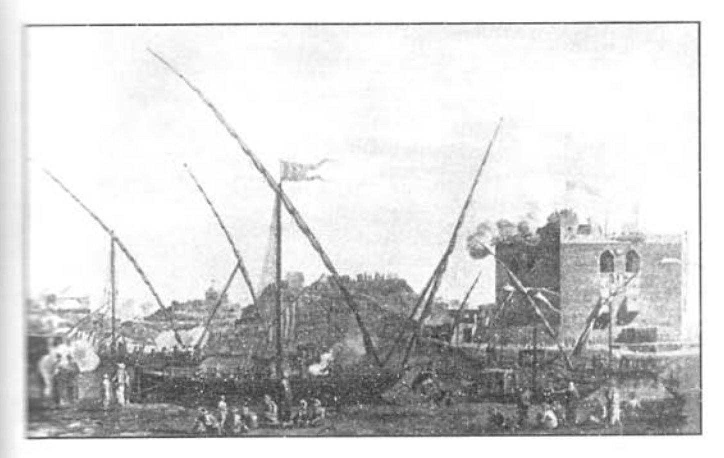
والعمارات الواضحة فى الصورة هى عمارات منيل الروضة .



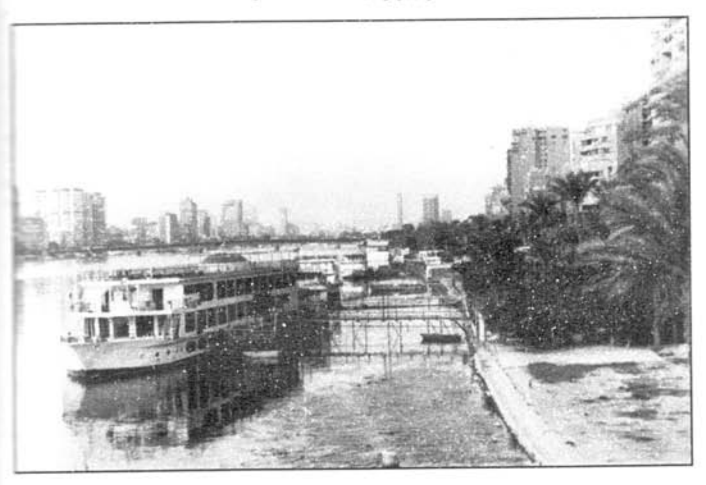
شارع متحف محمد على حيث الضفة الشرقية لجزيرة الروضة . .
والضفة الأخرى هى مصر القديمة بالقرب من فم الخليج .



قاعة العرش فى قصر محمد على توفيق فى المنيل . .
وعليها شعار مؤسس الأسرة العلوية وصورته . . وقرص الشمس شعار الأسرة .



الاحتفال بفتح الخليج أمام مياه الفيضان يوم ١٨ أغسطس ١٧٩٨م وكان هذا الخليج يصل إلى البحر الأحمر ويوفر المياه لسكان القاهرة .



الشاطئ الغربي لجزيرة الروضة من فوق كوبري الجيزة . .
وإلى اليسار عمارات مدينة الجيزة وفي الأفق كوبري الجامعة . . وبرج القاهرة .

بولاق .. لم تكن
يوماً من .. مدينة القاهرة

لم تكن بولاق فى يوم من الأيام جزءاً من مدينة القاهرة ، بل حتى لم تكن ضاحية لها !! فقد نشأت عواصم مصر بعيداً عنها . العاصمة الإسلامية الأولى هى «الفسطاط» جنوبى القاهرة الحالية عند حصن بابليون . وعندما أنشأ العباسيون العاصمة الثانية لمصر الإسلامية أقاموها شمال الفسطاط ، وعرفت « بالعسكر » . وعندما أنشأ أحمد بن طولون العاصمة الثالثة لمصر وسماها القطائع ، أقامها أيضاً شمال شرق العسكر . . حتى جوهر الصقلى الذى بدأ بناء القاهرة لتصبح رابع عاصمة لمصر الإسلامية أقامها أيضاً : شمال شرق القطائع . . وكل هذه العواصم لم تكن تطل على النيل باستثناء الفسطاط . . بل إن المعز لدين الله الفاطمى عندما وصل إلى مصر ليقيم فى القاهرة التى بناها قائد جيوشه جوهر الصقلى ، عاتبه عتاباً خفيفاً عندما رأى موقع المدينة وقال له : « لوكنت أنشأتها قريباً من النيل يا جوهر !! » .

وبالمناسبة ظلت الفسطاط عاصمة لمصر ١١٢ سنة هجرية ، منذ بناها عمرو بن العاص عام ٢٠هـ ـ ٦٤١م حتى عام ٧٥٠م ، عندما زالت دولة بنى أمية . ثم خلفتها مدينة العسكر كعاصمة مع العصر العباسى من ١٣٢هـ ـ إلى ٢٥٤هـ ؛ أى من ٧٥٠م إلى ٨٦٨م ؛ أى ظلت عاصمة لمصر ١٢٢ سنة هجرية . ثم انتقلت العاصمة من العسكر إلى القطائع من عام ٢٥٤هـ الى ٢٩٣هـ أى من عام ٨٦٨م ـ إلى ٩٠٥م ، وظلت عاصمة لمصر ٣٩ سنة هجرية ، وعادت الفسطاط عاصمة لمصر مرة

أخرى من ٢٩٣هـ إلى ٣٥٨هـ أى من ٩٠٥م إلى ٩٦٩م لمدة ٦٥ سنة أخرى ، لتخلفها المدينة الجديدة القاهرة عاصمة لمصر عام ٣٦٢هـ - ٩٧٣م ، وذلك بوصول المعز لدين الله إلى القاهرة ، ومن هنا تعتبر القاهرة العاصمة الرسمية من ذلك التاريخ . واتصلت هذه العواصم الأربع واندمجت فى مدينة واحدة . . ولكنها ظلت بعيدة عن النيل .. أى بعيدة عن بولاق !!

وبالطبع مادامت العاصمة فى الجنوب . . كان ميناؤها فى الفسطاط أى مصر القديمة « العتيقة » ، وهو فى المكان المعروف الآن باسم « أثر النبى » حيث يستقبل منتجات الصعيد . . والوجه البحرى أيضاً .

●● ثم بدأ الكلام عن بولاق على استحياء . وربما بدأت تأخذ شهرتها مع حملة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨م ، ومحاولة استخدام موقعها للوصول إلى مناطق الوجه البحرى . .

واختلف الناس فى معنى بولاق . . البعض قال ان أصل الكلمة هو « بو » أى الجميلة بالفرنسية . . و « لاك » أى بحيرة ؛ أى إن معنى الكلمة « البحيرة الجميلة » ثم تحرفت من بولاك إلى بولاق . . ولكن ليس عندنا ما يؤكد هذه التسمية أو هذا المعنى لأن بولاق كانت موجودة قبل الحملة الفرنسية . وكانت الجزيرة المقابلة لها فى عرض النيل - وهى جزيرة الزمالك الآن - يطلق عليها اسم جزيرة بولاق . . ويقولون إن أصل تكوّن منطقة بولاق يعود إلى غرق سفينة كبيرة فى هذا الموقع . ثم مع إطماء النيل بكثرة فى هذه المنطقه بدأت الأرض تعلو ، وتتكون أرض جديدة هى بولاق الآن . . وليس عندنا أيضاً ما يؤكد هذه الرواية . .

وتتحدث كتب التاريخ عن « الطرح السابع » للنيل ، الذى حدث عام ١٧٧١م وتركز عند بولاق . وكيف كسبت القاهرة زيادة كبيرة فى مساحتها بفعل هذا الطرح - ثم كيف أنشأ على بك الكبير عمارة كبيرة على ساحل النيل فى تلك الأرض ، حيث يمر شارع المطبعة الأميرية ، وأن الأهالى كانوا يلقون الأتربة وبقايا البيوت بجوار هذا

الساحل فطمى النيل عليها . وبذلك تكونت الأراضى التى قامت عليها ـ فى عصر محمد على ـ دار المطبعة الأميرية والورش الحكومية ومصلحة الوابورات أى الترسانة . . وأصبح الساحل الجديد عند بولاق ملتقى لتجار القمح و الزيت و السكر، وكانت المنطقة تزخر بالمدارس و المساجد والدور . وتؤم الشاطىء المراكب الشراعية المحملة بالبضائع القادمة من شمال مصر . .

وهكذا تحول الحيز الواقع بين القاهرة و النيل وبولاق من أرض تغمرها مياه الفيضان إلى هذا الحى الشعبى على ضفاف شاطىء النيل . .

وقد أدى تحول طرق التجارة المصرية ابتداء من عصر برسباى « ١٤٢١ ـ ١٤٣٨م» واعتمادها على تجارة البحر المتوسط ، بعد أن كانت تعتمد على تجارة البحر الأحمر عبر الطريق التقليدى « عيذاب ـ قوص ـ الفسطاط » بعد تخريب عيذاب فى أواسط القرن التاسع الهجرى . . بعد أن حدث كل هذا فقدت الفسطاط أهميتها الاقتصادية . . وبدأت التجارة تتجه إلى بولاق الذى أصبح ميناء بديلاً لميناء أثر النبى الذى حرفه العامة إلى « أتر النبى » ، ولكن ميناء بولاق لم يلعب دوراً فى الحياة الاقتصادية للقاهرة إلا ابتداء من القرن الخامس عشر .

●● وبدأ الاهتمام بضاحية بولاق منذ الحملة الفرنسية على مصر . وكانت البداية شق طريق مستقيم يبدأ من منطقة الأزبكية إلى بولاق ، وقام بتمهيده المهندس «بوبريه» كبير مهندسى الطرق والكبارى فى الحملة ، وغرس على جانبى الطريق الأشجار تسهيلاً لمرور فرق الجيش الفرنسى . وكان هذا الطريق يصل ما بين الأزبكية وبولاق بعد مروره فوق قنطرة المغربى ، التى كانت مقامة فوق خليج الطوابة «الخليج المصرى القديم » مخترقاً التلال الموازية للخليج .

ولكن العصر الذهبى لحى بولاق بدأ مع عصر محمد على باشا ، عندما أمر بتكملة شق الطريق بين « القاهرة . . . وضاحية بولاق » ، وكان لهذا الطريق فعل السحر فى تعمير بولاق ، كما أن محمد على أنشأ هناك داراً لصناعة السفن مع بدء

الإعداد لإرسال الحملة الوهابية ، وضرورة إنشاء أسطول قوى لمصر فى البحر الأحمر .

ثم أخذ فى تحويل المنطقة إلى منطقة صناعية ضخمة . . منها المسابك والمصانع حتى عرفنا المنطقة الصناعية فى السبتية . وفيما بين بولاق وشبرا على ساحل النيل . أقيمت الورش الكبرى والمطبعة الأميرية ودار الصناعة الكبرى والمبانى الحكومية وحظيرة واسعة أطلق عليها اسم « المبيضة » ؛ حيث كان يتم « تبييض » الأقمشة بالأساليب المستحدثة . كما أنشئ مصنع الجوخ على شاطىء النيل وامتاز بجودة إنتاجه وأزيلت أنقاض بولاق ؛ مما بقى منذ أيام الحملة الفرنسية ، وتحولت إلى حى صناعى راق . فقامت فيه المصانع والمخازن ومساكن المهندسين ومدرسة صناعية كبيرة ، حتى أصبحت بولاق بحق ثغر القاهرة فى الشمال ، وفيها أنشئت أول دار للطباعة فى الشرق . وبجوارها أنشىء مصنع لصناعة الورق ليمد المطبعة بما تحتاجه ، بل أنشىء مسبك لسبك الحروف العربية اللازمه للمطبعة . وتحولت بولاق والسبتية ـ امتدادها ـ إلى منطقة صناعية فيها مسابك الحديد ومصانع الأقمشة وورش النجارة والحدادة وغيرها . .

●● وزاد الاهتمام بحى بولاق عندما خطط الخديو إسماعيل « القاهرة الخديوية » ووصل التخطيط الجديد من ميدان الإسماعيلية جنوباً إلى نهاية شارعى شريف «المدابغ» وسليمان باشا . وكان لابد من تجديد شارع بولاق « ٢٦ يوليو الآن » مع مشروع تخطيط ميدان الأزبكية . . لأن هذا الطريق هو بداية تعمير ضاحية بولاق الذى أدى إلى ربط القاهرة الجديدة بشاطىء بولاق ، ولم تعد بولاق مجرد ضاحية للمدينة الصاعدة . .

ثم جاءت الطفرة التعميرية عندما تم إنشاء كوبرى بولاق « أبو العلا » ، الذى افتتح فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى « حفيد إسماعيل » عام ١٩١٢م ، وكان هذا الكوبرى معجزة هندسية ليربط بين القاهرة وجزيرة الزمالك ، ثم يعبر النيل الآخر «البحر الأعمى » ليصل إلى إمبابة على اليمين ثم العجوزة والدقى على اليسار ، وتمتد فوق كوبرى أبو العلا وامتداده كوبرى الزمالك ، خطوط الترام لتصل إلى ميدان الكيت كات فى إمبابه يميناً و إلى شارع النيل عند العجوزة يساراً ، إلى حدائق الأورمان والحيوان

وصولاً إلى ميدان الجيزة ثم إلى منطقة الأهرام . . ويؤدى توفير خدمات الترام إلى انتعاش حركة تعمير منطقه غرب النيل فى العجوزة والدقى والجيزة . . وامتداد التعمير الى منطقة إمبابة ذاتها . .

●● وفى المنطقة بين بولاق وساحل النيل ، نجد سوق العصر ثم شمالاً نجد جامع سنان باشا ، وهو أول مسجد كبير يقام على الطراز العثمانى ، فقد كان سنان باشا من أوائل ولاة العصر العثمانى ، ثم نجد سوق الحطب شرقى المطبعة الأميرية وشارع المطبعة الأهلية ، وعلى يسار شارع بولاق « ٢٦ يوليو » وخلف جامع السلطان أبوالعلا نجد إصطبلات الخاصة الملكية ، ثم نجد حى الحطابة حيث المقر الجديد والحالى لوزارة الخارجية بمبناها الشامخ ، ذات الملامح الفرعونية وتيجانه من زهرة اللوتس . .

وجنوبها نجد شارع إصطبلات الطرق ومقر مصلحة نظافة العاصمة قبل إنشاء بلدية القاهرة . وجنوبها جمعية الرفق بالحيوان وكلها غير بعيدة عن شارع « ظهر الجمّال» ولاحظوا العلاقة . بين سوق الحطب والحطابة والإصطبلات والرفق بالحيوان وظهر الجمال !!

● من صولت إلى محال البوظة .. ومن المحروسة إلى أبو العلا :

●● وحمل الشارع الممتد من حديقة الأزبكية منذ بداية عصره اسم شارع بولاق . . ثم حمل اسم شارع فؤاد الأول إلى أن تغير مع ثورة ٢٣ يوليو ؛ ليحمل اسم : شارع ٢٦ يوليو أى اليوم الذى تم فيه عزل الملك فاروق بن فؤاد . ويمتد هذا الطريق من الأزبكية إلى منطقة ميت عقبة مخترقاً حى بولاق وأبوالعلا إلى جزيرة الزمالك عبر كوبرى أبو العلا ثم كوبرى الزمالك إلى نهاية نادى الترسانة على اليمين ونادى الزمالك على اليسار ، ليبدأ المحور المرورى الجديد : محور ٢٦ يوليو ، الذى يمتد ليصل إلى طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوى ومدينة ٦ أكتوبر . .

وتحول شاطىء بولاق إلى شاطىء للنزهة عند الغروب ، وكان حى بولاق يعج ببؤر تدخين الحشيش . وتمتد من كوبرى بولاق الذى حمل شعبياً اسم كوبرى أبو العلا إلى

مقر جمعية الإسعاف ، وكانت محال البوظة تملأ هذه المنطقة حتى منتصف القرن العشرين .

وقامت العمارات الضخمة على طول الطريق من حديقة الأزبكية ـ إلى كوبرى أبو العلا . . ومنها عمارة الجندول التى أقامها الموسيقار محمد عبد الوهاب مكان بار سان جيمس ، الذى كان يجلس فيه الشاعر أحمد بك شوقى وعمر لطفى المحامى . . وعمارة شيكوريل التى قامت مكان « بار صولت » الحلوانى ، الذى كان مطعماً ومحلاً للحلوى ومشرباً للخمر . وكان « صولت » هذا ملتقى كبار الأدباء والشعراء والمثقفين والصحفيين ، يتقدمهم أحمد شوقى بك الذى كان مكانه المفضل بين العاشرة مساء والواحدة صباحاً !! وحوله يتجمع الدكتور محجوب ثابت بك الطبيب الأديب ، والشيخ عبد العزيز البشرى ومحمود فهمى النقراشى وعبد الحليم العلايلى ، وأمين الرافعى رئيس تحرير جريدة الأخبار « القديمة » وسليمان فوزى صاحب جريدة الكشكول وصالح البهنساوى الصحفى المشهور فى « الأهرام » . .

وفى محاذاة محل « صولت » الذى كان مصدراً للأخبار الصحفية كان يقع بار المحروسة الذى كان يجلس عليه الوجهاء من آل يكن وآل المانسترلى وغيرهم . وفى مواجهته كان يقوم بار بطرسبورج ، ثم نجد مقهى بور فؤاد حيث يجلسون على الأرصفة ثم على ناصية شارع بولاق مع شارع سليمان باشا كان يقع مقهى البور نور على الناحيه المواجهة للأمريكين حالياً .

●● ومع تحرك « الحى التجارى » من الأزهر والحمزاوى وشارع المعز شرقاً نحو الموسكى والعتبـة غرباً . ثم مع تحرك الحى التجارى مرة أخرى من العتبـة و الموسكى إلى القاهرة الخديويـة وبالذات شارع بولاق « ٢٦ يوليو » ، تم إنشاء سلسلة من الفنادق المتنوعة الدرجة على امتداد الشارع الذى أصبح محور الحى التجارى ، فمن كان لا يذهب للشراء كان يذهب للفرجة !! ومن أشهر هذه الفنادق : كلاريدج . . جلوريا . . إدن . . كارلتون . . جراند أوتيل . . إسكس . . إكس مورواندى . . نيتوكريس . . أمية . . وهكذا .

●● وشهد محور شارع بولاق « فؤاد الأول ثم ٢٦ يوليو » إنشاء العديد من المبانى العامة والعمارات الضخمة . ولعل أشهر هذه المبانى دار القضاء العالى ، التى أقيمت لتكون مقراً للقضاء المختلط . ولكى تنتقل هذه المحكمة من موقعها المجاور لمبنى صندوق الدين بين ميدانى العتبة والأوبرا . . إلى مقرها الجديد . إلا أن إلغاء القضاء المختلط بعد توقيع حكومة الوفد لاتفاقية مونترو عام ١٩٣٧م أنهى هذا القضاء الذى كان صاحب فكرته نوبار باشا أول ناظر للنظار « رئيس الوزراء » فى عصر الخديو إسماعيل ، وأصبحت دار القضاء العالى رمزاً للقضاء المصرى بسبب المبنى الفخم ، الذى بنى على الطراز الإيطالى بأعمدته وصالاته الواسعة وارتفاع مبانيه .

ويلاصقه مبنى مصلحة الشهر العقارى الذى بنى فى الفترة نفسها التى شهدت بناء دار القضاء العالى . وقبل أن نترك هذه المنطقة لنعبر شارع رمسيس ، نتذكر أن أمام دار القضاء العالى تمت إقامة أحدث عمارة فى الشارع عام ١٩٣٨ هى عمارة لاجنيفواز ، وبعدها نجد تلك العمارة الضخمة ذات المساحة الهائلة التى أقامها عميد عائلة الشواربى ، وتحتل مربعاً من شارع ٢٦ يوليو ، ويمتد يميناً إلى شارع رمسيس . وهى من ضخامتها تضمن تصميمها عدة مداخل وممرات تحتها . وتتزين هذه العمارة التى لو هدمت لكانت خسارة كبيرة لتاريخ العمارة المصرية ، واقامت مكانها عشرات العمارات . تتزين بأعمال كريتال « حديد مشغول » وتماثيل وكرانيش من الجبس ، وتعلوها قباب مازالت صامدة رغم مرور أكثر من ١٠٠ عام هى عمر العمارة حتى الآن . وخلف هذه العماره يقع سوق التوفيقية حيث عمارات أقيمت منذ عام ١٩٠٠ و١٩٠٣ و١٩١٠م . وهو أول سوق للأطعمة الطازجة والخضر والفاكهة ، منذ تركنا سوق العتبة ، وقبل أن نصل إلى سوق شارع بولاق الجديد .

●● وعلى الضفة الغربية لشارع رمسيس مع تقاطعه مع شارع ٢٦ يوليو ، نجد الجمعية المصرية للعلوم السياسية . وعلى الناصيه الأخرى نجد مقر جمعية الإسعاف الملاصق لمبنى معهد الموسيقى العربية الذى تقرر اعتباره من الآثار ، ثم نجد كنيسة

صغيرة لنصل إلى شارع الجلاء حيث نجد على اليمين مستشفى الجلاء للولادة ، الذى أقيم فى عهد الملك فؤاد عام ١٩٣٤م ولهذا حمل اسم « مستشفى فؤاد الأول للولادة » ثم تغير اسمه بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ليحمل اسم مستشفى الأوقاف . . وتغير الاسم للمرة الثالثة ليصبح اسمه الآن « مستشفى الجلاء للنساء والولادة » . . وأمامه نجد معهد ليوناردو دافينشى للفنون و العمارة . كما نجد مقر شركة القاهرة للكهرباء والغاز منذ كانت امتيازاً لشركة ليبون الفرنسية .

ونمضى مع شارع ٢٦ يوليو لنجد « متحف الركائب الملكية » ثم مسجد السلطان أبو العلا . ولم يكن أبو العلا سلطاناً أو ملكاً ، ولكنه حمل هذا الاسم لأنه كان سلطان . . المتصوفين !! وقد أعيد بناء هذا المسجد فى عهد الملك فؤاد الأول (عام ١٩٢٢م) . . وافتتحه الملك فؤاد بأداء صلاة الجمعة فى ٥ يونيو ١٩٣٦م ؛ لنصل إلى شاطىء النيل عند بداية كوبرى بولاق « أبو العلا » الذى أحالوه إلى المعاش وفكوه ونقلوه بعيداً لينتهى حى بولاق على الشارع الرئيسى الذى حمل اسم شارع بولاق . . ويقبع على البعد حى الزمالك بقصوره وفيلاته ؛ أى إن الكوبرى كان يفصل بين الحى الشعبى بولاق والحى الراقى الأرستقراطى الزمالك !!

● **حى الصحافة والطباعة والدبلوماسية المصرية :**

●● وحى بولاق هو بحق حى الصحافة فى مصر !! ففيه مقر جريدة الأهرام ، منذ انتقلت من شارع مظلوم عند تقاطعه مع شارع شريف فى أواخر الخمسينيات بمبانيها الجديدة ومطابعها العصرية فى شارع الجلاء . . ومقر مؤسسة أخبار اليوم منذ بنى التوءم مصطفى وعلى أمين دار أخبار اليوم فى أواخر الأربعينيات فى هذه المنطقة ، التى كانت تعرف باسم عشش الترجمان . ولدار أخبار اليوم المبنى التقليدى الدائرى الذى أصبح رمزاً لها . . والمبنى الصحفى الجديد على بعد أمتار منه . . وبجوار هذا المبنى كانت تقع جريدة المساء منذ أقيمت فى الخمسينيات على مشارف عشش الترجمان .

وإذا كان النصف الأول من حى بولاق المجاور لحديقة الأزبكية هو الجزء الراقى الحديث . فإن النصف الثانى على اليمين حيث عشش الترجمان والعدوية ، وأيضاً على اليسار حيث المنطقة المؤدية إلى الإصطبلات القديمة . . وجراج هيئة النقل العام حالياً . وهناك تكثر العشش والمبانى العشوائية والحوارى والأزقة الضيقة التى لاتستطيع سيارات الشرطة أو الإسعاف والمطافئ المرور فيها .

وإذا كان التطور قد بدأ يطول حى بولاق ، بعد أن أنشىء المبنى الضخم الفخم على كورنيش بولاق ليصبح مقراً للدبلوماسية المصرية كوزارة للخارجية ؛ مما نتج عنه إزالة العديد من العشش والمبانى العشوائية . . وتلك هى الخطوة الثانية بعد أن أزيلت مساحة كبيرة من المبانى العشوائية لنبنى مكانها مبنى الإذاعة والتليفزيون الضخم فى أوائل الستينيات .

كما بدأت عملية إزالة بعض المخازن القديمة فى بولاق ، ورملة بولاق ، والتى كانت عبارة عن مخازن للشركات أقيم مكانها الآن المركز التجارى الدولى ، وبجواره أعلى عمارتين على الكورنيش . وهكذا زحف العمران العصرى على ساحل بولاق . . وإن بقيت مساحات كبيرة عشوائية وقديمة من طابق واحد وطابقين ، أشهرها منطقة وكالة البلح ذات السوق التاريخى رخيص الأسعار ، الذى تعرفه أقدام « وجيوب» كل القاهريين . .

وغير بعيد عن وكالة البلح نجد المبنى الحديث لدار الكتب المصرية ومقر الهيئة المصرية للكتاب . وكأننا نعيد إلى المنطقة سمعتها القديمة ، عندما كانت مقراً لأول مطبعة فى الشرق . . تلك المطبعة الأميرية التى أقامها محمد على عام ١٨٢٧م ، ثم أهداها عباس الأول لأحد أصدقائه ، قبل أن يستعيدها من ماله الخاص الخديو إسماعيل . .

وغير بعيد . . وعلى الشاطىء الآخر عند إمبابة ، تقع مبانى المطبعة الأميرية « المصرية » التى أقيمت فى أواخر الستينيات . .

●● وتتصل مبانى حى بولاق . . بمبانى حى روض الفرج ، ولم يعد أحد يعرف إلا فيما ندر الفاصل بين الحيين العريقين ولا تاريخهما .

● فتوات بولاق .. والثورة :

لايمكن لمن يتعرض لكتابة تاريخ بولاق أن ينسى أنصع صفحات هذا التاريخ . وهى بكل المقاييس من أنصع صفحات التاريخ المصرى الحديث ، لأنها تكشف المعدن الأصيل للشعب المصرى ، الذى ثار وحارب وقاوم وهو يعلم أن عدوه يملك أحدث الأسلحة . . بينما هو لايملك إلاّ النبابيت والعصى . . وعدداً محدوداً من البنادق والطبنجات . .

فماذا يقول تاريخ المقاومة الشعبية المصرية عن بولاق وفتوات بولاق ؟

بداية نذكّر القارئ أن بولاق كانت بلدة من ضواحى القاهرة . . تقع على شط النيل، بينما القاهرة فى حضن الجبل . . وأقصى اتساع لها هو منطقه الأزبكية . . كان هذا أيام الحملة الفرنسية التى جاءت مصر بقيادة بونابرت عام١٧٩٨م .

وعرف الفرنسيون أهمية موقع بولاق لأن منها ينطلقون إلى الوجه البحرى كله . ولهذا كان اهتمامهم بهذه « البلدة » عظيماً ، وليس أفضل من الجبرتى عندما يصف هذه الفترة لأنه عاشها وعاصرها يوماً بيوم .

يقول عبد الرحمن الجبرتى إنه فى اليوم الخامس من ديسمبر عام ١٧٩٨م جدد الفرنسيون قنطرة المغربى ، وكانت قد آلت إلى السقوط . ثم مهدوا الأرض بعدها بحيث صار جسراً عظيماً ممتداً ممهداً مستوياً على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق بطول ١٢٠٠ متر من قنطرة المغربى إلى بولاق ، ثم ينقسم بقرب بولاق إلى قسمين أحدهما إلى طريق أبو العلا والثانى يذهب إلى جهة التبانة وساحل النيل . . وبطريقة الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبى العلاء وجامع الخطيرى إلى ناحية المدابغ ، دون أن يسخروا العمال ، بل كانوا يعطونهم زيادة فى الأجر .

وأقام الفرنسيون محاجر صحية فى القاهرة « بجزيرة بولاق » والإسكندرية ودمياط ورشيد . ويضيف الجبرتى أن الفرنسيس عملوا « كرنتيلة » بجزيرة بولاق، وبنوا هناك بناءً يحجزون به القادمين من أسفار أياماً معدودة . كل جهة من الجهات القبلية والبحرية . وذكر الدكتور « لارى » كبير جراحى الحملة الفرنسية أنهم أنشأوا محجراً آخر فى جزيرة الروضة .

وكجزء من الاهتمام الحربى ببولاق وتحسباً لأى أحداث داخلية أو خارجية، أقام الفرنسيون عدداً من الطوابى الحربية ، خص منها فى بولاق طابية « رنزلو » فى جنوب بولاق . وطابية « سبتزر » على شاطىء بولاق ، وطابية « كونرو » غربى الأزبكية على طريق بولاق ، ربما تكون فى الموقع الذى تشغله الآن دار القضاء العالى . . . كما وضعوا قاعدة بحرية للأسطول الفرنسى عند بولاق لحماية الملاحة فى النيل وحماية نقل الغلال إلى القاهرة .

●● وإذا كان أهل بولاق لم يساهموا مساهمة ظاهرة فى ثورة القاهرة الأولى «أكتوبر ١٧٩٨م » إلا أنهم أول من فجروا ثورة القاهرة الثانية ، بل هم الذين قادوها. هكذا يجمع كل من أرّخ لهذه الثورة سواء الجبرتى أو الرافعى ، بل أيضاً قادة الحملة الفرنسية أنفسهم . .

وقد شبت ثورة القاهرة الثانية يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠م ، بينما كانت معركة عين شمس قائمة بين الجيش الفرنسى بقيادة كليبر ، والقوات العثمانية التى جاءت من عاصمة الإمبرطورية العثمانية لإخراج الحملة الفرنسية من مصر .

وكان من زعماء الثورة : السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والسيد أحمد المحروقى كبير التجار ، والشيخ الجوهرى ابن الشيخ محمد الجوهرى . . ولم يكد سكان العاصمة يسمعون قصف المدافع فى ميدان المعركة . . حتى بدأت الثورة فى حى بولاق .

وفى ذلك يقول الجبرتى « . . أما بولاق فإنها قامت على ساق واحدة . وتحزم الحاج مصطفى البشتيلى « نسبة إلى قرية بشتيل القريبة من إمبابة » وأمثاله من دعاة الثورة

وهيجوا العامة . . وهيأوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا « بالرماح » وصفحوا « أى تصفحوا للدفاع » وأول ما بدأوا به أنهم ذهبوا إلى وطاق الفرنسيين « موقع عسكرى تجارى ومخازن للمؤن » الذى تركوه بساحل البحر « النيل » وعنده حرس منهم فقتلوا من أدركوه منهم ، ونهبوا جميع ما به من خيام ومتاع وغيره ورجعوا إلى البلد «يقصد بولاق » وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى للفرنساوية ، وأخذوا ما أحبوا منها ، وعملوا « كرانك » أى « حصوناً » حوالى البلد . . ومتاريس .

●● فمن هو زعيم ثورة بولاق ؟!

هو مصطفى البشتيلى من أعيان بولاق ، وتكلم عنه الجبرتى ، عندما اعتقله الفرنسيون قبل الثورة بعدة أشهر ، فقال إن الفرنسيين اعتقلوه يوم ٤ أغسطس ١٧٩٩م لما بلغهم من بعض الوشاة أن بوكالته قدوراً مملوءة باروداً « أى إن الرجل كان يستعد للثورة » ففتشوا الوكالة ، ووجدوا البارود فى القدور ، فضبطوها ، واعتقلوه .

ولم يذكر الجبرتى متى أفرجوا عنه أو أطلقوا سراحه قبل نشوب الثورة . ولكن ـ من ظاهر الأحداث ـ أنهم أطلقوا سراحه بعد توقيع معاهدة العريش ، التى كانت تنظم انسحابهم من مصر . . أى إنهم أفرجوا عنه عندما عزموا على الجلاء ، فلما نقضت هذه المعاهدة وتجددت الحرب ، كان الحاج مصطفى البشتيلى من دعاة الثورة فى بولاق .

فقد ثار « أهل بولاق » وحملوا ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى ، واتجهوا بمجموعهم صوب قلعة « كامان » التى أقامها الفرنسيون عند قنطرة الليمون « كوبرى الليمون الآن » لاقتحامها والاستيلاء على ما بها من أسلحة فرنسية ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم .

وعاد كليبر إلى القاهرة يوم ٢٧ مارس ، بعد أن هزم القوات العثمانية فى عين شمس والمطرية ؛ فوجد نار الثورة تضطرم فى أحيائها . . وشاهد فى بولاق ومصر القديمة حصوناً أقامها الثوار للدفاع . ووجد جميع الوكائل والمخازن التى على النيل قد تحولت إلى شبه قلاع احتلها الثوار . وصارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم . وعندما أنهى

الجنرال « بليار » ثورة دمياط ، وعاد بمعظم قواته إلى القاهرة يوم ١٣ أبريل ، عسكر أمام بولاق التى كانت قد تحولت إلى معقل الثورة . فلما وصل هذا المدد اعتزم كليبر أن يستولى عنوة على حى بولاق ويخمد فيه الثورة بكل ما لديه من قوة .

● إخماد الثورة .. وتدمير بولاق :

ويقرر كليبر القضاء على ثورة القاهرة ، حتى ولو اضطر إلى إحراق القاهرة وبولاق معاً . والمؤلم أن مراد بك زعيم المماليك كان يمده بالحطب اللازم لهذه الجريمة . ونسى مراد بك أنه كان يوماً حاكماً لهذا البلد وكبير مماليكه .

ويصف الجبرتى عنف كليبر للقضاء على الثورة ، فيقول « وصل كليبر إلى داره بالأزبكية ـ قصر محمد بك الألفى ، الذى كان مقراً لقيادة الجيش الفرنسى ـ وأحاطت العسكر الفرنساوية بالمدينة ـ يقصد القاهرة ـ وبولاق من الخارج . . ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج ، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة ـ أى حوالى ٢٨ مارس ، وهو يوافق اليوم التالى لحضور كليبر إلى القاهرة ـ وقطعوا الجالب على البلدين ـ مصر وبولاق ـ ، أى إن بولاق كانت بلدة غير القاهرة ، وأحاطوا بهما إحاطة السوار بالمعصم ، فعند ذلك اشتدت الحرب ، وعظم الكرب ، وأكثروا من الرمى المتتابع ، بالمكاحل والمدافع ، وأوصلوا وقع القنابر والبنبات ـ أى القنابل والبمب ـ من أعالى البيوت والقلعات خصوصاً البنبات الكبار على الدوام والاستمرار آناء الليل وأطراف النهار ، فى الغدو والبكور والأسحار . وعدمت الأقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات . . » ثم يقول « واستمر الحال على ما هو من اشتعال نيران الحرب وشدة البلاء والكرب ، ووقع القنابل على الدور والمساكن من القلاع والهدم والحرق ، وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف مع القحط وفقد المأكل والمشارب . . . واستمر ضرب المدافع والقنابر والبنادق والنيران . . . » .

وحاول المشايخ و العلماء التوسط للصلح من أجل العامة . لكن الجهلاء تغلبوا على العقلاء . وأرسل كليبر إلى هؤلاء يطلب إليهم وفداً من العلماء ليكونوا سفراء بينه وبين

الجماهير . فأرسلوا المشايخ : الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى وغيرهم ، وقابلوا الجنرال كليبر ، فعرض عليهم أن يوقف القتال ويعطى أهل القاهرة أماناً وافيًا شافياً . فلما عرض المشايخ طلب كليبر الصلح على الجماهير وزعماء الثوار «قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا المشايخ ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون : هؤلاء المشايخ ارتدوا . . وعملوا فرنسيس . . وبذلك أخفقت مساعى الصلح وتجددت المذبحة . .

●● وفى اليوم الرابع عشر من أبريل ١٨٠٠م ، أنذر كليبر العاصمة بالتسليم . ولكن الثوار لم يعبأوا ، ففى اليوم التالى بدأت الجنود بالهجوم على حى بولاق قبل شروق الشمس بقيادة الجنرال « بليار » ، وأخذوا يضربونه بالمدافع ، وكانت مداخل الحى محصنة والثوار ممتنعين خلف المتاريس وفى البيوت ، فأجابوا على ضرب المدافع بإطلاق النار من المتاريس والبيوت المحصنة ، ولكن نار المدفعية الفرنسية حطمت المتاريس القائمة على مدخل الحى . فثغرت فيها ثغرة كبيرة ، تدفق منها الجنود إلى شوارع بولاق ، وأضرموا النار فى البيوت القائمة بها ، فاشتعلت فيها واتسع مداها . وامتدت إلى مبانى الحى من مخازن ووكائل ومحال تجارة ، فالتهمتها ، وما كان فيها من المتاجر العظيمة ، ودمرت هذا الحى الكبير الذى يعد ميناء للقاهرة ومستودعاً لمتاجرها ، وهدمت الدور على سكانها . فباد كثير من العائلات تحت الأنقاض أو فى لهب النار .

ويصف الجبرتى المأساة فيقول : « هجموا على بولاق من ناحية البحر ـ النيل ـ ومن ناحية بوابة أبى العلا . وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلبة . وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى . وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة ، واحترقت الأبنية والدور والقصور ، وخصوصاً البيوت والرباع المطلة على البحر ، وكذلك الأطراف . . . ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ، ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع . وملكوا

الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان والبنات ومخازن الغلال والكتان والقطن والأرز والأدهان والأصناف العطرية وما لاتسعه السطور ، ولا يحيط به كتاب ولا منشور » وهذا يدل على مدى غنى بولاق كميناء رئيسى للعاصمة .

وإذا كان البعض يرى أن الجبرتى كان مبالغاً فى وصف الأهوال التى حلت ببلدة بولاق ، فماذا يقولون فيما ذكره « مسيو جالان » الفرنسى ، الذى كان شاهد عيان فى كتابه « صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى » قال :

« فى اليوم ١٤ أبريل أنذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها كل إنذار وأجابوا بإباء وكبرياء أنهم يتبعون مصير القاهرة . وأنهم إذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت . فأخذ الجنرال « بليار » يحاصر المدينة ، وبدأ يصب عليها من المدافع ضرباً شديداً أملاً منه فى إجبار الأهالى على التسليم . . ولكنهم أجابوا بضرب النار . فأطلقت المدافع قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات فاقتحموا أكثرها . وظل بعضها يقاوم . واستبسل الأهلون فى الدفاع ولجأوا إلى البيوت فاتخذوها حصوناً ، فاضطرت الجنود إلى الاستيلاء على كل بيت منها ـ أى تحولت إلى معركة من بيت لبيت ـ وبلغ القوم فى شدة الدفاع حداً لا مزيد بعده .

وفى هذا البلاء عرض العفو على الثوار فأبوا واستمر القتال ، فجعلنا المدينة ـ بولاق ـ ضراماً وأسلمناها للنهب وصار أهلها عرضة لبطش الجنود . فجرت الدماء أنهاراً فى الشوارع ، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها إلى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفاً للخراب وأكلتها أهوال الحرب وفظائعها . ولما بلغت المأساة مداها طلب الأهالى التسليم فأجيبوا إلى طلبهم . ولكن بولاق ستظل زمناً طويلاً تتردى فى هاوية من الخراب إلى أن تستطيع النهوض من أعباء الكوارث التى حلت بها ، فإن معظم بيوتها أصبحت ركاماً من الخرائب والأطلال المحترقة . ولقد مضت ثمانية أيام والنار تلتهمها .

● كليبر ينتقم من بولاق :

ويقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة الوطنية » إن النكبة قد حلت ببولاق ثم فى سائر أنحاء القاهرة ، وانتهز الجنرال كليبر فرصة الفزع الذى استولى على النفوس ، فأمر جنوده بالهجوم على مواقع الثوار . وهاجم الفرنسيون المدينة هجوماً عاماً من جهة الناصرية وباب اللوق والمدابغ والفجالة وكوم أبى الريش وباب الشعرية . وانقضت عدة أيام استمر فيها القتال والنهب فى عمليات عسكرية ، اشترك فيها معظم جنرالات الحملة الفرنسية .

●● أما ما حدث لبولاق فكان هو الأكثر إيلاماً ؛ إذ لم يكتف الفرنسيون بما حل ببولاق من خراب وتدمير ، بل فرضوا على أهلها غرامة جسيمة بلغت ٢٠٠ ألف ريال، وأخرى على متاجرها بلغت ٣٠٠ ألف ريال تجبى من السلع مثل السكر والبن والزيت والحبال والتيل والقطران والنحاس والحديد والرصاص . وفرضوا على الأهالى أن يسلموا ما عندهم من المدافع والذخائر الموجودة فى ترسانة بولاق ، وما لديهم من أخشاب وغلال وشعير وأرز وعدس وفول . وأن يسلموا ٤٠٠ بندقية و٢٠٠ طبنجة . وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلى قائد الثورة وحبسوه فى القلعة ، ثم أشاعوا بين أهل بولاق أن البشتيلى هو سبب ما حل بهم من دمار وغرامات وحرائق وضياع أموال . . ثم دفعوا بقائد الثورة إلى الأهالى وإلى اتباعه ، وطلبوا منهم أن يقتلوه فأخذ الأهالى يضربونه بالعصى والنبابيت حتى مات من الضرب . . » وهكذا راح قائد الثورة ضحية الخبث الفرنسى فمات بأيدى قواته وأهله .

●● ولكن الجنرال كليبر نفسه دفع ثمن الخراب ، الذى حل ببلدة بولاق التى قادت ثوره القاهرة الثانية . . ولم يمض شهران إلا ولقى كليبر مصرعه يوم ١٤ يونيه ١٨٠٠م على يدى سليمان الحلبى فى حديقة قصره بالأزبكية . وجاء بالتحقيقات أن من أهم أسباب إقدام الحلبى على اغتيال كليبر ما حل ببولاق والقاهرة من دمار والإهانات التى لحقت بمشايخ الأزهر وعلمائه خصوصاً ، وأن الحلبى كان مجاوراً بالأزهر ويدرس به . .

تلك هى حكاية بولاق التى كانت بلدة قائمة بذاتها وميناء للقاهرة ، إلى أن جاء الخديو إسماعيل فقرر وصلها بالقاهرة ، وأعاد تمهيد وشق شارع بولاق من الأزبكية إلى ساحل النيل ليمتد العمران فوق الأرض التى كانت زراعية ، أو تلالاً وكيمانا من الأزبكية إلى النيل ، وهى ما تعرف الآن بحى بولاق !!

● ثلاثة مساجد .. الأشهر .. والأكبر .. والأقدم !

●● وفى بولاق ثلاثة مساجد أشهرها مسجد السلطان أبو العلا ، وأكبرها مسجد سنان باشا ، وأقدمها مسجد زين الدين يحيى ، فالأول بنى عام ١٤٨٥م ، والثانى عام ١٥٧١م ، والثالث عام ١٤٤٨م . والمساجد الثلاثة بهذه التواريخ تؤكد أن «بلدة بولاق» بلدة قديمة على شط النيل . .

ونبدأ بالأكثر شهرة : مسجد السلطان «أبو العلا» ؛ لأنه بسبب شهرة «أبو العلا» أصبح الناس يفرقون بين بولاق هذه ، فيقولون بولاق أبو العلا . . وبولاق الأخرى - فى الجيزة - ونقصد بولاق الدكرور . والأصح أن نقول : بولاق التكرور . . بل إن العامة أطلقوا على الكوبرى الشهير الذى أقامه الخديو عباس حلمى الثانى عام ١٩١٢م وحمل اسمه رسمياً . . وأطلقوا عليه كوبرى «أبو العلا» أى أصبح «أبو العلا» أشهر ما فى هذا الحى العتيق . .

●● ومسجد «أبو العلا» الذى لا يفصله عن شاطىء النيل إلاّ كورنيش ماسبيرو بعمارة ضخمة ، ويحتل موقعه فى شارع ٢٦ يوليو مباشرة «بولاق ، ثم فؤاد الأول» ، ينسب إلى الشيخ الصالح حسين أبى على المكنى بأبى العلاء ، الولى المعتمد ، صاحب الكرامات والمكاشفات على ما يصفه به الصوفيون الذين أطنبوا وبالغوا فى كراماته . . حتى أطلقوا عليه لقب «السلطان» ، وهو ليس سلطاناً ولا ملكاً أو حتى أميراً ، لكن بسبب صلاحه وكراماته أصبح عندهم . . سلطاناً للمتصوفين .

وقد سكن هذا الشيخ الصالح فى خلوة بزاوية ، كانت موجودة بالقرب من النيل فى القرن ١٥ الميلادى . وكان للناس فيه اعتقاد كبير فكثر مريدوه ومعتقدوه ، وكان من

بينهم التاجر الكبير الخواجة نور الدين على ابن المرحوم محمد بن القنيش البرلسى ، فطلب منه الشيخ أن يجدد زاويته وخلوته التى كان يتعبد فيها ، فصدع بالأمر . وأنشأ هذا المسجد ، وألحق به قبة دفن فيها الشيخ « أبو العلا » عندما توفى عام ٨٩٠هـ - ١٤٨٦م . وإن كان محمد بك رمزى المؤرخ والجغرافى يرى أن هذا المسجد حل محل المسجد ، الذى أنشأه الفخر ناظر الجيش محمد بن فضل الله عام ١٣٣٠م .

ومسجد « أبو العلا » أنشىء عام ١٤٨٥م فى عصر ، ازدهرت فيه العمارة الإسلامية أيام السلطان المملوكى الجركسى قايتباى ، وكان على طراز مدرسة ذات أربعة إيوانات متعامدة غنية بالنقوش فى عصرها الزاهر . والمنبر فخر المنابر الإسلامية فى دولة المماليك الجراكسة . وصانعه - كما جاء على باب المقدم - على بن طنين ، والمنبر من الخشب النقى المطعم بالعاج ومحرابه مكسو بالرخام . .

وقد أجريت للمسجد أكثر من عملية تجديد وإعمار . . الأولى ١٧٤١م والثانية ١٨٤٧م ، ودفن به من العلماء : الشيخ أحمد الكعكى المتوفى ١٥٤٥م والشيخ عبد والسيد على حكشة المتوفى ١٨٥٤م ، والشيخ مصطفى البولاقى ١٨٤٦م . وفى العصر الحديث تولت لجنة حفظ الآثار العربية بين عامى ١٩١٥ و١٩٢٠م عمليات إصلاحات شاملة ، وأنشأت فى النهاية الغربية للواجهة البحرية سبيلاً يعلوه كتاب ، اقتبست تفاصيله من نماذج عصره ، وفكت مبانى المنارة ، وأعادت بناءها وأكملت قمتها طبقاً لمنارات عصرها ، إلى أن سقط سقف الإيوان الشرقى أثناء الاحتفال بمولده يوم ١٣ يوليو ١٩٢٢م ، فتعطلت به الشعائر الدينية ، فأمر الملك فؤاد بتجديده وتوسيعه فى عام ١٩٢٥م ، فقامت وزارة الأوقاف بالتنفيذ ، ونزعت ملكية الأماكن التى اقتضاها التوسيع ، ثم عهدت إلى لجنة حفظ الآثار العربية بوضع تصميم تجديد المسجد ، فراعت فيه المحافظة على الأجزاء القديمة وإدماجها فيه ، على أن تكون جميع التفاصيل مقتبسة من منشآت القرن ١٥ الميلادى . وتبلغ مساحة المسجد بعد التجديد ١٢٦٤ متراً ، بعد أن كانت ٨٤٣ متراً ، وتكلفت أعمال التجديد والتوسيع ١٧ ألف جنيه ، وافتتحه الملك فؤاد بأداء صلاة الجمعة فيه يوم ٥ يونيه ١٩٣٦م .

●● ونصل إلى أكبر مساجد بولاق ، وهو مسجد سنان باشا بشارع جامع السنانية . .

وسنان باشا قائد تركى كبير ، وسياسى محنك ، عاصر أربعة سلاطين ، هم : سليمان القانونى ابن السلطان سليم الأول فاتح مصر ، وابنه سليم الثانى ، ثم مراد الثالث ، وابنه محمد خان .

وقد عين سنان باشا والياً على مصر مرتين : الأولى بين عامى ١٥٦٧م و١٥٦٩م . ثم قام على رأس جيش إلى اليمن لقمع فتنة الزيديين ؛ فقام بمهمته ، وتم له فتح اليمن ، ثم عاد إلى مصر والياً مرة ثانية فى يونية ١٥٧١م ، وبقى فيها إلى عام ١٥٧٣م؛ حيث عين صدراً أعظم فى إستانبول . ثم عهد إليه السلطان سليم الثانى فتح تونس وتحريرها من الإسبان فاستولى على قلاع تونس ، وكان فتحها من أهم الفتوحات العثمانية ، ثم عاد ليتولى الصدارة الأعظم فى عهد مراد الثالث ١٥٨٠ م ، ثم تولى نيابة الشام فبنى فيها مسجدًا مازال باقيًا ثم عاد إلى إستانبول ، وتولى الصدارة للمرة الرابعة فى عصر بلغت فيه السلطنة العثمانية أقصى اتساعها . .

وكان سنان باشا معاصراً لخوجه سنان ، المهندس الحربى العظيم ، الذى سمى خوجه سنان تمييزاً له عن سنان آخر من تلاميذه ، وهو الذى بنى مسجد سنان باشا فى بولاق . وسنان باشا هو الذى أعاد حفر خليج الإسكندرية ، وأنشأ مسجداً وسوقاً وحماماً ؛ لأنه كان مغرماً بإنشاء العمائر الخيرية وترك العديد من المنشآت فى كل البلاد، التى أقام بها ، ومنها : خان وحمام فى بولاق ثم مسجده هذا . وهو ثانى مسجد أنشىء بمصر على الطراز العثمانى الأول هو مسجد سليمان باشا داخل قلعة الجبل .

ومسجد سنان فى بولاق الذى أنشىء عام ١٥٧١م ، كان محاطاً من خارجه بأسوار بها أبواب ، هدم الشرقى منها عام ١٩٠٢م . والمحراب من الرخام الدقيق يجاوره منبر خشبى ، وفرشت أرضيات المداخل والشبابيك بمربع القبة بالرخام الدقيق . والمنارة فى الطرف القبلى الشرقى ، وهى أسطوانية ، وإن كانت غير كاملة لأن مسلتها قائمة

على نصف بدن ، دون دورتها الثانية ، وبالمسجد مزولة عملها حسن الصوافى عام ١١٨٢هـ ، وهى مصنوعة من البلاط .

وفى عهد الملك فاروق أجريت للمسجد عمليات صيانة ، شملت إصلاح القبة . وكان لفتح الشارع أمام الوجهة البحرية أثر كبير فى إظهار هذا المسجد وكشف جماله ومحاسنه .

أما سنان باشا فقد توفى عام ١٥٩٦م ، وهو فى الثمانين من عمره ، وترك ثروة كبيرة وكان دخله يزيد على ٤٠٠ ألف جنيه سنوياً .

●● أما أقدم مساجد بولاق وهو ثالث مساجدنا هنا . . فهو مسجد زين الدين يحيى بشارع الخضرا . . وهو ثانى مسجد أقامه الأمير يحيى زين الدين ، وعرف بجامع المحكمة لاستخدامه محكمة منذ القرن العاشر الهجرى حتى عصر محمد على .

وهذا المسجد بنى عام ١٤٤٨م وافتتح للصلاة فيه قبل تمام إقامته ، وصاحبه هو الأمير الزينى الاستادار بشاطىء النيل ببولاق . وكان محتسباً للقاهرة ، وناظرًا للأسطبل السلطانى ، واسمه يحيى بن عبد الرزاق الزينى القبطى ، وفى رواية الأرمنى الظاهرى الاستادار المعروف بالأشقر « والاستادار هو المسئول عن أموال السلطان الخاصة » ، وذلك فى زمن حكم السلطان الظاهر جقمق . ولكن الدنيا تنكرت للأمير يحيى هذا وتم تعذيبه مرات ، وتم الاستيلاء على أمواله وقاسى أهوالاً شديدة . ولما تولى السلطنة الملك الأشرف قايتباى صادر مابقى من أمواله ، وحبسه بالقلعة إلى أن توفى عام ١٤٦٩م . وقد زاد عمره على الثمانين ، ودفن بمدرسته وجامعه عند تقاطع شارع الأزهر بشارع الخليج المصرى .

ومسجده هذا فى بولاق ، وكذلك مسجده بشارع الأزهر ، بناه المعلم محمد ابن حسين الطولونى ، وكان من أشهر المهندسين فى عصره .

وعند قيام لجنة حفظ الآثار العربية وجدت هذا المسجد خرباً مندثراً مهدماً ، وجدرانه مائلة وعقوده ساقطة وسقوفه مفقودة ؛ أى كان عبارة عن أطلال . وقدرت

تكاليف إصلاحه عام ١٨٩١م بحوالى ٦٠٠٠ جنيه ، وبدأت أعمال التجديد عام ١٩١٦م ، وفى عام ١٩٢٠م أعيد الإيوان القبلى والإيوانان : البحرى و الغربى من الإيوان الشرقى ، ثم أعيد بناء المفقود ، وأقيمت القبة الخشبية فوق المحراب ، وعمل له منبر جديد ، وتمت أعمال الإصلاح وافتتح للصلاة فى عهد الملك فؤاد الأول ، وهو أحد ثلاثة مساجد ، أقامها هذا الأمير : الأول فى الأزهر ، والثانى فى بولاق . . والثالث فى الحبانية .

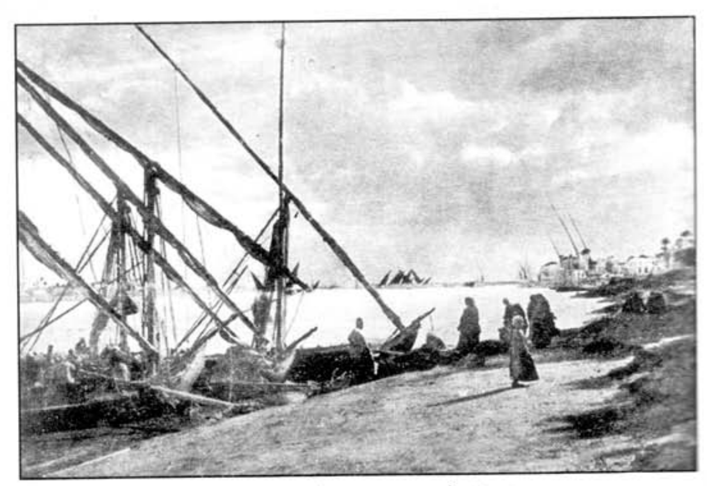




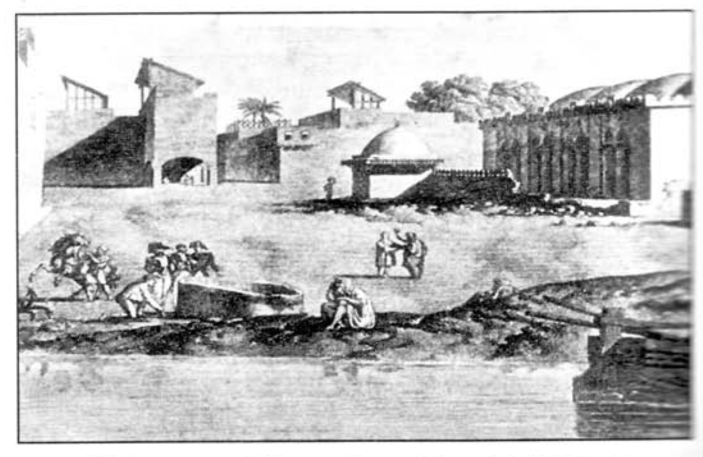
الجنرال كليبر الحاكم العام الفرنسى فى مصر ، الذى خلف بونابرت على القيادة الفرنسية ، وهو الذى دمر حى بولاق خلال ثورة القاهرة الثانية .



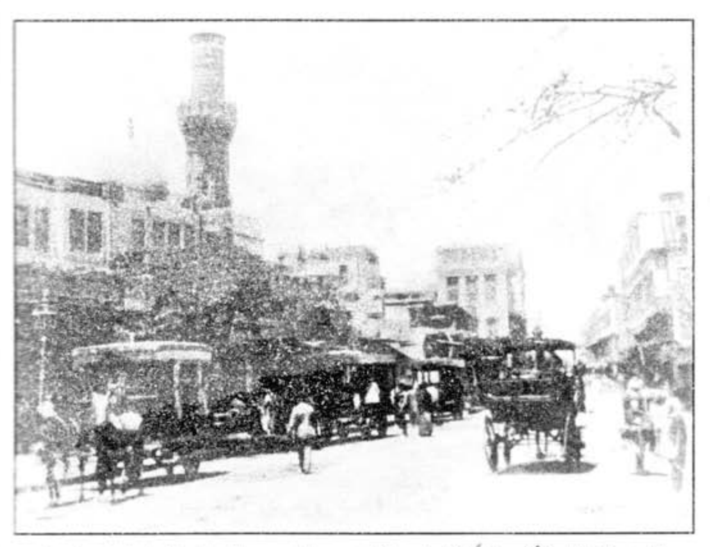
معركة هليوبوليس « عين شمس » بين الجنرال كليبر والقوات العثمانية فى صحراء مصر الجديدة الحالية . بعد أن هزم القوات العثمانية يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠م ، تفرغ لضرب ثورة القاهرة الثانية بكل عنف .



ميناء بولاق أكبر موانى القاهرة أيام حملة بونابرت .



ميناء ـ بلدة بولاق ! ـ تحت حراسة جنود بونابرت . . وإلى اليمين مسجد سنان باشا .



شارع بولاق فؤاد الأول سابقاً ٢٦ يوليو حاليا وترى منارة مسجد السلطان أبو العلا غير مكتملة والصورة أخذت عام ١٩١٢ ولاحظوا عربات سوارس التى تجرها الخيول .



مسجد السلطان أبو العلا أحد أبرز معالم حى بولاق حتى أنهم يفرقون الآن بين بولاق الدكرور وهذا الحى العريق فيقولون بولاق . . أبو العلا .



ـــى وزارة الخارجية وبعده مبنى التليفزيون من أبرز المعالم الحديثة فى حى بولاق على كورنيش النيل . . وقد أقيما فوق منطقة العشش وسوق الغلال .



كوبرى بولاق ، الذى حمل اسم أبو العلا وهو الذى أقيم عام ١٩١٢ فى عصر الخديو عباس حلمى الثانى وأزيل فى أواخر القرن العشرين .



شارع فؤاد - بولاق سابقاً - والترام يخترقه وترى دار القضاء العالى عام ١٩٥٣م .



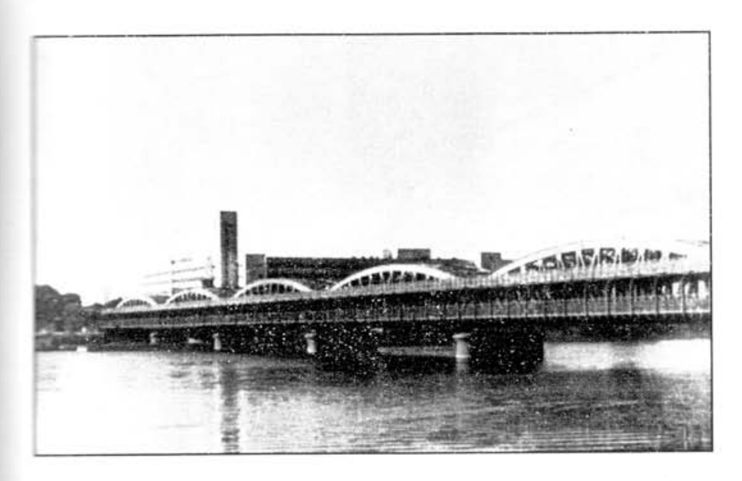
بداية شارع ٢٦ يوليو بولاق سابقاً من ناحية حديقة الأزبكية .



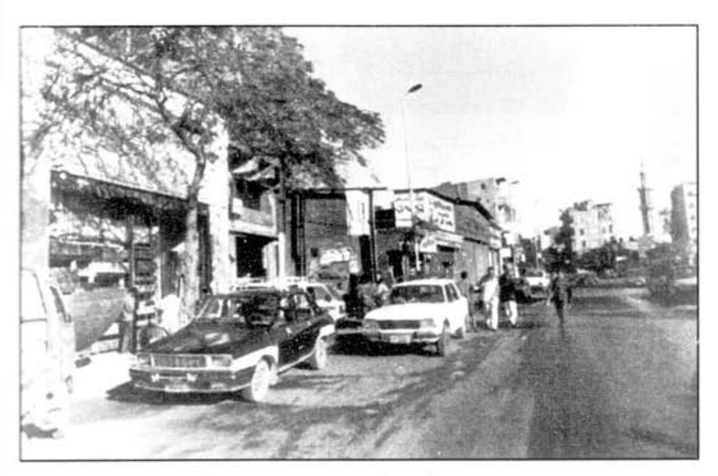
المبيضة بدأ تخطيطها من أيام محمد على باشا عندما أقام فيها أول مصانع تحديث مصر وهذا مستشفى الرمد فى المبيضة الآن ولاحظوا الطراز المعمارى القديم .



شارع السبتية أحد أهم شوارع حى بولاق .



كوبرى إمبابة ينقل الحركة وقطارات السكك الحديدية المتجهة من باب الحديد إلى الصعيد.



هذه الشوارع فى بولاق عاشت عصراً عظيماً عندما انطلقت شرارة الثورة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسى.

شبرا .. من جزيرة فى النيل
إلى أكبر أحياء المحروسة

لم تكن شبرا فى يوم من الأيام جزءاً من القاهرة « ولم تكن ـ كما هى اليوم ـ فى قلب القاهرة تزخر بالحياة والناس ، حتى قلنا يوماً سخرية من إسرائيل أن عدد سكان شبرا أكثر من عدد سكانها » كانت شبرا مجرد . . ضاحية !

والقاعدة التعميرية التى يضعها أى مخطط أن يبدأ البناء فى أى منطقة جديدة يراد تعميرها ، بأبعد نقطة فيها . . فيقيم فيها المدرسة ، أو السوق ، أو مقر الحكم : المركز أو السلطة أو الشرطة أو المستشفى ، أو حتى ساحة رياضية حتى تأخذ أقدام الناس طريقها إلى هذه المراكز الخدمية . . وشيئاً فشيئاً تبدأ الحياه تدب ما بين مركز الخدمات هنا . . و المدينة القديمة .

وهكذا نشأت المدن والأحياء الجديدة ، بل هكذا كانت نشأة العواصم المصرية بعد الإسلام ، فقد أقام عمرو بن العاص ـ فاتح مصر ـ مدينة الفسطاط بين ضفة النيل وحصن بابليون . وهكذا كانت نشأة مدينة العسكر بعيداً عن الفسطاط فى الشمال ولكن على مرمى العين . . ثم كانت مدينة القطائع التى بناها أحمد بن طولون أيضاً إلى الشمال . . وبعيداً عن العسكر . . حتى عندما بنى جوهر الصقلى فاتح مصر للفاطميين مدينة القاهرة المعزية بناها أيضاً إلى الشمال . . بعيداً عن العواصم الثلاث السابقة . .

ثم لاحظوا معنا الأحياء الجديدة التى نشأت حول مقر الحكم . . وبعيداً عنها .

كانت القاهرة محصورة بين جبل المقطم ونهر النيل . ولم تكن أبداً على الشاطىء ولأن الناس تعشق الإقامة بجوار الحاكم وقريباً من السلطة حتى تكون فى حماه وقريباً من عطاياه ، إن كان كريماً ، نجد المصريين بنوا أحياءهم الجديدة حول قصوره ومبانيه .

هذا محمد على بانى مصر الحديثة يقيم قصره فى الإسكندرية فى أبعد نقطة عن قلب المدينة القديمة . . فى منطقة رأس التين . حقيقة أقام قصره قريباً من الميناء الحديث الذى صنعه ليكون وسيلته للاتصال بأوروبا ، ولكنه كان يطبق هذه القاعدة التعميرية. وسرعان ما أقام الناس بيوتهم قريباً من قصره لينشأ حى رأس التين ، والمبدأ التخطيطى نفسه طبق فى منطقة القبة ، فقامت القصور الفاخرة حول قصر القبة وعلى طول الطريق الذى يصل بين مصر . . والقبة لينشأ حى القبة !!

وهكذا فعل محمد على عندما أراد تعمير منطقة شبرا . .

فقد اختار مكاناً قصياً ليبنى لنفسه قصراً تهدأ فيه نفسه . . وتلك هى بداية شبرا !!

●● ففى منتصف شهر ذى الحجة ١٢٢٣هـ ـ يناير ١٨٠٩م ـ أى قبل مذبحة القلعة ـ اختار محمد على باشا موقعاً على شاطىء النيل فى منطقة شبرا مساحته ٥٠ فداناً فى متسع من الأرض، يمتد إلى بركة الحاج ، واستولى فيه على عدة قرى وإقطاعات . وبدأ بناء القصر ، وغرس فيها البساتين والأشجار . . ولكن سقط سقف القصر بعد انتهاء بنائه فى مايو ١٨٠٩م فأعيد بناؤه . وفى ١٨١٢م أنشأ محمد على عدداً من السواقى لتوفير المياه للقصر والحدائق ، إلا أنها تهدمت فى سبتمبر ١٨١٦م بفعل قوة مياه الفيضان أمام القصر .

ويصف الشيخ خليل بن أحمد الرجبى ـ فى كتابه «تاريخ الوزير محمد على باشا» الذى كتبه عام ١٨٢٢م منسوخاً ـ هذا القصر وحدائقه فيقول بلغة عصره حيث الجناس والطباق والمحسنات اللفظية : « ومن آثاره العظيمة الكبيرة الجسيمة إنشاؤه بستانه الشهير ومرج منزهه الكبيربناحية شبرا بساحل البحر . فهناك أبدع البستان وشيد القصر . أما القصر فالعيان عنوانه . أما البستان فهو فى غاية الاتساع ، يسير فيه

الذهب مبتهجاً بتلك الأوضاع ينوف عن ٥٠ فدانا فى المساحة ، لايدانيه أبداً بستان فى تلك المساحة ، مهندس بطرق على خطوط مستقيمة وطرق مربعة ومخمسة ومثلثة ومسدسة قويمة . والزروع بادية والثمار نامية والأغصان مايسة . وأجفان جداول مياهها كأنها فى الصف ناعسة . وبذلك البستان البركة المعلومة التى هى من الرخام الشفاف مرصوصة مرقومة . وعلى دايرها المصاطب بالقوايم والسواعد الرخام وبحنياتها المجالس العالية المرتفعة . وبها النقش الجميل الأصفر الذهبى اللازوردى المشرق عن الأحمر اللهبى . رفعت تلك المجالس على سباع تامة الأشكال مصنوعة من الرخام الشفاف بديع المثال ، تخرج من أفواهها وأنوفها المياه العذبة الصافية وتصب فى تلك البركة . وبالبركة الزورق المذهب يصعد فيه من لتلك المجالس يذهب !! ولأن هذه الفسقية كانت من أبرز ما فى قصر شبرا ، فقد عرف العامة هذا الفصر باسم قصر الفسقية .

●● المهم أن محمد على باشا خصص للعناية بالقصر وحدائقه مجموعة من المهندسين الزراعيين الذين أوفدهم للدراسة فى أوروبا . . واستخدم محمد على هذا القصر وحدائقه كحقول تجارب زراعية . كما نقل إليه مدرسة الزراعة « ١٢٤٩ هـ - ١٨٣٣م » والمدرسة البيطرية « ١٢٥٣هـ - ١٨٣٧م » أى أن القصر لم يكن مجرد قصر للحكم . . بل فتحه مركزا للعلوم الزراعية والبيطرية بعد سنوات قليلة من تمام إنشائه !!

وتعالوا نتابع اهتمام محمد على باشا بالتجارب الزراعية وزراعة كل ما هو مستحدث .

فى ٦ ذى الحجة ١٢٤٥هـ ، أمر محمد على باشا بإرسال أشجار العنب الأفرنجى البحرى المستحضرة من الأستانة « إستانبول » صحبة محمد بك بشتان إلى ناظر جنينة شبرا لزرعها بها . . غير التوت والجوز والنبق والليمون والمخيط والتين والسرو. . .

وفى ٢١ ذى القعدة ١٢٤٨هـ ، أصدر محمد على أمراً إلى حبيب أفندى بفرز وتخصيص ١٠٠ فدان بجوار حديقة شبرا هذه « لزراعة أنواع المزروعات الأوروباوية بها

وترتيب السواقى اللازمة لها وبناء محال بها لإقامة ٣٠ شخصاً من أبناء كبار مشايخ البلاد والأغنياء المقتدرين لتعليمهم كيفية زرع تلك المزروعات بمعرفة التلامذة الذين حضروا من أوروبا السابق إرسالهم من هنا تشويقاً لغيرهم ـ أى طلاب البعثات الذين أرسلهم إلى فرنسا وإيطاليا ـ ولاحظوا ماذا فعل محمد على لتشجيع زراعة هذه الأصناف «الأوروباوية» . . لقد أنعم أفندينا ولى النعم على كل واحد من الـ ٣٠ طالبًا بمائة فدان . وكان من ضمن هؤلاء والد المرحوم الدكتور محمد نصحى بك وحضرة حسين نصحى بك محافظ دمياط (١٩٢٨م باعتباره ابن المرحوم أبو قورة الكبير من أعيان ميت العامل بمديرية الدقهلية . .)

وأحد هؤلاء الطلبة الذين بعث بهم محمد على لدراسة الزراعة فى القرن ١٩ ، هو يوسف أفندى ، الذى عند عودتهم من فرنسا ـ كما يقول أمين باشا سامى فى مؤلفه الكبير « تقويم النيل » « حصلت ريح شديدة ، سببت إقامة العائدين معه نحو ثلاثة أسابيع بجزيرة مالطا . وتصادف فى تلك المدة أنه رست سفن حاملة أشجاراً مثمرة من جهات الصين واليابان ، فاشترى منها يوسف أفندى هذا ثمانية براميل بها شجر مثمر من النوع المعروف الآن باسم يوسف أفندى . ولما وصل للإسكندرية وحدد وقتًا لتشرفهم بمقابلة سمو أفندينا محمد على باشا « لاحظوا مدى اهتمام الحاكم باستقبال المبعوثين » وجاء دور مقابلته لذاته العلية التمس أن يحمل معه فى طبق جانباً من الفاكهة ، التى كان قد اشترى أشجارها ، وعندما تناولها سموه وأعجبته سأله عن اسم الفاكهة . . وكان يوسف قبل ذلك سأل بعض الحاشية عمن يحبه الوالى من أولاد سموه أكثر من غيره ، فأخبره بأنه يحب طوسون باشا ، فقال لولى النعم إن اسم هذه الفاكهة هو «طوسون» فتبسم محمد على باشا ، وقال له أفندينا : ما اسمك ؟ فقال يوسف . فأمر أفندينا بأن يسميها «يوسف أفندى» ، وأمر بأن تزرع هذه الفاكهة الجديدة فى جنينة قصر شبرا فعرف هذا النوع بجهات شبرا وما جاورها للآن «١٩٢٨» باسم طوسون ، وعرف بباقى الجهات باسم يوسف أفندى . ويوسف أفندى هذا هو الذى كلفه محمد على باشا ، فيما بعد بملاحظة التجارب الزراعية فى نبروه ، وأعد نظاماً خاصاً لها . .

والفاكهة التى تشتهر الآن بمصر باسم يوسف أفندى يطلقون عليها فى لبنان اسم «كلامنتين» وفى أوربا اسم «ماندرين» ، وفى باكستان اسم «ساندرا» أو «سانترا» ومنها الآن نوع بلا بذور . . أصغر وأصفر يميل إلى الحمرة.

وفى ٨ من المحرم ١٢٥٢هـ ـ ١٨٣٦م أرسل محمد على إلى ناظر زراعة شبرا «رأسين من الثوم» أرسلهما له سر عسكر الدونمانمة المنصورة موطش باشا «أى قائدالقوات المسلحة» وقال إنهما من جهة فاس بالمغرب . وأمر محمد على ناظر زراعته فى قصر شبرا بزراعة هذا الثوم والتنبيه على من يلزم الالتفات إليه حتى ينمو . . وعرض النتيجة عليه شخصياً ؛ أى إن حاكم مصر كان يهتم حتى بزراعة الثوم الجديد الوارد إليه من . . المغرب !!

المهم أن محمد على أمر بأن يشرف على هذا القصر وحدائقه ذو الفقار باشا كتخدا ، وأمر بأن تنقل إلى جوارها إصطبلات للخيول .

●● وكما يقول على باشا مبارك فى سفره العظيم «الخطط التوفيقية» وأمين باشا سامى فى مؤلفه الضخم «تقويم النيل» ، فإن قصر شبرا كان أول مبنى يضاء بغاز الاستصباح فى مصر ، وكان هذا عام ١٨٢٩م . وفى هذا القصرالتقى محمد على باشا بالأمير عبدالله بن سعود ، الذى تولى زعامة الوهابيين فى الجزيرة العربية بعد وفاة أبيه ، بعد أن انتصر عليه القائد إبراهيم باشا وأسره وأرسله إلى والده محمد على باشا ، فوصل إليها محروسا فى ١٦ نوفمبر ١٨١٨م ، فأنزلوه فى قصر إسماعيل باشا «ابن محمدعلى» فى بولاق . وتقابل مع محمد على فى قصر شبرا ، وكان بصحبته صندوق به ما تبقى مما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية الشريفة . وأرسل محمد على الأميرعبدالله بن سعود إلى الأستانة ـ بناء على أوامر السلطان العثمانى ـ فى ١٨ نوفمبر ١٨١٨م ، فتم إعدامه أمام باب القصر السلطانى فى العاصمة العثمانية ، كما جاء فى تاريخ الجبرتى ج ٤ ص٢٠٧ ـ ٢٩٨ .

●● وفى عام ١٨٤٧م فى أواخر أيام محمد على باشا ، أصدر حاكم مصر العظيم

أمره « بتمهيد طريق متسعة بين مصر . . وشبرا » وهنا نلاحظ أن شبرا حتى هذا التاريخ لم تكن جزءاً من القاهرة ، بل كانت ضاحية . . وكانت بعيدة عنها . وتلك هى بداية شارع . . شبرا !! وكان هدف محمد على أن يتحول هذا الشارع إلى مكان للنزهة والترويح خارج عاصمته . . مصر . وحتى يتحقق الهدف جاء القرار بأن يكون هذا الشارع أعرض شوارع مصر فى ذلك العهد ، وأكثرها استقامة . .

وأمر محمد على بغرس أشجار اللبخ والجميز بالتبادل على حافتى الطريق « التام الاستقامة » ، الذى أنشأه من شبرا إلى باب قنطرة الليمون بالقاهرة ؛ حتى صار طريقاً مظللاً والمتنزه الجميل لأهل القاهرة . واستمر الطريق « شارع شبرا » على جماله البديع إلى أن فتحت قناة السويس فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٩م . . فأخذ جانباً من أشجار اللبخ وأعاد زراعتها فى الطريق الذى أعد لمرور « الإمبراطورة أوجينى » ، إمبراطورة فرنسا ، وهو الطريق الموصل إلى سراى الجزيرة التى أعدت لإقامتها « الآن قلب فندق ماريوت » وأيضاً زراعتها فى طريق الأهرام « شارع الأهرام » تمهيداً لزيارة جلالتها لمنطقة الأهرام ؛ للتخفيف من حرارة الشمس فى هذا الطريق الذى مهده الخديو إسماعيل .

ويقول على باشا مبارك فى كتابه « الخطط التوفيقية » إنه مازال يوجد فى نهاية هذا الطريق ـ شارع شبرا ـ بالقرب من شبرا البلد بقية من شجر الجميز لغاية الآن ، أى إلى عام ١٨٩٠م تاريخ تأليف الخطط التوفيقية . ويضيف أنه « لما كان شجر اللبخ يزهر فى كل عام زهرته الزكية الرائحة الناعمة الملمس ، كان الناس يطلقون على هذه الزهرة «دقن الباشا » نظراً لجمال لحيته !! . . ولم يبق فى شارع شبرا إلا أشجار الجميز التى ذهبت هى الأخرى .

وأصدر محمد على تعليمات واضحة بأن يتم رش شارع شبرا بالمياه مرتين يومياً . الأولى عند الضحى والثانية عند العصر ، بهدف تلطيف درجة الحرارة صيفاً ، وتثبيت تراب الشارع شتاءً ، لتشجيع الناس على ارتياده للنزهة . وتم تعيين العمال اللازمين للمحافظة على نظافة الشارع وجماله والاهتمام بأشجاره . .

بل وأمر محمد على أولاده وأحفاده ببناء القصور والمساكن على طول هذا الشارع . وشجع الأعيان والأغنياء على ذلك أيضاً . ومنذ ذلك العهد تحولت شبرا إلى منطقة لسكن الأمراء والباشاوات والطبقة الأرستقراطية من البكوات وغيرهم . وكان الميسورون قد اتخذوا عربات « الدوكار » للنزهة ، وهى عربة صغيرة يجرها جواد واحد ، وكانوا يزينونها بالورد نهاراً والمصابيح ليلاً .

●● وبعد وفاة محمد على باشا ١٨٤٩م آلت هذه السراى وحدائقها إلى ابنه عبدالحليم باشا . فبنى فى الحديقة قصراً آخر ، كما جاء فى كتاب الخطط التوفيقية ، وفى « تقويم النيل » لأمين سامى . وفى عام ١٢٧٩ هـ يوم ٢٩ شعبان أرسل الخديو إسماعيل أمراً إلى مصطفى الكريدى باشا محافظ مصر « حيث إنه لايوجد محل فى مصر لإقامة صاحب الدولة طوسون باشا ، نجل عمنا المرحوم سعيد باشا ـ والى مصر السابق » فقد أهديته وأحسنت إليه بقصر النزهة الأميرى ، الذى فى طريق شبرا . وكذا بالأراضى الموجودة داخل سور القصر المذكور . فعندما تحيطون علماً بذلك يجب أن تبادروا بتحويل حجة القصر المذكور والأراضى التابعة له إلى اسمه المشار إليه طوسون باشا وتسليمهما لطرف دائرته . « تقويم النيل ـ المجلد الثانى ـ جزء ٣ ص ٤٦٣ » ، وهذا هو سر تسمية المنطقة المعروفة فى شبرا بمنطقة طوسون باشا .

وفى ٢٢ شوال ١٢٧٩هـ زار السلطان العثمانى عبد العزيز مصر بدعوة من الخديو إسماعيل ، وهو أول سلطان عثمانى يزور مصر بعد أن فتحها السلطان سليم الأول عام ١٥١٧م . وزار السلطان عبد العزيز قصر النزهة هذا . ثم غادره إلى قصر شبرا فاستقبله الأمير عبد الحليم باشا ، أى إن قصر النزهة الذى منحه إسماعيل لابن عمه طوسون غير قصر شبرا الذى بناه جده محمد على باشا . .

وقصر النزهة للأسف تحول إلى مدرسة التوفيقية . . إلى أن تم هدم القصر . . أما قصر شيكولانى فقد تحول إلى مدرسة الاستقلال

●● وعلينا هنا أن نلاحظ مدى اتساع شارع شبرا عند تمهيده . . وحتى نعرف

مدى اتساعه . . علينا أن نلاحظ اتساع شوارع القاهرة القديمة . بل وشوارع مدينة نصر لنعرف مدى بعد نظر محمد على ، الذى كان يخطط لشارع يعيش العمر كله دون متاعب . . كان يخطط لحى كامل يكون عموده الفقرى شارع شبرا . . ما رأيكم ؟!

تلك هى حكاية شارع شبرا الذى قام حوله أكبر وأشهر أحياء القاهرة ، الذى كان الفضل فى إنشائه يعود إلى محمد على . .

ولكن ماذا عن شبرا . . الاسم و الموقع . . المكان والتاريخ ؟!

نقول هذا لأن شبرا كانت عبارة عن جزيرة وسط النيل ، اسمها جزيرة الفيل ، ثم بفعل إطماء النيل اتصلت الجزيرة بالأرض ، لتصبح هى أرض شبرا وروض الفرج !

●● ورد ذكر شبرا لأول مرة فى « تقويم النيل » الجزء الأول ص ٢٢٩ « عندما أوفى النيل فى أواخر شهر أبيب . وكسر السد أول يوم من مسرى وفتحه « لاجين » أمير مجلس . وكان للناس مدة طويلة لم يروا قبلاً مثل هذا ، لأنه قطع الطرقات والجسور وغرقت أراضى المنية و . . « شبرا » ، والروضة وطريق مصر وبولاق « أى كانت بولاق ضاحية لمصر ولم تكن جزءاً من القاهرة » وجزيرة الفيل وكوم الريش ، وطفت الآبار ، وكان هذا عام ٨٨٢ هـ .

وشبرا اسمها الأصلى وهو المصرى القديم : شبرو . وردت به فى كتاب « أحسن التقاسيم » للمقدسى ؛ حيث ذكرها أى شبرا الخيمة بين المنيتين ، وهما منية الأصبغ ومنية السيرج . وبين دمنهور شبرا المجاورة لشبرا من الجهة البحرية . وكانت منية السيرج واقعة على شاطىء النيل حتى عام ٦٨٠هـ ، وفى تلك السنة طمى النيل الذى كان فاصلاً بينها وبين جزيرة الفيل ، فانضمت إلى الأرض لتكون المنطقة المعروفة الآن باسم شبرا وروض الفرج .

وشبرو محرفة عن جبرو ، وهى كلمة قبطية معناها الكوم أو التل « وهنا نتساءل عن سر تمركز أعداد كبيرة من أقباط مصر فى منطقة شبرا . هل بسبب أصلها القبطى؟! ثم ذكرها الإدريسى فى موضعين الأول باسم « سيروا » فقال : وبأسفل الفسطاط «ضيعة

سيروا » ، وهى ضيعة جليلة ، يعمل بها شراب العسل المتخذ بالماء والعسل وهو مشهور فى جميع الأرض . والثانى باسم « شبره » ، وفى نسخة أخرى وردت محرفة باسم « سبره » قال « وهى قرية يعمل فيها شراب العسل المفوه فى جميع الأرض وبها خيمة البشنس . فهل هذا الشراب كان نوعاً من الشربات وكان العسل يستخدم بإضافته إلى الماء لصنع هذا الشراب ، وهل سبب ذلك قربها من منطقة بنها التى كان يجود فيها العسل حتى اقترن العسل بمدينة بنها فقالوا : بنها العسل ؟!

المهم أنه مما لاشك فيه أن اسم « سيروا » الوارد فى الموضع الأول هو محرف عن شبرو الواردة فى كتاب المقدسى . . ويقول محمد بك رمزى فى مؤلفه العظيم «القاموس الجغرافى » :

تبين لى أن « سيروا » محرفة عن شبرو التى هى شبره ، وكلها اسم واحد لشبرا هذه؛ لأن من يتأمل ما ذكره الإدريسى يرى أنه نقل « سيروا » من مصدر غير الذى نقل عنه « شبره » . ومع اختلاف الاسمين بسبب التحريف ، فإن كل مؤلف حافظ على وصف هذه القرية وما يعمل فيها من شراب العسل ، ومن وضعها بأسفل الفسطاط « أى جنوب مدينة الفسطاط لأنه لم يكن بين الفسطاط وشبرا مناطق سكنية تذكر . وكانت الفسطاط تؤخذ كمقر معروف للتعريف بها بعدها . . » .

ووردت شبرا فى كتاب « المشترك » لياقوت ، قال : شبرا دمنهور لمجاورتها بقرية دمنهور شبرا . وفى « قوانين ابن مماتى » وفى « كتاب الانتصار » : شبرا الخيمة . وقال فى « الانتصار » إن سوقها يوم الثلاثاء . وبها سوق وجامع وطواحين وأفران ومعاصر زيت حار و «شيرج » وغير ذلك ، والمقصود زيت السيرج ناتج عصر السمسم» . ووردت فى « تحفة الإرشاد » باسم: « شبرا . من الضواحى » وفى التحفة: شبرى الخيمة . وهى شبرى الشهيد من ضواحى القاهرة .

وفى كتاب « وقف السلطان الغورى » المحرر فى ٩١١ هـ وردت هكذا « شبرا القاهرة» لأنها من ضواحى القاهرة . وفى كتاب « تاج العروس » : شبرا المكاسة لأن

خيمة المكس « أى تحصيل الضرائب » كانت تضرب فيها ؛ أى كانت مركزا لتحصيل الضرائب أى المكوس . .

وفى الخطط المقريزية : شبرى الخيام . يقال لها شبرا الشهيد لأنه كان يوجد بهذه القرية صندوق صغير من الخشب فى داخله إصبع شهيد من شهداء النصارى ، اسمه الشهيد أنبايحنس محفوظ بها دائما . فإذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية ، يخرجون ذلك الإصبع من الصندوق ، ويغسلونه فى بحر النيل لزعمهم أن النيل لايزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الإصبع . ويسمون احتفالهم بذلك عيد الشهيد . فاشتهرت بهذا الاسم « لاحظوا هذه الأسطورة مع أسطورة عروس النيل وعلاقتها بفيضان النهر » وقال : وتعرف بشبرا الخيمة ، أو الخيم ، أو الخيام ؛ لأن الناس كانوا يحتفلون سنوياً بذكرى عيد الشهيد على اختلاف طبقاتهم فى خيام ينصبونها على شاطىء النيل بشبرا هذه للإقامة فيها عده أيام عيد الشهيد . فاشتهرت بـ« شبرا الخيمة» ، وهذا اسمها . وسكان القاهرة يقولون : شبرا البلد تمييزاً لها من قسم شبرا أحد أقسام مدينة القاهرة . وعلى لسان العامة شبرا بغير تمييز لشهرتها عن دون الشبراوات الأخرى .

ولما أنشىء مركز شبرا عام ١٨٧١م جعلت شبرا قاعدة له ، ولكن لم تطل إقامة هذا المركز بهذه البلدة لوقوعها فى النهاية الجنوبية من بلاد المركز . فأصدرت نظارة «وزارة» الداخلية قراراً فى عام ١٨٧٥م بنقل ديوان المركز من شبرا إلى ناحية الحزانية لتوسطها نوعاً بين بلاد المركز ، مع بقاء المركز باسم مركز شبرا . وفى عام ١٨٩٦م سمى مركز نوى إلا أن « إميلينو » ذكر فى جغرافيته قرية باسم شبرا رحمة » ، وقال إن اسمها العربى شبرا رحمة والقبطى بروهيبو ، وأنها من ضواحى القاهرة . كما وردت فى قائمة الكنايس وبالبحث ـ يقول محمد رمزى بك ـ تبين أن شبرا رحمة هى بذاتها شبرا الخيمة هذه . . وهى من ضواحى القاهرة .

●● ولأن الشىء بالشىء يذكر ، فما دام محمد على هو الذى مهد وبنى شارع

شبرا، فإن محمد على ايضاً هو الذى كان وراء تمهيد شارع الترعة البولاقية . . ولكن البداية كانت مختلفة . .

البداية ترعة أمر محمد على باشا بحفرها لرى أراضى ضواحى القاهرة . . ففى عام ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٧م تم حفر الترعة البولاقية هذه ، وقام بهذا العمل الكبير محمود أفندى الميارجى مدير القليوبية والمهندس ثاقب باشا ، وكانت تمتد من منطقة قصر النيل الحالية ؛ أى كان فمها تحت كوبرى ٦ أكتوبر بين فندق هيلتون رمسيس ومبنى الاتحاد الاشتراكى ، ثم تخترق الترعة ميدان عبد المنعم رياض حالياً ، ثم تمر بشارع الجلاء الحالى ، ومن يدقق النظر يجد لافتة هذا الشارع الآن هكذا : « شارع الجلاء ـ شارع الترعة البولاقية سابقاً » أى إن شارع الجلاء بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م أطلق على الشارع الذى كان اسمه شارع الترعة البولاقية . . الذى كان فى الأصل مجرى الترعة البولاقية .

ثم يستمر سير الترعة إلى أن تنحرف شمالاً لتدخل إلى شبرا ، وتسير موازية لشارع شبرا الذى شقه محمد على . . وكان الهدف من حفر الترعة البولاقية ، وهى بطول ١٨٣٠٠ متر هو رى أراضى ضواحى القاهرة وبولاق كجزيرة بدران ومنية السيرج وشبرا فى غير وقت الفيضان « على مبارك ـ الخطط ج ١٩ ص ٤٣ ـ ٤٤ » .

ولماذا حملت الترعة اسم « البولاقية » ؟! لأن المنطقة كلها كانت من قصر النيل حيث قصر بنت محمد على باشا إلى ما بعد رملة بولاق كان اسمها بولاق . . ولم تكن بولاق حتى عصر محمد على جزءاً من القاهرة ، بل كانت من الضواحى . فهى كانت على شط البحر « أى النيل لأن المصرى كان يسمى النيل بحرًا لضخامته واتساعه عن بقية الأنهار التى سمع عنها المصرى » وما بينها ومنطقة الأزبكية حيث قصور الأمراء والبكوات كانت أرضاً زراعية .

وكانت أراضى شبرا ولاحظوا « جزيرة بدران » أرضاً زراعية مع منية السيرج ، فكان المهم توفير مياه الرى لها ، فحفر محمد على هذه الترعة . . إلا أن العمران سرعان ما

زحف على كل هذه المناطق ، ولم تعد بدران جزيرة ولم تعد شبرا ولا بولاق أرضاً للزراعة ، بل للسكن والإقامة . . وكما تم ردم الخليج المصرى عام ١٨٩٦م الذى كان يوفر المياه لأحياء القاهرة من فم الخليج عند سور العيون إلى غمرة . . تم ردم الترعة البولاقية . . لتذهب الترعة ويبقى الشارع ذكرى تقول : كانت هنا ترعة . وكانت هنا أراضٍ زراعية أكلها العمران ، بعد أن كانت توفر لنا ما نأكله !!

وتضخمت شبرا . . وتعددت مناطقها . . واتسعت .

منها شبرا مصر . . وشبرا البلد . . وشبرا المظلات . . وشبرا الخيمة . . وحدائق شبرا التى ذهبت حدائقها ، كما ذهبت حدائق حلوان وحمامات حلوان . . . وحدائق القبة وحمامات القبة وثكنات المعادى وحدائق المعادى . . فقد ذهبت كل هذه الحدائق والحمامات لتحتل مكانها العمارات والمساكن . . بعضها عصرى وبعضها عشوائى .

منها مثلاً : قصر زينب هانم بنت محمد على باشا الكبير على شارع شبرا نفسه . وقصر إنجه هانم أرملة محمد سعيد باشا والى مصر ، وقصر النزهة الذى جدده الخديو إسماعيل وكان يقصده للراحة والنزهة ، وقصر شيكولانى البديع الحافل بالتماثيل النادرة . وفى قصر زينب هانم هذه تزوجت صغرى بنات محمد على من كامل باشا يوم ٢٧ صفر ١٢٦٢هـ ، وتكلف زواجها ٣١٥١٢٠ جنيهاً بما فيها ثمن مجوهراتها .

وأصبح شارع شبرا تظلله أشجار الجميز واللبخ ، وتتعانق الأشجار لتصنع مظلة خضراء تظلل المارة والمتنزهين ساعة الغروب ، وأصبحت « جهة شبرا » بمزارعها النضرة مكاناً للتنزه والرياضة . وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح أو واقفة فى انتظار سيدها ، ويرى العربات الضخمة تجرها الجياد ، تحمل أفراد الأسرة الحاكمة والسراة والأعيان . . ويتقدم تلك العربات القمشجية أى السواس ليوسعوا الطريق أمامها وإتماماً لمظاهر الأبهة .

ويعود للخديو إسماعيل فضل تمهيد مدخل القاهرة الزراعى من عند نهاية شارع شبرا الرئيسى ، وهو المدخل الذى يؤدى إلى محافظات القليوبية والمنوفية والغربية

وغيرها . . وكانت كل السيارات التى تريد الدخول إلى هذا الطريق الزراعى تسلك شارع شبرا نفسه ؛ لأن تصميمه كان أوسع شوارع القاهرة وأكثرها استقامة ، ويتحمل حركة المرور المسافرة إلى الوجه البحرى . .

●●●

واعترافاً بأهمية حى شبرا ، وبعد أن زادت كثافة السكان فيه تم ربطه بقلب القاهرة بخطوط الترام فى السنوات الأولى لدخول الترام إلى مصر . . وإذا كان أول خط للترام بدأ فى مصر عام ١٨٩٦م ، فإن الشركة البلجيكية التى أنشأت شبكات ترام القاهرة بدأت فى تسيير خط من العتبة الخضراء إلى شبرا عام ١٩٠٣م . وفى عام ١٩١٢م كان فى القاهرة ٢٠ خطاً للترام ، كان منها لشبرا الآتى : خط رقم ٨ الذى يبدأ من العتبة إلى ميدان الأوبرا إلى ميدان باب الحديد ثم إلى شبرا البلد . وخط رقم ٩ من ميدان العتبة إلى ميدان الخازندار ، عبر شارع كلوت بك إلى محطة باب الحديد ، وينتهى عبر شبرا إلى روض الفرج . وخط رقم ١٦ من ميدان العتبة إلى ميدان الأوبرا إلى مدرسة الصنايع فى بولاق إلى روض الفرج . أما خط رقم ٢١ فكان يبدأ من العتبة إلى ميدان الأوبرا إلى باب الحديد ، وينتهى عند القسم القديم لشبرا ؛ أى كان يخدم شبرا ٤ خطوط ترام من جملة ٢٠ خطاً هى كل شبكة ترام القاهرة ، وكان يخدمها من خطوط الأتوبيس فى العام نفسه ١٩١٢م خط أتوبيس ٤ ، الذى يبدأ من ميدان أزبك الواقع بين ميدان الأوبرا وميدان العتبة إلى شبرا ، وخط ١٧ من السبتية إلى روض الفرج ، وخط ٢٦ من روض الفرج إلى إمبابة .

وتوسعت شبرا وتم شق العديد من الشوارع ، وأهم شوارع شبرا من ناحية نفق شبرا على اليمين : الشماشرجى وأرض الطويل وشارع أحمد بدوى . وعلى اليسار ، قسورة الشوام وجزيرة بدران ، وأهم شوارعها شارع جزيرة بدران . . زنانيرى . . قطة . . البعث . . السلمى ، وفيها كنيسة ومدرسة الأفرنج الكاثوليك ومدرسة البنات . .

وإذا اتجهنا شمالاً نجد على اليمين شيكولانى حيث القصر القديم، وفى أقصاها

الشرقى نجد مستشفى لورد كتشنر وعزبة محمد هرمسّ وأهم الشوارع : العطار . . الكرجى . . أبو المعالى . . يلبغا ، وأهم المبانى دير الراهبات ومدرسة البنات للأفرنج الكاثوليك ، وعزبة حنا بك نصر الله . وعلى يسار هذه المنطقة نجد قصر النزهة ، وأهم شوارعها شارع فؤاد وشارع نشاطى ثم شارع مسرة وشارع مدرسة التوفيقية ، وأشهر مبانيها قسم شرطة شبرا ، ومدرسة شبرا الأميرية للبنات ، وكنيسة الأفرنج الكاثوليك ، وكنيسة الأقباط الأرثوذوكس ، ومدرسة التوفيقية . وفى أقصى الشمال الغربى مدرسة شبرا الثانوية الأميرية ، حيث شارع أبو الفرج ، ويلاحظ أن الشوارع كلها تقريبا تتفرع من شارع شبرا نفسه وتتقاطع عليه ؛ أى إن شارع شبرا كان هو العمود الفقرى الذى قام عليه جسم حى شبرا كله .

وشمال تقاطع شارع شبرا مع شارع روض الفرج نجد على يسار شارع شبرا منطقة روض الفرج بعد دوران شبرا ؛ حيث كان مقر كلية الآداب التابعة لجامعة عين شمس قبل انتقالها إلى مقر الجامعة فى العباسية ، ومدرسة الأمير فاروق الثانوية الأميرية ، وشارع راتب باشا ثم شارع يعقوب موصيرى إلى أن نصل إلى حدائق شبرا ، ويستمر شارع شبرا . .

وعلى يمين الشارع ـ بعد شارع يلبغا ـ نجد مسجد الخازندار ، ثم شوارع شيبان . . خمارويه . . بحرى القره قول « والقره قول » هو مقر قسم الشرطة ، والذى تحرف إلى «الكراكون » عند العامة . . لنصل إلى عزبة الزهرية ، ثم عزبة على باشا شريف ، بينما تستمر الترعة البولاقية وهى تتجه شرقاً أكثر ، بعد تقاطع روض الفرج ، حيث تنقسم إلى قسمين ، الأول إلى اليمين يحمل اسم ترعة الدكر ، والثانى إلى اليسار يحمل اسم ترعة البولاقية القبلية ، وبينهما منية السيرج ومقام سيدى رمضان ، وتستمر الترعتان إلى أن تتقاطعا مع ترعة الجلادة . ومن أشهر الشوارع على يمين شارع شبرا شارع بابا دوبلو. . حمدى . . البراد . . المنظرة .

وبالطبع انتهت الترعة البولاقية من فمها عند نيل القاهرة بين مقر شركة ترام القاهرة

(الآن فندق رمسيس هيلتون) ومبنى الاتحاد الاشتراكى ؛ ليتحول هذا إلى ميدان عبد المنعم رياض ثم إلى شارع الجلاء . . ويظل القسم من أول شبرا إلى نهايتها يحمل اسم شارع الترعة البولاقية ؛ أى انتهت الترعة وأصبحت مجرد لافتة على شارع !!

ولأن شبرا تدين بإنشائها إلى محمد على باشا ، وتدين باتساعها وتطورها إلى أسرته المالكة أى الأسرة العلوية ، فإننا نجد فى شبرا العديد من المناطق أو الشوارع التى تحمل أسماء هذه الأسرة . . فنجد شارع حليم باشا ، وهو عبد الحليم باشا ابن محمد على ، والذى ورث قصر شبرا عن والده العظيم ، ونجد شارع رفعت وهو ابن إبراهيم باشا أى حفيد محمد على ، ونجد شارع سعيد باشا وهو ثالث حكام مصر بعد محمد على نفسه ، ونجد شارع مدرسة التوفيقية . . ومنطقة النزهة حيث كان قصر إسماعيل . . وشارع الباشا . . والمقصود هنا محمد على نفسه . . ونجد شارع التاج . . كما نجد شارع إنجه هانم أرملة الوالى محمد سعيد باشا .

وبالطبع انتهت معظم هذه الأسماء فى فترة المد الثورى لثورة يوليو ، التى كانت تطارد كل ما له صلة بالأسرة المالكة ، دون أن تدرى أنها بذلك تهدم تاريخاً مازال عالقاً بذاكرة الناس ، بدليل أن هناك التوفيقية . . ومدرسة التوفيقية رغم أن توفيق كان سبة الأسرة المالكة ، وهو الذى استعان بالإنجليز ليخلصوه من الثوره العرابية الشعبية . . فاحتلوا مصر كلها فى عهده لمدة ٧٤ عاماً بالتمام والكمال . . ومازال فى مصر مدينة توفيق وحى التوفيقية وسوق التوفيقية فى قلب القاهرة التجارى !!

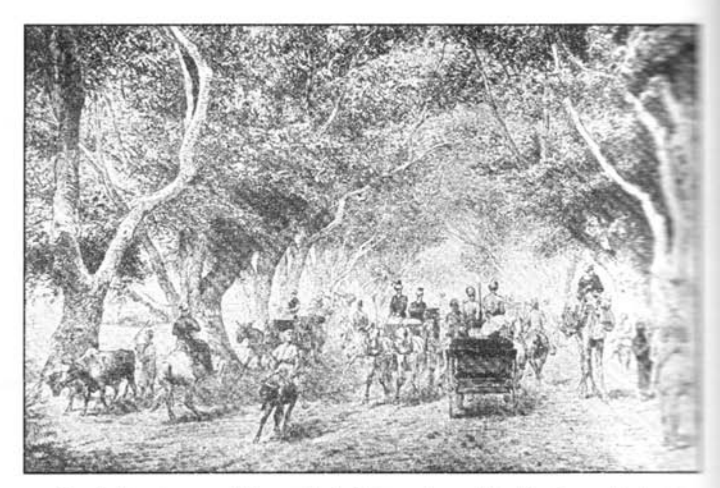
لقد تعرض قصر محمد على فى شبرا لعلميات مد وجذر ، وعاش فترات من المهانة والإهمال . . بعد أن عاش عصراً من الزهو والفخار .

ومع قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، وبالمفهوم الذى ساد وقتها بفتح القصور الملكية أمام الشعب ، وشغلها بالمصالح والإدارات الحكومية . تم فتح قصر شبرا . . وبالمفهوم نفسه ، تم فتح قصر عابدين وحدائقه للعامة ، وتم شغل حجراته وأجنحته بإدارات الإصلاح الزراعى وإدارة الاستيلاء وغيرها من الإدارات التى نشأت مع الثورة ، حتى

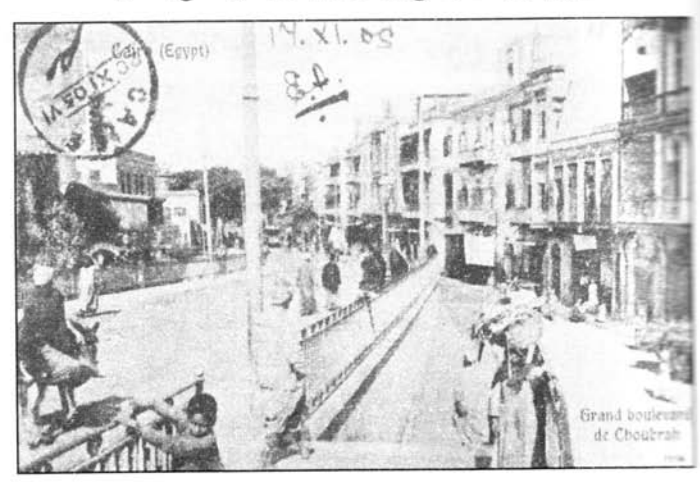
كاد هذا القصر العظيم ينهار ، ويفقد قيمته كمقر رسمى للحكم فى مصر . . ولولا
يقظة تعرف قيمة التاريخ لتم تدمير قصر عابدين تماماً . . تلك اليقظة التى بدأت فى
عصر الرئيس الراحل أنور السادات ، الذى أمر بإخلاء القصر من الإدارات التى احتلته
واغتصبته وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أجنحة القصر . حتى جاء عصر الرئيس حسنى
مبارك ، فتم إخضاع القصر لعملية ترميم وإنقاذ شاملة ، أعادت له رونقه وبهاءه
ليس فقط بمجرد ديكورات أو دهانات ، بل إنقاذ البناء نفسه ، والمحافظة على ما فيه
من ثروة معمارية وأثاثات ورياش لاتقدر بمال حتى أنه كان يعد فى مقدمة أفخم قصور
العالم !

وتعرض قصر شبرا للجريمة نفسها ؛ إذ تم شغل أجزاء منه ، ومن حدائقه بكلية
الزراعة التابعة لجامعة عين شمس . . ثم بالمعهد التعاونى الزراعى العالى وغيرها من
المنشآت . واستمرت هذه الجريمة أكثر من ٣٠ عاماً إلى أن تنبهت الدولة وقررت إنقاذ
القصر مما انحدر إليه حاله . واستعادته الدولة ، وبدأت وزارة الثقافة عمليات ترميم
وإنقاذ شاملة له ، شملت مبانيه وحدائقه والبركة الصناعية الرائعة التى تتوسطه ، وبدأ
القصر يعود إلى بعض ما كان عليه عندما أقامه وعاش فيه منشىء مصر الحديثة : محمد
على باشا الكبير .

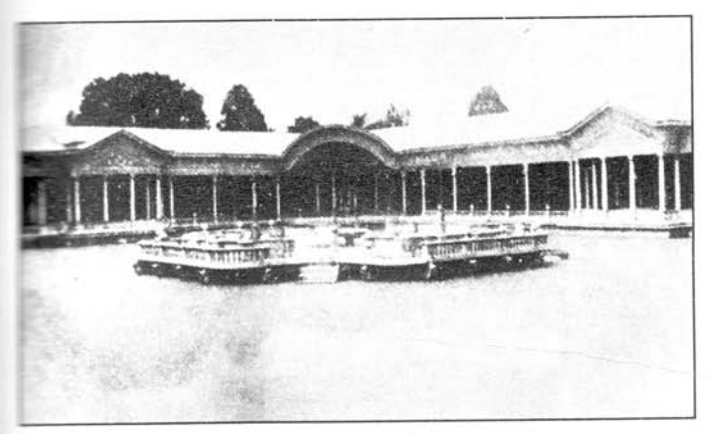
وربما لايدرى معظم الذين يمرون بالسور الخارجى للقصر طبيعة وتاريخ هذا
المكان، أو حتى يدرون ما هو . . وهو الذى لا يفصله عن شط النيل سوى طريق
الكورنيش ، الذى يؤدى إلى مدخل طريق القاهرة ـ الإسكندرية الزراعى . وتمر به كل
يوم آلاف السيارات العامة والخاصة ، وأكثر من مليون شخص يدخلون القاهرة
ويخرجون منها كل يوم . وربما لا يعرفون شيئاً عن الذى بناه . . بل الذى بنى مصر
كلها ونفض عنها ٣٠٠ عام من الانهيار والانحدار تحت الحكم الاستعمارى العثمانى ،
الذى قضى على الدولة المصرية والاستقلال المصرى ، منذ هزم سلطانها قانصوه الغورى
فى معركة مرج دابق شمال سوريا . . ثم هزم سلطانها الآخر طومان باى وشنقه على باب
زويلة .



شارع شبرا فى منتصف القرن التاسع عشر حيث الخيول والحمير والجاموس وعربات الحنطور المفردة والمزدوجة بينها أشجار اللبخ والجميز على الجانبين تظلل الشارع بالكامل .

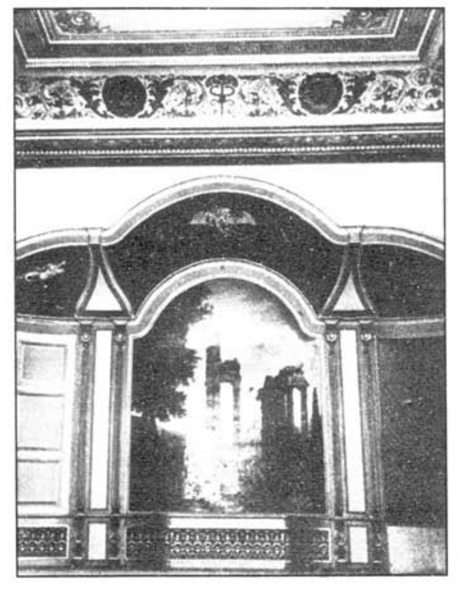


شارع شبرا كما كان يبدو بعد حوالى قرن على إنشائه . . فالصورة تشير إلى السنوات الأولى من القرن العشرين . ولاحظوا أن طابع البريد كانت قيمته مليمين !!

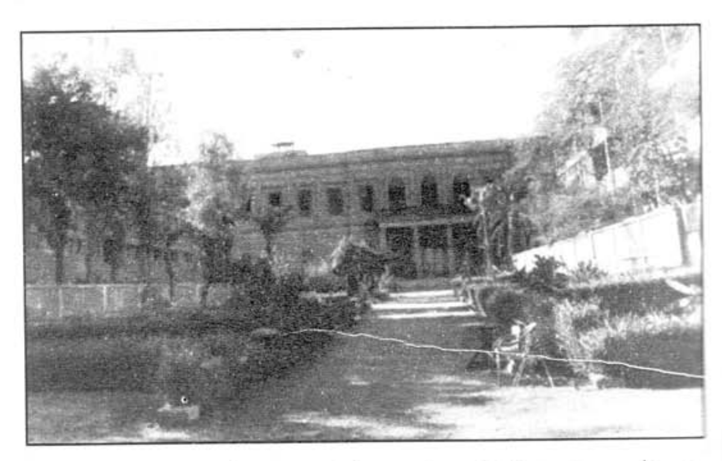


● فسقية قصر شبرا .

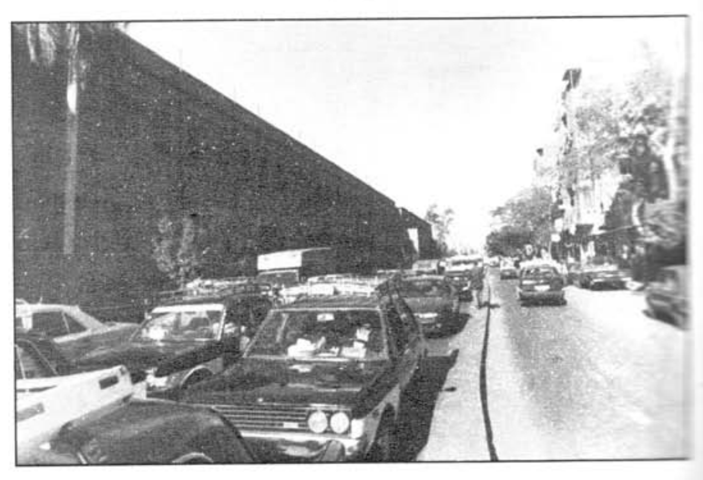
● وجانب من قصر محمد على فى شبرا .



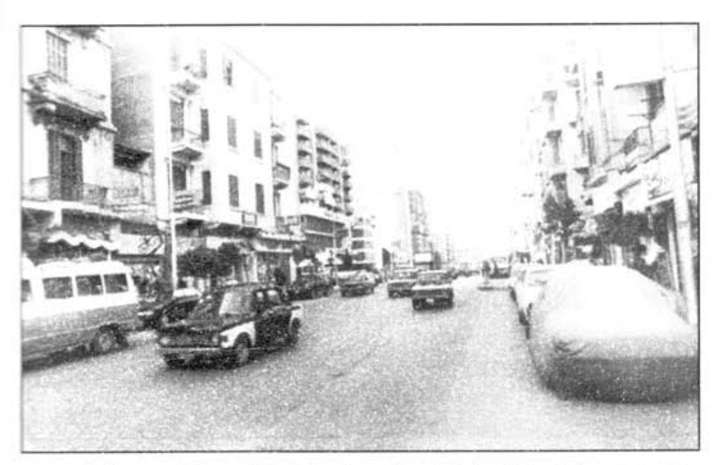
مدخل قاعة البلياردو فى قصر محمد على بشبرا .



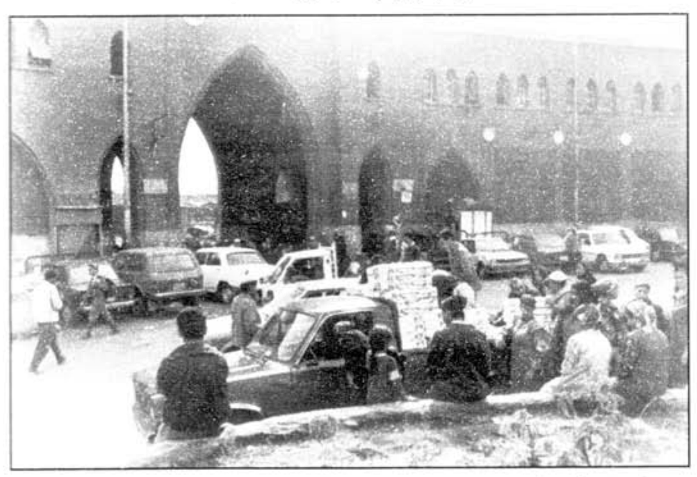
قصر الأمير عمر طوسون فى شبرا وهو حفيد سعيد باشا والى مصر الثالث بعد محمد على الذى شجع الأمراء على البناء فى حى شبرا وأصبح اسم طوسون من علامات الحى كله .



شارع روض الفرج من أهم شوارع شبرا وروض الفرج .



شارع شبرا بعد أن تمت إزالة خطوط الترام وأصبح المرور فيه فى اتجاه واحد للقادم من شمال القاهرة والمتجه إلى باب الحديد ووسط العاصمة .



سوق روض الفرج القديم للخضر والفواكه كان من أبرز معالم حى شبرا وروض الفرج ، قبل أن ينقل السوق إلى مدينة العبور .

الباب الثالث

العباسية عمرها .. قبل الدلتـا !

هو سهل يرجع تكوينه إلى تاريخ تكوين دلتا النيل ، وهو يمتد من المكان الذى يعرف الآن بميدان الجيش بباب الحسينية إلى الصحراء التى فيها الآن مصر الجديدة ، فى الشمال الشرقى من القاهرة ، وكان عرض مجرى النيل يمتد من جبل المقطم شرقاً إلى هضبة أهرام الجيزة غرباً .

وكان مصبه جزءاً من مدينة القاهرة الحالية ، عند سهل العباسية ؛ ذلك أن الدلتا لم تكن قد تكونت بعد ، بل كان بحر الروم « المتوسط » يصل جنوباً حتى جبل المقطم - وكان متصلاً بالبحر الأحمر . .

وكان البحر يغمر هذه المنطقة ثم ينحسر عنها فى عصور جيولوجية مختلفة ، مما سمح للبحر الطباشيرى وللبحر النيوموليتى بأن يتركا رواسبهما على السطح ، وتكونت طبقات جيرية منها هضبة المقطم . . بينما كانت الصحراء الشرقية والغربية مغطاة بالغابات والأشجار الباسقة ، والدليل على ذلك هو غابة المعادى المتحجرة . .

أى كان البحر المتوسط « الروم » يصل إلى المقطم . . وكان مصب النيل عند هذا السهل . . سهل العباسية .

وقد أدى أخذ الرمال والزلط لمبانى القاهرة الحديثة من هذه المنطقة إلى حفر شريط صحراوى يصل عمقه إلى ٣٠ متراً أو يزيد ، مما سهل دراسة المنطقة ومحتويات طبقاتها . فقد وجدت رواسب نيلية فيها بسمك ١٠ أمتار فى المتوسط ، وعثر وسط الزلط على

الآلات التى تبرهن على توالى صناعات العصر الحجرى القديم ـ واختلطت بها بقايا الحيوانات المعاصرة .

وأظهر البحث الجيولوجى أن هذه الرواسب لا يتأتى وجودها إلاّ عند مصب النهر القديم ، إذ هناك ـ فى هذا السهل ـ تقف المياه فى طريق مجراها ، وتترك رواسبها التى لا يمكنها حملها أبعد من ذلك ، وكان من الطبيعى أن تتجمع هذه الرواسب طوال العصر الحجرى القديم ، حافظة فى طبقاتها بقايا الصناعات المعاصرة لكل طبقة .

ويستنتج من ذلك أن مصب النيل القديم قبل تكوين الدلتا الحالية كان فى هذا السهل ، الذى يعرف اليوم . . بالعباسية ! فى سفح الهضبة الشرقية التى تحد وادى النيل حالياً . وكانت هناك حركة أرضية بطيئة أدت إلى رفع قاع البحر تدريجياً . . وباستمرار هذه الحركة تراجع البحر شمالاً وترك الأراضى المصرية جافة فى عصر الأوليجوسين . .

تلك إذًا هى منطقة العباسية . .

فماذا عن العباسية بعد ذلك ؟!

عندما بدأ سلطان مصر الظاهر بيبرس تسيير أول محمل حاملاً كسوة الكعبة إلى الأراضى الحجازية عام ٦٧٥هـ ـ كان المحمل يطوف القاهرة وعليه الكسوة التى كانت تقدم للكعبة ـ وكانت أول أمرها تنسج وتعمل فى مدينة تانيس قرب دمياط ـ ثم انتقل عملها وتجهيزها إلى حى الخرنفش فى عهد أسرة محمد على باشا .

كان المحمل يخترق شوارع القاهرة بادئاً من القلعة، وينتهى هذا السير فى هذه المنطقة ، التى كانت تحمل اسم منطقة الحصوة، ثم أصبحت المنطقة تحمل اسم ميدان الكسوة. وكانت دواوين الحكومة فى القاهرة تغلق أبوابها احتفاء بالمحمل والكسوة .

وكان المحمل ـ ومعه الحجاج ـ يبيتون ليلتهم الأولى فى منطقة الحصوة هذه ، ثم تنتقل إلى البحر الأحمر حاملاً الكسوة من أيام بيبرس إلى أيام فؤاد الأول . . ولاحظوا اسم

المنطقة : الحصوة ؛ أى المنطقة التى كانوا يأخذون منها الحصى أى الزلط ليقيموا به مبانى القاهرة . .

●● تلك مقدمة لابد منها لندخل إلى تاريخ حى العباسية ، التى يعود فضل إنشائها ، بعداكتشافها ، إلى ثالث ولاة مصر من أسرة محمد على باشا ، بعد المؤسس ، ثم إبراهيم باشا ، ليأتى عباس حلمى الأول ثالث هؤلاء الحكام الولاة لمصر العلوية . .

وعباس الأول الذى تلى فرمان توليته عرش مصر فى القلعة يوم الأربعاء ١٠ المحرم ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٨م ، كان يعانى من متاعب صحية صدرية ، وكان الهواء الجاف هو علاجه . وكان ينزل من القلعة ـ مقر الحكم ـ ليتنزه فى الصحراء . . وذات ليلة أعجبه هواء منطقة الحصوة ، فبات فيها ليلة فارتاحت نفسه . وفى تلك الليلة اتخذ قراره بإنشاء الحى الجديد الذى يحمل اسمه إلى الآن . .

ففى ٢٧ ربيع الأول من عام ١٢٦٥هـ ، أصدر الوالى عباس الأول أمراً إلى مدرسة المهندسخانة ، هذا نصه :

« صدر النطق العالى من سعادة أفندينا ولى النعم بإعمال رسم عن بلد مستجدة على اسم دولته جهة الحصوة ، وتحول ذلك عهدتنا . بهذا لزم تعريفه ويلزم تنبهوا ترتيب ما يلزم من طرفكم لأخذ خارطة الأرض ما بين سكة السويس وسكة الخانكة ببعد مقدار ألف متر واحد . والحد الغربى أرض المزارع ، وبعد أخذ الخارطة المقتضية عن ذلك ، وبعدها ينظر فى ذلك مجلس المهندسين ، يجرى هندسة وترتيب مايلزم . . » (وهذه الوثيقة ضمن وثائق القلعة دفتر ١٢٨ مدارس عربى ص ١٦٣٧ نمرة ٤١٨ من الديوان إلى مدرسة المهندسخانة) .

وبعد شهرين بالتمام والكمال ، اتخذ عباس الأول قراراً تنفيذياً جديداً ، عندما أصدر قراره فى ٢٧ جمادى الآخرة عام ١٢٦٥ هـ إلى رئيس مجلس الأحكام كان نصه :

« غنى عن التفصيل والبيان أن أبنية موطننا العزيز مدينة القاهرة ليست على الطراز الحديث ، وأن المساكن الموجودة فيها قديمة ، ومشرفة على الخراب . وحيث إن البلاد

وما حواليها والحمد لله فى أمن وأمان ، وأمراؤها كلهم من أصحاب الثروة واليسار وحيث إن صحراء الحصوة ممتازة بجودة هوائها ، فيجب فى هذه الحالةإقامة العمارة بها والإقامة فيها ، والاستفادة والتمتع من لطافتها وبهائها ، لهذا قد صدرت إرادتنا بعد عودتنا من الآستانة لوضع خرطة وافية لهذه الصحراء وتقسيمها قطعاً أساسية وتوزيعها على أمراء وذوات مصر ليبنى كل واحد منهم قصراً فخماً لنفسه . ولكن تحققنا أخيراً أن « بدراوى بك » وواحداً أو اثنين من الأرمن فقط باشروا إنشاء مساكن لهم ، وباقى الذوات والأمراء لمجرد طمعهم فى أموالهم أو لأفكار واهية باطلة امتنعوا عن إنشاء القصور . وهل يخفى على هؤلاء الحريصين على أموالهم لهذه الدرجة أن أولادهم وورثتهم كيف يبعثرون الأموال والخزائن المتروكة لهم ، ويتلفونها . لينظروا إلى أولاد المرحوم خورشيد باشا ومحمود بك ، ويتخذوهم عبرة لهم . . أليس إنشاء قصور فخمة لأنفسهم يتمتعون بها فى مدة حياتهم ، ويتركونها لأولادهم وورثتهم عند وفاتهم .. أفضل وأحسن من ترك أموالهم النقدية عرضة للضياع فى ظرف ساعة وحدة . . وإن هذا القعود والخمول ناشىء من عجز وقلة اقتدار هؤلاء الذوات والأمراء على فهم الحقيقة . فإذا اعتقدوا أن صرف الأموال على قطعة من الجبل خسارة ، فإنى أنا بنفسى جربت هواء الحصوة ، وشعرت بفائدته. فلذلك ولخدمة الصحة العمومية أردت عمارتها بإنشاء الأبنية والقصور بها » .

وبناء عليه يستمر أمر عباس الأول قائلاً :

« أصدرت أمرى هذا عقب عودتى من الآستانة ، بهذا الخصوص وأقصى مرادى عمارة القطعة المذكورة ، فإذا ذهب أحد إلى خلاف هذه الحقيقة والمعنى ، وصمم أن يبقى أمواله فى صندوق لأفكار واهية، فجزاؤه على الله تعالى . وحيث إنى مصمم على أمرى وإرادتى السابقة ، فيجب على المجلس المباشر أن يحدد مدة وميعاداً لإنشاء القصور اللازمة ، وتبليغ جميع الذوات والأمراء . ومن يتأخر عن الامتثال بعد هذه الإرادة فى المدة المعينة ، فعلى المجلس تعيين جزائه ؛ لأن ذوات مصر تعودوا أن يلاقوا المعاملة بالشدة وإنزال الجزاء عليهم ، ولا يدركون معنى انبهار الوجه ولطف المعاملة .

لذلك ـ يقول عباس ـ يجب نشر وإعلان هذا . وعرض النتيجة علينا . وقد حررنا هذا لكم لإجراء إيجابه . . »

●● هذا الأمر الذى أصدره الوالى الجديد عباس الأول ، بعد أن عاد من الآستانة ؛ حيث قدم الشكر للسلطان العثمانى على تعيينه حاكماً لمصر ، علينا أن ندرسه بإمعان . وهذا القرار الأول فى عهد عباس الأول يعترف بأن مبانى القاهرة صارت قديمة ، وإن هواءها لم يعد جيداً ، ولهذا لابد من إنشاء حى جديد ، أو بلدة جديدة، واختار لها الأمراء والذوات ليبنوا فيها . . وحدد المبانى بالقصور والبيوت الضخمة ، وقال إن هذا أفضل ما يتركه هؤلاء لأولادهم، بدلاً من اكتناز المال فى الصناديق لتذهب فى أى لحظة .

ثم هو يأمر بمعاقبة كل من يخالف ذلك ، بل حدد موعداً لإنشاء هذه القصور . .

أى إن العباسية بدأت فى الأصل حياً للقصور . .

● عباس يبدأ بنفسه :

●● وبدأ عباس الأول بنفسه فى تعمير وبناء القصور فى حى الحصوة . . إذ أقام لنفسه قصر الحصوة ، وكان يقيم فيه عند اعتلال صحته . وهذا القصر زاره فيه فردناند ديليسبس عام ١٨٥٥م محاولاً إقناعه بحفر قناة السويس ، ووصف ديليسيبس القصر فقال إن به ٢٠٠٠ نافذة . . !

وبنى فى الحصوة ثكنات الجيش لإسكان العساكر فيها ، وبعد عامين بالضبط أى فى ٢٧ ربيع الأول ١٢٦٧هـ « ١٨٥١م » ، أصدر الحاج عباس الأول إرادة تقضى بإطلاق اسم العباسية على حى الحصوة ، بعد أن أخذت المبانى المهمة تظهر فيه . .

ثم أقام عباس سراى العباسية ، وبالغ فى تشييدها وسعتها وتحسينها ، وهى السراى التى عرفت باسم « الخمس سرايات » وكانت وما حولها من قشلاقات أقيمت على ربوة عالية لا تصل إليها مياه الفيضان . ولم تكن فى مصر شركة للمياه ، فتم حفر عدة

سواقٍ لنقل المياه بالشواديف من الترع البعيدة صيفاً وشتاءً حتى تيسر إتمام تلك المباني في وقت قصير ، واستعملت في مدة ولايته . كما أقام عديدًا من المدارس العسكرية حول سراى العباسية ، وتم شق الطرق بين القاهرة والحى الجديد . .

● بدأ منشئاً .. ومات مخنوقاً :

وعباس هذا تولى حكم مصر ، بعد اعتزال جده محمد على فى أبريل ١٨٤٨م ، ووفاة عمه إبراهيم باشا فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨م ، وهو الأول من أحفاد محمد على الذى تولى الحكم ، وهو ابن أحمد طوسون باشا الذى جاء إلى مصر مع أخيه الأكبر إبراهيم باشا فى سبتمبر ١٨٠٥م ، ومعهما أخوهما إسماعيل فاتح السودان ، فالثلاثة إخوة : إبراهيم . . وطوسون . . وإسماعيل ، ولدوا فى قولة قبل أن يحضروا إلى مصر . .

وكان أكبر أولاد محمد على الذين ولدوا بمصر ، هو محمد سعيد ، وكان عمره عند وفاة أخيه إبراهيم باشا ٢٦ سنة . . بينما كان عباس بن طوسون عمره ٣٧ سنة فساعده الحظ ، وتولى أريكة مصر .

●● وعباس ولد فى مصر . ولم يره والده الأمير أحمد طوسون إلا بعد ٣ سنوات و٥ أشهر و٢٦ يوماً ؛ لأنه ولد أثناء غياب الأب طوسون ، عندما كان قائداً للحملة المصرية على الوهابيين فى الحجاز ؛ إذ عاد طوسون إلى القاهرة فى ٤ ذى الحجة عام ١٢٣٠هـ ، وسافر إلى الإسكندرية ليرى ابنه عباس ليلة ١٥ ذى الحجة . وفى ليلة الأحد ٧ ذى الحجة ١٢٣١هـ مرض طوسون بقصر برنبال قرب رشيد بالطاعون . ومات بعد ١٠ ساعات ، فغسل وكفن ووضع فى صندوق ، وجىء به على سفينة إلى بولاق وشيعت جنازته . واستمر والده محمد على خلف نعشه طول الطريق وهو يبكى ـ لأنه كان من أحب أولاده إلى قلبه إلى أن دفن بالمدفن ، الذى أعده محمد على باشا لأسرته فى الإمام الشافعى ، المعروف الآن بحوش الباشا .

ولأن عباساً هذا فقد والده طوسون ، وهو صغير ، فقد رعاه جده محمد على ، وأشرف على تعليمه وتدريبه وإعداده للحكم ، وعينه جده مديراً لإقليم الغربية فى ٢٣

ذى الحجة ١٢٤٨هـ وعمره ٢١ سنة و٥ أشهر و٢٢ يوماً ، ثم تولى أمر تفتيش الأقاليم البحرية (الدلتا) عام ١٢٥١هـ ، ثم عين مفتشاً على عموم الدواوين فى العام التالى . . ويمكن أن يعادل هذا المنصب منصب رئيس الحكومة فى العصر الحديث .

وفى غرة جمادى الأولى عام ١٢٥٤هـ ، عين عباس بعد حصوله على رتبة الميرمران ، كتخدا جناب خديو ، ثم عينه محمد على مديراً للديوان الخديوى ، مع استمراره مفتشاً للدواوين . وسرعان ما عينه محمد على باشا « قائمقام خديوى » فى الشهر نفسه إلى المحرم ١٢٥٥هـ ، وهى مدة سفر محمد على باشا إلى السودان ، أى كان نائباً عن محمد على فى حكم مصر ، خلال غياب محمد على فى السودان .

وخاطبه محمد على بعد إصداره قراره هذا بقوله :

« لقد فوضت إليك المصالح الجسيمة ، فوليتك على الديوان ، وأمر تفتيش المصالح، لبذل جهدك ، وتسعى فى تسوية الأمور حتى تظهر المهارة ، وأنت فى عز الشبوبية والرجولية اللتين تؤهلانك لذلك . . » .

وعندما سافر محمد على للاستشفاء فى رودس وكريت ثم إلى صقلية ثم إيطاليا ، أصدر محمد على أمراً إلى عباس كتخدا باشا فى ٢٢ ربيع الأول عام ١٢٦٤هـ قال فيه :

«سبق أخبرتك بتقدم صحتى يوماً عن يوم . وأنه فى علمك أنى قد وكلتك بالنيابة عنى . ويتحتم عليك القيام بهذا المسند ورؤية الأمور وببذل النفس فيها . وإنى لا أنفك عن التجسس (!!) على أعمال الكل ، فيما يتعلق بإتمام مادة تعداد النفوس « التعداد العام » وإعدام كل من يهمل . . وأنا اخترتك لتهتم ، وإلا إن حصل تراخ فيها منك كانت عين الحماقة . فيلزم نشر هذا للجميع ، والتشديد عليهم بالاهتمام ونهو ماذكر لتصيرونى ممنوناً عند حضورى » . . ووقتها كان إبراهيم باشا يستشفى أيضاً فى نابولى ، وعاد إبراهيم باشا للإسكندرية من نابولى ، ثم وصل إلى القاهرة فى الساعة السابعة من يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى عام ١٢٦٤هـ .

وأحيل إلى عباس رياسة المجلس الخاص فى ٢٩ ربيع الثانى ١٢٦٤هـ ، ثم توجه إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج يوم ٢٧ شعبان ١٢٦٤هـ ، ومن يومها كان يحرص على أن يوقع قراراته باسم : الحاج عباس الأول .

ومات عمه إبراهيم باشا والى مصر فى ١٤ ذى الحجة ١٢٦٤هـ ، الموافق يوم ١٠ نوفمبر ١٨٤٨م وعمره ستون سنة هلالية ، وكان عباس مازال فى الحجاز .

● عباس والياً على مصر :

●● وبادرت الدولة العلية بإرسال فرمان تولية عباس ، وتُلى الفرمان فى القلعة فى احتفال فخم ، حضره كبار أركان الحكومة وأمراء الجيوش والأعيان يوم الأربعاء ١٠ المحرم ١٢٦٥هـ ، وبعد ذلك سافر عباس من القاهرة متجهاً إلى الآستانة ؛ ليشكر السلطان ، فوصل للإسكندرية يوم ١٣ من المحرم ١٢٦٥هـ ، وأبحر منها بعد يومين ليصل إلى الآستانة أوائل شهر صفر ، ثم عاد إلى مصر فى ربيع الأول . وكان يدير أمور مصر طوال الفترة من وفاة إبراهيم إلى عودة عباس من الآستانة الكتخدا قوله لى محمدشريف باشا « الذى عين فى ٢٩ شعبان ١٢٦٤هـ إلى ٢٩ رجب ١٢٦٦هـ » وكان أكبر موظف فى الدولة ، وكان يتصرف فى أمورها حسب إرادة الوالى ، وكان قبلها والياً على ولايات الشام زمن محمد على باشا .

ولم يكن عباس كجده أو عمه إبراهيم باشا . وشهد عصره انتكاسة لمشروعات جده الكبير ، فأغلق الكثير من المدارس ، واستدعى البعثات من أوروبا ، وأغلق دار الصناعة ، وسرح معظم ضباط وجنود الجيش ، وتخلص من بعض سفن الأسطول .

واختلف عباس - من الأيام الأولى لحكمه - مع الأمراء وكبار رجال الدولة ، خصوصاً الذين خدموا جده حتى أنه أبعد معظمهم عن مصر ، ومنهم من سافر إلى تركيا ، وأهمل الاكتشافات فى السودان ، وأوقف جميع السفن عن الحركة وأمر عساكر البحرية بالعمل فى مد الطريق الحديدى بين الإسكندرية ومصر . . وتعطلت أعمال دار الصناعة . . وألغى مدرسة الألسن . . ونفى رفاعة الطهطاوى إلى الخرطوم . . ووقع

النفور بينه وبين عمه الأمير سعيد باشا ، الذى كان قائداً للأسطول حتى أن عباس أمر بتكسير واحدة من أهم سفن الأسطول المصرى ، وهى الغليون « المنصورة » ، بعد أن تم إصلاحها وتجهيزها .

ولكن له مع ذلك الكثير من الأعمال الجليلة ؛ ففى عهده تم بناء القناطر الخيرية ١٢٦٧هـ - ١٨٥١م ، التى بدأ العمل فيها عام ١٢٦٣هـ ، وأمر بإنشاء طريق مستقيم بين بنها ومصر « القاهرة » ، وغرس الأشجار على جانبيه إلى قصره فى بنها . ومن بنها إلى بركة السبع ومنها إلى طنطا ثم إلى كفر الزيات ، وتولى الإشراف عليه المهندس المصرى بهجت بك ؛ أى إنه وضع أساس وبدايات طريق القاهرة - الإسكندرية الزراعى الحالى . .

●● وفى عهده اشتركت مصر فى حرب الروسيا التى عرفت بحرب القرم بجانب تركيا « ١٢٦٩هـ - ١٨٥٣م » ، عندما أرسل أسطولاً مصرياً و٢٠ ألف مقاتل، كما تم فى عهده وضع حجر أساس الجامع الأحمدى فى طنطا . وعقد مع المهندس ستيفنسون عقداً لمد أول خط للسكة الحديدية فى مصر من الإسكندرية للقاهرة . . ومن القاهرة للسويس نظير ٥٠ ألف جنيه ، وتم فى عهده - قبل وفاته - مد ٧٠ ميلاً من القبارى إلى دمنهور ، ومن دمنهور إلى كفر الزيات . .

ولكن يؤخذ على الوالى عباس الأول أنه فرط فى كثير من آثار مصر ؛ إذ قدم كميات كبيرة من هذه الآثار هدية لدول أوروبا ، وفى مقدمتها النمسا .

هذا ، وقد أقام عباس عديدًا من العمائر ، إذ بنى قصراً على ضفاف النيل فى بنها ، بعيداً عن المدينة ، وهو القصر الذى قتل فيه ليلة ١٤ يوليو ١٨٥٤م ، وبنى قصر العتبة الزرقاء بعد أن اشترى قصر العتبة الخضراء من أسرة الشرايبى . . كما بنى قصراً فى الحلمية (نسبة إليه لأن اسمه الكامل عباس حلمى باشا ، وأطلق اسم الحلمية على حى قوصون فى ٢٧ ربيع الأول عام ١٢٦٧هـ . . بعد أن أطلق اسم العباسية على منطقة الحصوة ، كما أنشأ قصراً فى الخرنفش . .) ، وأقام عباس وجدَّد عدة مساجد جميلة . . ومهد الطريق بين القاهرة والسويس بالحجارة . .

●● واختلف الرواة فى تفاصيل مصرع عباس الأول ؛ إذ تم التواطؤ مع غلام من خدم سراى بنها يدعى عمر وصفى ، وكان حراسه اثنين أحدهما شاكر والآخر عمر ، وفتحا الباب فدخل الإيج أغاسيه على الأمير عباس ، وهو مستغرق فى نومه ، ولما أرادوا الفتك به استيقظ ، ولما اكتشف مؤامرتهم حاول الهرب . ولكن الخائن عمر وصفى منعه وأعاده إليهم ، فتكاثروا عليه وقتلوه ، وأوعزوا إلى الغلامين بالهرب لتتم الحيلة ، فهربا . وكتم الباقون الخبر إلى اليوم التالى . . ولما لم يستيقظ عباس فى موعده ، دخل عليه أحمد يكن باشا والكتخدا إبراهيم الألفى بك ، فوجداه مقتولاً فأخفيا الخبر ونقلا الجثة إلى القاهرة فى عربة ، ودفن فى اليوم التالى .

وحاول رجال عباس استدعاء ابنه إلهامى باشا من أوروبا ، وتعيينه بدلاً من عمه الأمير سعيد ولو بالقوة. ولكن محافظ الإسكندرية إسماعيل سليم باشا أبلغ سعيد بالمؤامرة ، وكان مقيماً بقصر القبارى ، فذهب معه إلى قصر رأس التين وأعلن الأمر رسمياً ، وأقيمت حفلة الجلوس رسمياً ، وأطلقت المدافع . وسافر سعيد إلى القاهرة بصحبة أمراء العائلة ، وتدخل أحمد رفعت لصالحه ، وصعد سعيد إلى القلعة وتمت رسوم التولية يوم ٢٠ شوال ١٢٧٠هـ ؛ أى بعد يوم واحد من مقتل عباس فى بنها يوم ١٩ شوال .

ويقال إن نازلى هانم ـ ابنة محمد على ـ وعمة عباس ، كان لها دور فى مؤامرة التخلص من ابن أخيها هذا ، وتمت الجريمة ليلة ١٤ يوليو ١٨٥٤م الموافق ١٩ شوال ١٢٧٠هـ ، وتم نقل جثمانه إلى قصره بالحلمية .

● الوالى سعيد باشا يتوسع فى العباسية :

وتولى محمد سعيد باشا حكم مصر ؛ ليواصل ما فعله ابن أخيه عباس ، وذلك بالتوسع فى الإنشاءات بحى العباسية ، فأنشأ ثكنات للجيش بالحى الجديد ، وأنشأ المدرسة التجهيزية بالعباسية عام ١٨٦٣م ، التى نقلت بعد ذلك إلى درب الجماميز عام ١٨٦٨م ، وعرفت بالخديوية .

●● ثم جاء عصر إسماعيل الذى تولى عرش مصر ، بعد وفاة عمه سعيد باشا يوم ١٨ يناير ١٨٦٣م ـ ٢٧ رجب ١٢٧٩هـ ، وعمره ٤٢ سنة ، ومدة حكمه ثمانى سنوات وتسعه أشهر وستة أيام ، ودفن سعيد بمسجد النبى دانيال بالإسكندرية .

وإسماعيل هو ثانى أبناء إبراهيم باشا ، والآخران هما : أحمد رفعت ، ومصطفى فاضل .

وقد أدرك إسماعيل أهمية موقع حى العباسية للتوسع فى مشروعاته وإنشاءاته العسكرية ؛ لقربها من الصحراء اللازمة لتدريب قواته ، فأنشأ بها مدرسة البيادة «المشاة» عام ١٨٦٤م ، وكان عدد تلاميذها عند الإنشاء ٤٩٠ تلميذاً . . ومدرسة السوارى «الفرسان» عام ١٨٦٥م . . ومدرسة الطوبجية «المدفعية» عام ١٨٦٥م . . والهندسة الحربية ، ثم مدرسة أركان الحرب . . ومدسة الرى والعمارة عام ١٨٦٦م بسراى الزعفران «بالعباسية أيضاً» التى نقلت بعد ذلك إلى سراى درب الجماميز ، ثم إلى الجيزة ، وهو الذى أنشأ قصر الزعفران بالعباسية ، وسمى بهذا الاسم لكثرة زراعة نبات الزعفران بالمنطقة .

واشترى إسماعيل باشا قصر الحصوة بالعباسية الذى أقامه عباس ، وآل إلى ابنه إلهامى باشا ، واشتراه إسماعيل من على بك وكيل دائرة المرحوم إلهامى باشا ، ووهبه إسماعيل باشا إلى والدته فى ١٢ جمادى الآخرة ١٢٨٧هـ ، بالأمر الكريم الصادر من الخديو إسماعيل إلى محافظ مصر . .

وفى عام ١٨٦٥م ـ ١٢٨٢هـ ، مد إسماعيل السكك الحديدية من القاهرة إلى العباسية ـ ومن العباسية إلى القبة ، ونظم مسابقات للخيول فى ميدان العباسية الذى حوله إلى ميدان للسباق ، وكان يحضرها بنفسه ومعه الأنجال والمأمورون والقناصل والمتفرجون (فى يناير ١٨٦٨م) .

وكانت جريدة الوقائع تنشر تفاصيل هذه السباقات وأسماء الفائزين ، وكانت تجرى مراهنات على هذه السباقات ، وتنشر أسماء الخيول الفائزة ، وكانت معظم هذه الخيول . . عربية .

وفى عصر إسماعيل أيضاً ، تحولت العباسية إلى ميدان للرماية والاحتفالات الشعبية بعيد ميلاد الخديو (٣ نوفمبر) . وفى ١١ شوال ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٩م ، وهب الخديو إسماعيل إلى إسماعيل صديق « المفتش »، ناظر المالية المنزل الكائن بالحصوة (العباسية) المشترى من الخواجة يوسف ميخائيل الصراف .

●● ولحى العباسية تاريخ عسكرى حافل ؛ إذ خلال بداية الثورة العرابية عقد ٦٠٠ ضابط مؤتمراً عسكرياً بالعباسية يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩م ، ثم خرجوا بعده فى مظاهرة عسكرية إلى شوارع القاهرة ، واشترك مع الضباط طلبة المدارس العسكرية والجنود ، ومعهم ثلاثة من أعضاء مجلس شورى النواب ، وتوجهوا إلى مقر وزارة المالية فى لاظوغلى ، يقودهم البكباشى لطيف سليم . . وأمسكوا بنوبار باشا ناظر النظار «رئيس الوزراء بتعبير ذلك العصر » ، وأمسكوا أيضاً بالمفتش الأجنبى «الوزير» ويلسون عند خروجهما من مقر وزارة المالية وضربوهما ضرباً مبرحاً .

وفى اليوم التالى سقطت حكومة نوبار « أول رئيس للوزراء فى مصر » ، وكانت المظاهرة تعبيراً عن الرفض الوطنى لوجود التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية . .

● الإنجليز .. يحتلون العباسية :

ولأن العباسية كانت منطقة عسكرية بحكم تمركز الجيش المصرى الحديث فيها ، وفيها معظم المدارس العسكرية ، ومنها مدرسة الضباط « الكلية الحربية » . . كانت بريطانيا حريصة على احتلالها ، وتحويلها إلى ثكنة عسكرية بريطانية ضخمة، كرمز للاحتلال ، كما احتلت القلعة كرمز للسيطرة البريطانية على العاصمة . . وتناثرت قشلاقات الجيش البريطانى فى المنطقة كلها ، ومعها قشلاقات البوليجون « الجيش البريطانى » ، واحتلت هذه القوات قشلاقات عباس حلمى ، وعبد المنعم، واتخذوا فيها نادى الجيش البريطانى . .

وتحول مكان كلية الشرطة فى العباسية إلى معسكر إنجليزى أيضاً . . وفى موقع برج مصر للسياحة والمكتب العربى للتصميمات ، كانت تقع قشلاقات الزعفران للجيش .

ومعسكر آخر فى شارع فخرى عبد النور الآن . . ومعسكر آخر مكان وزارة الكهرباء الحالية ، وكانت تتوسط هذا المعسكر إدارة الجيش البريطانى ومقر القيادة . .

وكان الهدف من وضع قوات الاحتلال فى هذه المواقع أن تكون قريبة من العاصمة ؛ لتكون أداة للتهذيب والضرب والقمع . . بجانب تمركز جزء من قوات الاحتلال فى قشلاقات قصر النيل ، على بعد خطوات من قصر الحكم فى عابدين . وكما وضعت قوات البوليس الحربى البريطانى فى ميدان باب الحديد ، عند بداية شارع الجلاء الآن ، أى فى موقع عمارة مصر للتأمين وهيئة الصرف الصحى نفسها ، وبجوار سجن الأجانب أمام جامع أولاد عنان « جامع الفتح الآن » .

●● وتم وضع حى العباسية تحت الاحتلال الإنجليزى المباشر ، ليس فقط بالمعسكرات ، ولكن بالوجود النفسى ، إذ أطلقت السلطة الإنجليزية أسماء إنجليزية على شوارع ومناطق العباسية. فعند تقاطع ميدان العباسية الآن مع امتداد شارع رمسيس ، أطلقوا على هذا الشارع اسم ولسلى ، وهو الجنرال الذى حطم جيش عرابى . . ونجد شارع جرانفيل ـ امتداد شارع السرايات ـ وهو الشارع الذى أطلق عليه مصطفى النحاس ، اسم الثائر والمناضل الوطنى فخرى عبد النور على يسار كلية الشرطة . وشمال شارع ولسلى كان يقع شارع بولك ، ثم بعده بقليل شارع درومر . ونجد شارعاً رئيسياً يحمل اسم كتشنر سردار الجيش ، ويتقاطع معه شارع مكسويل الذى يتقاطع من ناحية أخرى مع طريق السويس القديم . ويتقاطع معه من الناحية الأخرى شارع ستيفانسو ، وهذه الشوارع كلها محلها الآن سوق القاهرة الدولية . . أى مجاورة تماماً من الشمال لمستشفى الأمراض العقلية .

أى إن المنطقة الواقعة بين شارع الخليفة المأمون غرباً من ميدان العباسية حتى منطقة سوق القاهرة الدولية وملاعب الاستاد وغيرها ، كانت مستعمرة عسكرية بريطانية ، ومقراً لمعسكرات الجيش البريطانى .

وكان مكان وزارة الكهرباء وشركاتها ومصلحة الأحوال المدنية و المحكمة الحالية عند تقاطع الشارع مع شارع الخليفة المأمون . . كانت هنا مساكن عائلات جيش الاحتلال.

● العباسية .. ومستشفى المجاذيب :

●● ولا يذكر حى العباسية . . إلا وتذكر مستشفى المجاذيب ، بل أصبح المجاذيب «المجانين» مرادفاً للعباسية !! وكانت أول استبالية للمجاذيب فى جزء من ورشة الجوخ فى بولاق . ولما لم تعد كافية ، أنشئت هذه الاستبالية فى جزء من السراية الحمراء التى أنشأها الخديو إسماعيل ـ ثم احترقت ـ وعرفت باسم استبالية المجاذيب . إلى أن تم استحداث استبالية المجاذيب الحالية بالعباسية « أيضاً » التى أقيمت زمن الخديو توفيق . وكان بها قسمان : قسم للرجال وآخر للنساء ، وكان بها أيام توفيق ٣٠٠ سرير ، وبها الأطباء والأجزاخانة والخدمة اللازمة . .

وأصبحت العباسية ـ ربما بسبب جوها الطيب وهوائها الصحى ـ مقراً للكثير من المستشفيات المصرية والأجنبية ؛ إذ أمام مستشفى الأمراض العقلية أقيم مستشفى الحميات . . وغير بعيد عنهما ، ولكن جنوباً أقيم المستشفى الإيطالى . . و المستشفى اليونانى . . والمستشفى الإسرائيلى عند غمرة . . ثم المستشفى القبطى . . والمستشفى الفرنساوى الذى أصبح مستشفى الطيران .

أما منطقة شرق العباسية فلها شأن آخر ؛ إذ فى ميدان عبده باشا الآن نجد مدرسة إسماعيل القبانى الثانوية « العباسية سابقاً » ، وكانت هذه المنطقة خالية تماماً من أى مبانٍ أو منشآت . وكان آخر العمران هو شرق شارع السرايات ، وكانت المنطقة بين شرق شارع السرايات وشارع السرجانى خالية تماماً ، إلا أن فيها المستشفى الإيطالى والمستشفى اليونانى . ولم تكن مدرسة العباسية الثانوية نفسها قد أقيمت ، وكانت هذه المنطقة تعرف باسم ميدان مولد النبى ، حيث الحصوة القديمة ، الاسم القديم لكل المنطقة وحتى مابعد شارع السكة البيضة ومخزن وورشة شركة الترام ، ومساكن عمال الدريسة . .

وتم تعمير منطقة شارع السرايات الحالية ، فأقيمت فيها مدرسة الصناعات الزخرفية ، التى أصبحت مقراً لكلية الهندسة التابعة لجامعة عين شمس الحالية ، وغيرها من المنشآت التى أبرزها كلية الشرطة وملاعبها . .

وكانت العباسية مجرد منطقة صغيرة ، تحدها من الشمال الشرقى منطقة الوايلية الصغرى ، والحسينية من الجنوب ، وشارع الوايلية الصغرى وشارع غربى القشلاق وشارع العباسية نفسه . كان كل ما فى هذه المنطقة : قبة الفداوية . . وشارع مدرسة ولى العهد . . وشارع محمد بك رفعت . . وشارع القره قول . . وشارع ماهر باشا . . وشارع السيدة فاطمة النبوية . . وعلى ناصيته قسم شرطة الوايلى .

●● وامتد العمران فى حى العباسية . . وتسابق الناس فى سكنى المنطقة لرخص إيجارها وانخفاض سعر الأرض فيها . . وتوسعت الحياة فى المنطقة ، وصارت سكناً للأغنياء ، الذين أقاموا البيوت الجميلة وأحاطوها بالحدائق الصغيرة .

ولكن هذه المنطقة وكل العباسية ، تعرضت لنكسة سكانية كبيرة ؛ إذ بسبب قربها من معسكرات الجيش البريطانى ، كانت تتعرض للغارات التى كانت تشنها طائرات قوات المحور : الألمان والطلاينة . . فهرب الناس من المنطقة ، وأقاموا فى مساكن بعيدة عنها إلى أن انتهت الحرب العالمية الثانية . . ليعود السكان إليها ، وتتوسع لتصبح العباسية من أكبر أحياء القاهرة المحروسة .

●● ولا يمكن أن ننهى الحديث عن حى العباسية ، دون ذكر أكبر شارعين فيه . واللافت للنظر أنهما ـ كليهما ـ يحملان اسم منشىء الحى كله : الوالى عباس الأول . أول الشارعين هو شارع العباسية نفسه . . وثانيهما شارع رمسيس الحالى ، الذى حمل أول ما حمل اسم : عباس . . فما حكاية الشارعين ؟!

●● شارع العباسية :

فى بداية القرن العشرين ، كان شارع الأمير فاروق « الجيش الآن » يبدأ من ميدان العتبة إلى أن يصل إلى مدرسة باب الشعرية ـ ويتقاطع مع شارع الخليج المصرى ، ثم

يستمر شارع الأمير فاروق شمالاً بشرق إلى أن يتقاطع مع شارع السبع والضبع عابراً زرع النوى فى الوسط ، بينما على اليمين حى الحسينية . ويتقاطع الكل عند باب الحسينية مع شارع العباسية ، ومع شارع البيومى ، الذى هو امتداد شارع الحسينية .

وعند باب الحسينية من اليمين ، نجد أول شارع سبيل الخازندار ، وشارع عبده الحامولى . وعندما يتقاطع شارع العباسية الذى ينسب إلى منشىء الحى « عباس باشا » مع شارع السرجانى ، وعند شارع السرايات يميناً وعبده باشا يساراً ، ينطلق شارع العباسية فى مساره ، فيكون قسم شرطة الوايلى على اليمين ، ثم قبة الفداوية على اليسار.

ونجد فى شرق هذه المنطقة من الجنوب إلى الشمال شوارع : ريدان ، الأمراء ، يشبك، عظيم الدولة ، وشارع مدرسة البوليس .

وعندما تقرر نقل تمثال رمسيس الثانى من مرقده فى الطين ، عند قرية ميت رهينة فى بداية عهد ثورة ٢٣ يوليو إلى ميدان باب الحديد (ميدان نهضة مصر) ، وتقرر نقل تمثال نهضة مصر إلى الجيزة أمام جامعة القاهرة . . عندها أصبح اسم الشارع شارع رمسيس ؛ الذى يفكرون فى نقل التمثال منه من ميدان رمسيس محافظة عليه من عوادم السيارات .

ترى إذا حدث ذلك هل يظل الشارع والميدان يحملان اسم رمسيس ، أم يتغير. . ؟ إذ مازال العامة يطلقون اسم البطل إبراهيم باشا على الميدان ، الذى يتجمل بتمثاله ممتطياً جواده ، والذى يطلق عليه العامة الآن أحياناً اسم : ميدان الأوبرا ، رغم أن الأوبرا بعد أن احترقت عام ١٩٧١م ، أعيد إقامتها فى مدخل أرض الجزيرة عند كوبرى قصر النيل ، مكان أرض المعارض القديمة ، التى نقلت إلى مدينة نصر فى الستينيات .

وفى أقصى الشرق وموازياً لشارع العباسية، نجد شارع جرنفيل « فخرى عبدالنور بك » ، ونجد شرق شارع السرايات المستشفى اليونانى ، ثم المستشفى الإيطالى ، إلى

أن نصل لشارع السكة البيضة . . أما غرب شارع العباسية فنجد شارع عبده باشا عند تقاطعه مع شارع السرايات ، ثم شارع السيدة فاطمة النبوية ، فشارع ماهر باشا ، فشارع القره قول ، ثم شارع محمد بك رفعت ، إلى شارع مدرسة ولى العهد من شارع العباسية عند قبة الفداوية ، ثم الوايلية الصغرى حتى شارع غربى القشلاق . .

●● شارع رمسيس :

وهو الشارع الغربى الرئيسى الموصل إلى حى العباسية ، وهو يبدأ من ميدان عبدالمنعم رياض ـ قرب ميدان التحرير حالياً ـ ويمتد إلى باب الحديد ، ويتقاطع مع شارع الخليج عند منطقة غمرة إلى كلية الإرسالية الأمريكية للبنات ، بعد دير الراهبات ومدرسة البنات الأفرنج الكاثوليك . وتكون شرق كل هذا منطقة السكاكينى ثم شارع النزهة ، فشارع الشرفاء ، فشارع بين الجناين ، فشارع الوايلية الصغرى .

ويستمر شارع رمسيس إلى أن يصل إلى قرب شارع غربى القشلاق ، عابراً كاتدرائية الأقباط وكنيسة الأنبا رويس ، وكنيسة بطرس باشا غالى على اليسار . وعلى يسار كل هذا نجد منطقة المحمدى ، إلى أن يصل إلى سراى الزعفران ؛ حيث مقر جامعةعين شمس الآن ، وبذلك يصل شارع رمسيس ـ هنا ـ إلى أول شارع الخليفة المأمون ، ويتقاطع مع شارع العباسية عبر الميدان الذى يحمل أيضاً اسم منشىء الحى كله : ميدان العباسية .

●● وشارع رمسيس هذا تعددت الأسماء التى أطلقت عليه . . كان اسمه فى البداية : شارع عباس الأول « منشىء الحى كله » ، وبعد زواج الملك فؤاد من نازلى صبرى ، أصبح اسم الشارع : شارع الملكة نازلى . إلى أن أخطأت فى حياة وحكم ابنها الملك فاروق ، وهربت من مصر مع ابنتها الأميرة فتحية إلى أمريكا ، فقرر مجلس البلاط الملكى عقابها ، فتحول اسم الشارع من شارع الملكة نازلى إلى شارع الملكة فقط ، ثم سرعان ما أصبح اسمه شارع نهضة مصر ؛ نسبة إلى تمثال نهضة مصر ،

الذى كان المثال العظيم محمود مختار قد صممه وأقامه فى ميدان باب الحديد ، ليستقبل القادمين إلى القاهرة من كل أنحاء مصر بالقطار . . وأحياناً كان يطلق على الشارع اسم : شارع النهضة فقط . .

●● وفى حى العباسية أكثر من قبة . . . هناك مقابر العباسية ، وهناك فى شارع رمسيس قبة حديثة أمام مستشفى الدمرداش وأمام مستشفى دار الشفاء . . فى هذه القبة تم دفن أحمد باشا ماهر رئيس الوزراء الذى قتله محمود العيسوى المحامى فى البهو الفرعونى بمجلس النواب مساء يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥م . . وأيضاً تم دفن صديقه وزميله وخليفته فى زعامة الحزب السعدى : محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء ، بعد أن اغتاله عبد المجيد حسن فى داخل وزارة الداخلية يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨م .

أما القبة الأخرى . . . فتقع فى شارع العباسية ، وهى قبة الفداوية بين شارع العباسية شرقاً ومنطقة الوايلى غرباً . .

وقبة الفداوية لها حكاية تروى . .

فقد كانت المنطقة الممتدة من العباسية إلى الحسينية فى القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى ـ تحتوى على مقابر وعدة دور . . وفى عام ٨٨٤هـ ـ ١٤٧٩م أمر الأمير يشبك من مهدى بإزالة هذه القبور والدور ، وغرس مكانها حدائق غناء وحفر بئراً عظيمة فوقها أربع سواق ، وأنشأ مناظر للنزهة وحوضاً كبيراً وقبة كبيرة أمامها بساتين ومشاتل . وأنشأ قبلى هذه القبة تربة كبيرة ، ألحق بها مساكن يجرى فيها الماء إلى المزارع ، حتى صارت المنطقة من أبهج المنتزهات ، كما يقول حسن عبدالوهاب فى كتابه العظيم : تاريخ المساجد الأثرية .

ويصف السخاوى هذه المنشآت ، فنفهم من قوله أنها تمت فى حياة الأمير المملوكى يشبك ، بينما يقول ابن إياس فى حوادث شهر ذى القعدة ٨٨٤هـ ـ يناير ١٤٨٠م « إن الأمير يشبك شرع فى بناء القبة التى أنشأها فى رأس الحسينية ، وخرب عدة قبور كانت هناك ، ثم أنشأ بهذا المكان غيطاناً ومجارى وسواقى ، وقصد أن يجعله من جملة

متنزهات القاهرة ، ولو عاش لفعل ذلك ، فجاءت القبة من محاسن البناء فى ذلك المكان » .

ثم عاد فذكر ابن إياس فى حوادث عام ٨٨٦هـ - ١٤٨١م أن السلطان قايتباى عاين قبة الأمير يشبك الدوادار ، وأمر الأمير تغرى بردى الاستادار بأن يكمل عمارتها لأن الأمير يشبك مات ، ولم يتمها » ، وفى هذه دلالة على أن الأمير يشبك توفى قبل أن يتمم بناء هذه المجموعة . .

ولم يعد باقياً من هذه المنشآت سوى هذه القبة العظيمة المربعة ، وطول ضلعها ١٩,٩ متر ، وهى تعلو دوراً أرضياً مكوناً من ثلاث قاعات مستطيلة مغطاة بقبوات . ويتوصل إلى هذه القبة من باب فى الجدار القبلى ، عتبته على ارتفاع ٥,٢٥ متر من مستوى الأرض حولها . وبناء القبة الخارجى بسيط ، عبارة عن قاعدة حجرية تعلوها قبة مبنية بالطوب لها طراز خاص . . أما من الداخل فقد كانت الجدران مغطاة بوزرة رخامية بارتفاع ٣,٥ متر .

وهذه القبة ، وإن كان منشؤها هو الأمير يشبك من مهدى ، إلا أنه كتب عليها اسم سيده الملك الأشرف قايتباى ؛ حيث يقرأ على جانبى الباب القبلى « أمر بإنشاء هذه القبة المباركة سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره بمحمد وآله وسلم » .

وقد ظلت هذه المنشآت عامرة حتى القرن الثانى عشر الهجرى ، فقد زارها الرحالة عبد الغنى النابلسى عام ١١٠٥هـ - ١٦٩٣م ووصفها ، فقال : « زرنا جامع اليشبكية نسبة إلى يشبك من مهدى فصعدنا إليه ، فإذا هو جامع عظيم فى أحسن ترصيف وأقوم وأكمل بنيان وأجمل إتقان وبجانبه مساكن وقصور وبيوت . وهناك بركة كبيرة يستخرج إليها الماء بالمدار « السواقى » . وفى جانبها قصر مطل عليها بشبابيك يمتد منها البصر فى فسيح تلك الأقطار » .

أى إن هذه المنطقة كانت معمورة بالقصر والمبانى والمتنزهات فى القرن السابع عشر الميلادى .

وقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح هذه القبة ، وأحدثت لها باباً فى الجهة الشرقية وذلك عام ١٨٩٩م ، وكان أمام الوجهة الشرقية قطعتا أرض يشغلهما مقهى ومركز للدخولية ، أى إدارة جباية الضرائب على كل ما يدخل القاهرة من حبوب وخضروات وفواكه وصناعات . وبلغ إيرادها عام ١٨٨٣م حوالى ١٦٨٠٤٧ جنيها !! ثم قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإزالة المقهى ومركز الدخولية، وأخلت كل ما حول القبة ، ووضعت لوحة تذكارية تحدد موعد ترميم القبة عام ١٣١٧هـ . ومع سكان العباسية شهد محافظ مصر ماهر باشا ، وسعادة لطيف باشا سليم رئيس شرف المحكمة المختلطة إعادة الصلاة إلى القبة . . .

وفى عام ١٩٠٧م قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح منبر مسجد كاتم السر بدرب الجماميز ، وطعمت حشواته بالسن والأبنوس . وبناء على اقتراح هرتس باشا تم وضع هذا المنبر بالقبة ، لأن صناعته تتفق وعصر بناء القبة .

●● ولكن من هم الفداوية الذين تحمل هذه القبه أسماءهم ؟!

الفداوية هم طائفة من الإسماعيلية ، من الشيعة المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانوا يقيمون بقلاع الدعوة فى الرصافة والخوابى ومصياف والقدموس والكهف وغيرها .

ويقول ابن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار » إن الفداوية يعتقدون أن كل من ملك مصر كان ظهيراً لهم ، ولذلك يرون إتلاف نفوسهم فى طاعته . وكان لمشايعتهم هذه لملوك مصر أثر كبير فى إرهاب أعدائهم . وكان من تقاليدهم أن من جبن عن أداء رسالته أو هرب . . قتله أهله ، ولا يبالى الفداوى ـ الفدائى ـ أن يؤدى رسالته ولو قتل بعدها .

وكانوا يسمون كبيرهم : مقدم الفداوية أو شيخ الفداوية . وفى القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر الميلادى عرفوا بالمجاهدين ، وأطلقوا على كبيرهم : أتابك المجاهدين ، ويعرفون فى بلادهم بالإسماعيلية ، وفى بلاد الفرنج بالحشيشية ، وعند أهل الأقاليم بالفداوية .

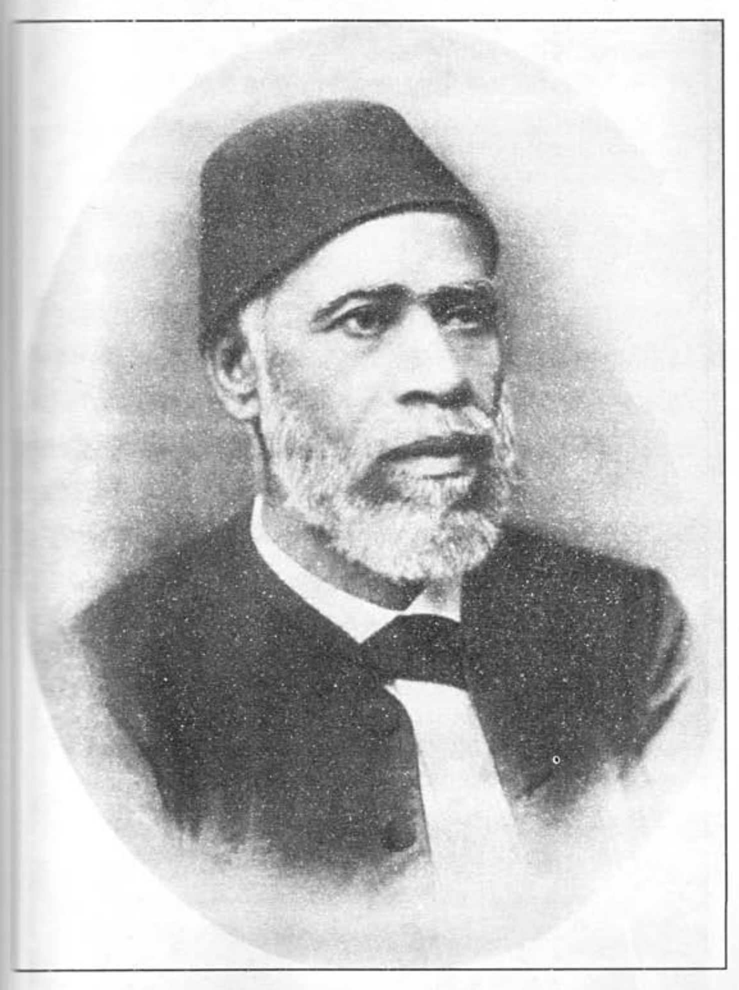
وإلى القرن ١٨ الميلادى كان يطلق لقب الفداوية على الأشداء من الرجال . .



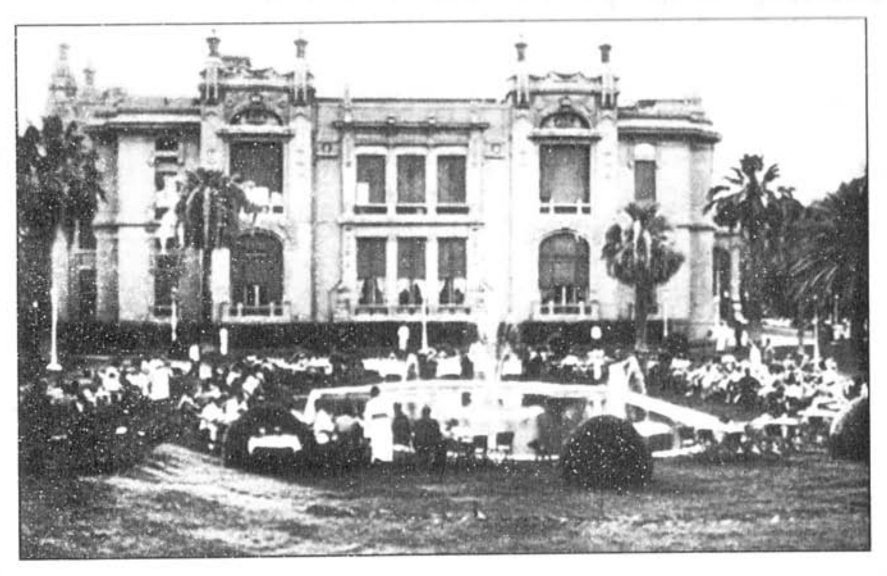
عباس حلمى باشا الأول والى مصر منشئ حى العباسية وكذلك حى الحلمية .



الخديو إسماعيل بالزى الرسمى وكامل النياشين بعد أن حصل على الفرمان العثمانى بأن يتولى أكبر أبناء الباشا حكم مصر. وهو الذى أنشأ قصر القبة فى العباسية .



على باشا مبارك وزير الأشغال الذى حول أفكار الخديو إسماعيل إلى شوارع وأحياء وقصور وتماثيل .. هى قاهرة إسماعيل .



قصر الزعفران أنشأه الخديو إسماعيل وأصبح الآن مقراً لإدارة جامعة عين شمس ـ إبراهيم باشا سابقاً ـ في حي العباسية .

الحلمية .. والوالى القتيل !

ترك عباس حلمى الأول ذكرى أليمة فى تاريخ مصر الحديث . . فهو ابن طوسون باشا الابن الأثير عند والده محمد على باشا الكبير . . فقد كان لمحمد على أولاد ذكور أبرزهم إبراهيم باشا قائد جيوشه ، وساعده الأيمن فى فتوحاته فى المورة (اليونان) والشام ، والحجاز ، واليمن . . وإسماعيل الذى تولى فتح السودان مع محمد بك الدفتردار ، ومات محترقاً بفعل مؤامرة دبرها الملك نمر ملك مملكة شندى عند التقاء النيلين الأبيض بالأزرق . . وطوسون الذى قاد الجيش المصرى لمواجهة الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية ومات شاباً . . وسعيد الذى أصبح والياً على مصر ، وعبد الحليم . . وآخرون بعضهم مات صغيراً مثل الأمير محمد على الصغير . .

وخطيئة عباس الكبرى التى لا تغتفر أنه أجهض الحركة الإصلاحية التى بدأها جده محمد على الكبير ، عندما أوقف إرسال البعثات ، وأغلق عديدًا من المدارس ، والمصانع ، وأنقص عدد الجيش ، وأوقف التوسعات فى الصناعات الحربية والمدنية . . ويكفى أنه لقى جزاءه عندما مات مقتولاً فى قصره فى مدينة بنها . .

ورغم هذا سيذكر التاريخ للوالى عباس حلمى الأول ، الذى تولى عرش مصر بعد وفاة عمه إبراهيم باشا ـ وفى حياة جده محمد على ـ يوم ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨م ـ « ٢٧ ذى الحجة ١٢٦٤هـ » أنه ترك بعض البصمات التعميرية . .

فهو الذى بدأ تعمير منطقة الريدانية ؛ لتحمل اسمه من بعده أى العباسية ،

وشجع الأمراء والأعيان على البناء فيها . ووجه لهم نداءً بل أمراً بذلك ، بدلاً من أن ينفقوا أموالهم على المهازل والمباذل ، حتى يتركوا لأولادهم شيئاً يفخرون به . .

وهو أيضاً الذى أنشأ حى . . الحلمية ؛ أى إن اسمه أصبح مخلداً فى أكثر من موقع فى عاصمة مصر : العباسية الذى يعتبر من أكبر أحيائها ، والحلمية غير بعيد عن القلعة مقر الحكم فى عصره . .

والغريب أن محمد على الكبير لم يطلق اسمه على أى مدينة أو منشأة، وكأنه اكتفى بأعماله العظيمة لتكون خير دعاية وذكرى له . . بينما من أبنائه وأحفاده من تحمل المدن والأحياء أسماءهم مثل :

●● الإبراهيمية فى محافظة الشرقية نسبة إلى إبراهيم باشا .

●● ومدينة الإسماعيلية على قناة السويس . . وترعة الإسماعيلية الحلوة من النيل عند شبرا إلى منطقة القناة . . وحى الإسماعيلية فى قلب القاهرة « التحرير الآن » ، وميدان الإسماعيلية فى ضاحية مصر الجديدة . . وكلها تحمل اسم الخديو إسماعيل .

●● ثم مدينة بور توفيق ضاحية ميناء ومدينة السويس ، وحى التوفيقية التجارى ، وسوق التوفيقية المشهور فى قلب القاهرة ، شارع توفيق « الآن شارع عرابى » من شارع رمسيس إلى شارع ٢٦ يوليو فى القاهرة . . وهناك أكثر من قرية تحمل اسم التوفيقية . . بل هناك مدينة فى أقصى جنوب غرب السودان تحمل اسم التوفيقية وكلها تنسب إلى الخديو توفيق الذى خان مصر ، واستعان بالجيش الإنجليزى ليجهض الثورة العرابية ذات الثوب الوطنى الدستورى الإصلاحى .

●● ومدينة بور فؤاد الضاحية الشرقية لمدينة بور سعيد ، والتى أقامتها شركة قناة السويس على الضفة الشرقية للقناة عام ١٩٢٦م لموظفيها وعمالها المشتغلين بالورش الشرقية . وقد نسبت للملك فؤاد الذى بدأ حكمه سلطاناً بين عامى ١٩١٧ و١٩٢٢م، ثم أصبح ملكاً من عام ١٩٢٢ إلى أن مات عام ١٩٣٦م . . بل كانت هناك مديرية تحمل اسم : مديرية الفؤادية نسبة إليه ، هى الآن محافظة كفر الشيخ .

●● بل نجد مدينة أخرى هى الأكثر شهرة فى منطقة القناة ، ومن أشهر مدن مصر كلها هى مدينة بورسعيد . . والى مصر الذى وقع عقد امتياز وحفر قناة السويس وحكم مصر بعد مقتل عباس الأول ، وهو محمد سعيد باشا ابن محمد على الكبير . . ونعلم طبعاً أن كلمة « بور » تعنى الميناء . . أى فى مصر ميناءان ومدينتان لاثنين من أبناء وأحفاد محمد على ، هما : بورسعيد فى الشمال عند المدخل الشمالى للقناة . . وميناء توفيق عند المدخل الجنوبى للقناة ، الأول لسعيد باشا والثانية للخديو توفيق . .

وهكذا خلد التاريخ ـ والجغرافيا ـ سعيد وتوفيق وإسماعيل ، بينما لم يخلد محمد على نفسه .

أما عباس حلمى الأول ـ رجل الانغلاق الأكبر فى أسرة محمد على ـ فقد خلد اسمه على اثنين من أكبر أحياء القاهرة ، هما : العباسية . . والحلمية .

ولنبدأ بحكاية حى الحلمية !!

●● فى يوم ٢٧ ربيع الأول عام ١٢٦٧هـ حوالى عام ١٨٥١م ، صدرت إرادة من الحاج ـ هكذا ـ عباس حلمى باشا الأول ـ والى مصر ـ تقضى بإطلاق اسم الحلمية على حى قيسون أو قوسون ، وهذا الحى ـ الحلمية ـ يقع بين الحبانية شمالاً والسيوفية والسروجية شرقاً . . وبركة الفيل جنوباً . . ودرب الجماميز والهياتم غرباً ، وأهم شوارع الحلمية : شارع نور الظلام ، شارع أحمد بك عمر ، شارع درب الجماميز ، شارع القلعة شرقاً والذى يفصلها عن السروجية والدرب الأحمر وسوق السلاح ، ثم نصل إلى جامع السلطان حسن .

وأبرز معالم الحى : المدرسة الخديوية ، والمحكمة الشرعية ، وقسم شرطة الدرب الأحمر ، الذى كان المقر العام لجماعة الإخوان المسلمين ، قبل حل الجماعة بعد الأحداث الدامية فى نهاية الأربعينيات .

وبتفاصيل أكثر ، نقول إن الحلمية القديمة تقع على شمالها الحبانية وغربها الهياتم ودرب الجماميز . . وشرقها السروجية والدرب الأحمر . . وجنوبها السيوفية والمنشية ، وبركة الفيل ، ثم جنوبها السيدة زينب والحوض المرصود . . ويعتبر شارع درب

الجماميز هو الفاصل بين الحلمية والهياتم حيث جامع السلطان الحنفى . وأهم شوارع الحلمية : شارع الحلمية نفسه وامتداده شارع الركبية، وشارع نور الظلام جنوبها ، ثم شارع الصليبة .

وأبرز المنشآت على اليمين جامع السلطان حسن . . وميدان محمد على « القلعة» . . وجامع الرفاعى . ويحد الحى شرقاً شارع القلعة وشمالاً شارع أحمد بك عمر حتى الحبانية ، ويفصل حى الحلمية عن قصر عابدين شارع الخليج المصرى .

●● وحى الحلمية « القديمة » منطقة لها تاريخ ، فقد كان فى الموقع نفسه بركة كبيرة يقال لها بركة الفيل ، وكان فيها تربة للدفن . . وبركة الفيل تمتد من بستان الحبانية إلى بستان سيف الإسلام إلى تحت الكبش إلى الجسر الأعظم (ميدان السيدة زينب الآن) ، الذى كان يفصل بينها وبين بركة قارون ، ومناظر الكبش المطلة عليها . ولما أنشأ جوهر الصقلى القاهرة عام ٩٦٩م ، كانت البركة تجاهها خارج باب زويلة ، ولم تكن عليها أى مبان ، ثم عمر الناس حولها بعد عام ٦٠٠هـ .

ويقول محمد رمزى فى كتابه الكبير متعدد الأجزاء « القاموس الجغرافى » إن بركة الفيل لم تكن بركة عميقة ، بل فيها ماء راكد بالمعنى المفهوم الآن من لفظ البركة . وإنما كانت تطلق على أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنوياً وقت الفيضان ، وكانت تروى من الخليج المصرى (شارع بورسعيد الآن) . وبعد نزول الماء تزرع الأرض أصنافًا شتوية ، وكان أشهر محصولاتها هو القرط المعروف الآن بالبرسيم ، وكانت بركة الفيل تعتبر فى دفاتر المساحة من النواحى المربوط على أراضيها الخراج ، ولم يحذف اسمها من جداول أسماء النواحى ، إلاّ بعد أن تحول معظم أراضيها إلى مساكن .

وقد تحولت أراضيها تدريجياً من الزراعة إلى السكن من عام ٦٢٠ هـ ، ولم يبق بأرض البركة بغير بناء إلى سنة ١٨٠٠م (أيام الحملة الفرنسية) والتى رسمت فيها الحملة الفرنسية هذه خريطة القاهرة إلا قطعة أرض واحدة ، أقيم عليها فيما بعد سراى عباس حلمى الأول المعروفة بسراى الحلمية . وفى عام ١٨٩٤م قسمت أراضى حديقة السراى . وفى عام ١٩٠٢م تم هدم السراى وقسمت أراضيها أيضاً وتم بيعها للأهالى ، فأقاموا عليها مساكن لهم فى المنطقة المعروفة الآن باسم : الحلمية الجديدة .

●● أما سبب تسمية المنطقة باسم بركة الفيل ، فيرجع إلى الأمير خمارويه بن أحمد ابن طولون ، الذى كان مغرماً باقتناء الحيوانات من السباع والنمور والزرافات ، وأنشأ لكل نوع منها داراً خاصة به . وكانت دار الفيلة واقعة على حافة البركة من الجهة القبلية الشرقية ؛ حيث شارع نور الظلام الآن .

وكان الناس يذهبون إلى البركة للنزهة والفرجة على الفيلة ، فاشتهرت بينهم باسم بركة الفيل حتى اليوم . ومن هنا فإن الذين يقولون بأنها حصلت على اسمها لأن شكلها كان على هيئة فيل لا أساس له من الصحة . فقد كانت على شكل بيضاوى مفرطح من جهتيه الغربية والشرقية ، وقد وصفها ابن سعيد فى كتاب المغرب فقال إنها كانت دائرة كالبدر ، والمناظر حولها كالنجوم ، كما نقل الوصف محمد بك رمزى فى كتابه «القاموس الجغرافى للبلاد المصرية» .

ودار الفيل هذه غير دار الفيل ، التى كانت على بركة قارون ، واشتراها كافور الإخشيدى أمير مصر ، وحبس فيها بنى مسكين ، فهذه الدار - الأخيرة - كانت واقعة على سكة المذبح من الجهة الشمالية منها جنوبى البغالة بقسم السيده زينب .

تلك هى الحلمية القديمة . . والحلمية الجديدة فى قلب القاهرة ، فماذا عن الحلمية الثالثة ؟!

●● هى الحلمية الموجودة فى أقصى شمال شرق القاهرة ،والتى تقع شمال حى الزيتون ، ولهذا للتفرقة بين « الثلاث حلميات » يقول العامة عن الأخيرة : حلمية الزيتون للتفرقة بينها وبين الحلمية القديمة وسط العاصمة . .

وهذه الحلمية الثالثة تقع بين حى الزيتون جنوباً . . وحى المطرية شمالاً .

والحلمية والزيتون يتداخلان مع بعضهما ، ويتحركان مع خط السكة الحديد الذى يبدأ من كوبرى الليمون فى ميدان السكة الحديد .وحى الزيتون يبدأ من حيث ينتهى حى القبة . وأبرز شوارع الزيتون : الغريبان . . سليم الأول الذى اغتصب مصر ، وطومان باى آخر سلاطين المماليك الذى تولى المسئولية بعد هزيمة سلطانه الغورى فى

مرج دابق . وحاول طومان باى التصدى للسلطان سليم ، الذى زحف على مصر ووصلها عام ١٥١٧م .

ودارت معارك عديدة إلى أن لحقت الهزيمة بسلطان مصر ، طومان باى ، وشنقه سليم على باب زويلة وسط بكاء وعويل المصريين ؛ حزناً على سلطانهم البطل المقاتل .

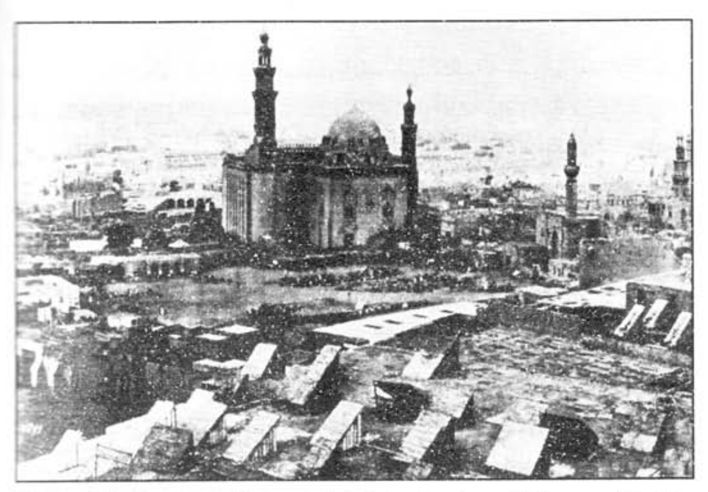
وهذان الشارعان : سليم الأول وطومان باى يبد آن تقريباً من ميدان ابن سندر فى القبة جنوباً ، وهما أبرز الشوارع الطولية فى المنطقة ، وعلى شرق طومان باى شارع سكة حديد السويس القديمة . أما الشوارع العرضية . . فهى من الجنوب : العزيز بالله ثم نصوح باشا الذى يصب عند محطة الزيتون ، ثم شارع سنان باشا وشارع محمد بخيت ، ثم شارع وميدان ابن الحكم حيث حى الحلمية .

أما غرب السكة الحديد فى الزيتون ، فنجد شارع عبد القادر الجيلانى ، ثم شارع محطة الزيتون ، ثم شارع عبد الرحمن بك نصر ، وشارع الزيتون ، فشارع النواوى .

وفى الحلمية نجد شارع دار السعادة ، ثم محطة الحلمية ، فشارع البشرى ، فشارع عين شمس . وغرباً نجد شارع المسيرى ، وشارع وابور المياه ، إلى أن نصل إلى شارع المطرية فى أقصى الغرب ؛ حيث عزبة خليل رضوان ، وساقية البدارنة . وكان فى المنطقة معهد الجمعية المصرية لرعاية العميان على شارع وابور المياه ، ثم طريق المعاهدة غرباً ، وشماله جامع المطراوى ، ومحطة الحلمية ، ثم شارع البشرى شرق المحطة ، إلى شارع عين شمس شرقاً ، هو وشارع سليم الأول .

وأبرز مبانى هذه المنطقة مستشفى الحلمية العسكرى ، على شارع سليم الأول نفسه .

وكان من أبرز المنشآت فى حى الحلمية « ملهى الحلمية بالاس » ، الذى كان الملك فاروق وكبار القوم يقضون فيه سهراتهم . وكان يقدم الفن الراقى من رقص وغناء وموسيقى فى أول الليل ، ثم الرقص الثنائى بعد ذلك مع الشمبانيا . فقد كان هذا العصر حتى منتصف الخمسينيات عصر الملاهى ، وقد أغلق الملهى بعد ذلك .



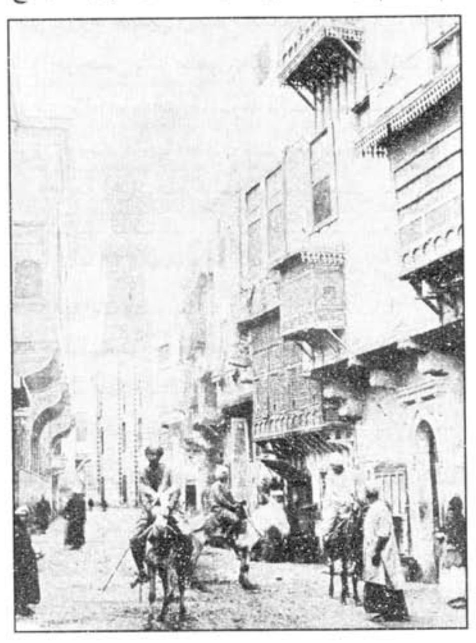
القاهرة كما تبدو من القلعة بين عامى ١٨٥٦ و١٨٥٩م وفى صدر الصورة مسجد السلطان حسن ولم يكن جامع الرفاعى قد بنى بعد .



القاهرة من القلعة ويرى سور أو مجرى العيون وأهرام الجيزة . . هكذا كانت القاهرة عام ١٨٧٠م .



حى الغورية عام ١٨٨٠م وفى وسط الصورة مجموعة السلطان الغورى . . وشارع المعز لدين الله .



فى القاهرة المعزية شارع جامع السلطان شعبان عام ١٨٨٠م بينما « الحمارة » فى انتظار الركاب ثم المشربيات التى كانت من أهم معالم بيوت القاهرة .

عابدين .. الحى الملكى

اختلف الناس حول أصل حى عابدين . وحول الذى أنشأه . . بل من هو عابدين هذا ؟ هل هو الأمير عابدين جاويش الذى أنشأ زاوية أطلق عليها اسمه عام ١٨٠٤م؛ أى خلال الصراع على السلطة بين الولاة العثمانيين ومحمد على باشا . . وحملت الزاوية اسم : زاوية عابدين فى شارع التبانة . . وهى الزاوية التى تخربت ؟ . . أم هو عابدين بك أخو حسن باشا طاهر ، الذى قاد القوات المصرية فى موقعة الحماد وتصدى لقوات الغزو الإنجليزية التى كانت قد نزلت بالإسكندرية بقيادة الجنرال فريزر وعرفت بحملة فريزر ، وكان هدفها احتلال مصر بعد أن خرجت منها قوات الفرنسيين عام١٨٠١م ؟ . وموقعة الحماد هذه كانت قوات الإنجليز فيها بقيادة الجنرال وليام ستيوارت ، وانتصرت فيها قوات مصر بقيادة حسن باشا طاهر بعد معركة حامية ، جرت بين يومى ١٩ و ٢١ أبريل ١٨٠٧م ، وكان أبرز قوادها من جيش مصر مع حسن باشا طاهر أخوه عابدين بك وعمر بك ، وحجّو بك ومحمد بك وبوس أوغلى كتخدا بك وإسماعيل بك كاشف الطوبجى وأحمد أغا لاظ الخازندار . . وتم الانتصار المصرى بمعاونة ومشاركة وبسالة أهالى رشيد ودمنهور . وكان من نتائجها انسحاب ما بقى من القوات الإنجليزية إلى الإسكندرية .

ثم شارك عابدين بك هذا فى الحملة الوهابية ، التى أرسلها محمد على بناء على أوامرالسلطان العثمانى لضرب الثورة الوهابية . وظهر اسم عابدين بك عام ١٨١٣م ، عندما كان أحد معاونى القائد العام للحملة الأمير طوسون باشا ابن محمد على .

ولكن الثابت أن حى عابدين أقدم من ذلك بأكثر من ٢٠٠ عام . . ذلك أن أول من سكن هذه المنطقة وبنى فيها ، هو أمير اللواء السلطانى عابدين بك ، بعد حوالى ١٠٠ عام من بدء الحكم العثمانى لمصر ؛ فقد أقام قصراً بجهة « سويقة صفية » بالقرب من الزير المعلق . وكان يجاور قصره هذا مسجد قديم ، يعرف الآن بجامع الفتح ، فعمل عابدين بك على تجديده و العناية به ، ورصد عليه الأعيان وحبس عليه الحبوس أى الأوقاف . وكان ذلك عام ١٠٤١هـ ـ ١٦٣١م ، وعرف الجامع باسمه أى جامع عابدين . وكانت مساحة الجامع فى ذلك الوقت ٦٤٠ متراً مربعاً .

● الخديو إسماعيل .. وعابدين :

.. ولكن حى عابدين كان مجرد منطقة متواضعة ، إلى أن جاء إسماعيل باشا وأصبح حاكماً لمصر ، بعد وفاة الوالى محمد سعيد باشا يوم ١٨ يناير ١٨٦٣م ، وهو عم إسماعيل .

وكان إسماعيل الحالم بعاصمة عصرية لمصر يود تنظيم القاهرة على أسلوب تنظيم حى الإسماعيلية . وأصدر أوامره بذلك لوزير أشغاله على باشا مبارك ، وتم عمل الرسوم التخطيطية لذلك ، وتم فتح طرق جديدة ، ودروب وأزقة كثيرة . . فاتصلت أحياء السيدة زينب بحى عابدين ، وأقام ذلك الميدان فسيح الأرجاء .

وكان يخطط لبناء قصر جديد ليس للسكن فقط ، بل ليكون مقراً للحكم . ولهذا جعل من هذا الميدان مركزا يتفرع منه عدة شوارع إلى ميدان الإسماعيلية « التحرير الآن » وإلى الأزبكية ، حيث شارع عابدين « الجمهورية الآن » وإلى ميدان السيدة زينب . وآخر من قبلى قصر عابدين إلى أن يلتقى بشارع محمد على . وشارع عبد العزيز ونسبه إلى السلطان العثمانى عبد العزيز بمناسبة زيارته لمصر . وكان أول سلطان عثمانى يزور مصر بعد فاتحها سليم الأول . .

وقبل أن نخوض فى إنشاءات الخديو إسماعيل فى عابدين ، وكيف ارتبط هذا الحى باسمه بعد ذلك ، نقول إن منطقة عابدين ـ التى أصبحت قلب القاهرة الآن ـ كانت

عبارة عن مجموعة من البرك الراكدة ، منها بركة الفراعين . وكانت تقع مكان ميدان سراى عابدين الحالى ، ثم بركة السقايين وبركة الفوالة ، وبركة الناصرية ، ومجموعة من البرك والمستنقعات ، تتخللها سلسلة من الهضاب وكثبان الرمال والقلاع التى أقامتها قوات الاحتلال الفرنسى أيام حملة بونابرت على مصر .

وتمتد هذه المنشآت والمواقع من منطقة السيدة زينب الحالية إلى نهاية شارع المبتديان . فقام إسماعيل باشا بتسوية تلك الهضاب والمرتفعات وردم البرك بالأتربة الناتجة عن هدم المرتفعات . فأصبحت تلك المنطقة بعد تخطيطها من أجمل أخطاط «مناطق» القاهرة الحديثة ، كما يقول على باشا مبارك فى خططه التوفيقية .

وإذا كان أمير اللواء السلطانى عابدين بك هو أول من بنى فى هذه المنطقة وسكن فيها ، وكان قصره يطل على بركة أو بحيرة الفراعين . . فإن الخديو إسماعيل هو المنشىء الحقيقى لهذا الحى ، عندما فكر فى بناء مقر للحكم فى قلب عاصمته . . القاهرة . .

● بعد القلعة .. عابدين مقراً للحكم :

كانت قلعة الجبل مقراً للحكم فى مصر طوال عهد الأيوبيين ـ ماعدا الصالح أيوب الذى نقله إلى جزيرة الروضة ـ ثم المماليك بنوعيهما ، ثم طوال الحكم العثمانى على مصر . وحتى محمد على باشا عندما أصبح حاكماً على مصر بقى فى القلعة ، خصوصاً بعد أن أنشأ قصر الجوهرة . . وجامعه الكبير وغيرهما . وكانت القلعة تستقبل الحكام والزوار الأجانب والسفراء ؛ أى كانت المقر الشامل لحكم مصر إلى أن جاء إسماعيل باشا ، فرأى أن هذا الوضع لايتفق مع أحلامه العريضة بإنشاء عاصمة عصرية للحكم . .

وعندما بنى إسماعيل قصر عابدين ليجعله مقرًا للحكم ، كان يهدف أن ينزل ليحيا بين شعبه ، وليس محمياً أو محتمياً بالقلعة . وإذا لاحظنا موقع هذا القصر نجده على مشارف الحى الجديد ، أو القاهرة الخديوية حيث الأزبكية من ناحية ، ثم حى

الإسماعيلية ، ثم حى جاردن سيتى على مرمى حجر من القاهرة الجديدة التى بناها عاصمة لملكه .

وهكذا كان إسماعيل أول حاكم ينزل من القلعة ليحكم مصر من وسط شعبها . . فكان قصر عابدين . . ثم هل ننسى ميدان والده ـ إبراهيم باشا ـ وتمثاله الأسطورى فى الميدان الذى حمل اسمه ، ثم أصبح يحمل اسم ميدان الأوبرا وحديقة الأزبكية . كان إسماعيل يريد أن يخرج من القلعة ومن المدينة القديمة ، حيث الحوارى والأزقة والشوارع الضيقة إلى مدينة عصرية جديدة ، حيث الميادين والشوارع الواسعة والحدائق والتماثيل . .

وجاء الدور على قصر عابدين . .

على غرار القصور الملكية الكبرى فى أوروبا ، بنى إسماعيل قصره هذا . وعلى أطلال قصر الأمير المملوكى عابدين بك أنشأ إسماعيل قصره . . وقبل أن يبدأ البناء . . جعل رجاله يتصلون بمن يملكون بيوتاً فى المنطقة المختارة . . وقبل أن ينزع ملكيتها ، دفع تعويضات مجزية لهم نقداً ، وبدأ البناء عام ١٨٦٣م أى فى العام الذى تولى فيه حكم مصر ، وكأنه كان يريد ألا يضيع يوماً واحداً . واستمر البناء حتى تم عام ١٨٧٢م ، وتكلف القصر ٦٦٥ ألفاً و ٥٧٠ جنيهاً .

وإذا كان شارع محمد على قد جاء ليفصل بين مدينتين : إحداهما قديمة بحواريها وأزقتها ، والثانية حديثة أقامها إسماعيل . . حيث أصبحت الأحياء شرق هذا الشارع تمثل القاهرة القديمة . . والأحياء غرب الشارع تمثل القاهرة الحديثة . . فإن قصر عابدين أصبح هو الضلع الثالث من نواة المدينة الجديدة الحديثة ، وفق نسيج عمرانى مختلف تماماً عن القاهرة القديمة . . القاهرة قبل إسماعيل .

قصر عابدين جاء إذًا على أطلال قصر عابدين بك القديم ، وأصبح ميدان عابدين مكان بركة الفراعين القديمة ، وأصبحت هذه المساحة كلها : القصر والميدان الفسيح على مساحة تسعة أفدنة ، وعلى أحد جوانب الميدان ، أقام إسماعيل قشلاقات الحرس . .

أما شارع عابدين « الجمهورية الآن » من بدايته عند القصر ، فقد كان يبدأ من منزل راغب باشا ، ثم يمتد إلى شارع غيط العدة ، والذى هدم فى سبيله - أى الشارع - الكثير من المنازل والزوايا العديدة ، وكان آخره بقرب شارع درب الحجر ليصل طوله إلى ٥٨٠ متراً ، بعد أن كان ينتهى إلى شارع التميمى . وجعل الجميع شارعاً واحداً ممتداً على خط مستقيم إلى قرب شارع درب الحجر ، وكان يرغب فى امتداده إلى هذا الشارع ، ثم يمتد من درب الحجر إلى شارع درب الجماميز بواسطة قنطرة . وكان شراء إسماعيل لبيت الأمير حيدر باشا المجاور لمنزل راغب باشا لإتمام هذا الهدف . ولكن تأخر العمل بسبب زيادة التكاليف ، وتمنى على باشا مبارك على الحكومة أن تتم هذا العمل وتوصله إلى درب الجماميز . . وكان هذا فى أواخر القرن الـ ١٩ الميلادى . .

ويضيف على باشا مبارك فى خططه التوفيقية ، أنه لما حدث تنظيم منطقة عابدين ، أخذت جوامع الزير المعلق الذى انشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا وجامع محمد بك المبدول ، المعروف بأمير اللواء محمد بك الأزبكاوى ، أمير الحج ابن عبدالله معتوق ، الأمير حسن بك حاكم ولاية جرجا الذى انشأه عام ١٢١٢هـ وكان به قبر منشئه . وله أوقاف تحت نظر الديوان . . والثالث جامع الكريدى ، وكان كبيراً به ضريح الشيخ الكريدى . كما تم أخذ عدد من البيوت الكبيرة مثل بيت شربتلى باشا ، وبيت خورشيد باشا السنارى ، وبيت الأمير عبد الرحمن كتخدا ، ودار مَـحُّو بك ، ودار عثمان بك ابن إبراهيم بك الكبير ، وعدد وافر من المنازل الصغيرة والعطف والحارات والبساتين حتى اتسعت مساحتها .

ومنها أيضاً ميضأة جامع جميزة ، وزاوية الشيخ شحاته ، وزاوية عابدين بك ، وضريح سيد الأشرف ، وضريح سيدى محمد الغريب ، وضريح الشيخ التميمى ، ومعظم شارع التميمى ، وزقاق الصيادين ، وعطفة العلوة ، وحارة جميزة ، وحارة خوخة فشار ، ومعظم عطفة الحلوانى ، وجزء من حارة قواديس ، ومعظم حارة الزير المعلق ، وعطفة الدمالشة ، وعطفة المقدم وحوش المقدم ، والدرب الجديد بما فيه من العطف والحارات وجنينة كبيرة بباب اللوق ، وحمام عابدين وحمام جميزة .

وبجوار جامع الخلوتى ، أقام مدفناً نقلت إليه جثة الشيخ الكريدى ، ونقلت جثة الشيخ محمد بك المبدول فى جامع ، أقامه لهذا الغرض المعروف بجامع عابدين ، الذى كان يقابل مدرسة ابن الخديو توفيق ، ودفنت به ، وكان بداخل الدرب الجديد سكة تعرف بسكة الدورة ، وعطفة يقال لها عطفة التوتة . وقد زالت تلك الحارات بما فيها البيوت والمنازل عند بناء سراى عابدين . ودخل فيها أيضاً بركة الشقاف ، وبركة اليرقان، وما حولها من دور وبيوت كبيرة .

●وأصبح حى عابدين .. مركزا للحكم :

ولما لم يكن قصر عابدين مجرد قصر للحكم . . أصبح دائرة للحكم إذ أقيمت حوله مقار النظارات ؛ أى الوزارات ؛ أى الدواوين ، فالديوان هو النظارة . . وهو الوزارة . بل ومقر مجلس النظار أى الوزراء . .

ففى شارع الدواوين ـ نوبار باشا حالياً ـ نجد مقر المصالح الحكومية والوزارات ، بل ومجلس الوزراء . بالذات حول ميدان لاظوغلى ، ففى الميدان حيث قصر إسماعيل باشا المفتش ، وزير مالية الخديو إسماعيل وشقيقه فى الرضاعة ، كان مقر مجلس الوزراء قبل أن ينتقل إلى مقره الحالى أمام مجلس الشعب . وتحول القصر إلى مقر لوزارة المالية ثم الخزانة ، وبالقرب منه نجد وزارات العدل والداخلية والحربية والتربية والتعليم ، بل ونجد مقر البرلمان نفسه ووزارة الصحة . . وغيرها من الوزارات والمصالح . .

ولم تقم الوزارات ومقار الحكم فقط قرب قصر عابدين . . بل بنى رجال السياسة قصورهم وبيوتهم حول هذا القصر وبالقرب منه . وجدنا قصور وبيوت سعد باشا زغلول وحسين باشا رشدى ومحمد سعيد باشا ، ومحمود باشا الفلكى ، وبيت أحمد باشا عرابى ومحمود سامى البارودى . وغيرهم كثير . .

بل وقامت مقار الأحزاب الكبرى ـ قبل الثورة ـ وأيضاً مقار السفارات والقنصليات والمفوضيات . بل عندما توفى سعد باشا زغلول ، أقيم له ضريح ومدفن الزعيم الذى قاد ثوره ١٩١٩م ،على بعد أمتار من بيت سعد باشا ، الذى أصبح بيتاً للأمة ، وقامت

حوله دور الصحف الكبرى مثل روز اليوسف والبلاغ والجهاد والمصرى والأهرام واللواء. وعندما لم يتسع المكان لتلبية كل طلبات الجهات المتصلة بأمور الحكم، اتجهت السفارات والقنصليات إلى الضفة الغربية من هذا الحى . . إلى الحى الجديد : جاردن سيتى . .

وأصبح حى عابدين مقراً لسكن كل من يعمل بالمصالح والوزارات وما يتصل بالحكم ؛ حتى لايتحملوا أعباء المواصلات ، واتجه للإقامة فيه معظم أبناء السودان الشقيق . . ومعظم أبناء النوبة . . وهذا ليس ما يجرى الآن فقط . . بل منذ قام قصر عابدين عام ١٨٧٢م . .

. . ولكن ما أشهر الشوارع المحيطة بقصر عابدين ؟

على اليسار شوارع تصل بين ميدان عابدين وباب اللوق وميدان الإسماعيلية «التحرير» ، ونجد شوارع : شارع كوبرى قصر النيل . . ميدان الأزهار «باب اللوق أو الفلكى» ثم ميدان الإسماعيلية وامتداد شارع كوبرى قصر النيل . . ونجد شارع البستان . . وميدان الأزهار ثم ميدان الإسماعيلية وشارع قولة «مسقط رأس مؤسس الأسرة الحاكمة محمد على باشا » وشارع القاصد . . ونجد شارع الشيخ ريحان إلى شارع سراى الإسماعيلية إلى شارع قصر العينى . وهذه الشوارع تقطع شوارع من الشمال : عماد الدين ثم شارع الدواوين . . فشارع منصور . . فشارع الفلكى إلى شارع قصر العينى .

وعلى اليمين أى خلف القصر نجد شوارع جامع عابدين . . حسن الأكبر . . المبدول . . غيط العدة . . البرامونى . . درب الحجر إلى أن نصل إلى شارع الخليج المصرى . وفى هذه المنطقه نجد مناطق غيط العدة ، رحبة عابدين ، الزير المعلق ، الشيخ عبد الله ، حارة السقايين . وجنوب كل هذا نجد منطقة الهياتم إلى أن نصل إلى الناصرية .

أما شمال ميدان عابدين فنجد حى الكفاروة حيث شارع جامع جركس . . وقسم شرطة عابدين حتى شارع الساحة « رشدى » وشارع المدابغ « شريف باشا » ، ويعتبر شارع الخليج المصرى هو الحد الفاصل بين حى عابدين وباب الخلق والحبانية ودرب الجماميز ، واللبودية وبركة الفيل والسيدة زينب .

●وتطور الأمر فى حى عابدين ..

أصبح الميدان يحمل اسم ميدان الجمهورية . ولكن العامة مازالوا يتمسكون بالاسم القديم : ميدان عابدين . وكان جنوب شارع الشيخ ريحان وقبل حارة السقايين القديمة كنا نجد كليتى الشريعة واللغة العربية . وشارع عابدين أصبح اسمه شارع الجمهورية . وعماد الدين أصبح محمد فريد . وشارع دار النيابة أصبح شارع مجلس النواب . . ثم مجلس الشعب . .

وحول البرلمان نجد وزارات : الشئون الاجتماعية قبل هدمها لإفساح المكان لمترو الأنفاق ، ووزارة الأشغال قبل انتقالها إلى إمبابة على كورنيش النيل لإفساح المكان لمجلس الشورى واحتياجاته مع مجلس الشعب ، ووزارة الصحة ثم التجارة والصناعة التى أصبحت وزارة التجارة والتموين . والتربية والتعليم والمالية والاقتصاد والعدل . وتحول شارع الكوبرى إلى شارع التحرير من باب اللوق «الفلكى» .

وأصبح امتداد قولة من شارع القاصد يحمل اسم : محمد محمود باشا الذى كان رئيساً للوزراء : أما مدرسة القضاء الشرعى ، فأصبح مكانها كلية الشريعة وكلية اللغة العربية على حا فة حارة السقايين . واختفى اسم الزير المعلق وشارع المبدول ليمتد إليه شارع ريحان . وتحول شارع الدواوين إلى شارع نوبار باشا ، وشارع الشيخ حمزة إلى شارع هدى شعراوى ، وشارع جامع جركس إلى شارع صبرى أبو علم، الذى كان وزيراً للعدل وسكرتيرا عاماً لحزب الوفد قبل الثورة .

ومن أبرز المواقع فى هذه المنطقة نجد محكمة عابدين عند تقاطع شارع الجمهورية مع

شارع الساحة «رشدى» ، ونجد الغرفة التجارية ، والبنك الأهلى ، والبنك المركزى ، ومسرح الجمهورية الذى أقيم مكان سينما رويال .

وغير بعيد عن قصر عابدين بين شوارع الدواوين «نوبار» ومنصور والفلكى وقصر العينى ، نجد وزارات السيادة : الداخلية والعدل والمالية والأشغال والمواصلات والتعليم والحربية .. والزراعة قبل أن تهاجر إلى الدقى . ونجد المصالح الحيوية التى استمر بعضها وهاجر بعضها أو نقل أو انتهى مثل : مصلحة المناجم ومصلحة الإحصاء ومصلحة الخزانة ، ومصلحة الطبيعيات ، ودار النيابة ، والجمعية الجغرافية الملكية ، والمتحف الجيولوجى ، ومصلحة الصحة التى أصبحت وزارة الصحة ، والمجمع العلمى المصرى ، ومصلحة التنظيم التى كانت بجوار وزارة المواصلات .

وكنا نجد فى بداية القرن العشرين قنصليات الدول الكبرى ، التى كانت تسعى لتكون بالقرب من مقر الحكم مثل : المفوضية التركية بحكم العلاقة التاريخية بين تركيا ومصر ، وتحولت هذه المفوضية إلى سفارة تركيا الآن فى شارع الفلكى ، وقنصلية ومفوضيتى ألمانيا وبريطانيا ، ومفوضية النرويج ، ثم الدنمارك .

أما شارع دار النيابة وهو الآن شارع مجلس الشعب ، فكان يبدأ من حارة أبو الليف قرب شارع الناصرية ، ثم يعبر ميدان لاظوغلى ، ويعبر شارع الدواوين « نوبار » ثم شارع منصور ليصل إلى شارع قصر العينى ..

وكنا نجد عدداً كبيراً من المدارس الأجنبية ، مثل : المدرسة الفرنساوية بين شارعى الساحة وجامع جركس ، ومدرسة الألمان الكاثوليك فى باب اللوق ، ومدرسة الفرير والكلية الأمريكية « الجامعة الأمريكية الآن » ، والمدرسة اليونانية التى اشترتها الجامعة الأمريكية وضمتها إليها ..

●عابدين القديم .. ماذا بقى منه الآن :

ولكن ماذا بقى من عابدين بك الأمير المملوكى ، الذى أقام على أنقاض قصره الخديو إسماعيل قصره العامر الآن ؟!

يقول على باشا مبارك وزير أشغال الخديو إسماعيل : على الجهة اليمنى من سور سراى عابدين وبابها الشرقى ، كان يوجد جامع عابدين وهو جامع عظيم يصعد إليه بدرج . وكانت وزارة الأوقاف تقيم فيه الشعائر ، وله منارة مرتفعة ، ويقول حسن عبد الوهاب فى مؤلفه العظيم « المساجد الأثرية » :

كان يجاور قصر عابدين بك القديم مسجد قديم ، يعرف باسم جامع الفتح . فعمل عابدين بك على تجديده والعناية به ، ورصد عليه الأعيان ، وحبس عليه الحبوس ، وذلك عام ١٠٤١ هـ ـ ١٦٣١م ، وعرف الجامع باسم : جامع عابدين . فلما بنى الخديو إسماعيل قصر عابدين ، ترك هذا الجامع متداخلاً فى حدود القصر ، وكان هذا الجامع قبل تجديده وإعادة بنائه عام ١٩١٨م أيام السلطان فؤاد عبارة عن قاعة ذات أعمدة ، تحمل عقوداً يرتكز عليها السقف الخشبى . وكان يتوسط السقف منور كبير للإضاءة والتهوية . وبنى تحت قسم من الواجهة بعض الحوانيت ، يصرف ريعها على المسجد . وكان يعلو الحوانيت مناور دائرية ، وكان باب المسجد الذى يقع فى شارع جامع عابدين يفتح إلى الجهة الشمالية ، ويكون امتداده مع الواجهة الجنوبية زاوية قائمة حيث توجد المئذنة . أما الواجهة الشمالية للمسجد فكانت تشرف بمناورها على حارة سويقة صفية التى صارت جزءاً من مدخل قصر عابدين الشرقى .

وفى أوائل عام ١٩١٨م أمر السلطان فؤاد ـ بعد توليه سلطنة مصر بعام ـ بتجديد جامع الفتح ؛ فعهدت وزارة الأوقاف إلى لجنة حفظ الآثار العربية بذلك . وبناء على رغبة السلطان احتفظ بالمدخل القديم والمنارة . وقد أعد له مشروع عظيم روعى فيه أن يكون على مثال المساجد العثمانية ، وأضيف إلى مساحته ضعفها من أرض السراى حتى بلغت ١٢٤٦ متراً ، بعد أن كانت ٦٤٠ متراً . وتوجد الواجهة الرئيسية للمسجد فى الجهة الغربية وتشرف على حديقة قصر عابدين ، ويتوسطها المدخل الملكى للمسجد . وترتفع هذه الواجهة عن مستوى الشارع بعدة درجات . والمبنى الملحق بالمسجد من جهته الجنوبية الغربية أعد لاستراحة الملك قبل دخوله المسجد . وتم بناء المسجد وأذّن

للصلاة فيه يوم الجمعة ٦ من شهر رجب عام ١٣٣٨هـ ـ ٢٦ من مارس ١٩٢٠م فى عهد السلطان فؤاد الأول سلطان مصر . . وجميع أرضيات المسجد مفروشة بالرخام الدقيق والمزخرف برسوم وأشكال هندسية . وتكلف المسجد ٢٥ ألف جنيه صرفت من ريع الأوقاف ، التى وقفها عليه الخديو إسماعيل باشا .

وفى بداية ثورة يوليو ١٩٥٢م ، أمرت الحكومة بفتح قصر عابدين أمام الشعب وأزالت أسواره . وسمحت للجمهور بدخول حدائق القصر وحمامات السباحة به ـ واحتلت الهيئة العامة للإصلاح الزراعى جزءاً من القصر وشغلتها كمكاتب للموظفين . . وأصبح جزء آخر مقراً لوزارة الإرشاد القومى ، والمعنى واضح من هذه وتلك ، أى كان المقصود تحويل القصر الملكى إلى موقع للحكم الجديد ، وتنفيذ قانون تحديد الملكية الزراعية وموقعاً للدعاية للنظام الجديد .

وتعرض القصر لانتهاكات عديدة ، وإهمال متعمد طوال العهد الناصرى إلى أن تولى الحكم الرئيس أنور السادات عام ١٩٧٠م ، فأعاد الاهتمام بقصر عابدين وأمر بإعادة ترميمه والمحافظة عليه ، وإعادته كمقر للحكم . ثم جاء الترميم الكبير فى عهد الرئيس حسنى مبارك فعاد البهاء للقصر ، وتم إخلاؤه من الجهات التى شغلت أقساماً منه ، وأعيد تخطيط الميدان . كما تم تخصيص مبنى الحرس الملكى سابقا كمقر لمحافظة القاهرة ومكاتب لكبار العاملين فيها وكذلك الإدارات المهمة للمحافظة .

ولقد شهد ميدان عابدين أحداثاً كبيرة ، أثرت فى تاريخ مصر السياسى والعسكرى .

فقد شهد الميدان بدايات الثورة العرابية ، عندما زحفت قوات من الجيش المصرى إلى الميدان يقودها أحمد عرابى ليطالب الخديو توفيق بالاستجابة لمطالب الجيش والأمة . ودار الحوار المشهور بين عرابى وتوفيق بحضور ممثلى إنجلترا وفرنسا ، واستجاب الخديو لمطالب الأمة مؤقتاً ثم تندلع أحداث الثورة العرابية .

كما شهد الميدان إرهاصات ثورة ١٩١٩م عندما كانت الجماهير تهتف وهى تملأ الميدان مخاطبة السلطان فؤاد قائلة : « سعد . . أو الثورة » كما شهد ثورة الشعب بين عامى ١٩٣٠ و١٩٣٥م وما عرف بمعركة الدستور إلى أن خضع القصر الملكى وسقط دستور ١٩٣٠ وعاد دستور ١٩٢٣م .

وشهد الميدان تحرك القوات الإنجليزية مدعمة بالدبابات يوم ٤ فبراير ١٩٤٢م ، وقدم السفير البريطانى لورد كيلرن إنذاره الشهير للملك فاروق بتكليف مصطفى النحاس باشا بتشكيل الحكومة ، أى تأتى حكومة ترضى عنها الأمة حتى تأمن القوات البريطانية ويكون ظهرها إلى الدلتا آمنا ، وهى تواجه قوات المحور فى الصحراء الغربية .

وشهد الميدان بعد ذلك مظاهرات عارمة خلال فترات الصراع ضد الإنجليز من أجل الاستقلال التام ، وهى المظاهرات التى استجاب فيها النحاس باشا لمطالب الأمة وتم إلغاء معاهدة ١٩٣٦م يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١م . .

●● كما شهد الميدان نفسه زحف قوات الجيش المصرى مدعماً بالدبابات لمحاصرة قصر عابدين فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ؛ لبدء عصر جديد فى مصر ، وهو العصر الذى بدأ بتنازل الملك فاروق عن الحكم وما تبعه من إعلان الجمهورية فى ١٨ يونيه ١٩٥٣م لينزوى ـ لفتره ـ عصر قصر عابدين !!

●● وقبل أن ننهى رحلتنا مع الحى الملكى «عابدين » ، نروى حكاية صراع على ملكية مساحات من الأرض التى أقيم عليها قصر عابدين .

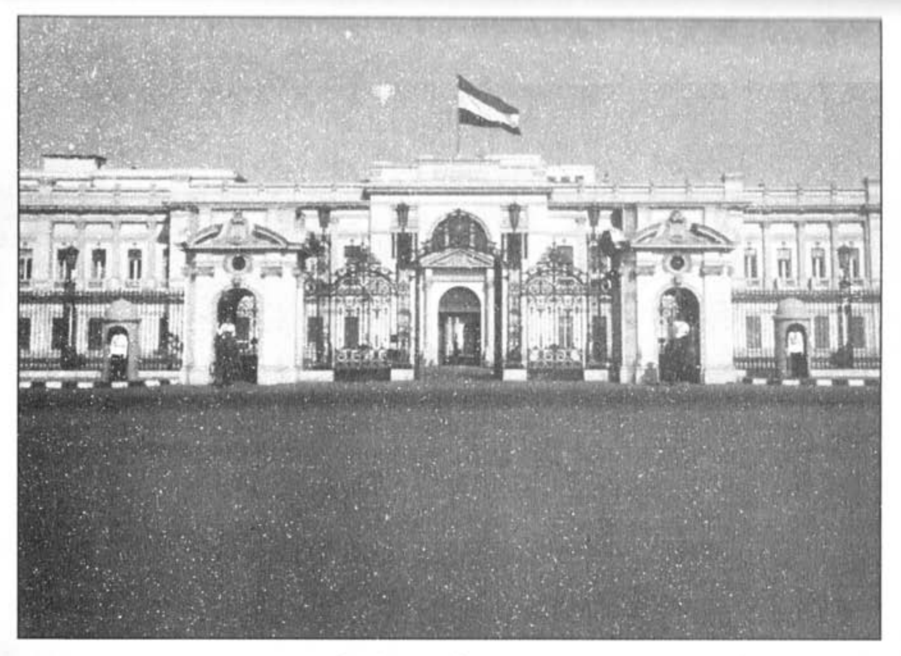
فالمعروف أن الخديو إسماعيل دفع تعويضات هائلة لأصحاب البيوت ، التى تقررت إزالتها لإقامة القصر والميدان . ولكن أمام القضاء المصرى قضية يطالب أصحابها باستعادة أرض جدهم رضوان راسم رضوان . وتدعى هذه الأسرة ملكيتها لخمسة آلاف متر مربع من أراضى قصر عابدين . وتقول إن الخديو إسماعيل استأجرها من جدهم الكبير منذ عام ١٨٦١م نظير مبلغ ٧٠٠ قرش سنوياً ، وتم تسجيل عقد إيجار هذه

فالمعروف أن الخديو إسماعيل دفع تعويضات هائلة لأصحاب البيوت ، التى تقررت إزالتها لإقامة القصر والميدان . ولكن أمام القضاء المصرى قضية يطالب أصحابها باستعادة أرض جدهم رضوان راسم رضوان . وتدعى هذه الأسرة ملكيتها لخمسة آلاف متر مربع من أراضى قصر عابدين . وتقول إن الخديو إسماعيل استأجرها من جدهم الكبير منذ عام ١٨٦١م نظير مبلغ ٧٠٠ قرش سنوياً ، وتم تسجيل عقد إيجار هذه الأرض بمحكمة مصر القديمة الابتدائية بتاريخ ٢٩ شعبان ١٢٧٩هـ الموافق عام ١٨٦١م .

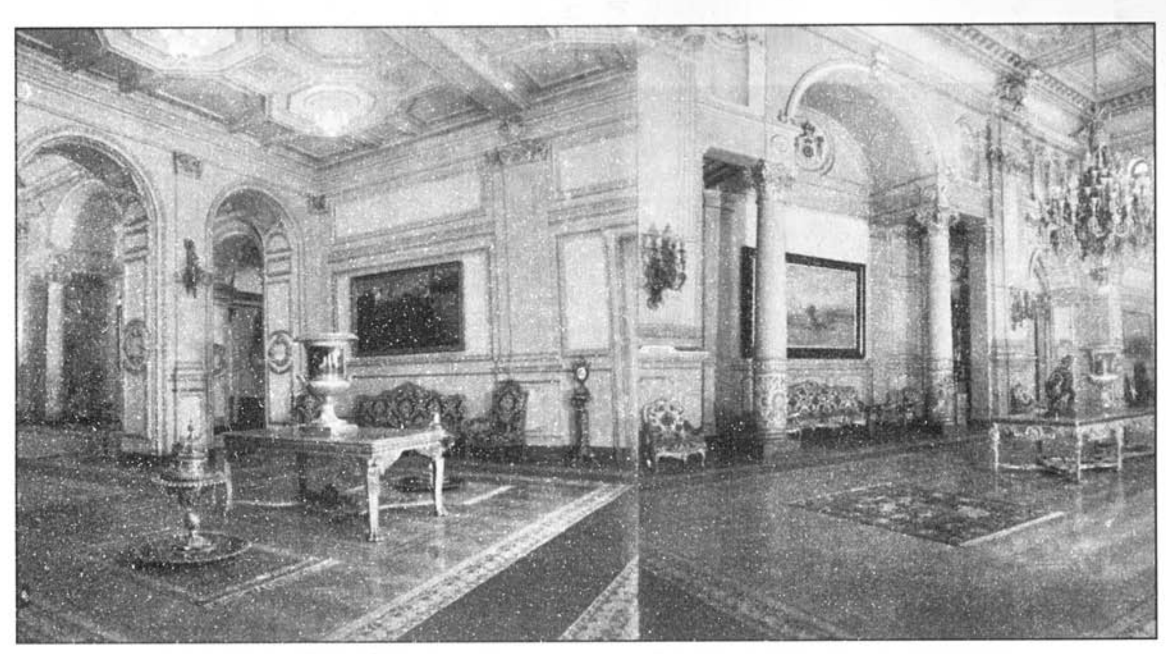
والوثائق المقدمة سليمة طبقاً لقرار الطب الشرعى . وبالتالى فمن حق الورثة استرداد الأرض . . أو التعويض الملائم ، وهو مبلغ يقدر بملايين الجنيهات .

والسؤال : لماذا سكتت الأسرة كل هذه السنوات ، ولم تطالب بحقها الشرعى . هل كان خوفاً من سلطان العائلة المالكة والحكام الذين حكموا مصر بعد الخديو إسماعيل ؟! ولماذا لم يطالبوا بحقهم مع قيام ثورة ٢٣ يوليو ، التى كانت فرصة لاسترداد حقهم ، إن كان لهم حق فى ذلك ؟!

تلك حكاية ليس هنا مجال الحكم فيها . . لها أو عليها !!



قصر عابدين كان بداية لنشأة واحد من أشهر أحياء القاهرة .



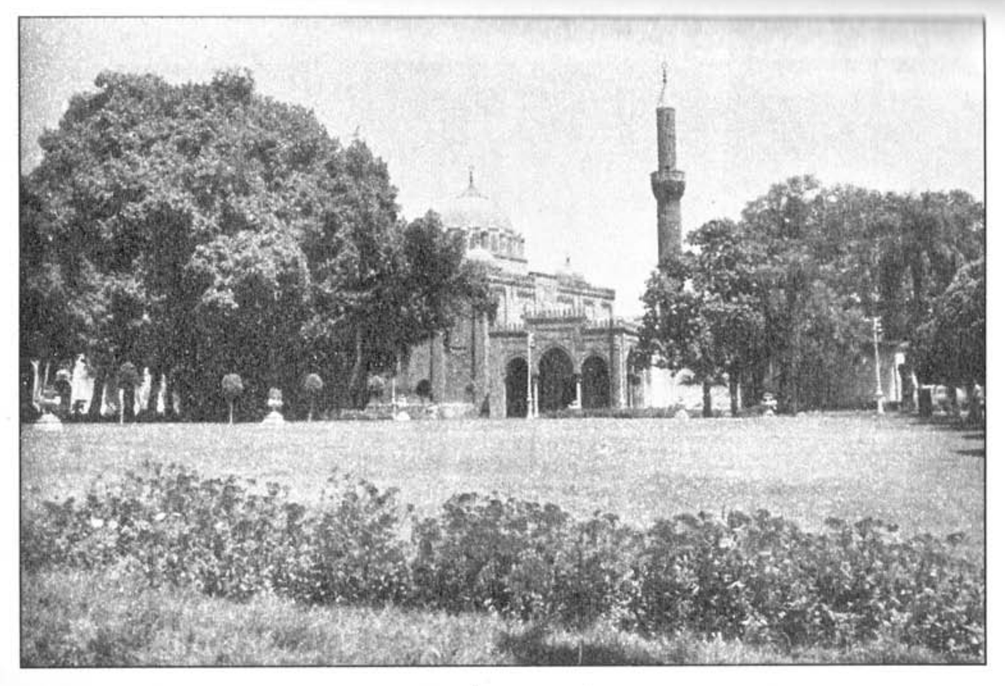
قاعة محمد علي داخل قصر عابدين .



الحديقة الشتوية داخل قصر عابدين .



القاعة البيزنطية المزينة بالفسيفاء داخل قصر عابدين .



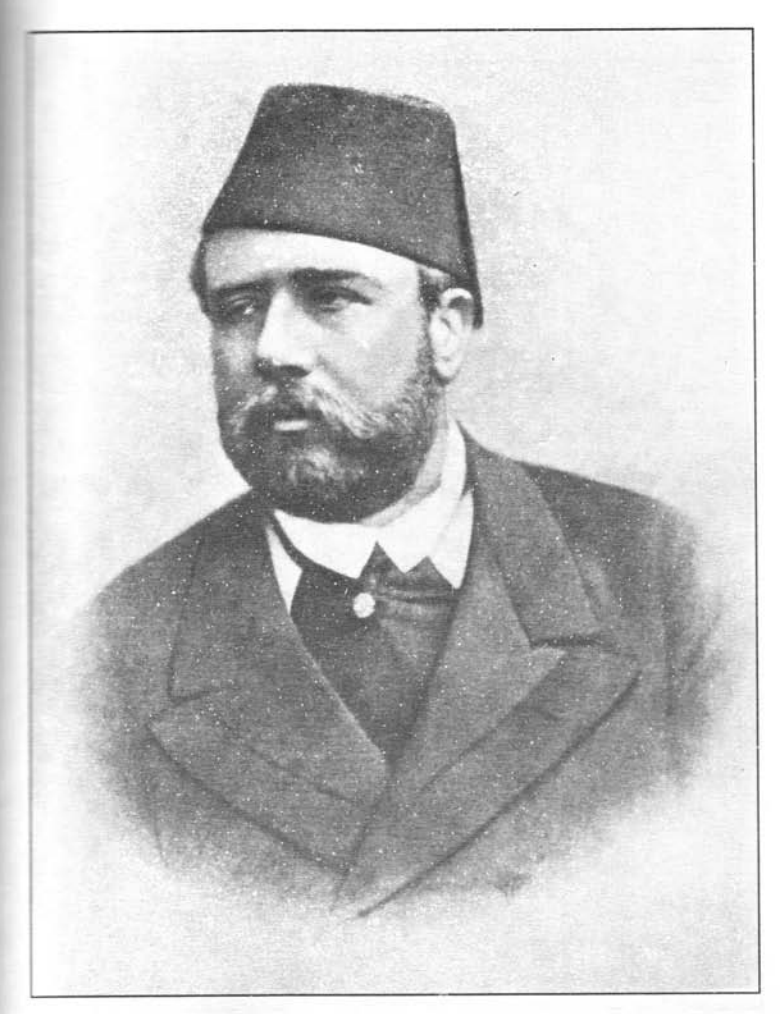
مسجد القصر من ناحية الحديقة . أصر الخديو على أن يبقى داخل حدود القصر تكريما لصاحبه .



صورة غير تقليدية لقصر عابدين .. هي الواجهة الخلفية للقصر .



صورة نادرة للأمير إسماعيل الذى ولد يوم ١٢ يناير ١٨٣٠م والرابع ممن تولوا عرش مصر من أسرة محمد على والصورة قبيل إرساله ضمن بعثة الأنجال للدراسة فى فرنسا أيام جده محمد على باشا .



الخديو إسماعيل مجدد شباب مصر أحيا أفكار جده العظيم محمد على باشا عندما كان كتخدا لعمه سعيد باشا .



الصورة التقليدية للخديو إسماعيل باشا .



صورة نادرة للخديو إسماعيل فى أيامه الأخيرة بقصر ميركون بالأستانة وقد مرض بالالتهاب الرئوى والسرطان المعوى والاستسقاء .

وفى صباح يوم ٢ مارس عام ١٨٩٥م لفظ إسماعيل النفس الأخير بعد أن قضى ١٦ عاماً فى المنفى منذ ودع القاهرة يوم ٣٠ يونية ١٨٧٩م .

ونقل إسماعيل ليدفن فى مسجد الرفاعى الذى أقامته الوالدة باشا فى حى القلعة من القاهرة التى أحبها . . وجدد شبابها .

القبة .. استراحة للسلاطين وقصوراً للملوك

تماماً كما فعل محمد على باشا لتعمير المنطقة بين القاهرة وشبرا ، أنشأ قصر شبرا ليبنى الناس بيوتهم فيما بين العاصمة وضاحيتها شبرا . . كذلك فعل الخديو إسماعيل عندما أنشأ قصراً فى منطقة القبة . وإذا كان الخديو إسماعيل قد أنشأ قصر عابدين لينقل إليه مقر الحكم ، فإنه أنشأ قصر القبة ليصبح قصراً لإقامته هو وأسرته . . فما حكاية القبة التى اختارها إسماعيل موقعاً لبناء قصره الفخم هذا فيها . . وكيف تطورت؟!

فى عام ٨٨٢ هـ أنشأ الأمير يشبك الدوادار بقطعةأرض ناحية المطرية قبة فخمة عالية ، لينزل فيها عندما يخرج للنزهة خارج القاهرة ؛ لطيب هوائها وتوسطها بين الأراضى الزراعية والأراضى الصحراوية الجافة . . وبعيداً عن ضوضاء العاصمة . . وعندما تولى حكم مصر السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عام ٩٠٦هـ ، استمر فى سياسة الأمير يشبك نفسها ، فاتخذ هذه القبة « مقعداً » ينزل فيه كلما أراد التنزه والرياضة ، وكان يبيت فيها من وقت إلى آخر طوال مدة حكمه ، بل إنه أنشأ بجوارها عدداً من « الفساقى » يجرى فيها الماء ، وحفر بئراً ليشرب منها المسافرون ، الذين يمرون من هناك . وهكذا عرفت المنطقة باسم قبة الغورى ، بعد أن أصبحت من أملاكه . ولا تزال هذه القبة موجودة . وظلت مستعملة مسجداً للصلاة بها ، وبها محراب أنشىء من يوم بنائها ، كما هى العاده فى بناء القباب ـ كما يقول محمد بك رمزى

فى مؤلفه الكبير القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، الذى انتهى من إعداده عام ١٩٤٥م .

وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، بدأ الناس يبنون دورهم وبيوتهم بجوار هذه القبة . وتكونت قرية جديدة عرفت باسم « القبة » نسبة إلى هذه القبة . ومن هنا جاء اسمها ، وأصبحت من ضمن البلاد التابعة لناحية المطرية . وظل بعض العامة يقولون قبة الغورى ، أو قبة العزب . لأنه كان يسكنها بعض عساكر طائفة « عزبان » الذين كانوا يحرسون القلاع ، فعرفت باسم «قبة العزب» ، وعلينا أن نربط بين قبة العزب هذه و«باب العزب » فى الجهة الغربية من قلعة صلاح الدين ناحية ميدان القلعة أو ميدان الرميلة الذى كان يطلق عليه يوماً ما قره ميدان !!

وفى سهل القبة دفع كليبر بقواته ليقاتل الجيش العثمانى فى معركة عين شمس ، وفى السهل نفسه نظم عرضاً عسكرياً بعد إخماده لثورة القاهرة الثانية .

ولكن فى عام ١٢٢٨ هـ أى فى عصر محمد على باشا ، تم فصل قرية القبة هذه من كونها من توابع ناحية المطرية لتصبح قائمة بذاتها .

إلى أن جاء حفيده إسماعيل باشا وتولى حكم مصر عام ١٨٦٣م ليبنى قصره هذا فى منطقة القبة ، ويحيطه بحدائق واسعة هى مضرب الأمثال ، ولا يدانيها إلا حدائق قصر المنتزه فى الإسكندرية . .

والغريب أن إسماعيل باشا عرض هذا القصر يومًا للبيع . هل تعلمون كم طلب ثمناً لهذا القصر وحدائقه وأثاثاته ؟!

●● لقد عرض الخديو إسماعيل بيع قصر القبة مع ٦١٨٩٣ فداناً ، بكل ما عليها من مبان وآلات وفابريكات على أساس ٢٠ جنيهاً للفدان ، وبذلك يصبح ثمن الكل مليوناً و٢٣٧ ألفا و٦٠ جنيهاً . أما ثمن القصر وحده ، فقد طلب إسماعيل ثمناً له ٥٠ ألف جنيه . ويقول إعلان الرغبة فى البيع « وإذا قدر لكم أن الثمن المقدر لقصر القبة زهيد . . وأرادوا الرجوع لأهل الخبرة وتثمينه بواسطتهم ، أو أظهروا رغبة فى صرف النظر

عن بيعه بتاتاً فلا بأس . . وإذا تعذر البيع بهذه الأسعار ، يجب أن يرجعوا إلى صاحب السعادة نوبار باشا بخصوص إتمامها ، حيث إن إمضاء الشروط مفوض إليه . . . !!!»
والحمد لله أن عملية البيع لم تتم ليستمر قصر القبة قيمة تاريخية ومعمارية وزراعية نادرة؛ إذ اهتم به ابنه الملك أحمد فؤاد الأول ، الذى حكم مصر بين عامى ١٩١٧ و١٩٣٦م . كما اهتم به وحافظ عليه وزاده بهاء ، ورممه بعد ذلك حفيده الملك فاروق الأول الذى حكم مصر بعد والده فؤاد عام ١٩٣٦م إلى أن تنازل عن العرش يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢م . ولم يقدر لآخر ملوك مصر ، الملك أحمد فؤاد الثانى أن يقيم فيه لأنه سرعان ماتم إلغاء الملكية فى مصر ، وإعلان الجمهورية فى ١٨ يونيه ١٩٥٤ ، وإن كان قد عاش فيه طفلاً رضيعاً لأنه ولد فى يناير ١٩٥٢م .

●● ورغم أن حكام مصر الجمهورية لم يقيموا فى القصور الملكية عابدين أو المنتزه أو قصر القبة أو رأس التين ، حتى لا يتهمهم الشعب بأنهم طردوا الملك منها ليقيموا فيها بدلاً منه . . إلا أن الرئيس السابق جمال عبد الناصر كان يستخدمه قصراً للضيافة ينزل فيه ضيوف مصر ، من الملوك والرؤساء الأجانب . واستمر قصر القبة قصراً لإقامة كبار ضيوف مصر ، إلى أن زاد اهتمام الرئيس السابق أنور السادات به كجزء من سياسته لحماية هذه المنشآت العظيمة فعنى به ورممه وجدده . . وزاد هذا الاهتمام فى عصر الرئيس حسنى مبارك ، واعتبر فى عصره مقراً للضيافة . . ويلتقى فيه رئيس الجمهورية بكبار ضيوفه من الملوك والرؤساء ، ربما ليروا كيف كانت مصر عظيمة ، وحجم وعمق ما تملكه مصرمن تاريخ عظيم .

وتعتبر حدائق قصر القبة من أجمل حدائق العالم ، وتكوّن مع القصر وحدة عالمية تجمع بين جمال البناء للقصر ، وجمال تنسيق الحدائق المزهرة المثمرة . . وإذا كان الخديو إسماعيل قد عرض بيع هذا القصر وحدائقه بهذا المبلغ الزهيد «٥٠ ألف جنيه» فكم ثمنه الآن لو عرضته رئاسة الجمهورية للبيع . وبكم يباع المتر الواحد ليتحول إلى قوالب من الطوب والأسمنت يطلقون عليها الآن اسم «المساكن» ؟!

●● المهم أننا شهدنا ـ فى العالم تعبير المدينة الجامعة ، مثل مدينة أوكسفورد ومدينة كيمبردج بحكم نشوء الجامعة أولاً ثم تحيط بها مدينة فى إنجلترا . وأيضاً جامعة كولورادو فى مدينة بولدر الأمريكية . وشهدنا المدينة المصنع ؛ أى كانت البداية إنشاء صناعة كبيرة ثم نشأت حولها تجمعات سكنية ، سرعان ما تحولت إلى مدينة كما وجدنا فى شيفيلد الإنجليزية . وعندنا فى مصر نجد المحلة الكبرى ، وكفر الدوار ، والتبين . . وجدنا ذلك كله فى المدينة القصر ، أو الحى القصر . .

●● إذ حول قصر رأس التين فى الإسكندرية نشأ حى رأس التين غربى مدينة الإسكندرية . وحول قصر المنتزه نشأ حى المنتزه فى شرق الإسكندرية ، والوضع نفسه فى القاهرة ؛ إذ نشأ حول مقر الحكم فى قصر عابدين حى عابدين فى وسط القاهرة ، ونشأ حول قصر الإقامة فى القبة حى القبة فى شمال المدينة . .

ولم تقف أعمال تعمير المنطقه عند إقامة قصر القبة ؛ إذ تألفت شركة حدائق القبة فى عام ١٩٠٨م لتعمير منطقة مساحتها ١١٠ أفدنة وتتولى تقسيمها ، وأنشأت تلك الشركة شارعًا يخترق أراضيها عرضه ٦٦ قدمًا كما أنشأت عدداً من الشوارع ، تتفرع منه يتراوح عرضها بين ٤٠ و٣٣ و٢٦ قدماً . وانتعشت بسرعة أعمال البناء التى قامت بها الشركة أو الأفراد حتى اتصلت القبة بقلب القاهرة ، وأصبحت تنافس المعادى فى هدوئها .

ولأن الناس على دين ملوكهم ، وأنهم يعشقون الإقامة حول قصور الحكام ، فإن سراة القوم والأغنياء من الأمراء والباشاوات وكبار التجار أخذوا يبنون قصورهم وبيوتهم بالقرب من قصر القبة . وامتازت هذه القصور والفيلات بأنها محاطة بالحدائق الغناء . وهكذا نشأ حى «حدائق القبة» ووجدنا منطقة حمامات القبة . . وعندما تم شق شارع ملك مصر والسودان ، أسرع الأغنياء فى بناء قصورهم على طوله من بدايته عند منطقة غمرة متفرعا من شارع الملكة نازلى ـ رمسيس حالياً ـ ومازالت معظم هذه القصور والفيلات صامدة تقاوم عوامل الزمن ، وتقول هنا يقوم حى له تاريخ . ويستمر

العمران بالقصور والفيلات حول هذا الشارع «ملك مصر والسودان» إلى أن يصل إلى شارع ولى العهد ، ثم إلى المدخل الرئيسى لقصر القبة .

ومع التزايد العمرانى ، اتصلت أحياء وضواحى منشية الصدر وحمامات القبة والزيتون والمطرية والحلمية وعين شمس ، بعد إقامة عديد من المبانى الحكومية والمصانع . ثم دخلت وزارة الأوقاف وهيئة الأوقاف المصرية الميدان فقسمت مساحات كبيرة من أراضيها الموقوفة غرب قصر القبة لتتحول إلى غابة كثيفة من المبانى الخرسانية ، بعد أن كانت مناطق زراعية تساهم فى توفير الغذاء لسكان العاصمة . وأصبح من الصعب الفصل بين هذه الأحياء ، بعد أن تداخلت المبانى وامتدت الشوارع . .

ولكن مازالت مظاهر الترف تحيط بالمنطقة وبالحى الذى بدأ بمجرد قبة صغيرة ، وأصبح منطقة يتسابق الأغنياء للإقامة فيها . ولم تكن مبانيها تزيد على طابقين معظمها قصور وفيلات تحيط بها الحدائق الكبيرة والصغيرة ، كل حسب إمكانياته .

وامتد العمران إلى المنطقة الشمالية من قصر القبة ليصل إلى منطقة السواح . . ومنطقة الأميرية ، وإلى غير بعيد عن مجرى ترعة الإسماعيلية الحلوة ، التى تنقل مياه النيل إلى منطقة قناة السويس ، وكأن الترعة والقصر يتعانقان ولو على البعد ليذكرا الناس بمن أنشأ الاثنين : الترعة . . والقصر ، وكان اسمه : الخديو إسماعيل .

●● وإذا أردنا استعراض عناصر التخطيط وأهم شوارع حى القبة ، نجد أن هذا الحى يبدأ من شمال حى منشية الصدر ؛ حيث تقع فى القرب منطقة حدائق القبة . وأهم شوارعها شارع ولى العهد ، الذى هو امتداد تقريبى لشارع مصر والسودان ، ويتقاطع معه شارع حدائق القبة ثم شارع على باشا شعراوى « والد رائدة الحركة النسائية » هدى شعراوى ، وكان أحد الثلاثة الذين قابلوا المعتمد البريطانى السير ريجنالد وينجت ؛ ليطالبوه باستقلال مصر ، أما الاثنان الآخران فهما الزعيم سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى باشا ، وذلك يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨م . ثم شارع قاسم بك أمين « رائد حركة تحرير المرأة » وشارع الدوادار الذى يبدأ من شارع ترعة الجبل .

وإذا كانت القبة هى قلب الحى الجنوبى وحدائق القبة على يسارها . . فإن كوبرى القبة على اليمين من هذا القلب حيث شارع كوبرى القبة وشارع الفريق محمود شكرى باشا وشارع والى وشارع المطرية ، ويتوسط كل هذه الشوارع . . محطة كوبرى القبة .

ثم نتجه شمالاً إلى حى القبة الشمالى (شمال كوبرى القبة) ، فنجد على اليسار أرضاً كانت مزارع يانعة يتوسطها مقام سيدى الطبرى بين سكة حديد كوبرى الليمون على اليمين وشارع المطرية على اليسار ، وجنوب المقام تقع حديقة القبة . أما على اليمين حيث شارع الفريق محمود شكرى باشا ، فنجد شارع علان وشارع التبر ، ثم ميدان ابن سندر وشارع الشيخ محمد بخيت وشارع ابن مروان ، ثم محطة حمامات القبة حيث شارع القبة على خط السكة الحديد ، ثم شمالاً شارع بنى طى وشارع بنى عقيل، بينما شارع طومان باى على اليمين . وعلى يمين هذا الشارع ، نجد شارع سكة حديد السويس القديمة « شارع جسر السويس الآن » ثم شارع المقريزى على يمينه إلى أن نصل إلى سراى القبة على يسار خط السكة الحديد القادم من كوبرى الليمون ، ونصل إلى شارع عبدالقادر الجيلانى حيث نهاية حى القبة الشمالى عند مسجد سيدى محمد السواح ؛ حيث على اليمين ميدان القبة . . ويمتد خط السكة الحديد إلى المطرية شمالاً بشرق .

وعلى يمين ميدان القبة بعد أن نعبر شارع الفريق محمود شكرى باشا ، نجد سراى الطاهرة وشماله شارع قصر الطاهرة وشرقه شارع البوصيرى إلى أن نصل إلى شارع القبة الذى يعتبر هنا امتداداً لشارع إبراهيم اللقانى فى ضاحية مصر الجديدة شرقا .

ويعتبر شارع سكة حديد السويس القديمة هو الحد الشرقى الفاصل بين حى القبة وضاحية مصر الجديده شرقاً ، بينما يفصل شارع المقريزى بين حى القبة وحى منشية البكرى .

وعندما ينتهى شارع قصر الطاهرة شرقاً وشارع عبد القادر الجيلانى ، ينتهى حى القبة ليبدأ حى الزيتون . .

وكما هى العادة الملكية كان الحرص على توصيل خدمات شبكة السكك الحديدية إلى معظم القصور الملكية . لهذا نجد محطة خاصة للسكك الحديدية فى الجهة الشرقية من قصر القبة ، تماماً كما هى موجودة أيضاً فى الجهة الشرقية من قصر المنتزه . مبنى فخم يتناسق ويتكامل مع طبيعة مبانى القصر نفسه ، والمحطة تستوعب بالكامل عربات القطار الملكى لكى يسهل للملك والحاكم من بعده ركوب هذا القطار الملكى إلى حيث يشاء . . وهذا القطار الملكى استخدمه رؤساء مصر بعد سقوط العصر الملكى . . من جمال عبد الناصر إلى أنور السادات إلى حسنى مبارك .

أى إن القبة كحى كبير فيه مناطق : حدائق القبة . . كوبرى القبة . . حمامات القبة . . سراى القبة . . محطة القبة ، فضلاً عن القبة . وكلها بدأت وتنتسب إلى القبة التى أنشأها الأمير يشبك الدوادار الذى مازال ذكره حاضرًا عند العامة والخاصة ، وذلك على ناصية الشارع الذى يحمل اسم : شارع الدوادار الذى يبدأ من شارع ترعة الجبل ، ويجاور شارع قاسم بك أمين . وكل هذا بسبب تلك القبة الصغيرة التى أقامها الأمير يشبك ؛ ليستريح فيها عند خروجه للنزهة ، وورثها عنه السلطان قانصوه الغورى !!



مدخل قصر القبة الذى أنشأه إبراهيم باشا . . وأعاد الخديو إسماعيل أقامته وتزوج فيه توفيق . .
وأصبح مقراً لإقامة ملوك مصر .



واجهة قصر القبة الذى بناه إسماعيل باشا ليقيم فيه ـ بعد أن تزوج ـ أبنة محمد توفيق باشا .



إبراهيم باشا الفاتح العظيم أول من فكر فى بناء قصر فى منطقة القبة .

الباب الرابع

أحياء آل البيت ميدان السيدة زينب

كان اسمه ميدان : قناطر السباع !

المصريون من أكثر شعوب المسلمين حبًا وعشقًا لآل البيت . . وأى دارس لأسماء المصريين يجد أن المصريين يفضلون إطلاق أسماء آل البيت على أولادهم ، فهم فى أسماء الأولاد يفضلون أسماء : محمد . . أحمد . . مصطفى . . وعلى . . وحسن . . وحسين . . وفى أسماء البنات يفضلون أسماء : عائشة . . فاطمة . . خديجة . . زينب . . آمنة . . سكينة . . نفيسة . . وهكذا .

والمصريون من عشقهم لآل البيت تحلقوا حول كل من وصل منهم إلى مصر ، وعاشوا حولهم ، وتقربوا منهم طلبًا لعلمهم وذكرياتهم ونصائحهم ، وفتاواهم فى الدين والدنيا . .

ولقد أتى لمصر أحياء عديدين من آل محمد رسول الله ﷺ ، ومنهم من جاءوا ولكن بعد استشهادهم . . والتف المصريون حول الأحياء . . فلما ماتوا حولوا بيوتهم إلى مساجد ، يؤدون فيها فريضة الصلاة . . وأما من جىء بهم شهداء حولوا قبورهم إلى مشاهد مثل الإمام الحسين زينة شباب أهل الجنة . . وتحولت هذه المساجد وتلك المشاهد إلى مركز للحياة أقام حولها وبالقرب منها جمع غفير من المصريين . . وظلوا ـ ومازالوا ـ يحيون ذكرى هؤلاء وهؤلاء . . ذكرى ميلادهم . . أو رحيلهم .

والذين أتوا مصر وعاشوا فيها أو جىء برؤوسهم شهداء لتدفن فى ثراها كثيرون هم : السيدة زينب . . والسيدة عائشة والسيدة نفيسة والسيدة سكينة والسيدة رقية والسيدة

فاطمة النبوية . . والحسين وزين العابدين . . ونضيف إليهم حى الأزهر الذى ينسب إلى فاطمة الزهراء . .

وتحولت مساجد آل البيت فى مصر إلى مراكز سكانية وأحياء عامرة بالحياة والسكان يستمد منها السكان البركة والخير . .

واللافت للنظر أن معظم أحياء آل البيت النبوى الشريف فى القاهرة المحروسة تتجاور وتأخذ شكل مثلث متكامل الأضلاع . .

فحى السيدة عائشة فى الشرق . . وحى السيدة سكينة فى الغرب وبين جامع السيدة عائشة فى الشرق ، وجامع السيدة سكينة فى الغرب ، نجد جامع السيدة نفيسة . . ومدافن السيدة نفيسة للمسلمين ، وإذا تركنا هذا المثلث المبارك واتجهنا غرباً نجد تلول زينهم جنوبى موضع القطائع وقلعة الكبش . وهذا المثلث يقودنا غربًا إلى حى السيدة زينب وجنوبًا نجد المدبح وشارع وميدان السلخانة فالمدبح نفسه . . وبين سكة المدبح وشارع السلخانة نجد جامع سيدى على زين العابدين . . وغير بعيد عن شارع سيدى حسن الأنور . . وفى أقصى شرق القاهرة وعلى حافة تلال الدراسة وجبل المقطم نجد حى الأزهر والحسين : الأخ والأخت . . الإمام الحسين . . وفاطمة الزهراء . وغير بعيد عنهما مسجد فاطمة النبوية . .

تعالوا لنطوف بأحياء آل البيت ، ونروى كيف نشأ الحى ومتى . . وما حكاية صاحب المسجد أو صاحبته ، وما حكايتها مع مصر والمصريين ، ثم كيف تطور كل حى إلى أن صار معلمًا من معالم القاهرة المحروسة .

تعالوا نبدأ بالسيدة زينب وحى السيدة زينب . .

أم الهواشم ... يا طاهرة

حول جامع السيدة زينب نشأت حياة حافلة بالنشاط . . ربما بسبب الموقع الجغرافى المميز ؛ فالجامع فى موقع يبدأ منه شارع بورسعيد ـ الآن ـ الخليج المصرى سابقًا . . وقبل أن يصبح هذا مجرد شارع من أطول شوارع المحروسة . . كان يجرى مكانه الخليج المصرى ، الذى حمل أحيانًا اسم خليج أمير المؤمنين . . هذا الموقع لم يفقد أهميته على مر السنين ؛ فقد عاش الموقع فترة ذهبية عندما كان الخليج يمر أمامه . . وكان فى هذا الموقع قنطرة السباع التى أنشأها الظاهر بيبرس وموقعها بميدان السيدة زينب الحالى أى أمام مسجد السيدة زينب ، الذى لم يكن معروفًا فى ذلك الوقت ؛ إذ لم يذكره المقريزى فى خططه وهو المتوفى عام ٨٤٥هـ ، بينما بنى الظاهر هذه القنطرة فى هذا الموقع فوق الخليج خلال حكمه ، الذى استمر من ٦٥٨ هـ إلى ٦٧٦هـ .

وقد نصب بيبرس على هذه القنطرة سباعًا من حجارة ، وكان السبع هو شعار بيبرس ؛ لذلك عرف حى السيدة زينب أيام بيبرس باسم « خط قناطر السباع » . والطريف أنه عندما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطانى فى منطقة بستان الخشاب ، جنوب شرقى قصر العينى ، ادعى أنه يتضرر من العبور فوق قناطر السباع لارتفاع القنطرة . . أمر بإعادة بنائها وأزال السباع ، غيرة منه من ذكر السلطان بيبرس ، وكان هذا عام ٧٣٥هـ كما ذكر المقريزى ، وكما قال محمد كمال السيد محمد فى كتابه أسماء ومسميات من مصر القاهرة ص ـ ١٠٢ . وقد تولى هدم القناطر وإعادة البناء الأمير علاء الدين المروانى والى القاهرة ، ولكن السلطان الناصر أعاد بناء السباع من

جديد لما اشتد انتقاد الناس لتصرفه هذا . وظلت السباع قائمة حتى شوه صورتها الشيخ محمد المعروف بصائم الدهر . وهو نفس الرجل الذى شوه وجه تمثال أبى الهول . وقد أنشأ الناصر محمد هذا ٧ قناطر على الخليج المصرى .

المهم أن موقع حى السيدة زينب يحيط به من الشمال : الهياتم والناصرية ، ومن الشرق بركة الفيل واللبودية ، ومن الغرب حى المنيرة وشارع المبتديان . وأبرز شوارع السيدة زينب : شارع الخليج المصرى ، وفى غربه شارع الوفدية . أما جامع السيدة زينب فيتوسط شوارع الحى العريق ، وبجواره قسم شرطة السيدة وشارع السيدة زينب، ومنه تتفرع حارة الحوض المرصود ؛ حيث المستشفى الشهير للأمراض الجلدية والتناسلية ، وهذه الحارة توصلنا إلى بركة الفيل ؛ حيث جامع حسن باشا طاهر ثم شارع نور الظلام الذى يؤدى إلى حى الحلمية. ومن أبرز معالم الحى العريق نجد المدرسة السنية للبنات وبجوارها حارة مونج ، أحد أبرز علماء الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨م ، وفى هذه الحارة البيت الذى اتخذه بونابرت مقرًا للمجمع العلمى المصرى . وفيه تم تجميع المعلومات التى ظهرت فيها بعد على شكل كتاب « وصف مصر » ، الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية . وغير بعيد عنه نجد شارع قدرى وشارع عبد المجيد اللبان وشارع السد البرانى .

وخلف قسم الشرطة نجد شارع مراسينه ، الذى يؤدى إلى الحوض المرصود وجامع لاشين السيفى. ومن أبرز معالم حى السيدة مبنى دار الهلال ، الذى أقامه جورجى زيدان وتصدر عنها عدة مجلات أبرزها المصور. . والكواكب. . والهلال . . وروايات الهلال . . وحواء . . وسلاسل من مجلات الأطفال . . إلخ. وغير بعيد عن دار الهلال وفى شارع محمد بك عز العرب ـ سابقًا شارع المبتديان ـ نفسه كانت هناك مدرسة دار العلوم التى أصبحت كلية ، قبل أن تنقل من هذا المكان ويتحول مكانها إلى حديقة عامة تحمل اسم حديقة دار العلوم. . وفى الشارع نفسه هناك مستشفى حكومى كبير هو مستشفى المنيرة العام وكان اسمه مستشفى الملك ، وعلى حدود حى السيدة زينب مع حى المنيرة نجد المعهد العلمى الفرنسى ومدرسة الحقوق الفرنساوية ، كما جاء فى خريطة مصلحة المساحة عام ١٩١٢م ثم مدرسة المعلمين العليا . وكان يفصل بين حى السيدة وحى المنيرة خط سكة حديد حلوان ، الذى يمر بشارع منصور .

وغير بعيد عن مركز شرطة السيدة زينب نجد متحف نابوليون . . وبالقرب منه بيت السنارى الشهير ، ويبدو أن متحف نابوليون الوارد ذكره فى هذه الخريطة هو مقر بيت إبراهيم كتخدا السنارى فى حارة مونج ، الذى كانت تجتمع فيه مجموعة علماء الحملة الفرنسية . على الضفة الشمالية لشارع السيدة ، بينما جامع السيدة على الضفة الجنوبية غير بعيد عن شارع الكومى ، الذى هو امتداد شارع خيرت المؤدى إلى ميدان لاظ أوغلى .

ومن أشهر من عاشوا فى هذا الحى العريق الأديب الكبير يحيى حقى ، الذى كتب روايته الخالدة « قنديل أم هاشم » التى تحولت إلى فيلم سينمائى شهير.

وسكان الحى يطلبون شفاعة السيدة زينب ويطلقون عليها عدة أسماء . . فهى أم هاشم . . وهى بنت بنت النبى ﷺ . . والصلاة فى مسجدها الذى هو من أحب المساجد إلى قلوب كل المصريين حلم يرنو إليه كل المصريين ، بل إن معظم الذين كانوا يحضرون للقاهرة من الأقاليم كانوا يحرصون على زيارة مسجدين من مساجد آل البيت ، الأول هو مسجد سيدنا الحسين ، والثانى هو مسجد السيدة زينب ، ولسانهم يشدو بأعذب الكلمات . . « وشى لله يا ست يا أم هاشم . . » .

وإذا عدنا إلى قناطر السباع التى عرفت بعد ذلك باسم قنطرة السيدة زينب ، نجد أنها كانت تتكون من قنطرتين إحداهما توصل بين شارع الكومى وشارع السد . وكانت الثانية توصل بين شارع الكومى وشارع مراسينه . وفى عام ١٨٩٨م تم ردم الجزء الأوسط من الخليج المصرى ؛ تمهيداً لإنشاء أول شبكة من خطوط الترام . . وبردم الخليج اختفت تلك القناطر تحت ميدان السيدة زينب ، الذى دخل فيه جزء من شارع الكومى ، وجزء آخر من شارع مراسينه .

وقد وسع هذا الميدان فى عام ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٨م ، وعند عملية التوسع ، اكتشفت واجهة جامع السيدة زينب ، الذى كان الوالى العثمانى على باشا الوزير قد جدده عام ٩٥٥هـ ـ ١٥٤٧م، ثم أعاد تجديده الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٠هـ ـ ١٧٦٨م .

ومنذ اكتشاف واجهة الجامع فى القرن ١٩ أصبح يطلق على ميدان قناطر السباع اسم ميدان السيدة زينب ، وكان حى قناطر السباع قد ازدحم بالسكان فى القرنين ١٧ و١٨م .

تعالوا نقرأ ما كتبه صاحب الخطط التوفيقية على باشا مبارك ، قرب نهاية القرن ١٩ . . يقول : كان بقرب جامع السيدة قره قول جديد يعرف بقره قول السيدة [أى قسم شرطة السيدة بتعبير العصر] وكان يقيم فيه معاون ثُمن درب الجماميز وحكيم الثمن ـ أى مفتش الصحة ـ وكذلك بيت الصحة وعسكر الطلمبة .

وبهذا الشارع من جهة اليمين هناك حارة واحدة وأربعة دروب هى على هذا الترتيب: حارة السيدة . . وهى كبيرة جدًا ، وبداخلها جملة فروع وبها جامع قديم يعرف بجامع تميم الرصافى ، وتجاه هذا الجامع سبيل الست فطومة عامر ، ودار ورثة محمد بك لاظوغلى ، ودار محمد أغا لاظ وغيرها ثم درب السناجرة ودرب شكنيمة ثم درب القمح ثم درب المدبح .

أما جهة اليسار فنجد فيها درب البهلوان يسلك منه السالك إلى بركة البغالة ، وبداخله دار الأمير سلامة باشا مفتش هندسة ديوان الأشغال العمومية وبها حديقة . وكان به حديقة مجاورة لبركة الحمصانى المعروفة اليوم ـ على أيام على باشا مبارك ـ باسم بركة البغالة ، ثم حارة تعرف بحارة البغالة . وبهذا الشارع جامع قديم يعرف بجامع الزعفرانى .

ويوجد قبالة زاوية الحبيبى سبيل بجوار بوابة السيدة ، وبهذا الشارع سبيل السلطان مصطفى الذى أنشأه عام ١١٧٢هـ ، وجعل فوقه مكتباً لتعليم الأطفال وصار ـ الآن ـ من المكاتب الأهلية الشهيرة .

وأول من بنى فى خطة السيدة هم التتر ، والوافدية من أصحاب الأمير جنكلى ابن محمد بن البابا صاحب درب ابن البابا كما يقول المقريزى . وهكذا ـ يضيف على مبارك ـ ينتهى وصف هذا الشارع الطولى الذى يبتدئ من قره قول باب الشعرية وينتهى عند بوابة مسجد السيدة زينب .

مياه النيل ..
تصل إلى السيدة زينب

كانت مياه النيل تصل إلى حى السيدة زينب من أكثر من مكان . . المكان الأول : هو الخليج المصرى الذى كان ينقل مياه النيل من بدايته عند فم الخليج على سيالة الروضة ، وهو الخليج الذى أقيم فوقه عديد من القناطر أى الجسور أو الكبارى ؛ ليعبر الناس فوقها بين أحياء الضفتين ، وكان السقاءون يملأون قربهم المصنوعة من جلد الماعز من هذا الخليج ويوزعونها إما على عربات الكارو أو فوق ظهور الحمير والبغال والجمال .

المصدر الثانى عندما كانت مياه النيل تدخل إلى بركة الفيل من الموضع الذى كان يعرف بالجسر الأعظم (ميدان السيدة زينب الآن) ، وظلت بركة الفيل موجودة حتى ردمت فى أوائل القرن العشرين .

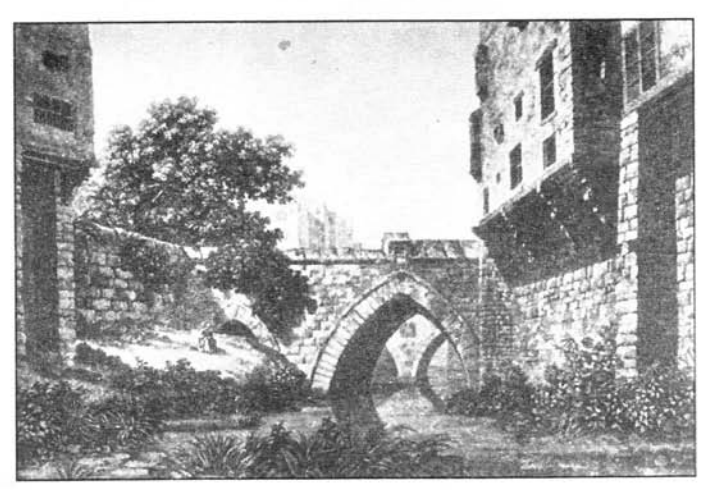
وفى منطقة بركة الفيل شارع يعرف بالحوض المرصود ، نسبة إلى حوض من الحجر الصوان الأسود كان موضوعًا فى فجوة بمساحة بالقرب من شارع قلعة الكبش ، وكان معداً لسقى الدواب . فلما جاءت الحملة الفرنسية ، خلعت هذا الحوض وأرسلوه إلى فرنسا ، ولكن الإنجليز استولوا عليه قبل أن يصل إلى فرنسا ، وأرسلوه إلى لندن وهو محفوظ الآن بمتحف لندن .

أما بركة الفيل فكانت واقعة بين القاهرة الفاطمية ومصر ، أى مصر عتيقة ، وكانت مساحتها كبيرة جدًا ولم يكن حولها أى مبانٍ . . ولما أنشأ جوهر الصقلى القاهرة واختط

خارج باب زويلة حارة السودان وحارة اليانسية لم يعد يفصل هاتين الحارتين عن البركة غير أرض فضاء . . ولكن فى عام ٦٠٠هـ عمرت منطقة البركة وكثرت مبانيها ، وصارت مساكنها من أجمل مساكن مصر المحروسة . وكان السلطان يركب إلى بركة الفيل للتنزه فيها بالليل .

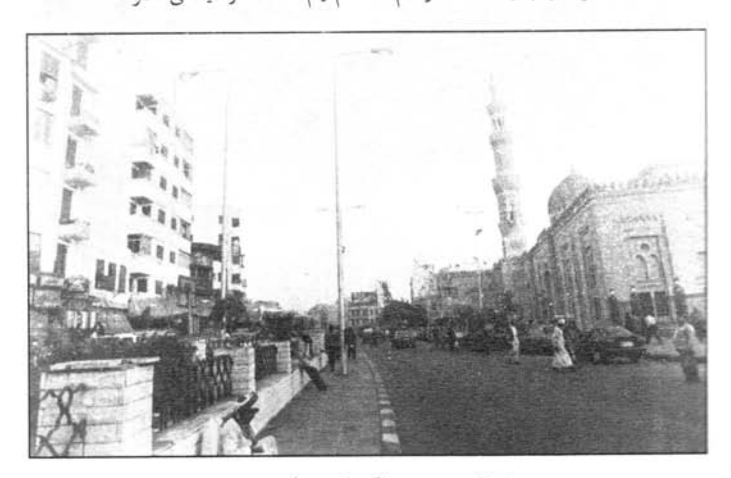
ومن أبرز ما كان فى هذه المنطقة بستان الخشاب ومكانه الآن شارع المبتديان والبرجاس إلى النيل من الشمال ، ومن الغرب نهر النيل ، ومن الجنوب مستشفى قصر العينى وشارع بستان فاضل ، ومن الشرق شارع الخليج . وينقسم البستان إلى قسمين : شرقى يقع بين شارع المنيرة وشارع بور سعيد ؛ وكان يعرف بالمريس حيث كان يسكنه طائفة من السودان يشربون المزر ، وهو نوع من البوظة يسميه أهل السودان المريسة .

هذا عن الحى والميدان والشوارع المحيطة به والداخلة فيه ، ولكن ماذا عن السيدة زينب صاحبة الضريح والمسجد . . بل ماذا عن مسجد السيدة زينب نفسه .



قناطر السباع فى ميدان السباع سابقاً الآن ميدان السيدة زينب بناها للمرة الأولى السلطان الظاهر بيبرس . .

والصورة كما تبدو هذه القناطر عام ١٧٩٨م أيام الحملة الفرنسية على مصر .

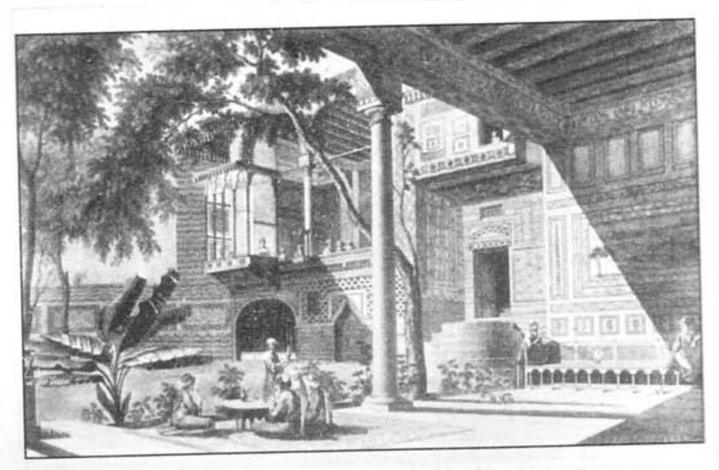


ميدان السيدة زينب الآن والمسجد أبرز ما فيه .



الجنرال جاسبار مونج العالم الفرنسى الذى أطلق اسمه على حارة بجوار المدرسة السنية فى حى السيدة زينب .

الجنرال بونابرت داخل المعهد العلمى الفرنسى فى حارة مونج بالسيدة زينب يوم ٢١ ديسمبر ١٧٩٨م .



قصر قاسم بك فى حى السيدة زينب بريشة رسامى الحملة الفرنسية .



مبنى مصلحة الخزانة . . وكان أيضاً مقراً لمصلحة الإحصاء القديمة بشارع منصور بالقرب من السيدة زينب .



تمثال لاظوغلى فى الميدان الشهير الذى يحمل اسمه فى بداية شارع مجلس الشعب حيث الوزارات الرئيسية . .

وهو من مناطق حى السيدة زينب .



مبنى دار الهلال كان أكبر مبنى لدار صحفية فى مصر أقيم فى حى السيدة زينب عند نهاية شارع المبتديان .



من أهم مبانى حى السيدة زينب بيت الأمة الذى شهد أحداث ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول .



ضريح سعد زغلول بشارع منصور بالقرب من السيدة زينب وهل جاء هذا الطراز الفرعونى صدفة .

حكاية أم هاشم

●● السيدة زينب هى بنت بنت النبى ﷺ ، كما يحلو للمصريين أن يطلقوا عليها . . أبوها هو الإمام على بن أبى طالب . . أمها هى السيدة فاطمة البتول ، بنت سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؛ أى إن جدها لأمها هو الرسول الكريم ﷺ ، وجدتها لأمها هى أولى أمهات المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد أولى زوجات الرسول الكريم ﷺ وشقيقاها هما الحسن والحسين .

ولدت السيدة زينب فى السنة السادسة للهجرة فى بيت الرسول ﷺ بالمدينة المنورة ، والرسول الكريم ﷺ هو الذى أطلق عليها اسم زينب إحياءً لذكرى ابنته التى توفيت فى السنة الثانية للهجرة بعد أن طعنها أحد المشركين فى أعقاب غزوة بدر وكانت حاملاً . وتوفى الرسول ﷺ عنها وهى فى الخامسة من عمرها . وماتت أمها السيدة فاطمة الزهراء بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ بستة أشهر . . . وهكذا عاشت زينب طفولة حزينة بفقد جدها الرسول الكريم ﷺ وفقد أمها السيدة فاطمة .

وزوجها أبوها الإمام على بن أبى طالب من ابن عمها عبد الله بن جعفر ، وكان لها وهى فى المدينة مجلس علمى حافل تقصده النساء وكانت بحق عقيلة بنى هاشم . وأنجبت السيدة زينب ٣ بنين : جعفر . . وعلى . . وعون ، وبنتين هما : أم كلثوم وأم عبد الله .

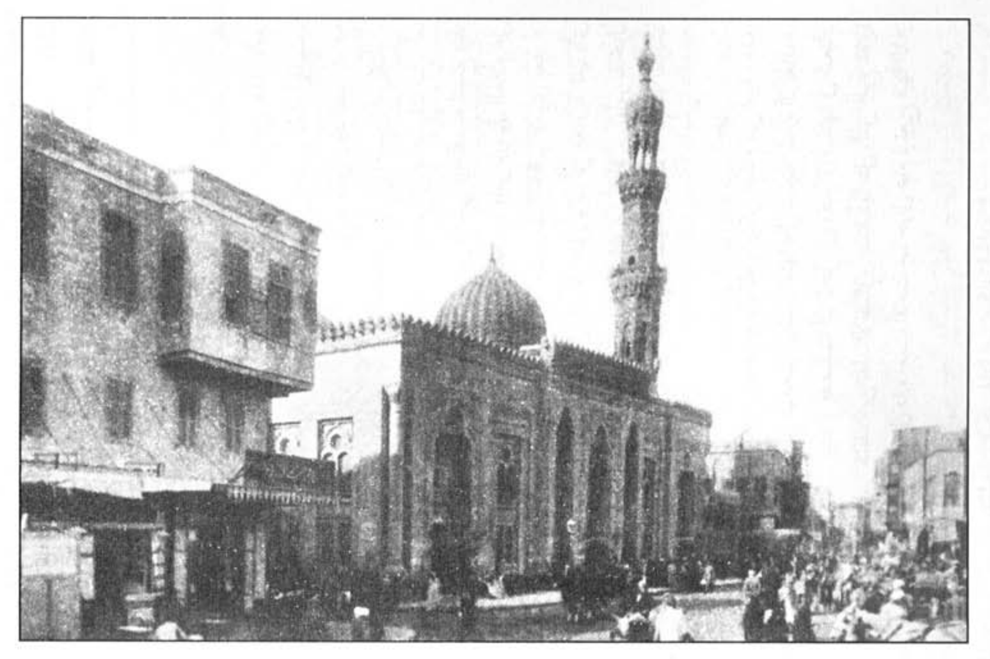
وعاشت السيدة زينب عصر الصراع السياسى بين والدها الإمام على ومعاوية ابن أبى سفيان ، وتابعت معاركه الحربية من الجمل إلى صفين ومع الخوارج فى النهروان .

ولقى والدها مصرعه عام ٤٠هـ ثم مات أخوها الحسن عام ٤٩هـ . ورحلت مع أخيها الحسين إلى العراق واستشهد فى معركة كربلاء وساقوها مع الأسرى ، وعبر موكب الأسرى ساحة المعركة ، فرأت أشلاء الشهداء مبعثرة فصرخت «يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء . . هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء . يا محمداه هذه بناتك سبايا وذريتك مقتلة . . » .

ومضى موكب الأسرى والسبايا إلى دار إمارة الكوفة ، ووقف الأمير عبد الله ابن زياد يعبث برأس الشهيد الحسين بقضيب من حديد ، وعندما دخلت على هذا الأمير وجلست دون أن يأذن لها ، سأل من هذه وهى لا تجيب ، ولكن إحدى الإماء أجابت : هذه زينب بنت فاطمة . ودار حوار بليغ بين السيدة زينب وابن زياد تصدت فيه هجومه على رجال الحسين . . وعندما لمح ابن زياد صبياً هو على بن الحسين أمر بقتله ، فأخذته عمته السيدة زينب بين ذراعيها ، وهى تقول : يا ابن زياد حسبك منا . أما رويت من دمائنا ، وهل أبقيت منا أحداً . ثم انحنت على الصبى واحتضنته لتمنع قتله . ولما رأى ابن زياد ذلك قال لكأنها تود لو أنى أقتلها معه . . وأمر بإرسال الغلام على زين العابدين بن الحسين مع الأسرى إلى دمشق ، حيث مقر الحكم الأموى بعد أن يضعوا رقبته ويديه فى الحديد . ووصلوا دمشق وأدخلوا على يزيد بن معاوية فلما رأى رأس الحسين بن على ، لعن أمير الكوفة بن مرجانة عبد الله ابن زياد . . وأمر بدخول الأسرى والسبايا ودار حوار طويل بين يزيد بن معاوية والسيدة زينب . ثم أمر بعودتها إلى المدينة المنورة مع أهلها .

وأرادت السيدة زينب أن تحيا بجوار جدها رسول الله ، ولكن حكام بنى أمية وجدوا فى وجودها فى المدينة ما يحرك الناس ضدهم . وطلب منها والى المدينة المنورة أن تغادرها وتختار أى منطقة أخرى لتقيم فيها ، ففضلت أن ترحل إلى مصر ووصلتها فى شعبان عام ٦١هـ ، وخرج والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى يستقبلها على رأس جموع غفيرة من المصريين ، ومضى بها مسلمة إلى داره حيث أقامت بها حوالى عام لم تبرح فيها الدار حتى توفيت عام ٦٢هـ .

هذه حكاية السيدة زينب . . ولكن ماذا عن حكاية الجامع ؟



مسجد السيدة زينب فى بداية القرن العشرين وبجواره الأجزاخانة البارزية .

حكاية جامع السيدة زينب :

عند توسيع ميدان قناطر السباع بعد ردم الخليج المصرى عام ١٨٩٨م ، اكتشفت واجهة جامع السيدة زينب الذى كان الوالى العثمانى على باشا الوزير قد أقامه عام ١٥٤٧م . . ثم جدده الأمير عبد الرحمن كتخدا . وفى عام ١٧٦٨م تغير اسم الميدان من ميدان قناطر السباع إلى ميدان السيدة زينب ، بل أصبح اسم الحى كله هو حى السيدة زينب .

وفى عام ١٩٤٠م أقامت وزارة الأوقاف المسجد الحالى ، وكان يتكون وقتها ـ كما تقول الدكتورة سعاد ماهر في سفرها الكبير «مساجد مصر » ـ من سبعة أروقة موازية للقبلة يتوسطها صحن مربع مغطى بقبة . . ويقابل القبلة قبة ضريح السيدة زينب . . ويتقدم المسجد من الواجهة الشمالية رحبتان ، بهما مدخلان يفصل بينهما مستطيل تعلوه شخشيخة . وفى الطرف الشمالى الغربى يوجد ضريح سيدى العتريس ، ثم أضافت الوزارة مساحة أخرى للمسجد الأصلى تصل إلى ٥٤٤ متراً مربعاً . ثم أضافت الوزارة مساحة مماثلة تماماً عام ١٩٦٩م للمسجد الأصلى وبمساحته نفسها ؛ بحيث أصبحت الإضافة الأولى تفصل بين المسجد الأصلى وهذه التوسعة . ومع الإبقاء على المحراب القديم تم وضع محراب جديد . ويقابل ضريح السيدة فى التجديد الثانى رحبة مماثلة للصحن . وفى الجهة الغربية مدخلان أحدهما يتوسط التجديد الأول والثانى فى التجديد التالى ، وقد قام المهندس حسن حلمى بإعادة إنشاء المسجد عام ١٩٤٠م . والطريف أن التوسعة والإضافة التى تمت عام ١٩٦٩م تولاها المهندس محمد حسن حلمى ابن المهندس السابق !

وقد وضعت مقصورة من النحاس الأصفر وستر من حرير مزركش فوق ضريح السيدة زينب ، الذى يعلوه قبة شامخة . . وعندما أهدى زعيم طائفة البهرة الهندية مقصورة مذهبة وضعت فوق مشهد رأس الإمام الحسين ، تم نقل المقصورة القديمة لمشهد الحسين إلى المسجد الزينبى .

وبجوار ضريح السيدة زينب ، وفى الركن الشمالى الغربى للجامع الزينبى ، يوجد ضريحان متجاوران للشيخ العتريس ، والشيخ عيدروس ، والضريحان يعلوان مقبرتين موجودتين فى ساحة واحدة مفروشة بالرخام ، ومحاطة بسياج من حديد متصل بسياج الرحبة التى عليها قباب الأضرحة . . وعليها سقف واحد من خشب . . وعلى كل مقبرة مقصورة من حديد وقبة من خشب .

وقد جدد هذا الضريح سعيد باشا والى مصر ، وتولى عملية التجديد أدهم باشا عندما تمت عمارة المسجد . . وأعيد تجديد الضريحين بعد تجديد سعيد باشا ، عندما قامت وزارة الأوقاف بتجديد المسجد كله عام ١٩٤٠م ، وتحيط بالمقبرتين مقصورتان من نحاس مخرم جميل الصنع .

ولكن من هو الشيخ العتريس ؟

هو الشيخ محمد العتريس ابن أبى المجد بن قريش بن محمد ، وينتهى نسبه إلى زين العابدين بن الحسين بن على . . أى هو شقيق إبراهيم الدسوقى صاحب المسجد الكبير فى دسوق ، وهو ثالث إخوة الشيخ إبراهيم الدسوقى . وقد ولد العتريس فى نهاية الدولة الأيوبية وحارب مع أخيه إبراهيم الدسوقى الصليبيين والتتار مع الملك الأيوبى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، كما حارب مع سلاطين المماليك وبالذات قطز وبيبرس .

وكان العتريس كثير التردد على مسجد السيدة زينب ، وقد أمر بأن يدفن بجوار مسجدها ؛ إذ إن نسبه ينتهى إلى ابن أخيها على زين العابدين .

أما الشيخ عيدروس فهو وجيه الدين أبو المراحم عبد الله الحسينى العلوى العيدروس ، الذى جاء إلى مصر عام ١١٣٥هـ ، وينتهى نسبه إلى الإمام جعفر الصادق ثم إلى الحسين بن على وقد ولد باليمن . وجاء إلى مصر وهو فى السادسة والعشرين ، ثم سافر إلى الحجاز عام ١١٦٩هـ ، وسكن فى الطائف وعاد إلى مصر عام ١١٧٤هـ. وحج ١٧ مرة وألف أكثر من ٧٠ مؤلفاً شعراً ونثراً . وتوفى عام ١١٩٢هـ ودفن بمقام الشيخ العتريس بجوار مسجد السيدة زينب . .

ولا ننسى أن نقول إن وزارة الأوقاف عادت فى أواخر القرن العشرين ، وأضافت توسعة ضخمة على المسجد الزينبى من الناحية الغربية والناحية الجنوبية ، وأخلت كل الإشغالات التى كانت تحيط بالضلع الغربى للمسجد.

ومنذ جدد المسجد الزينبى كانت تعمل به «حضرة» للسيدة كل ليلة أحد . . ومقرأة كل ليلة أربعاء . . ومولد كل عام يستمر أسبوعين ، تجتمع فيه الناس وتجمع النذور والهدايا ويتحول مولد السيدة زينب إلى موسم تجارى وفرصة لهو كبيرة للشباب ، أما العواجيز فمنهم من يدخل حلقات الذكر التى تحييها مختلف الطرق الصوفية التى تأتى من كل مدن وقرى مصر . ويغلق تماماً ميدان السيدة أمام كل وسائل المواصلات ويصبح سوقاً رائجة لبيع كل شىء من حلوى المولد إلى لعب الأطفال والطراطير وألعاب البهلوان. ويصل زوار المسجد الزينبى خلال فترة المولد إلى ٣ ملايين نسمة ، يقضون الليل كله فى التجول بالسرادقات التى تنظمها الطرق الصوفية ، ولا ينافس مولد السيدة زينب إلامولد سيدنا الإمام الحسين بالقاهرة ، ومولد السيد البدوى فى طنطا ومولد سيدى إبراهيم الدسوقى فى دسوق وسيدى عبد الرحيم القنائى فى قنا . .

الأم والابن فى حى واحد :

الأزهر والحسين اسمان كبيران لحى واحد. . الأول يرتبط بالقاهرة المحروسة نفسها . فالجامع الأزهر هو أول ما أنشأه جوهر الصقلى عندما تم له فتح مصر ، حتى قبل أن يبدأ فى إنشاء القصر الشرقى الكبير ، الذى سيصبح مقراً للحكم وسكناً للخليفة الفاطمى . . وطبقاً للفلسفة الإسلامية فى تخطيط المدن ، كان المسجد الجامع فى العاصمة هو نقطة الدائرة التى تلتف حولها وتحيط بها كل المساكن والأحياء ، ومن هنا كان «الأزهر» المسجد والمدرسة هو مركز المدينة ، وكان شارع القصبة ـ المعز لدين الله الآن ـ هو قلب القاهرة . . فيه كل الأسواق ومراكز الأعمال ، ومن هنا نجد أن «الأزهر» قامت حوله مراكز العمل والتجارة والحياة فى العاصمة .

وظل الأمر كذلك طوال عهود الدول التى حكمت مصر منذ الدولة الفاطمية إلى

الأيوبية ، رغم انتقال مركز الحكم إلى القلعة . . وأيضاً فى العصر المملوكى بنوعيه المماليك البرجية ثم البحرية . واستمر ذلك حتى خلال الحكم العثمانى لمصر ؛ فقد ظل الأزهر مركز الثقل السياسى والثقافى ؛ خصوصاً عندما كان الأزهر ـ المكان والمعنى ـ هو الملجأ والملاذ للشعب عندما كان الحاكم : سلطانا أو والياً أو باشا يشتد فى ظلمه ، كان الشعب يلجأ إلى الأزهر بعلمائه ومكانته ؛ بل تحول ليصبح مركزاً للثورة ضد الظلم على طول مراحل تاريخه . .

ولأن الأزهر المدرسة والجامعة كان ملتقى الدارسين على المذاهب الأربعة ، كان مكاناً لسكنى هؤلاء الدارسين ، ومن هنا عرفنا معنى كلمة المجاورين . وكان هؤلاء يأتون للدراسة به من أركان العالم الإسلامى حتى الآن .

وعلى مرمى البصر من الأزهر، الجامع والجامعة ، يقف شامخاً المسجد الحسينى ؛ أى إن العلاقة مستمرة بين الأزهر والسيدة فاطمة الزهراء . . وبين ابنها الإمام الحسين . وهكذا أصبح ـ الأزهر والحسين ـ حياً واحداً للدراسة والتجارة ، بل ظل المركز التجارى الأول فى العاصمة المصرية، ولهذا أقيمت فيه وحوله كل الوكالات التجارية «الوكايل» وكل الخانات والأسبلة . . بل وكان كل خليفة أو حاكم يحرص على أن يقيم فيه وحوله مسجده الكبير. . ولم يشذ عن ذلك إلا السلطان بيبرس ، والسلطان حسن . . ترى ما حدود هذا الحى الآن وما أهم شوارعه، على الأقل منذ القرن ١٩م عندما أصبح مركزاً للثورة الشعبية ضد قوات الحملة الفرنسية ، واضطرت هذه القوات أن ترتكب خطأها الأكبر ،عندما اقتحمت الأزهر بخيولها وجنودها لردع الثوار ومطاردتهم عندما لجأوا إليه يطلبون الاحتماء به .

بحكم ضيق المكان ، وتركز الأعمال تجارة وصناعة فى هذا الحيز الضيق ، لا نجد تغيراً كبيراً يذكر فى طبيعة المكان. وهذا انعكس على سعر الأرض فى هذا الحى. بل ليس سراً أن سعر المتر فى الحسين والأزهر أكبر من سعر المتر فى حى الزمالك أو فى المهندسين الآن ! !

وحول المسجدين الجامعين «الأزهر والحسين» ، نجد من الغرب : الحمزاوى حيث تركزت تجارة الأقمشة والملابس. ونجد التربيعة . . ومجموعة السلطان الغورى وكل حى الغورية . . وبين الغورية ومجموعة الغورى والجامع الأزهر ، نجد وكالة وجامع محمد بك أبو الدهب ، وشارع الصنادقية وجامع السلطان الأشرف . وجنوب الغورية، نجد سوق المغاربة والعقادين وجامع الفكهانى ثم السكرية.

وطبقاً لخريطة مساحية مطبوعة فى بداية القرن العشرين ، نجد من الشرق: كفر الطماعين والدراسة والغريب وباب الغريب ، وجنوبه باب درب المحروق ودرب المحروق. ونجد شرق كل هذا تل قطع المرأة ؛ أى تلال الدراسة الآن التى تفصل بين العمران وبين مناطق المقابر ؛ حيث مقابر قايتباى ومقابر الخلفاء وكل القرافة الشرقية وقرافة المجاورين للمسلمين ، وشارع قرافة باب الوزير وجبانة باب الوزير للمسلمين. وشرق كل هذا كله حيث يمر خط السكة الحديد ـ خط المحاجر ـ حيث المدفن ، الذى أقامه الخديو توفيق لنفسه ولفرع أسرته ، وفيه دفن هو وابنه الخديو عباس حلمى وكذلك الأمير محمد على توفيق ، الذى شغل موقع ولى العهد مرتين ، وزوجات وبنات الخديو توفيق . وفى الحديقة الخارجية تم دفن العلامة المصرى الدكتور على مصطفى مشرفة. . وهذا المدفن الآن بقبته الكبيرة يقع على طريق الأوتوستراد ، وشرق هذا كله نجد جبل المقطم. .

وللحقيقة فإذا كان جبل المقطم هو الذى منع امتداد القاهرة شرقاً . . فإن تلال الدراسة قامت بالدور نفسه إلى حد كبير . . وإذا كان جبل المقطم طبيعياً ، فإن تلال الدراسة ما هى إلا عمل من صنع الإنسان. . وسبب ذلك أنه عندما كانت الأمطار الرعدية تسقط على جبال البحر الأحمر ، كانت هذه المياه تندفع عبر الوديان لتصل إلى القاهرة على شكل سيول جارفة تجتاح كل ما أمامها . وهنا طلب الحاكم بناء سد صناعى فى هذا الموقع ليحمى القاهرة من هذه السيول . . وقد كان . .

وعندما زالت دولة الخلافة الفاطمية ، نبشت قبور الخلفاء ، وألقيت كل مخلفاتها

فوق هذه التلال الصناعية . . وعندما أنشأ الأمير جهاركس الخليلى أحد أمراء السلطان برقوق ، وكان هذا الأمير هو أمير الخيل . . كان مكان خان الخليلى هو ضريح القصور الفاطمية، ولما كان جهاركس الخليلى متعصباً ضد الفاطميين ، أخرج عظام الخلفاء وأسرهم من مقابرهم وألقاها فوق تلال الدراسة ، وكانت تسمى وقتها « كيمان البرقية » ليفسح مكانا ، يبنى عليه الخان الذى حمل اسمه حتى الآن وهو خان الخليلى . وكان هذا الخان يعرض المعادن المكفتة بالفضة والذهب ، والأخشاب المطعمة بالعاج والصدف والأقمشة الموشاة بالذهب والفضة والزجاج المموه بالمينا ، ومنتجات الجلود والخيام والسجاد . وفى عام ٩١٧هـ هدم السلطان الغورى هذا الخان وجدده .

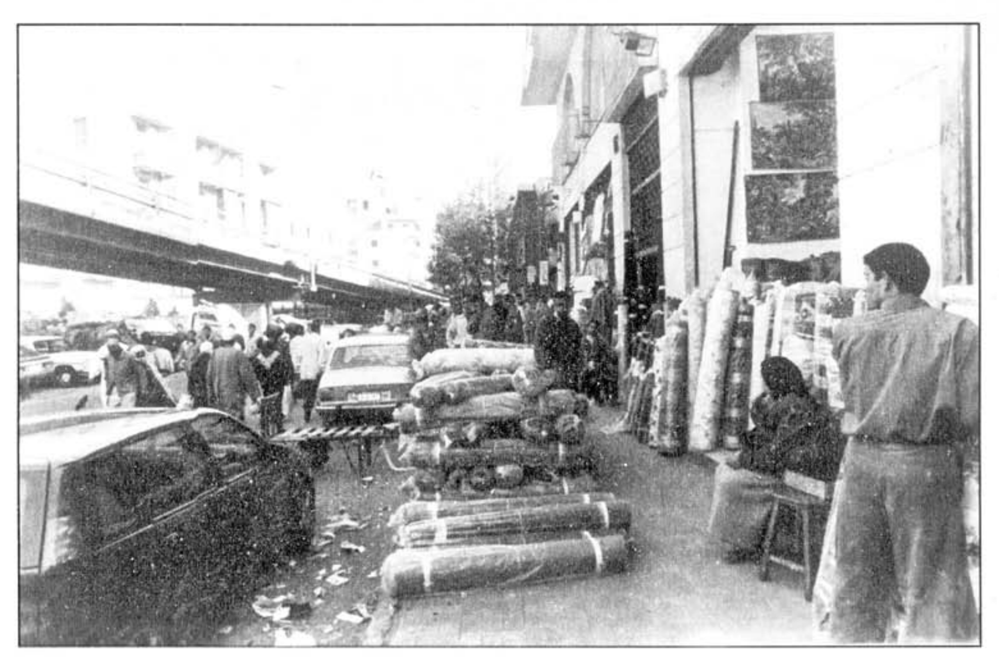
أما البرقية فهم فصيلة من الجنود الذين ساهموا فى فتح مصر على يد جوهر الصقلى ، وهم من برقة «فى ليبيا الآن» .

ولم يكن هذا الخان إلا واحداً من حوالى ٢٠٠ خان ، ووكالة للتجارة ، شهدتها القاهرة ، كان هو أبرزها مع خان الحمزاوى وخان جعفر ووكالة قوصون ووكالة الغورى .

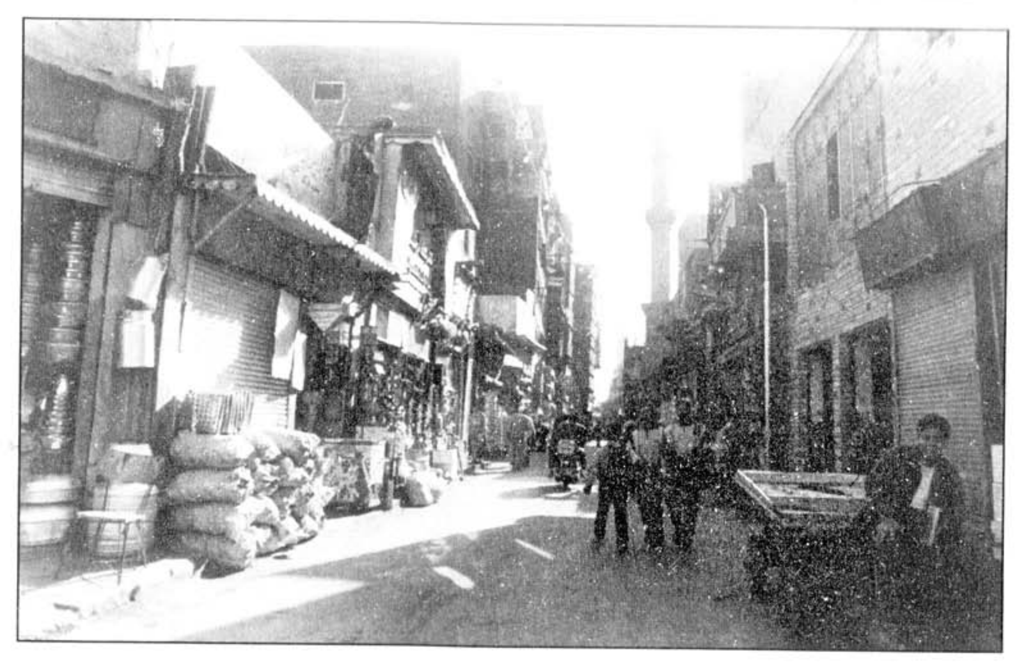
وعندما بنى جوهر سور القاهرة جعل له ٨ أبواب ، كان باب البرقية من أهم هذه الأبواب ، وكان يقع تحت تلال البرقية المقابلة لشارع الدراسة . وفى عام ١٩٥٧م عندما بدأ رفع التلال الموجودة بين القاهرة وجبل المقطم ، ظهر شرقى مبانى الجامعة الأزهرية باب البرقية الذى بناه بدر الجمالى، وكان اسمه باب التوفيق ، كما تدل الكتابة عليه وعلى تاريخ البناء عام ٤٨٠هـ . .



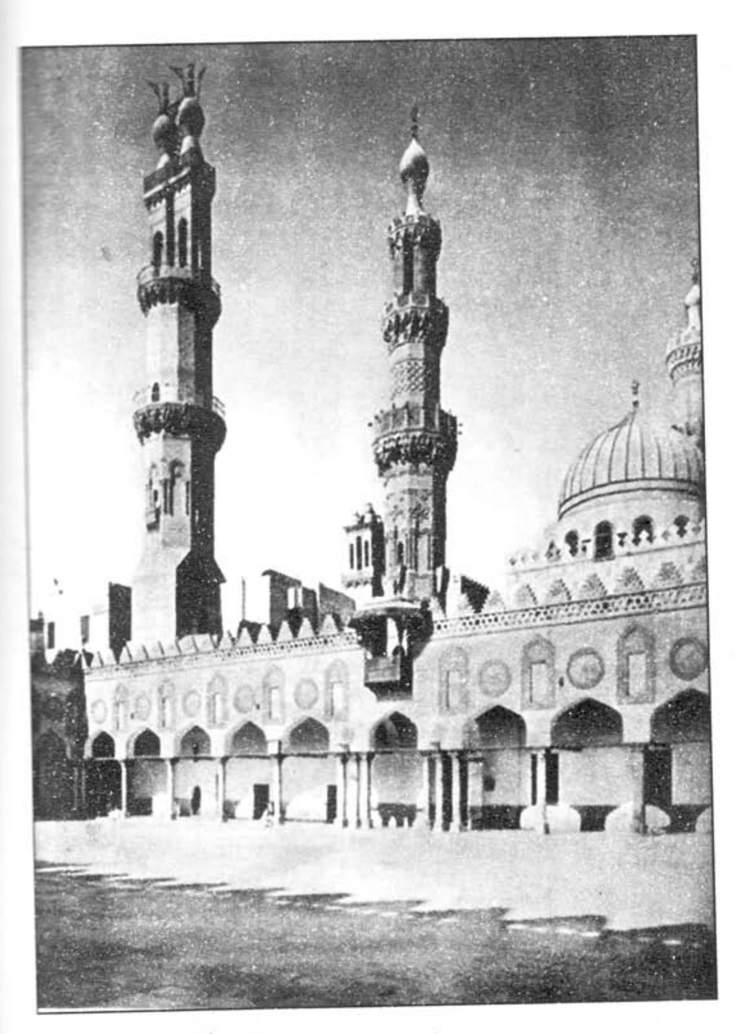
ميدان الجامع الأزهر ومنارة الغورى ثنائية الرأس ومأذنة قايتباى . . وفى أقصى اليمين جزء من جامع أبو الدهب وإلى اليسار برج ساعة مشيخة الأزهر القديمة .



شارع الأزهر مركز تجارة الأقمشة والمانيفاتورة في مصر كلها .. وليس في القاهرة فقط .



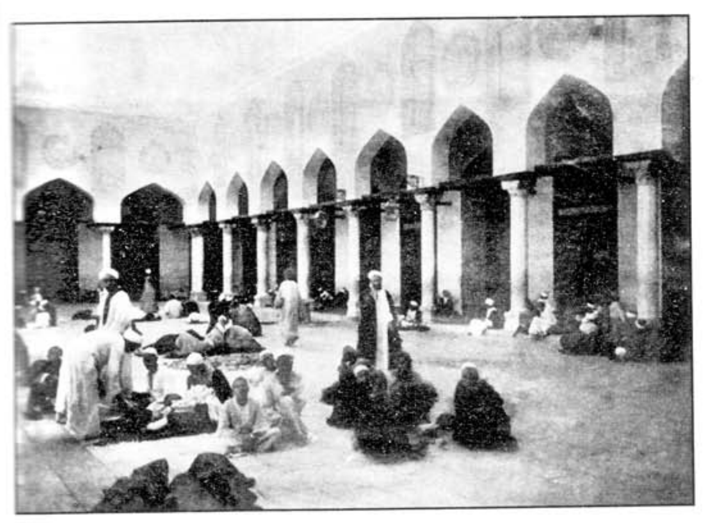
منارة مسجد سيدنا الحسين أبرز مباني الحي العتيق .



الجامع الأزهر ومنارتا قايتباى والغورى .



الجامع الأزهر .. للعبادة والدراسة صورة نادرة أيام حكم الخديو إسماعيل



صحن الجامع الأزهر عام ١٧٩٨ خلال حملة بونابرت على مصر .



المدخل الرئيسى للجامع الأزهر كما كان يبدو خلال حملة بونابرت ومن هذا الباب أقتحمت قوات الاحتلال الجامع الأزهر فى محاولة لإجهاض ثورة القاهرة الأولى .

الصورة بعد نصف قرن :

وبعد حوالى نصف قرن من خريطة بداية القرن العشرين ، نجد شارع جوهر القائد الذى ينتهى إلى الحسين ، وخان الخليلى قد أصبح المركز التجارى ، والذى يخلط العامة بينه وبين شارع الموسكى أو كما كان يقال عليه : شارع السكة الجديدة . . ونجد شارع الشيخ محمد عبده يتوسط بين حى الدراسة وحى الغورية، أى جنوب الجامع الأزهر. وجنوب شارع محمد عبده نجد شارع جمال الدين الأفغانى ؛ أى هنا يلتقى الثائران الأستاذ الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده، والشارعان يتصلان من الغرب بشارع المعز لدين الله الفاطمى . . وتتقلص تلول أو تلال قطع المرأة ، ولكن يظل باب درب المحروق الذى يخرج من درب المحروق وامتداده شارع النبوية ؛ ليصل إلى شارع باب الوزير كما تتقلص أكثر تلال الدراسة .

وفى خريطة طبعت عام ١٩٨٦م ، نجد تطورًا تخطيطيًا هائلاً ، خصوصاً بعد أن تم فتح طريق صلاح سالم ليفتح الطريق أمام تعمير شرق القاهرة . ويتم شق طريق عبر تلال الدراسة ليمتد طريق جوهر القائد ، ويعبر هذه التلال إلى شارع صلاح سالم ثم إلى شارع باب الوزير ويصبح شارع المنصورية ـ وهو الاسم الأول الذى أطلقه جوهر القائد على عاصمته الجديدة ، قبل أن يغيره المعز لدين الله نفسه عندما وصل إلى القاهرة . يصبح شارع المنصورية من أهم شوارع الدراسة ، ويعتبر فتح طريق صلاح سالم خطوة تعميرية هائلة ، شجع بعد ذلك على فتح طريق النصر . وواكب ذلك امتداد شارع رمسيس عبر مدينة نصر وامتداد شارع السكة البيضا ؛ أى إن كل هذا فتح الطريق لكى تمتد القاهرة شرقًا ، بل لتقفز إلى أعلى جبل المقطم نفسه .

وتزداد أهمية شارع الأزهر بعد فتح هذا المحور المرورى ، فيقام كوبرى معدنى علوى يربط بين ميدان الأوبرا ويعبر ميدان العتبة إلى شارع الأزهر ، ويهبط عند شارع المعز . وعندما تزداد حركة التجارة والمرور ، ويصبح شارع الأزهر محورًا مروريًا مهماً يربط وسط القاهرة بشرقها ، ويعتبر محورًا صاعدًا يؤدى شمالاً إلى مدينة نصر ، ثم إلى مصر الجديدة

وجنوبًا إلى عين الصيرة ومصر القديمة . عندما يحدث ذلك كان لابد من تسهيل استخدام هذا المحور المرورى الحيوى ، فكان قرار شق وحفر نفقين : الأول يصعد من الأوبرا إلى شارع صلاح سالم ، والثانى يهبط من شارع صلاح سالم إلى ميدان الأوبرا وتم فتح النفقين لمرور السيارات فى شهر نوفمبر ٢٠٠١م . أما شارع الخليج المصرى فيصبح اسمه شارع بورسعيد ، تكريما لتلك المدينة الباسلة وصمودها أيام العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦م .

تعالوا نتحدث عن أبرز المنشآت فى هذا الحى المشترك . . الأزهر والحسين .

الأزهر : المبنى والمعنى والثورة :

كما نعلم . . فإن كل دولة أقامت لها نظامًا جديداً فى مصر ، كان لها مسجدها الجامع. هكذا كان الوضع فى أول دولة إسلامية فى مصر ، عندما أنشأ عمرو ابن العاص مسجده فى الفسطاط ، ثم عندما أنشأ أحمد بن طولون مسجده فى القطائع ، إلى أن جاء جوهر القائد ، فأنشأ الأزهر ليكون جامعاً ومدرسة للمذهب الشيعى الفاطمى. وأتم بناء هذا الجامع يوم ١٧ شعبان عام ٣٥٦هـ ـ ٦ يوليو ٩٦٩م، وعندما قدم المعز لدين الله إلى القاهرة نزل فى القصر الذى بناه جوهر يوم ٧ رمضان ٣٦٢هـ ـ ٩٧٣م ، فصارت مصر دار خلافة ، بعد أن كانت دار إمارة طوال العهود الإسلامية منذ فتحها عمرو بن العاص ، ثم فى الدولة الأموية فالدولة العباسية ، وإن شهدت مصر حركات استقلالية ، سواء فى الدولة الأموية أو العباسية.

وقد بدأ جوهر بناء الجامع الأزهر يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ ـ ٩٧٠م ، وانتهى العمل وأقيمت فيه أول جمعة يوم ٧ رمضان ٣٦١هـ ـ ٩٧٢م وعرف بجامع القاهرة ، وكانت له ثلاثة أبواب فى جدرانه القبلية والبحرية والغربية .

وشهد الجامع عمليات ترميم وإصلاح وإضافة عديدة ، بدأها العزيز بالله ابن المعز. ثم جدده الحاكم بأمر الله عام ٤٠٠هـ ـ ١٠٠٩م ، وبقى من إضافة الحاكم باب بمصراعين من خشب به حشوات منقوشة . كما عنى بإصلاحه الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وفى عام ١١٢٥م أمر الخليفة الآمر بأحكام الله بعمل محراب من الخشب لهذا الجامع وعظمه من خشب قرو تركى.

وبقى الجامع على حاله إلى أن أضاف الخليفة الحافظ لدين الله بين عامى ١١٢٩ و١١٤٩م إضافة رواق ، يحيط بالصحن من جوانبه الأربعة وقبة ، وتعتبر هذه القبة أقدم واحدة نقشت من الداخل . وبقى من العمارة الفاطمية بالمسجد عدة أجزاء أبرزها المحراب الكبير بنقوشه وكتاباته ، وهو المحراب القديم للمسجد ، وظل محتجباً لمدة ٧ قرون حتى تم كشفه يوم ١٠ أكتوبر ١٩٣٣م ، واكتشفه العلامة حسن عبد الوهاب

كما ذكر فى كتابه العظيم تاريخ المساجد الأثرية ، وأزال الكسوة الخشبية التى كانت تكسو طاقيته فظهرت نقوشه وكتاباته .

وكان أول درس ألقى بالجامع الأزهر فى شهر صفر عام ٣٦٥هـ ـ ٩٧٥م ، عندما جلس القاضى على بن النعمان وأملى مختصر أبيه فى فقه الشيعة ، وكان هذا بداية الأزهر كجامعة إسلامية . وفى عام ٩٨٨م طلب الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس من الخليفة العزيز بالله أن يصل رزق جماعة من الفقهاء ، فقرر لهم مرتبات وأعد داراً لسكناهم بجوار الجامع الأزهر. فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وعقدوا حلقات دروسهم بعد الصلاة وإلى صلاة العصر ، وكان عددهم ٣٥ فقيهاً . كما ألف ابن كلس كتاباً فى فقه الإسماعيلية كان يجلس لقراءته بنفسه. ولما بنى العزيز بالله مسجده المعروف بجامع الحاكم عام ٣٨٠هـ ـ ٩٩٠م ، أذن للفقهاء الموجودين بالجامع الأزهر أن يعقدوا حلقات دروسهم فيه . .

ولكن فى عصر الدولة الأيوبية ، أمر صلاح الدين الأيوبى بإبطال الخطبة من الجامع الأزهر عملاً بالمذهب الشافعى ، وهو منع إقامة خطبتين للجمعة فى مدينة واحدة اكتفاء بإقامتها بجامع الحاكم . وظلت خطبة الجمعة بالجامع الأزهر معطلة لمدة ١٠٠ عام إلى أن أعادها السلطان الظاهر بيبرس .

ويعتبر العصر المملوكى عصراً ذهبياً للأزهر ؛ فقد تبارى السلاطين المماليك فى العناية بالجامع الأزهر ، وكان أول تعمير له فى عصر السلطان الظاهر بيبرس ، الذى أعاد الخطبة إليه ، وأقيمت صلاة الجمعة من جديد بالأزهر يوم الجمعة ١٨ ربيع الأول ٦٦٥هـ ـ ١٢٦٦م . وذكر المقريزى أن الأمير بيليك الخازندار أقام مقصورة كبيرة بالجامع وعين بعض الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعى ومحدثاً للحديث النبوى . ومن ذلك الوقت بدأ الأزهر يشارك بقية مدارس مصر والقاهرة فى أداء رسالته العلمية .

وعلى أثر زلزال عام ١٣٠٢م ، اهتم الأمير سلار بتعمير الجامع ، ثم توالت

عمليات الإصلاح فأصلحه محتسب القاهرة عام ١٣٢٤م ، والأمير الجامدار عام ١٣٥٩م الذى أنشأ سبيلاً وكتاباً عند الباب القبلى للجامع .

ولما تولى الأمير بهادر أصدر الملك الظاهر برقوق مرسوماً بأن من يموت من مجاورى الأزهر دون وريث ، تؤول ثروته إلى مجاورى الجامع ، وفى عام ٨٠٠هـ ـ ١٣٩٧م هدمت منارة الجامع وكانت قصيرة ، وبنى مكانها منارة جديدة أطول منها ، وبقيت هذه المنارة إلى أن هدمت فى شوال ٨١٧هـ ـ ١٤١٤م بسبب خلل حدث بها .

ثم تم بناء منارة حجرية أخرى فوق الباب الغربى للجامع ، بعد أن تم هدم هذا الباب وأعيد بناؤه بالحجر ، وأقيمت المنارة الجديدة فوق عقد الباب ، ولكن هذه المنارة هدمت عام ١٤٢٤م وأعيد بناؤها . . وأكدت الحوادث أن المنارة القديمة للجامع ظلت قائمة فوق الباب الغربى إلى أن جدده السلطان قايتباى ، وأقام منارة بجواره عام ١٤٦٨م وهى من ثلاث دورات . وفى عام ١٤٧٦م زار قايتباى الجامع وأمر بترميمه . وفى عام ١٤٩٥م أذن قايتباى للخواجه مصطفى بن الخواجه رستم بإجراء إصلاحات عديدة . وفى عام ١٥١٠م ، أمر السلطان الغورى ببناء منارة للجامع ، هى المنارة ذات الرأس المزدوجة .

ومن أبرز المنشآت بالجامع الأزهر : المدرسة الطيبرسية على يمين الداخل ، وجعلها الأمير علاء الدين طيبرس مسجداً لله تعالى زيادة فى الجامع ، وقرر بها دروساً للفقهاء الشافعية . . والمدرسة الأقبغاوية وهى على يسار الداخل ، وبها الآن مكتبة الأزهر ، وكلاهما من أمراء الناصر محمد بن قلاوون . والمدرسة الجوهرية فى الطرف الشرقى البحرى عند باب السد للجامع الأزهر ، أنشأها الأمير جوهر القنقبائى ، خازندار الملك الأشرف برسباى ، ودفن بها عام ١٤٤٠م .

وفى العصر العثمانى أجريت عدة ترميمات للأزهر ، وأول من عمره من الولاة العثمانيين الوالى السيد محمد باشا عام ١٥٩٥م ، والوزير حسن باشا والى مصر عام ١٦٠٥م ، وفى عام ١٧٣٥م أنشأ الأمير عثمان كتخدا زاوية للعميان خارج الأزهر ،

وقد تم هدمها بعد ذلك وعمر رواق الأتراك ورواق الأفغانيين وزاد فى رواق الشوام . . وفى عام ١٧٤٩م أهدى الوزير أحمد باشا كور والى مصر مزولتين للأزهر، مازالتا به .

أما أكبر عملية ترميم وتعمير حدثت للجامع الأزهر ، فهى تلك التى قام بها الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٦٧هـ ـ ١٧٥٣م ، فقد أضاف للجامع الأزهر مساحة كبيرة عبارة عن الأروقة الموجودة الآن خلف المحراب القديم ، وهى التى جددها الخديو توفيق عام ١٨٨٨م ، وباق بها محراب من الرخام الدقيق ، وفوقه قبة وبجواره منبر خشبى وبجواره محراب صغير هو محراب الدردير ، ومحراب آخر حديث أحدثته إدارة حفظ الآثار العربية . وفى النهاية القبلية لهذا الإيوان يوجد باب يؤدى إلى قبة أنشأها الأمير عبد الرحمن كتخدا عاشق الآثار الإسلامية المصرية الذى جدد الكثير منها فى كل القاهرة . . وقد دفن عبد الرحمن كتخدا تحت هذه القبة عام ١١٩٠هـ ـ ١٧٧٦م ، وأمامها سبيل ، ثم باب الصعايدة الذى أنشأه نفس الأمير كما أنشأ منارة بجواره ، وأنشأ أيضاً باب الشوربة فى الطرف الشرقى البحرى وأنشأ بجواره منارة .

كما جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا واجهة المدرسة الطيبرسية ، وأنشأ الباب الغربى الكبير والرئيسى للأزهر وهو المحلى بكتابات وزخارف دقيقة من الحجر والرخام ، يسترعى النظر فيها براعة الخطاط الذى كتبها بشكل زخرفى بارع ونادر . وبهذا الباب الكبير تم ضم المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية إلى الأزهر ، كما ذكر الجبرتى . وقد تم هدم الكتاب والمنارة وفكت مبانى هذا الباب ، وأعيد بناؤه عام ١٨٩٦م عندما تمت أعمال توسيع الشارع وتم بناء الرواق العباسى ، وألحقت بالأزهر عدة أروقة للمذاهب المختلفة .

أسرة محمد على .. والأزهر :

ويقول حسن عبد الوهاب فى حديثه عن الأزهر فى كتابه القيم «المساجد الإسلامية» أن للأسرة المالكة العلوية مآثر جليلة على الأزهر ، فقد وقفت الأميرة زينب هانم ابنة

محمد على باشا أوقافاً كثيرة للإنفاق على الأزهر ، تقدر وقتها بعشرين ألف جنيه. كما وقفت الأميرة جميلة هانم ابنة الخديو اسماعيل أوقافاً عظيمة .

ويذكر لمحمد على باشا الكبير أنه أجرى إصلاحات بالأزهر عام ١٨٠٥م ؛ أى فى بدايات حكمه وأنشأ به رواق السنارية بالتماس قدمه الشيخ محمد وداعة السنارى المنسوب إلى سنار. وكان موضع رواق الحنفية بيوت مملوكة لأصحابها فاشتراها عباس باشا الأول والى مصر بعد إبراهيم باشا ، وأمر بهدمها ليبنى مكانها رواقاً لأهل بلد الشيخ إبراهيم البيجورى شيخ الأزهر ، ولكن عباس قتل قبل إتمام هذا العمل فأتمه السيد أبو بكر راتب باشا .

أما الوالى سعيد باشا ففى عهده تم ترميم وتجديد المسجد .

وأمر الخديو إسماعيل بتجديد باب الصعايدة الذى أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا ، بينما اهتم ابنه الخديو توفيق بتجديد إيوان عبد الرحمن كتخدا أو قسم كبير من الإيوان الشرقى القديم ورواق الصعايدة ورواق الحرمين والعقود حول الصحن. وفى عام ١٨٩٠م أى بعد عامين فقط من هذه الأعمال ، تم تجديد عقود وأكتاف الإيوان الغربى وعمرت القبة الفاطمية .

وفى عهد ابنه الخديو عباس حلمى الثانى ، كانت أعمال التجديد قائمة فأدى فيه فريضة الجمعة فى شهر جمادى الأولى ١٣١٠هـ - ١٨٩٢ م ، وأمر باستمرار أعمال الترميم كما أمر بإصلاح الحواجز الخشبية وكتب عليها أنها جددت فى عهده. كما أنشأ الخديو عباس حلمى عام ١٨٩٦م مكتبة الأزهر مكان المدرسة الإقبغاوية التى تم إصلاحها ، وتم جمع الكتب من أروقة الأزهر وغيرها ، وتم إيداعها بهذه المكتبة . كما تم اعتبار بقايا المدرسة الطيبرسية ملحقاً للمكتبة ، وإن ظل لبعض الأروقة مكتبات خاصة بها تضم كتباً نادرة .

وبعد تمام إنشاء مكتبة الأزهر الجديدة تم جمع الكتب المبعثرة ، ثم أهديت لها مكتبات سليمان باشا أباظة وأحمد باشا راشد ومختار باشا الغازى ومعظم شيوخ الأزهر

وعلمائه ، وبهذه المكتبة أكثر من ١٠٠ ألف مجلد. كما أنشأ الخديو عباس الرواق العباسى الذى افتتح عام ١٨٩٨م .

وفى عصر الملك فؤاد الأول اكتشف المحراب الفاطمى القديم فتم إصلاحه . ثم أصدر الملك عام ١٩٣٠م أوامره بإنشاء كليات أصول الدين والشريعة واللغة العربية . وفى ستينيات القرن العشرين تم وضع نظام جديد للتدريس فى الجامع الأزهر فيما سمى بتطوير الأزهر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر ، بإنشاء كليات الطب والتجارة والدراسات الإسلامية وغيرها . . وقبيل نهاية القرن العشرين ، وفى عصر الرئيس حسنى مبارك تمت أعمال كبيرة للصيانة مع تجديد شامل لمبانى الجامع الأزهر . . وتم نقل مقر مشيخة الأزهر إلى مبنى حديث أقيم فوق تلال الدراسة ، وإنشاء الكليات الجديدة ومقر الجامعة فى مدينة نصر ، وظلت الكليات القديمة فى موقعها القديم حول الجامع الأزهر وكذلك مدينة البعوث الإسلامية ، مع إنشاء مبانٍ جديدة لسكنى طالبات الجامعة فى مدينة نصر .

وتظل هناك علامات بارزة فى تاريخ الأزهر . . منها الدور الكبير لمقاومة الحملة الفرنسية على مصر بين عامى ١٧٩٨ و١٨٠١م حتى اقتحمت الخيل الأزهر . . وكان لعلماء الأزهر دورهم الكبير فى وضع محمد على باشا والياً على مصر عام ١٨٠٥م، ثم الدور الشعبى الكبير لطلبة وعلماء الأزهر خلال الثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩م . عندما خطب علماء وشيوخ الأزهر فى الكنائس . . وخطب القسس وفى مقدمتهم الأب جرجريوس من فوق منبر الأزهر دعوة ودعماً لثورة الشعب الأولى ضد الاحتلال .

مشهد الإمام .. وشى الله يا حسين :

منطقة حى الحسين من أصغر أحياء القاهرة المحروسة . . وحى كله يتحلق فى دائرة صغيرة حول المسجد والمشهد الحسينى ، وكأن الناس يريدون أن يلتصقوا بصاحب المشهد الحزين تقرباً وطلباً للشفاعة فهو ابن بنت النبى ﷺ . ولعشق المصريين للإمام

الحسين كانوا يحرصون على زيارة مشهد الإمام الحسين . . ولهذا نجد الكثير من الخانات التى هى فنادق ولوكاندات أيام زمان . . كما نجد منذ بداية القرن العشرين عديدًا من اللوكاندات الصغيرة ورخيصة السعر. كما كان لقرب حى الحسين وملاصقته للأزهر ولحى القصبة حيث دائرة النشاط الاقتصادى لمصر كلها . كان لكل هذا أثره فى أن يصبح هذا الحى مع حى الأزهر المركز التجارى لمصر، وكانت تباع فيه وتشترى كل السلع المصرية أو الواردة من الشام والسودان والمغرب . وحى الحسين محصور بين الأزهر والغورية وخان الخليلى وبيت القاضى .

ويحب كل المصريين الإمام الحسين ، ويحرصون على زيارة مشهده ، ليس فقط لأنه حفيد رسول الله ، ولكن بسبب الظلم الذى وقع له حتى سقط شهيداً فى كربلاء ، ومثل الأمويون بجثته وقطعوا رأسه . فما حكاية الإمام الحسين الذى وضع اسمه على واحد من أشهر أحياء القاهرة المحروسة ؟! .

هو ابن على بن أبى طالب ، ولد فى شعبان من السنة الرابعة للهجرة ، وأذن الرسول الكريم ﷺ ، فى أذنه . . وسماه حسيناً ، وهو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة . أمه السيدة فاطمة بنت الرسول الكريم ﷺ ، وكجزء من الصراع السياسى نشب الصراع رهيباً بين البيت الأموى وبين معارضيه . . وكان أشد ما يكون مع آل البيت ، وفى مقدمتهم الحسين بن على ، رغم تنازل الحسن لمعاوية . . ولما مات معاوية كتب أهل الكوفة إلى الحسين يسألونه القدوم إليهم وبايعوه فصدقهم وسافر من مكة إلى العراق ، ووقعت معركة كربلاء وسقط الحسين شهيداً فى كربلاء فى شهر المحرم من عام ٦١هـ ، بعد أن تآلبت عليه جيوش عبد الله بن زياد والى الكوفة ، وأصابه سهم فى فمه، ثم قطعوا رأسه ، وكذلك رؤوس ٧٢ من رجاله وعشيرته ، وبعث قادة جند الأمويين بالرؤوس إلى والى الكوفة .

وتم دفن جسد الحسين ومن معه فى اليوم الثانى فى كربلاء ويعرف قبره إلى اليوم بمشهد الحسين هناك ، وأرسل الأسرى ومعهم رأس الشهيد الحسين إلى دمشق حيث يزيد بن معاوية . فلما وضع الرأس بين يديه بكى ، ثم أمر بإرسال النساء والأطفال

مكرمات إلى المدينة المنورة ، وبعث برأس الشهيد إلى واليه فى المدينة عمرو بن سعيد فكفنها وأمر بدفنها بالبقيع قرب أمه وأخيه الحسن. وقيل إن الرأس الكريم أعيد إلى الجسد بعد ٤٠ يوماً ودفن معه فى كربلاء . وقيل إن الرأس دفن عند باب الفراديس بدمشق . وقيل إن الرأس وضع بخزانة السلاح بدمشق وبقى بها حتى ولى سليمان ابن عبد الملك عام ٩٦هـ ـ ٧١٤م ، فحمل الرأس فى ثوب وعطره وصلى عليه ودفنه فى مقابر المسلمين. وقيل إن القبر نبش بعد ذلك وأخذ منه الرأس ، ويروى أن الرأس نقل بعد ذلك إلى عسقلان ، إلى أن زارها بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله عام ٤٨٤هـ ـ ١٠٩١م ، فأرشدوه عن مكان الرأس فأخرجه وأنشأ عليه مشهداً كبيراً.

ويقال إن أبا مسلم الخراسانى بعد أن استولى على دمشق نقل الرأس منها إلى مرو فدفن بها فى دار الإمارة . ولهذا السبب نجد مشاهد عديدة باسم الحسين فى مدن عديدة من مرو شرقاً إلى حلب إلى دمشق إلى عسقلان فى فلسطين. ويقال إن الرأس الكريم كان فى عسقلان ، فلما استولى الصليبيون على المدينة خافوا عليها ، وتم نقل الرأس إلى القاهرة ودفن بها فى المشهد المعروف الآن بمصر. . وتناول موقع الرأس كثير من المؤرخين ، حتى قيل إن الرأس حمل إلى القاهرة فوصل إليها يوم الأحد ٨ جمادى الآخرة عام ٥٤٨هـ ـ ١١٥٣م ، ويقول القلقشندى إن الرأس نقل من عسقلان إلى القاهرة عام ٥٤٩هـ ـ ١١٥٤م ، وأخذ ابن إياس بنظرية مشهد عسقلان ونقل الرأس إلى مصر .

المشهد الحسينى بالقاهرة ووصول الرأس إلى مصر :

عندما وصل الرأس الشريف من عسقلان إلى القاهرة عام ١١٥٣م حمل فى سرداب إلى قصر الزمرد ، ثم دفن فى قبة المشهد الذى أنشىء خصيصاً له عام ٥٤٩هـ ـ ١١٥٤م ، ولما تولى صلاح الدين حكم مصر عام ١١٧١م أنشأ مدارس للمذاهب الأربعة ، منها مدرسة بجوار هذا المشهد. وهذا يعنى كما يقول العلامة حسن عبدالوهاب أن المسجد الحالى أقيم مكان تلك المدرسة لوجود الضريح خلف جدار المحراب .

وفى عام ١٢٣٥م بدأ أبو القاسم بن يحيى المعروف بالزرزور فى إنشاء منارة على باب المشهد، أتمها ابنه بعد عام ، وهى المنارة الحافلة بالزخارف الجصية فوق الباب الأخضر.

ثم زاد فى البناء وزير الصالح نجم الدين أيوب ، ولكن فى عام ١٢٤٨م حدث حريق بالمشهد ، فتم إصلاح ما حدث.

وتوالت أعمال العناية على مر الزمن خصوصاً فى فترة حكم العثمانيين لمصر إلى أن جدده الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١٧٦١م.

وعندما قرر عباس الأول والى مصر توسيع المسجد ، اشترى المبانى الملاصقة له وهدمها وبدأ البناء ولكنه توفى. إلى أن أمر الخديو إسماعيل عام ١٢٧٩هـ - ١٨٦٢م بتجديد المسجد وتوسعته ، وتم فتح السكة الجديدة ورأى ترك القبة على حالها ، ونقل إليها منبراً جميلاً كان فى جامع أزبك من ططخ بالأزبكية ، واشترى من ماله الخاص أعمدة رخامية من إستانبول. وتم بناء المسجد عام ١٢٩٠هـ - وبناء المنارة عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٣ - ١٨٧٨م) وأمر بعمل ستر مزركش له. وفى عام ١٨٨٥م تم كساء المحراب بالقاشانى ، ثم أمر الخديو عباس حلمى الثانى بإعادة نقوش القبة وفتح نوافذ جديدة بها ، ثم جدد الملك فؤاد الأول ستر المشهد ، وفى عهد الملك فاروق تم إصلاح أرضية القبة وأخرج التابوت الخشبى النادر وتم إصلاحه .

ولم يبق من المشهد الفاطمى إلا الباب الأخضر المبنى بالحجر ، وتخلف من المنارة الأيوبية التى أنشأها الزرزور القسم الأسفل منها .

وأهم ما بقى من المشهد القديم التابوت الخشبى ، الذى كان محتجباً تحت المقصورة، وهو تابوت موشى بالذهب والفضة وظل محتجباً عن الأنظار ٨ قرون ، ولم يسعد برؤيته إلا السيد محمود الببلاوى والسيد محمد الببلاوى . ويقول حسن عبد الوهاب - آخر من شاهد التابوت - إنه لما أمر الملك فاروق بوضع رخام جميل مكان قاشانى أرضية المقصورة . وعند كشف أرضية القبة انتهز الفرصة يوم ١١ سبتمبر

١٩٣٩م ، وهبط أسفل المقصورة ومعه محمد عرفة فبهرته صناعة التابوت ، ووجد التلف أصابه فصوره وعرض الأمر على لجنة حفظ الآثار العربية ، وأخرج التابوت وتم إصلاحه و إعادته إلى مجده الفنى ، ثم أودع دار الآثار العربية فى ٢٢ يناير ١٩٤٥م .

وهذا التابوت مصنوع من خشب الساج الهندى ، مكون من جنب ورأسين محاط بكتابات بالخط الكوفى والنسخ الأيوبى . وواضح أن صلاح الدين الأيوبى هو الذى أمر بصنع هذا التابوت .

وداخل المشهد الحسينى حجرة لحفظ المخلفات النبوية أنشئت عام ١٣١١هـ - ١٨٩٣م مجاورة للقبة ، وتشمل هذه الخزانة من الآثار النبوية : قطعة من القميص الشريف للرسول ﷺ ، ومكحلة ومرودين . وقطعة من العصا الشريفة وشعرتين من اللحية الشريفة . . وبها مصحفان كريمان بالخط الكوفى أحدهما بخط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والآخر بخط الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . . «وكان الخديو عباس حلمى الثانى هو الذى أمر بإنشاء حجرة المخلفات النبوية هذه .

ومصحف عثمان بن عفان تجاوزت أوراقه الألف ، ومكتوب على رق بالخط الكوفى البسيط الخالى من الإعجام والشكل ، وبكل صفحة ١٢ سطراً وحليت رؤوس السور بإفريز زخرفى . وأول المصحف مهلهل وعلى حافاته إحمرار يقال إنه دم عثمان . . وهذا غير صحيح ، كما يقول حسن عبد الوهاب . وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢م اهتمت الحكومة بالمسجد وتم تجديده وزيادة مساحته لتصل إلى ٣٣٤٠ متراً مربعاً ، بعد أن كانت مساحته ١٥٠٠ متر فقط ، وأضيف للمسجد مبنى من دورين لإدارته يقع فى الجهة الشرقية بجوار غرفة المخلفات ، كما أنشئت مكتبة خاصة بالمسجد مساحتها ١٤٤ متراً مربعاً .

وأزيلت المبانى التى كانت تحجبه عن الميدان ، وعملت واجهة جديدة للجامع ليصبح طولها ٤٥ متراً وعرضها ٨ أمتار . وصنع منبر جديد من الخشب العزيزى والجوز

التركى والزان ، وأقيمت دورة مياه جديدة فى الجهة البحرية . وقد أهدت طائفة البهرة للمسجد مقصورة من الفضة ، رصعت بفصوص من الماس عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م .

أما حجرة التابوت فتقع فى الطبقة الثالثة من أرض القبة ، وقد وضع الرأس فيها على كرسى من الأبنوس . وهى ملفوفة فى برنس أخضر ، وحولها نحو نصف أردب من الطيب الذى لا يفقد رائحته بتوالى السنين . وفوق الحجرة طبقة أخرى يسلك إليها من فجوتين على كل فجوة باب متين ، والحجرة مسقوفة بقضبان من الحديد الصلب .

وقبل أن نترك حى الحسين ، نقول إن هناك مسجداً بالقرب منه هو مسجد العدوى الواقع بعطفة الشنوانى المتفرعة من شارع السكة الجديدة بجوار المشهد الحسينى . وكان يشغل هذه البقعة دار الست زينب بنت السلطان قلاوون ، التى آلت بعد ذلك إلى وقف سيدنا الحسين، فلما تخربت اشتراها الشيخ حسن العدوى من ديوان الأوقاف وبنى الجامع على جزء منها . وكان يوجد بجوار هذه الدار ضريح الشيخ الشنوانى ، وعدة أضرحة أخرى أدخلها الشيخ العدوى فى حدود جامعه ، بعد أن جددها وأقام عليها مقصورة كما بنى لنفسه مدفنين. وأنشأ فى الجزء الباقى من دار بنت السلطان حماما للرجال والنساء ، ووقفه على الجامع وبنى ربعاً على باب الميضأة وأقام بقرب الحمام داراً لسكنه بقرب الباب الأخضر .

والشيخ العدوى الذى أنشأ هذا المسجد عام ١٢٨٣هـ هو حسن العدوى الحمزاوى ، أحد علماء المالكية بالأزهر ، ولد فى قرية عدوة من قرى مغاغة بالمنيا عام ١٢٢١هـ فنسب إليها . وعدوة يشتهر أهلها بزراعة الكتان ، وكانت تكثر بها قاعات الغزل والنسيج ، ويوجد فى عدوة مسجد كبير أنشأه أيضاً الشيخ حسن، الذى تلقى علومه فى الأزهر ثم تولى التدريس فيه وعمره ٢١ عاماً . وللشيخ تاريخ مجيد أيام الخديو إسماعيل والخديو توفيق . وكان الشيخ حسن من أبطال الثورة العرابية وحوكم بتهمة أنه أفتى بخلع توفيق ، وبسبب شجاعته هذه تم نفيه ـ بعد محاكمة العرابيين ـ إلى

قريته عدوة. وعندما توفى عام ١٣٠٢هـ دفن بالضريح بجوار ضريح الشيخ الشنوانى.

ويبقى أن نقول إن باب الديلم ، وهم من قبائل المغرب التى فتحت مصر مع جوهر الصقلى ، مكانه الآن المشهد الحسينى.

وبسبب الجو التاريخى والشرقى فى هذا الحى العريق يحلو للقاهريين أن يمضوا سهراتهم خصوصاً فى شهر رمضان حول الحسين وبالقرب من مشهده . وفى شوارع خان الخليلى الضيقة فيه ، ومن أشهر مقاهيه نجد مقهى الفيشاوى الذى بدأت فى عشرينيات القرن العشرين واشتهر بتقديم الشاى الأخضر مع الشيشة .

وتشتهر هذه المنطقة برائحة البخور الشرقى الجميل ، التى تضيف على الحى شيئاً من عبق التاريخ .

وللمصريين عشق كبير بالصلاة فى مسجد الإمام الحسين ، وبالذات صلاة الفجر فى شهر رمضان الكريم .

المثلث المبارك :

●● ونصل إلى حى السيدة عائشة الذى يتوسطه الجامع الذى يحمل الحى اسمه . . وقد أقيم هذا الجامع فى أقصى نقطة عمران فى شرق القاهرة ، وهو على حافة المدينة ويطل على مقابرها . . ويفصل ميدان السيدة عائشة عن ميدان صلاح الدين «قره ميدان» خط سكة حديد المحاجر ، ثم القلعة وبينهما منطقة عرب آل يسار. وشرق جامع السيدة عائشة بجنوب ، نجد مقابر المماليك ومنطقة أبو سبحة. أما جنوبى الجامع فنجد شارع الزرايب ومنطقة الزرايب وباب القرافة. وفى الغرب نجد جامع سيدى على البقلى وشارع البقلى ودرب الحصر لنصل إلى جامع السيدة سكينة غرباً ؛ حيث يتوسط الجامع منطقة جامع السيدة عائشة وموضع مدينة القطائع وجامع ابن طولون وقلعة الكبش وجبل يشكر . .

هذه هى معالم حى السيدة عائشة ، كما جاءت فى خريطة مطبوعة فى أول القرن العشرين.

ويمكن أن نتحدث هنا عن مثلث مبارك ، يمتد من جامع السيدة عائشة فى الشرق وجامع السيدة سكينة فى الغرب وجامع السيدة نفيسة . . ثم جبانة السيدة نفيسة للمسلمين. وفى الغرب من كل هذا نجد شارع الخليفة وامتداد شارع الأشرف ، وفى الشرق نجد مجرى العيون ، أما جنوب كل هذا فنجد جبانة الإمام الشافعى. وإذا تركنا هذا المثلث المبارك واتجهنا غربا ، نجد تلول زينهم جنوبى موقع مدينة القطائع وقلعة الكبش . وهذا المثلث يقودنا غرباً إلى حى السيدة زينب لنجد أهم الشوارع الطولية ، شارع السد البرانى ثم شارع طولى آخر هو شارع زين العابدين الذى يصب فى سكة المدبح ويتوسط حى البغالة.

أما الشوارع العرضية من جنوب شارع مراسينه . . فنجد شوارع سلامة والشيخ البغال وحارة الشيخ سليم وشارع التلول وشارع ممتاز ، وبعد أن نعبر سكة المدبح غرباً نصل إلى عشش زينهم. ومن سكة المدبح ننزل إلى شارع السلخانة فميدان السلخانة فالمدبح نفسه. وبين سكة المدبح وشارع السلخانة نجد جامع سيدى على زين العابدين.

واللافت للنظر أننا نجد جنوب عشش زينهم ، وغير بعيد ، عن جامع زين العابدين ، وحول المدبح نجد جبانة الأرمن وجبانة الأقباط الارثوذكس وجبانة الإفرنج الكاثوليك القديمة وجبانة البروتستانت القديمة وجبانة الإفرنج الكاثوليك الجديدة شرق شارع سيدى حسن الأنور الذى يؤدى إلى جامع حسن الأنور شرقى فم الخليج. وبين عشش زينهم نجد حى الديورة وسط كل هذه الجبانات، وقبل أن نصل إلى فم الخليج.

ولكن ما صورة هذا المثلث بعد ٤٠ عاماً من الخريطة السابقة ؟

نجد العمران زاد وانتشر شرقاً وجنوباً وغرباً ، رغم أن سجن المنشية مازال موجوداً

جنوب ميدان صلاح الدين «قره ميدان» ، فشارع الإمام الليثى يمتد جنوبا بعد أن يعبر حوش الباشا الذى يصب فيه شارع السيدة نفيسة. وشرق كل هذا نجد شارع الإمام الشافعى.

وجنوب مسجد السيدة عائشة نجد باب القرافة وباب قايتباى وظل شارع البقلى فى الغرب، وغربه شارع الركبية وامتداده شارع الخليفة فشارع الأشرف. وكان كل هذا موجوداً منذ خريطة أوائل القرن العشرين شرق جامع السيدة سكينة وجنوب باب السيدة نفيسة . ونجد تلول زينهم تتقلص ؛ إذ يزحف العمران عليها شمالاً من حى طولون وغربا من زين العابدين ، كما هى بالأسماء نفسها . . أما الأحياء فتبقى كما هى بأسمائها.

وفى حى زين العابدين تستمر المسميات ، ونجد شارع زين العابدين يصل بين ميدان السيدة زينب إلى أن يصب فى سكة المدبح. وفى الشرق من هذا كله نجد باب طولون.

ونصل إلى المثلث المبارك فنجد فى ميدان السيدة عائشة ، تم بناء كوبرى معدنى علوى ؛ لتعبر عليه حركة المرور ، بعد أن زادت الحركة على محور طريق صلاح سالم . وتتضح أكثر معالم هذا المثلث ، فنجد حى الخليفة وقد ازدادت فيه حركة العمران. . فنجد شارع الإمام الشافعى وغربه شارع الإمام الليثى ثم شارع السيدة نفيسة فشارع عين الصيرة ، بينما تظل سكة حديد حلوان ـ المحاجر ـ فإذا انتقلنا إلى السيدة زينب والبغالة نجد شوارع السد البرانى ، بعد أن يعبره كوبرى فم الخليج العلوى ويتقاطع معه شارع بيرم التونسى ، الذى يصل إلى حى زينهم ، وشمالاً نجد شارع عبد المجيد اللبان وشارع قدرى ، ويبدأ شارع بورسعيد من عند شارع السد البرانى من ميدان السيدة زينب نفسه .

وفى خريطة طبعتها مصلحة المساحة عام ١٩٦٢م ، وأعيد طبعها عام ١٩٨٤م ، نجد جامع ومقام سيدى على زين العابدين يتوسط مستطيلاً ضلعه الشمالى شارع بيرم

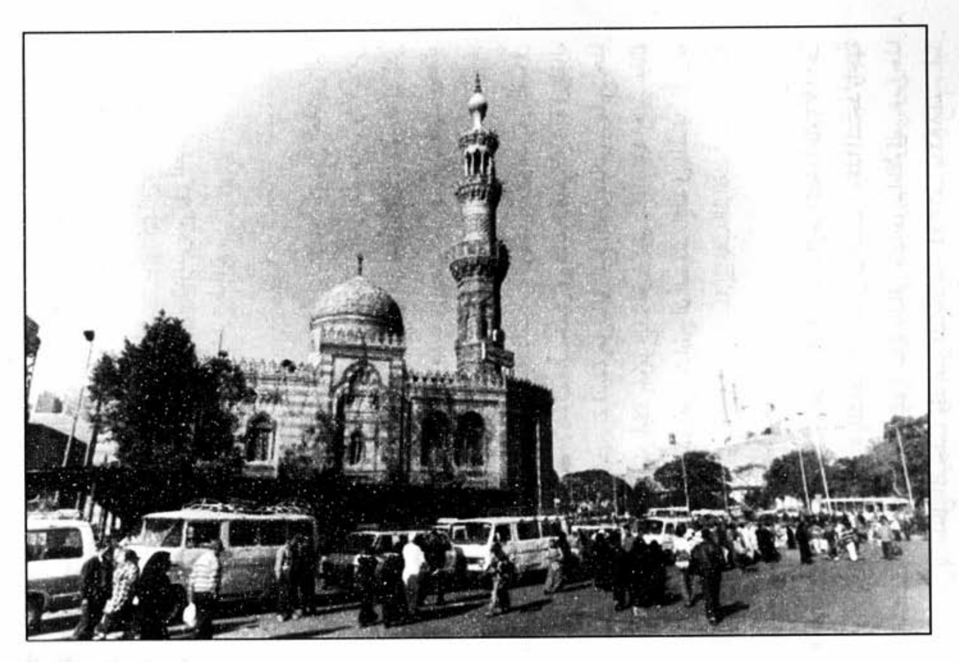
التونسى ، وضلعه الجنوبى شارع ابن يزيد ، وضلعه الغربى شارع السلخانة والمدبح القديم نفسه . أما الضلع الشرقى والجنوبى ، فيصل الى شارع مجرى العيون . أما شارع زين العابدين ، فيبدأ من ميدان السيدة زينب شرق جامع ومقام السيدة زينب بين الجامع غرباً وقسم شرطة السيدة شرقاً . أما حارة سيدى زينهم فتبدأ من شارع الشيخ البغال ، وتتجه جنوباً إلى أن تصل إلى شارع بيرم التونسى . وفى أقصى الشرق من السيدة زينب ، نجد مسجد أحمد بن طولون وشارع طولون .

ولكن من هى السيدة عائشة ؟

هى بنت جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام على زين العابدين ابن الإمام الحسين بن على . . وهى أخت الإمام موسى الكاظم رضى الله عنه . وكانت من العابدات المجاهدات . وكانت تقول مخاطبة المولى عز وجل : وعزتك وجلالك لئن أدخلتنى النار لآخذن توحيدى بيدى وأطوف به على أهل النار ، وأقول لهم : وحدته فعذبنى !! وقد توفيت عام ١٤٥هـ . .

وهناك إجماع على وجودها بمصر . يقول ذلك ابن الزيات ، وهو خير من ألَّف فى أعلام القرافتين الكبرى والصغرى . وتبعه السخاوى فى كتابه « تحفة الأخبار » فى القول إنها بمصر ، وأنه عاين قبرها فى تربة قديمة على بابها لوح رخامى مكتوب عليه : هذا قبر السيدة الشريفة عائشة من أولاد جعفر الصادق. توفيت عام ١٤٥هـ . وقال الشعرانى فى متنه : أخبرنى سيدى على الخواص أن السيدة عائشة فى المسجد الذى له المنارة الصغيرة على يسار من يريد الخروج من الرميلة إلى باب القرافة ، وكل هذا يؤكد أنها شرفت مصر وتوفيت عام ١٤٥ هـ ـ ٧٦٢م

●● أما مسجد السيدة عائشة ، فقد أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٦هـ ـ ١٧٦٢م وكانت له عناية كبيرة بالمشاهد المنسوبة إلى آل البيت . ولهذا المسجد واجهة غربية اشتملت على بابين ، تقوم بينهما المنارة والباقى منها دورتها الأولى . ومن هذا الباب يتوصل إلى داخل المسجد . وقد عمر المسجد عام ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٦م ، أما



مسجد السيدة عائشة فى ظلال القلعة ومسجد محمد على باشا فى الحى الذى يحمل اسمها .



مسجد السيدة سكينة .

الباب الثانى فتوجد على يساره المنارة . وهذا الباب يؤدى إلى طرقة على يسارها باب له عقد تحيط به كرانيش متعرجة ، يؤدى إلى المسجد ، وبصدرها القبة التى فرشت أرضيتها بالرخام الملون ، وتتوسطها مقصورة خشبية حول القبر الشريف . ومن المرجح وجود حجرة تحت أرضية هذه القبة تضم تابوتاً أثرياً، كما هو مألوف فى كثير من المشاهد ، ففى عام ١٩١٣م قامت لجنة حفظ الآثار العربية بفحص قبة محمد الأنور بشارع الخليفة ، وكانت من القباب الفاطمية ، وتبين أنها لما جددت عام ١١٩٥هـ ـ ١٧٨١م ، احتفظ بقاعدة القبة القديمة وبالقبر بها ، وعملت أرضية جديدة .

ويؤكد أحمد زكى باشا ـ كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب ـ أن المشهد القائم فى هذا المكان باسم السيدة عائشة النبوية هو حقيقة متشرف بضم جثمانها الطاهر . ولما أدى الملك فاروق فريضة الجمعة يوم ٨ المحرم عام ١٣٥٩هـ ـ ١٦ فبراير ١٩٤٠م ، أمر بإصلاح المسجد والعناية به ، فتم إصلاح الأبواب ودكة المبلغ وعمل منبر له ونقشت سقوفه ، وأحيطت جدران المسجد بوزرة خشبية ملونة تقليداً للرخام .

وقد ظل قبر السيدة عائشة حتى القرن السادس الهجرى مزاراً بسيطاً ، يتكون من حجرة مربعة تعلوها قبة ترتكز على صفين من المقرنصات . أما فى العصر الأيوبى فقد انشئ بجوار القبة مدرسة ، وعندما أحاط صلاح الدين عواصم مصر الأربع بسور واحد ، فصل هذا السور قبة السيدة عائشة عن بقية القرافة ، فرأى صلاح الدين أن يقيم بجانب القبة مدرسة ، كما أنه فتح فى السور باباً سماه باب السيدة عائشة وهو المعروف بباب القرافة .

والمسجد الآن بشارع السيدة عائشة عند بداية الطريق الموصل إلى مدينة المقطم . وقد تهدم المسجد القديم فأعاد بناءه الأمير عبد الرحمن كتخدا فى القرن ١٨م .

●● ونصل إلى السيدة سكينة . . فمن هى ؟

هى السيدة آمنة بنت الحسين بن على بن أبى طالب ، أمها رباب بنت أمرئ القيس

بن عدى بن ثاو سيد بنى كلب . ولدت عام ٤٧هـ وسميت باسم جدتها أم سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم لقبتها أمها رباب باسم سكينة لأن نفوس أسرتها كانت تسكن إليها لفرط مرحها وحيويتها .

بدأت شخصية السيدة سكينة تظهر فى مكة ، عندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، فحين أقبل موسم الحج عام ٦٠هـ كانت سكينة قبلة الأنظار لحسنها وأناقتها الساحرة حتى صارت مثلاً يحتذى ، ولكن هذا لم يلهها عن التعبد الذى يصل إلى درجه الاستغراق . وخرجت سكينة من المدينة مع والدها الحسين عام ٦٠هـ يريد الكوفة ليجاهد بأهلها ضد الطغيان الأموى . وبعد استشهاد الحسين وأصحابه فى كربلاء ، ساق زياد بن أبية والى الكوفة السيده سكينة مع بقية نساء آل البيت إلى دمشق سبايا إلى الخليفة يزيد بن معاوية ، ثم عادت إلى المدينة لتعيش مع أمها رباب التى ماتت بعد عام .

واختلفت الروايات عن أزواج السيدة سكينة ، وإن اتفقت على ثلاثة هم : مصعب بن الزبير . . ثم عبد الله بن عثمان بن عبد الله . . ثم زيد بن عمرو بن عثمان ابن عفان .

وكانت سكينة سيدة المجتمع الحجازى ، كما تقول الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر » . وكانت السيدة سكينة هى أول من استنت فكرة الصالونات الأدبية ثم تبعتها سيدات قريش ، وامتازت ندواتها بالعلم و الشعر والأدب الرفيع ، وكان الرجال يحتكمون إليها .

وماتت السيدة سكينة عام ١١٧ هـ ، وخرج نعشها ، وأمر أمير المدينة الأموى أن يؤخروا الصلاة عليها حتى يحضر ، وجلس الناس حولها حتى العشاء ولم يحضر الأمير فصلوا عليها جماعات ، وفى صباح اليوم الثانى دفنوها ودفنوا معها العلم والأدب والفن .

وضريح السيدة سكينة يقع بحى الخليفة فى شارع يحمل اسمها ، واختلف المؤرخون



مسجد السيدة نفيسة فى الحى الذى يحمل اسمها .

فى صحة وجودها به . والذين يقولون بوجودها فى مصر يعتمدون على رواية أن والى مصر من قبل الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان خطبها فجاءت إلى مصر ، وهى أول من دخلها من نسل الإمام على كرم الله وجهه ، ثم عادت إلى المدينة المنورة . ويقولون إنها جاءت مصر مع عمتها السيدة زينب ، وقالت الدكتورة بنت الشاطئ إنها ترى أن السيدة سكينة قد عادت إلى الحجاز بعد وفاة عمتها زينب عام ٦٢هـ .

وإذا كانت قد شاعت أن يلجأ الناس إلى الأضرحة يتلمسون بركة آل البيت ويواجهون المحن والبلاء . . فإن هناك ما يعرف باسم أضرحة الرؤيا ، فإذا رأى ولى من الأولياء فى منامه رؤيا مؤداها أن يقيم مسجدا أو ضريحاً لأحد من آل البيت المسمى فى الرؤيا ، كان عليه أن يقيم المسجد أو الضريح باسمه .

●● ونصل الى السيدة نفيسة :

هى ابنة الإمام الحسن الأنور بن زيد الأنلج ابن الإمام الحسن بن على بن أبى طالب، ولدت بمكة عام ١٤٥هـ ، ونشأت بالمدينة المنورة ، وكانت لاتفارق حرم الرسول عليه السلام . حجت ٣٠ حجة أدت معظمها ماشية ، وكانت تبكى بشدة وتتعلق بأستار الكعبة . قالت عنها ابنة أخيها إنها خدمت عمتها نفيسة ٤٠ عاماً فما رأتها نامت الليل ولا أفطرت بنهار . . وكانت تحفظ القرآن وتقرأ تفسيره وهى تبكى. وزارت مع زوجها قبر إبراهيم الخليل ، ثم رحلا معاً إلى مصر فى رمضان ١٩٣ هـ ، وكان لقدومها إلى مصر أمر عظيم تلقاها الرجال و النساء بالهوادج من العريش ، وقد أحبها أهل مصر حباً جماً ، ويعتقدون فى كراماتها ؛ فكانوا إذا نزل بهم أمر جاءوا إليها يسألونها الدعاء . وبسبب ازدحام الناس حول بيتها ، فكر زوجها أن يرحل معها إلى الحجاز ، ولكنها قالت له إنها رأت فى المنام رسول الله ﷺ يقول لها : لاترحلى من مصر، فإن الله تبارك وتعالى متوفيك بها . .

وكانت السيدة نفيسة تتناول أكلة واحدة كل ثلاثة أيام ، وأقامت السيدة نفيسة

بمصر ٧ سنوات . وفى شهر رجب ٢٠٨ هـ مرضت . ولما أحست بدنو أجلها ، كتبت إلى زوجها إسحق المؤتمن كتاباً ، وحفرت قبرها بيدها فى بيتها . وكانت تنزل فيه وتصلى كثيراً . وقرأت فيه ١٩٠ ختمة . وكانت إذا عجزت عن القيام تصلى قاعدة وتسبح وتقرأ كثيراً وتبكى بشدة . ولما حانت الساعة ، وكان ذلك أول جمعة من شهر رمضان ، قرأت سورة الأنعام ، وكان الليل قد هدأ ، فلما وصلت الى قوله تعالى (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) غشى عليها فضمتها زينب ابنة أخيها إلى صدرها فشهدت شهاده الحق وتوفيت إلى رحمة الله . .

وأراد زوجها أن يحملها إلى المدينة ليدفنها فى البقيع ، فاجتمع أهل مصر إلى الوالى عبدالله بن الحكم واستجاروا به عند زوجها ليرده فأبى . فجمعوا له مالاً وفيراً حتى وسق بعيره وسألوه أن يدفنها عندهم فأبى . فلما أصبحوا وجدوه مستجيباً لرغبتهم ، فلما سألوه عن سبب هذا التحول ، قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لى رد عليهم أموالهم وأدفنها عندهم . »

ودفنت السيدة نفيسة بدارها بدرب السباع بين القطائع والعسكر ، التى عرفت بعد ذلك بكوم الخارجى . وكان يوم دفنها يوماً عظيماً مشهوداً ، فقد هرع أهل مصر فصلوا عليها بعد دفنها . وبعد ذلك خرج زوجها إسحق المؤتمن من مصر ، ومعه ولداه القاسم وأم كلثوم إلى المدينة حيث ماتوا جميعاً ودفنوا بالبقيع .

وكان يفد على السيدة نفيسة فى حياتها رجال الدين الإسلامى وكبار العلماء ؛ فقد زارها الإمام الشافعى ومعه الوالى عبد الله بن الحكم ، ولما مات الشافعى عام ٢٠٤ هـ أدخلت جنازته إليها فصلت عليه فى دارها ، وكانت موضع مشهدها الحالى. وقالت : رحم الله الشافعى فقد كان يحسن الوضوء . .

ولا خلاف على قبر السيدة نفيسة .

وأول من بنى على قبرها هو عبد الله بن السرى بن الحكم والى مصر الأموى ، ثم أعيد بناء الضريح فى عهد الدولة الفاطمية ؛ حيث أقيمت عليه قبة عام ٤٨٢ هـ .

وتصدعت القبة فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، فجددت وكسى المحراب بالرخام عام ٥٣٢ هـ .

كما عمر الأمير عبد الرحمن كتخدا المشهد النفيسى ومسجده ، وبنى الضريح على هيئته الحالية . وجعل لزيارة النساء طريقاً بخلاف طريق الرجال عام ١١٧٣هـ ، وقد تم وقف ١٥٠ فدانا ، وكذلك عدد من الرباع والحوانيت للإنفاق عليه ؛ بالإضافة إلى حصيلة صندوق النذور .

●● ثم نصل إلى مشهد الإمام زين العابدين فى الحى الذى يحمل اسمه :

هو الإمام زيد بن على المعروف بزين العابدين ، ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، وإليه تنسب طائفة الزيدية أكبر فرق الشيعة وأكثرها اعتدالاً وقرباً إلى أهل السنة . . وانتشرت الزيدية فى اليمن وطبرستان . وكان زيد يحدث نفسه دائماً بالخلافة ، ويرى أنه أهل لذلك ، ولما وفد على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك آنس منه جفوة ، فكانت سبب خروجه على بنى أمية ومطالبته بالخلافة ، فسار إلى الكوفة ، ولكنه هم بالرجوع إلى المدينة فتبعه أهل الكوفة وأقنعوه بالبقاء ومحاربة بنى أمية . هنا حشد يوسف بن عمر أمير الكوفة جيوشه ووقعت معركة فانفض عنه أصحابه ، وبقى هو وفئة قليلة من أهله يقاتل قتالاً شديداً ، حتى سقط شهيداً فى شهر صفر عام ١٢٢هـ ـ ٧٣٩ م .

واختلف المؤرخون على مكان دفنه . كما اختلفوا من قبل على رأس جده الحسين . فقيل إنه حمل إلى الكوفة ، ثم أحرق وذر رماده فى نهر الفرات ، وقيل : بعث برأسه إلى هشام بن عبد الملك فنصبه على باب دمشق ثم أرسله إلى المدينة . أما الكندى فيؤكد أن الرأس جاء إلى مصر ودفن بها . وقيل إنه بعد قدوم رأسه إلى مصر ، طيف به ثم نصب على المنبر بالجامع بمصر ؛ أى جامع عمرو بن العاص عام ١٢٢هـ ، فسرق ودفن فى هذا الموضع ، إلى أن ظهر وبنى عليه مشهد فى الدولة الفاطمية .

وهناك رواية تقول إن أصحابه بعد استشهاده قرب الكوفة ، حفروا له ساقية ودفنوه فيها وأجروا الماء على قبره خوفاً من التمثيل به . ثم أُرشد عن قبره يوسف بن عمر أمير

الكوفة ، أرشده عنه حجام حضر مواراته ، فأخرجه أمير الكوفة وصلبه ثم أحرقه وذرى رماده فى الفرات . وقيل إن أمير الكوفة بعد إحراقه ذرى نصفه فى نهر الفرات ، ونصفه فى المزارع ، وقال الأمير يوسف بن عمر : والله يا أهل الكوفه لأدعنكم تأكلونه فى طعامكم (يقصد الزرع) وتشربونه فى مائكم (يقصد مياه الفرات) .

ومشهد زين العابدين عرف قديماً باسم مسجد محرس الخصى . . وعليه نص تاريخى يقول إنه أنشئ عام ٥٤٩ هـ .

وكان حى زين العابدين يعرف فى أوائل العصر الإسلامى باسم الحمراء القصوى ، وهى تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط « مصر القديمة الآن » ، وعليها أسس العباسيون مدينة العسكر ثانية عواصم مصر الإسلامية .

والمسجد الموجود حالياً يرجع إلى أوائل القرن ١٩ الميلادى ، جدده وبنى معظم مبانيه عثمان أغا مستحفظان . ولم يعد باقياً من العمارة القديمة الفاطمية إلا عقد واحد، يوجد بالطرقة الداخلية على يمين الداخل إلى رواق القبلة . أما القبة التى تعلو الضريح ، فترجع إلى العصر المملوكى فى القرن الثامن الهجرى . وفى أواخر القرن ١٣ الهجرى ، تم عمل مقصورة جديدة للضريح ، هى نموذج لصناعة الحديد المزخرف بمصر أنشأها محمد قفطان باشا عام ١٢٨٠ هـ ـ ١٨٠٥م ، وكسا عتب باب القبة ببلاطات من القيشانى الأزرق العثمانى الجميل . وبداخله مقبرة بناها لنفسه ولزوجة عثمان أغا أمير اللواء مستحفظان مصر ودفن فيها هو وزوجته .

وأمر الملك فاروق بتحديد واجهة المسجد عام ١٩٤٤م ، وجدد معها الباب القديم مع المحافظة على تفاصيله القديمة .

ويحمل الحى كله اسم حى زين العابدين نسبة إلى الإمام زيد هذا . . بل إن الاسم الشائع ، وهو اسم زينهم وتلال زينهم أصلها أن الناس كانت تصف الإمام زيد بأنه زين الرجال . . وزين العابدين . . ومن هنا جاءت كلمة زينهم . .

* * *



حى زين العابدين المدبح أو المجزر الرئيسى للقاهرة قبل نقله إلى حى البساتين جنوب القاهرة .

الحسينية ..
حى الفتوات والثورة والمغول !!

الحسينية .. واحد من أشهر الأحياء الشعبية فى القاهرة المحروسة ومن أقدمها . رغم أنه نشأ خارج القاهرة المعزية !! وهو حى له تاريخ ، ليس فقط فى العمارة .. ولكن فى السير الشعبية ، وفى الثورات والجدعنة ، ولاغرو أن عرفنا الحى بفتواته ، وهل منا من ينسى : فتوات الحسينية ؟!

ولقد اختلف المؤرخون على تاريخ بدايته ، كما اختلفوا على أصل تسميته ، ربما بسبب تعرضه لكثير من المحن والمتاعب . قال المقريزى فى خططه : « إن طائفة من عبيد الشراء تسمى بهذا الاسم سكنت هذه البقعة فسميت باسمهم » .. وقال فى موضع آخر : الحسينية منسوبة لجماعة من الأشراف الحسينيين « هل من آل الإمام الحسين » كانوا فى أيام الملك الكامل الأيوبى قدموا من الحجاز ، فنزلواخارج باب النصر بهذه الأمكنة واستوطنوها . وبنوا فيها مدابغ صنعوا بها « الأديم » المشبه بالطائفى ، فسميت الحسينية ، ثم سكنها الجند بعد ذلك وابتنوا بها الأبنية العظيمة ..

ويقول على باشا مبارك فى خططه ، وقد رجح القول الأول واستدل له بأن الطائفة الحسينية إنما قدموا فى أيام الملك الكامل بعد عام ٦٠٠ هـ ، والحسينية كانت موجودة قبل ذلك بنحو ٢٠٠ سنة .

●● وأول بناء فيها كان أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى ؛ فقد نقل المقريزى عن المسبحى فى حوادث عام ٣٩٥هـ ، أن الحاكم بأمر الله أمر أن تعمل شونة فيما يلى

الجبل وتملأ بالسنط والبوص والحلفاء . فابتدئ فى عملها فى ذى الحجة عام ٣٩٤هـ، وتم فى ربيع الأول عام ٣٩٥هـ ، فخامر قلوب الناس فى ذلك جزع - كما يقول - خصوصاً كل من كان يتعلق بخدمة الخليفة الفاطمى متقلب المزاج . وظنوا أن هذه إنما عملت لهم ، ثم قويت الإشاعات وتحدث الناس فى الطرقات بأنها محرقة تعد للكتاب وأصحاب الدواوين . .

فاجتمع سائر الكتاب « أو الموظفين » وخرجوا بأجمعهم فى اليوم الخامس من ربيع الأول ، ومعهم سائر المتصرفين فى الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الرماحين بالقاهرة ، حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ، وكتبوا رقعة يطلبون فيها العفو عنهم . ويسألون الخليفة أن لا يقبل منهم قول من يسعى بينه وبينهم ، وسلموا هذه الرقعة إلى قائد القواد الحسين بن جوهر ، فأوصلها إلى الحاكم بأمر الله ، فأجيبوا إلى ما سألوا ، وخرج إليهم قائد القواد فأمرهم بالانصراف والبكور فى الغد لقراءة سجل بالعفو عنهم . ونسأل هنا : هل يمكن أن تنسب الحسينية - بسبب دوره فى العفو عنهم - إلى قائد القواد هذا الحسين بن جوهر ؟!!

ونقل على باشا مبارك فى خططه عن ابن عبد الظاهر أن الحارات التى عن ميمنة الخارج من باب الفتوح وميسرته : الميمنة إلى الهليلجة ، وهى طائفة من عساكر الفاطميين ، والميسرة إلى بركة الأرمن ، وهى بركة جناق برسم الريحانية الغزاوية ، وهى طائفة أخرى من العساكر الفاطمية ، والمولدة والعجمان وهذه الحارات وتلك هى حى . . الحسينية . .

والحسينية تتكون من ثمانى حارات ، هى : حارة حامد . . حارة المنشية الصغيرة ، والكبيرة . . وبين الحارتين . . والحارة الكبيرة . . والحارة الوسطى . . والسوق الكبير . والوزيرية . .

ثم قال : إعلم أن الحسينية شقتان : إحداهما ما خرج من باب الفتوح وطولها من خارج باب الفتوح إلى الخندق أى إلى الدمرداش . وهذه الشقة هى التى كانت مساكن الجند أيام الخلفاء الفاطميين ، وبها كانت الحارات المذكورة .

والشقة الأخرى ما خرج من باب النصر ، وامتد فى الطول إلى الريدانية «العباسية». وهذه الشقة لم يكن بها فى أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العيد تجاه باب النصر. وما بين المصلى إلى الريدانية فضاء لا بناء فيه ، وكانت القوافل إذا برزت تريد الحج . . تنزل هناك . .

●● وهناك رواية أخرى عن أصل الحسينية ، تقول إن تخطيطها بدأ مع بداية القرن الحادى عشر الميلادى ، عندما تم تخطيطها حارة كبيرة خارج باب الفتوح ، عرفت بالحارة الحُسينية نسبة إلى قائد القواد الحسين بن جوهر . .

وهناك رواية تقول إنه فى زمن الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، الذى تولى الحكم عام ١٢٩٤ ـ ١٢٩٥م الموافق عام ٦٩٤هـ ، قدمت إلى مصر طائفة الأويراتية عام ٦٩٥هـ ، وهم طائفة من المغول ، حضروا إلى مصر فراراً من ملكهم غازان . فأنزلهم السلطان كتبغا فى هذه المنطقة ، بعد أن تغلب التتار على ممالك الشرق والعراق وجفل الناس إلى مصر . . ونزل هؤلاء المغول مصر بهذه المنطقة وعمروا بها المساكن ، ونزل بها أيضاً أمراء الدولة ، فصارت من أعظم عمائر مصر والقاهرة .

واتخذ الأمراء بها من بحريها فيما بين الريدانية ـ وهى العباسية الآن ـ إلى الخندق وهى قرية سيدى الدمرداش مناخات الجمال وإصطبلات الخيل . ومن ورائها الأسواق ، وصار أهلها يوصفون بالحسن خصوصاً لما قدمت الأويراتية فازدادت العمارة بهذه الجهة ، وطائفة الأويراتية من جنس السلطان كتبغا نفسه .

وفى الحسينية ، بنى الأمير آل ملك الجوكندار جامعه وقصره وفندقاً وحماماً . كما أنه من بين ١٣٠ مسجداً عرفتها القاهرة فى زمن المماليك ، كان بالحسينية وحدها ١٢ مسجداً منها ، وكان يسكن فى الحسينية من جملة الأمراء ٣٠ أميراً تدق على أبوابهم الطبلخانات فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لذلك أمر الناصر محمد بتشييد عدة قناطر على الخليج ؛ لربط الحسينية بكوم الريش وأرض الطبالة ، فى البر الغربى للنيل .

وهذه القناطر هى من الشمال إلى الجنوب : قنطرة بنى وائل بين التاج والبعل فى الجانب الغربى للخليج والقسم الشمالى من الحسينية . وقناطر الأوز بين البعل والحسينية ، والقنطرة الجديدة بين باب الفتوح وأرض الطبالة ، وتعتبر مرحلة حكم الظاهر بيبرس مرحلة مهمة فى مراحل نمو المنطقة .

ولما كان بعد عام ٤٥٠هـ ، وقدم أمير الجيوش بدر الجمالى لإعادة الأمن فى مصر ، زمن المستنصر بالله الفاطمى ، أنشأ بحرى مصلى العيد خارج باب النصر « تربة » عظيمة . وفيها قبره وقبر ولده الأفضل ، ثم تتابع الناس فى إنشاء الترب . . ومازالت هذه المنطقة موضعاً للمدافن ومقابر أهل الحسينية والقاهرة إلى ما بعد عام ٧٠٠هـ ، ثم لم تعمر هذه الشقة إلا فى الدولة التركية .

ثم بدأ تعمير المساكن بها ونزل بها أمراء الدولة فصارت من أعظم عمائر مصر والقاهرة ، واتخذ الأمراء بها من بحريها فيما بين الريدانية والخندق « العباسية والدمرداش» مناخات للجمال وإصطبلات الخيل ، ومن ورائها الأسواق والمساكن العظيمة .

● الحسينية وعصر الانحدار :

ومازال أمر حى الحسينية متماسكاً إلى أن كانت الحوادث والمحن عام ٨٠٦ هـ وما بعدها ؛ إذ خربت حاراتها ، ونقصت مبانيها ، وبيع مافيها من الأخشاب وغيرها ، وبار معظم أهلها . .

وفى عام ٨٢٠ هـ ، كما يقول على باشا مبارك ، بدأ بناحية برج الزيات فيما بين المطرية وسيرياقوس ، فساد « القرض » التى تأكل الكتب والثياب . وأكلت أخشاب الأسقف فى سقوف الحسينية وغلات أهلها وسائر أمتعتهم حتى أكلت الجدران ؛ فبادر أهل الحسينية إلى هدم ما بقى من الدور خوفاً حتى قاربوا باب الفتح وباب النصر . .

وفى عام ١٢٠٢ هـ ، تولى إسماعيل باشا كتخدا حسن باشا القبطان قائد الجيش

العثمانى فى مصر ، الذى جاء ليحارب مراد بك وإبراهيم بك بعد انفصال عابدين باشا عنها ، وكان اليد اليمنى لحسن باشا قبطان إلى عام ١٢٠٥ هـ ، عندما نزل سيل كبير من ناحية الجبل الأحمر . وامتد فى جهة الجمالية وجامع الحاكم إلى أمد بعيد فى الحارات المجاورة لذلك ، وخرب بسببه أكثر خط الحسينية وما جاورها . وعقب ذلك ظهر طاعون استمر ثلاثة أشهر، مات فيه إسماعيل بك شيخ البلد ، وأقام خلفه مملوك عثمان بك طبل ، ثم تبعه نقص فيضان النيل عام ١٢٠٧ هـ ، ولم يف النيل أذرعه فحصل القحط.

●● وفى ثورة القاهرة الثانية ضد الحملة الفرنسية ، كان لحى الحسينية دوره الكبير فى مقاومة جيش الاحتلال، وفى الانقضاض عليه . واشتهر فتوات الحسينية بمطاردة جنود الاحتلال ، وفى التصدى لغاراتهم على الأحياء ، وفى حماية الأهالى من بطشهم .

وبعد أن نجح الفرنسيون فى هزيمة الجيش التركى ، الذى جاء لطردهم من مصر ، استداروا على الثوار فى بولاق فدمروها وأحرقوها ، ثم استداروا على ثوار الحسينية فنهبوا أغلب دور الحسينية وهدموها ، وكذلك قرية الدمرداش وضربوها بالمدافع لمدة ١٠ أيام.

واستمرت الثورة ٣٧ يوماً ضرب فيها الفرنسيون خط الأزبكية وخط الساكت إلى بيت محمد بك الألفى وخط الفوالة وخط الرويعى إلى حارة النصارى ، كما تم تخريب أغلب حارات بولاق وبركة الرطل وباب البحر .. ويضيف الجبرتى ضمن حوادث عام ١٨٠٠م أيام الجنرال مينو أن خططاً بأكملها تهدمت مثل خط الحسينية..

وكان فى خارج خط الحسينية عدة جوامع وزوايا ومدارس ، ومنها جامع آل ملك، وهو المدرسة الجنبلاطية خارج باب النصر أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك ، وهو جامع تخرب ولم يبق له أثر ، ومنها جامع الظاهر بيبرس البندقدارى ، وأقيم فى ميدان كان يعرف باسم ميدان قراقوش ، وكان هذا الميدان يتنزه فيه الظاهر بيبرس ويلعب فيه الكرة .

وبدأ فى بناء مسجده هذا عام ٦٦٥ وثم عام ٦٦٧ هـ ، وهو الجامع الذى تحول إلى الفرن الذى عرف باسم فرن الظاهر خارج الحسينية فى طريق الريدانية ، ثم أصبح مذبحاً للقوات الإنجليزية بعد الاحتلال ..

والريدانية تنسب إلى ريدان الصقلى ، أحد خدام الخليفة الفاطمى العزيز بالله . ويقول المقريزى فى خططه إن هذه المنطقة كانت بستاناً لريدان الصقلى ، والريدانية هذه هى العباسية ..

ومن أخطاط الحسينية كنا نجد خط خان السبيل ، الذى بناه الأمير بهاء الدين قراقوش ، ورصده لأبناء السبيل و المسافرين بغير أجرة، وبه بئر ساقية وحوض للمارة ودوابهم ..

وكان فى خط الحسينية « عرصة » أى سوق تباع فيها الغلال ، وكان فيه سوق يباع فيه الخشب ، ويجتمع فيه الناس كل يوم جمعة ويباع فيه الأوز والدجاج .

وكانت فيه أيضاً عدة مساكن مابين دور وحوانيت ، وقد اختل هذا الخط وانتهى . وخط الحسينية كان بجوار المدبح القديم ، ومحله على يسار المار فى طريق العباسية ، من بداية الطريق عند باب الحسينية . ويقول على باشا مبارك فى خططه إنه كانت هناك أرض منخفضة تزرع خضراوات ، وظلت ساقية موجودة بالقرب منه ، وهو المدبح الذى أقيم أيام محمد على باشا .

وبالقرب من درب الجميزة وعلى بابه جامع شرف الدين الكردى . وكانت هناك منظرة جميلة تعرف بمنظرة باب الفتوح ، كانت معدة لجلوس الخليفة الحاكم بأمر الله عند استعراض الجنود ووداعها إذا سارت للحرب . وكانت هذه المنظرة فى بستان أنيق يعرف بالبعل ، أنشأه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وموضع هذا البستان يعرف اليوم باسم البعل .

ومحل منظرة البعل كان فى مقابل قنطرة الأوز . وقد خربت وبنى فى محلها بركة تعرف باسم بركة الشيخ قمر ، وحولها كيمان أى تلال أزيل بعضها ، وأرض البعل

« على زمن الخديو توفيق » ، وهو أرض البركة ، وما جاورها بين الخليج وبعضها زال وأصبح جزءًا من ترعة الإسماعيلية .

أما منظرة التاج فكانت قصراً من قصور الخلفاء ، وكان بحرى الخليج المصرى وبناه الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد أزيل هذا القصر وتحول إلى مزارع ضمن أراضى منية السيرج ، وكانت حوله عدة بساتين وأعظم ما كان حوله قبة الهواء تجاه قنطرة بنى وائل .

وكان البستانان اللذان على يسار الخارج من باب الفتوح بينهما بستان الخندق ، ولايدخله إلا السلطان وأولاده ، وكان فيه من الأشجار ١٧٢٠٠ شجرة ، هى السور المحيط بالبساتين من جميز وسنط وأثل ، ويظهر من هذا أن البساتين الموجودة أمام بوابة الحسينية ، وتمتد إلى الدمرداش والمطرية ، وكذا الأرض التى ظلت تزرع بين هذه البساتين والخليج ، هى من حقوق هذه البساتين ، وصارت قطعاً امتلكها الناس وبنوا عليها البيوت .

ويصف على مبارك حى الحسينية فى أيامه « عام ١٢٩٩ هـ » بأنه ما كان خارجاً عن باب الفتوح ، واسمه باق كما هو لم يتغير . وهو خط كبير عامر يشتمل على شوارع ودروب وحارات بها الدور والوكائل والدكاكين الغاصة بالبضائع ، وبها كثير من الجوامع والزوايا .

ويقول على باشا مبارك : إعلم أن أطول شوارع القاهرة هو الشارع الكبير الطولى ، الذى أوله من الجهة البحرية بوابة الحسينية خارج باب الفتوح . وآخره من الجهة القبلية بوابة السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فيلزم أن نتكلم عليه أولاً ، فنقول إن طول هذا الشارع ٤٦١٤ متراً ، وهذا الشارع ينقسم إلى ٢٠ قسماً ، لكل قسم منها اسم يخصه .

● شوارع الحسينية من ١٠٠ عام :

يعتبر شارع الكردى ـ من ١٠٠ عام ـ أبرز شوارع الحسينية ، ويبدأ من باب

الحسينية وينتهى إلى مسجد البيومى . وعرف بهذا الاسم لأن مسجد الشيخ أبى شرف الدين الكردى ، الذى يقال إنه من أرباب التصريف فى أول هذا الشارع ، وكان أصل هذا المسجد ـ كما جاء فى الخطط التوفيقية ، الجزء الثانى ـ زاوية صغيرة أنشأها الأمير عبد الرحمن كتخدا مسجداً وجعل به خطبة ، وأنشأ فى مقابله سبيلاً ، وجعله وقفاً عليه وذلك عام ١٢٧٠هـ . وبقرب هذا المسجد زاوية صغيرة بها ضريح الشيخ على أبى خودة ، ذكره الشعرانى فى طبقاته . وبآخر هذا الشارع ضريح يعرف بضريح الشيخ أيوب ، وبه ٣ وكائل : واحدة لبيع الغنم ، والثانية لبيع الدريس ، والثالثة أيضاً لبيع الدريس ، وبه قراقول الحسينية .

ومن دروب هذا القسم (شارع الكردى) نجد درب مسعود ، ودرب حسين ، وعطفة عزوز ، ودرب الغنامة ، وعطفة الجزار ، وعطفة القزاز ، وعطفة سرور، وعطفة حميد ، وحارة الكردى ، وعطفة أبى العلا ، وحارة جميلة ، وحارة إسماعيل شرارة .

ثم شارع البيومى ، وأوله من مسجد البيومى ، وآخره عطفه البلاحة ، واشتهر هذا الشارع باسم سيدى على البيومى . وفيه مسجده الذى أنشأه الوزير مصطفى باشا ، وأنشأ به قبة بداخلها مدفن الشيخ على البيومى ، وأنشأ تجاه المسجد سبيلاً ومكتباً عام ١١٨٠ هـ .

وبهذا الشارع أيضاً جامع كمال الدين ، وهو على يمين الخارج من باب الفتوح إلى الحسينية . أنشأه الحاج كمال الدين التاجر فى أيام الظاهر برقوق ، ولما مات دفن به ، وبه أيضاً زاوية الأربعين ، وزاوية باشا السكرى ، وزاوية الخدام ، وهى خارج باب النصر ، فيما بين شقة باب الفتوح من الحسينية وبين شقة الحسينية . أنشأها الطواشى بلال الفراجى وجعلها وقفاً على الخدام الأحباش من الجند عام ٦٤٧هـ ، وهى باقية للآن ، وتعرف بزاوية التميمى .

وبهذا الشارع ٦ وكائل وحمام البشرى ، وهو خارج باب الفتوح بأول درب السماكين، وفى زمن السلطان الغورى بنى حمام فى الحسينية عرف باسم حمام الحبالين .

ثم شارع الخواص وأوله كما جاء فى الخطط التوفيقية من عطفة البلاحة وآخره عطفة ندى ، وأشهر حاراته حارة الخواص على يسار هذا الشارع ، وبها خوخة تعرف بخوخة النمرود . وبه ضريح سيدى على الخواص شيخ عبد الوهاب الشعرانى ، الذى ذكره فى طبقاته وأثنى عليه ونقل عنه الأحاديث ، والخواص نسبة إلى الخوص لأنه كان يضفر المقاطف الخوص .

ومن زوايا هذا الشارع زاوية شمعة التى أنشأها الأمير شمعة فى أول القرن ١٣ الهجرى .

ونصل إلى القسم الرابع من أقسام وشوارع حى الحسينية ، ونقصد شارع أبى قشة . وأوله من عطفة ندى وآخره باب الفتوح ، ويخرج منه شارع البنهاوى ، وبه زاويتان أولاهما ضريح الشيخ أبى قشة الذى يحمل الشارع اسمه ، وبه ٣ وكائل منها ما هو معد لسكن المسافرين ، ومنها ماهو معد لبيع الفحم .

ثم نصل إلى شارع باب الفتوح ، الذى يبدأ من باب الفتوح ، وينتهى بضريح سيدى دويدار تجاه شارع بين السيارج. وكان بجوار باب الفتوح سجن يعرف «بالمقشرة» ، كان موضعه بين الباب وبين جامع الحاكم ، وكان يقشر فيه القمح وكان من أشنع السجون . ثم جامع السطوحية ، الذى أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا ، وأنشأ بجواره صهريجاً يعلوه مكتب . وأنشأ حوضاً كبيراً لسقى الدواب بعد عام ١٢٦٠هـ ، وكان بهذا القسم أو الشارع ٥ وكائل منها وكالة الشربجى لبيع الحمص ، ووكالة الحسين وهى مقلاة للحمص ، ووكالة النيلة لربط الحمير، وبأعلاها مساكن ووكالة إبراهيم الأرناؤوطى ، ووكالة الثوم وجباسة بجوار باب الفتوح . ومن دروب هذا الشارع نجد درب المغاربة على يمين المار بشارع باب الفتوح ، وبه عطفتان هما عطفة البقرة وعطفة الوسعاية .

والشارع السادس فى الحسينية هو شارع الكليباتى ومرجوش . ويبدأ من ضريح سيدى دويدار تجاه شارع بين السيارج وينتهى بجامع السلحدار . واشتهر بهذا الاسم لأن به زاوية الشيخ الكليباتى فى أوله ، التى أنشئت عام ٩٢٧هـ ، وبه ثلاثة أسواق أولها سوق المرحلين ؛ حيث تباع رحلات الجمال وسائر ما تحتاج إليه عندما كان الجمل وسيلة النقل الأساسية . وبه المدرسة الصيرمية ، ومحلها زاوية سوق الضببية، حيث صناعه الضبة ، وهى القفل المصنوع من الخشب للأبواب . وسوق حارة برجوان . ويصل إلى قرب جامع الحاكم ، وهو من الأسواق القديمة ، وكان يعرف أيام الفاطميين بسوق أمير الجيوش ؛ حيث يباع لحم الضأن واللحم البقرى ومحلات الزياتين والجبانين والخبازين واللبانين والطباخين ، والشوايين والخضرية والعطارين ، وقد تخرب هذا السوق عام ٨٠٦هـ ، وتحول هذا السوق زمن الخديو عباس حلمى الثانى فى أواخر القرن ١٩م إلى سوق عامرة للمانيفاتورة والأقمشة. ومن أشهر عطفه ودروبه عطفة الفناجيلى ، ودرب الوراقة وسوق مرجوش الذى هو أمير الجيوش ، ولكن العامة حرفته إلى مرجوش.

ونستمر فى استعراض أقسام وشوارع الحسينية ، كما فصلها على باشا مبارك فى خططه التوفيقية ؛ أى منذ حوالى ١٠٠عام . . فيقول إن القسم السابع هو شارع الإمشاطية ، الذى يبدأ من رأس شارع مرجوش ، وينتهى إلى سبيل بين القصرين . وبه جهة اليمين شارع سوق السمك ، ومن جهة اليسار شارع السنانين وطوله ٨٤ متراً. ويتصل بشارع وكالة التفاح ، شارع السنانين ، سماه المقريزى بشارع المحايرين . وهذا السوق فيما بين الجامع الأقمر وبين جملون ابن صيرم من سوق حارة برجوان ومن سوق الشماعين . ثم بجوار شارع السنانين الجامع الأقمر ، الذى أمر بإنشائه الخليفة الآمر عام ٥١٩هـ ، وكان موضعه قديماً سوقاً للقماحين .

وكان بشارع الإمشاطية سوق الشماعين وسوق الدجاجين ، وكان الأول من الجامع الأقمر إلى سوق الدجاجين ، وكان يعرف فى الدولة الفاطمية بسوق القماحين . أما سوق الدجاجين فكان يمتد إلى سوق قبو الخرنفش.

أما القسم الثامن فهو شارع النحاسين ـ وكان يعرف وقتها من ١٠٠ عام ـ بخط بين القصرين ، وابتداؤه من سبيل عبد الرحمن كتخدا ، الذى أنشىء عام ١١٥٧هـ وانتهاؤه حارة الصالحية تجاه باب الصاغة. وبأوله من جهة اليمين حمام السلطان ، ويعرف أيضاً بحمام سيدنا الحسين ، ثم المدرسة الكاملية التى أنشأها الملك الكامل عام ٦٢٢هـ . وكان محلها سوق الرقيق ثم نقل سوق الرقيق إلى خان مسرور الصغير ثم المدرسة البرقوقية و المدرسة الناصرية ثم المدرسة المنصورية داخل البيمارستان ؛ أى جامع قلاوون وجامع البيمارستان .

وعندما دخل بونابرت مصر ، وجد علماؤه فى هذا الجامع مسلتين مجعولتين أعتاباً ، فأخرجوهما وأرسلوهما إلى باريس مع أشياء أخرى . فقابل المركب فى الطريق مركب إنجليزى استولى على جميع ما كان فى المركب الفرنسى وللآن توجد المسلتان فى دار الآثار بمدينة لندن .

وبعد جامع قلاوون ، نجد حمام قلاوون ، ويعرف بحمام النحاسين ثم باب الصاغة تجاه حارة الصالحية . وفيه تكية درب قرمز ، وبجوارها ضريح الشيخ سنان ، والمدرسة السابقية وتعرف بجامع درب قرمز . ثم حارة بيت القاضى ثم وكالة خان اللونة لبيع الدهانات ، ثم سبيل النحاسين الذى أنشأه محمد على باشا وأنشأ فوقه مكتباً وجعله صدقة على روح ابنه إسماعيل باشا الذى مات محروقاً بالسودان .

ثم شارع بيت القاضى الذى فتح عام ١٢٩٠هـ ، وكان محل رأس هذا الشارع المدرسة الظاهرية التى أنشأها الملك الظاهر بيبرس عام ٦٦٢هـ ، فلما فتح هذا الشارع زالت هذه المدرسة . .

ونستمر فى خط بين القصرين ، فنجد القبة الصالحية ثم حارة الصالحية فى آخر الشارع . وكان هذا الشارع مخصصاً لبيع النحاس الجديد ، وينصب به سوق كل أسبوع مرتين لبيع النحاس القديم ، وحدده المقريزى بأنه كان يقع بين المدرسة الظاهرية البيبرسية ، وبين باب قصر بشتاك .

● حى الحسينية عام ١٩١٢ :

تلك هى صورة حى الحسينية ، عندما وصفه على باشا مبارك فى خططه التوفيقية التى طبعت بين عامى ١٨٨٨ و١٨٨٩م . . فما صورة الحى نفسه بعد ربع قرن من هذا التاريخ ، وما الحالة التى اصبح عليها ، وهل تطورت شوارعه ودروبه ؟ . .

تحت يدى خريطة لمدينة القاهرة ، طبعت عام ١٩١٢ بمقياس رسم ١/١٠٠٠٠ ، تم طبعها بمصلحة المساحة ، أدق مطابع للخرائط والرسميات فى مصر.

فى شمال الحى ، نجد شارع سبيل الخازندار الذى يلتقى بشارع العباسية القادم من الجنوب ، ثم عند هذا الالتقاء نجد باب الحسينية ؛ حيث تقابله نقطة البوليس . وعن شمال الباب نجد شارع البيومى ، فشارع الحسينية الذى يصل الى باب الفتوح ، ويتوسط شارع البيومى جامع البيومى .

وفى الشرق والجنوب الشرقى ، نجد جبانة باب النصر للمسلمين ، وكان أول من دفن فيها أمير الجيوش بدر الجمالى منقذ مصر نفسه . والحد الجنوبى للجبانة هو باب النصر وسكة قايتباى التى تمتد غرباً باسم شارع القصاصين ، فشارع البغالة إلى أن يصل إلى شارع الخليج المصرى . ثم نجد شارع نجم الدين الذى يخترق الحى جنوباً . أما شرق جبانة النصر فهو أرض فضاء ، وليس هناك أى معلم إلا وابور المياه القديم غير المستعمل الذى كان يمد العباسية بالمياه . وجنوباً بشرق ليس هناك إلا مقام سيدى جلال وبرج الظفر حيث تل قطع المرأة . . ويقع شرق كل هذا أماكن أو محاجر استخراج الرمال . .

فإذا اتجهنا غرباً على يسار شارع البيومى ، ومن بدايته عند شارع العباسية، نجد شارع الأمير فاروق ، شارع الجيش الآن. وبين شارعى البيومى والأمير فاروق ، نجد شارع السبع والضبع ، الذى يخرج من شارع العباسية أمام كنيس الإسرائيليين فى الناحية الأخرى من شارع العباسية . وفى منتصف شارع الأمير فاروق بين شارع العباسية وميدان باب الشعرية ، نجد منطقة زرع النوى وفيها شارع الصوابى وجامع

الزهرية عند تقاطعه مع شارع البغالة. أما فى الشمال الغربى ، فنجد جامع الظاهر بيبرس .

وجنوب سكة قايتباى ؛ أى جنوب سور القاهرة ، نجد باب النصر وجنوبه جامع البقرى ، ووكالة قوصون قبل الوصول إلى شارع الضبابية ـ أى صناع الأقفال الخشبية «الضبة» ـ الذى يتقاطع مع شارع الجمالية وجامع بيبرس الجاشنكير إلى أن نصل إلى النحاسين ، فنجد الجمالية شرقاً، حيث بيت المال وإدارة الدمغة والمكاييل والموازين «هكذا كان اسمها» ، ثم نصل إلى جامع سيدنا الحسين .

وغرب هذا كله نجد النحاسين، ثم قسم شرطة الجمالية والمطافئ وبيت القاضى إلى أن نصل إلى خان الخليلى . وبين باب النصر وباب الفتوح غرباً ، هناك جامع الحاكم بأمر الله فشارع باب الفتوح ، الذى هو امتداد شارع النحاسين . .

● الحسينية فى منتصف القرن العشرين :

●● والآن ما صورة الحسينية بعد ٦٥ عاماً من طباعة الخطط التوفيقية؟!

أمامى الآن خريطة لمدينة القاهرة تمت طباعتها عام ١٩٥٢م ، وأيضاً طباعة مصلحة المساحة ، ومقياس رسم ١/١٥٠٠٠ ، نكتشف فيها تغييراً كبيراً بسبب تزايد الكثافة السكانية. وكان الزحف يزداد شرقاً حتى لا يمتد غرباً حيث المناطق الزراعية، وكان هذا هو الامتداد الطبيعى والسليم للقاهرة ، وليس إلى غرب النيل حيث الأراضى الزراعية الخصبة ، وكان هذا واضحاً فى حى الحسينية.

إذ تبدأ عمليات إعمار المنطقة جنوب شارع سبيل الخازندار ، ونجد المستشفى الفرنساوى . يمتد شارع السرجانى جنوباً فيعبر شارع سبيل الخازندار ، ونجد المنطقة على يمين ميدان الجيش ، وقد أقيمت فيها مدارس إسرائيلية . ونجد ديرًا ومدرسة. ولأن هذه المنطقة كانت أرضًا فضاءً ، نجد العمران يمتد إليها ، فتم بناء ملجأ هناك . وكذلك جراج لمصلحة النقل الميكانيكى ، وديرآخر . وتم شق شارع مصنع الطرابيش

بين ميدان الجيش ومصلحة التنظيم فى شرق الشارع . أما فى غرب الشارع فنجد مصنع الطرابيش نفسه ، بين شارع المصنع وشارع نجم الدين ، إلى أن نصل إلى جبانة باب النصر للمسلمين ؛ حيث يستجد شارع جديد جنوب الجبانة ، يحمل اسم شارع جلال ، ويبدأ من مقام سيدى جلال . ويتغير اسم امتداده من سكة قايتباى إلى شارع جلال ، وامتداده إلى الغرب شارع القصاصين فى المنطقة بين شرق باب النصر إلى باب الفتوح .

وفى شرق الجبانة ، يتم بناء قلم مرور القاهرة ، فنجد شارع قلم المرور بالقرب من برج الظفر. ولأن المنطقة صحراوية رملية ، فإنه تم إنشاء مصنع الزجاج النموذجى . والمصبغة النموذجية ، كما تم استحداث شارع جديد ، هو شارع المنصورية الذى يصل إلى الدراسة .

ويلتحم العمران فى شرق الحسينية التى كانت عبارة عن تلال رملية ومصدر للرمال المطلوبة فى أعمال البناء ، ويتم تخطيطها وتقسيمها من الشمال والجنوب ومن الشرق إلى الغرب ؛ حتى تلتحم المنطقة الجديدة بجبانة الخفير .

وفى شمال الحسينية نجد الوايلى والعباسية ، وبينهما بدايات كليات جامعة (إبراهيم باشا) عين شمس أى كليتى الحقوق والهندسة على شارع السرايات . أما شارع الحسينية نفسه ، فيبدأ من شارع البيومى من ميدان الجيش ، ويصبح على يمينه شارع نجم الدين ، وعلى يساره شارع الشيخ القويسنى وامتداده شارع السماكين ، إلى أن يصل إلى باب الفتوح ؛ أى يتجاوز شارع الحسينية وشارع السماكين إلى أن يصلا إلى باب الفتوح .

●● وأبرز المنشآت فى الحسينية فى خريطة ١٩٥٢م هى جامع الظاهر بيبرس . ومدرسة خليل أغا الثانوية فى الغرب ومصنع الطرابيش « الذى أصبح الآن مجرد ذكرى بعد إلغاء لبس الطربوش مع بداية ثورة يوليو ١٩٥٢م » كما نجد مشغل الكسوة الشريفة التى كانت تصنع فى مصر ، وترسلها كل عام لكسوة الكعبة المشرفة ، وكان

موقع دار الكسوة أو مشغل الكسوة الشريفة بين شارعى أمير الجيوش الجوانى شمالاً وشارع المعز لدين الله شرقاً ، وشارع الخرنفش جنوباً وشارع بين السورين غرباً . واللافت للنظر أن « مشغل الكسوة الشريفة » كان يجاور كلية القديس يوسف للإفرنج الكاثوليك . . وكنا نجد جنوبى المشغل كنيسة أخرى جنوبى شارع الخرنفش، أى قمة السماحة والتسامح ؛ فنحن شعب لا يعرف الاضطهاد الدينى . وكل هذا غير بعيد عن شارع الجيش ، بعد أن غيرت الثورة اسم الأمير فاروق إلى أن أصبح شارع الجيش ؛ أى كان مشغل الكسوة الشريفة للكعبة يقع بين الحسينية شمالاً والجمالية شرقاً والموسكى غرباً . . وبالطبع لا نهمل هنا السور الشرقى للقاهرة الفاطمية .

● عالم الموالد .. والحمامات :

وظل حى الحسينية مركزاً للتجارة حتى وقوع مصر تحت الحكم العثمانى . وكانت الأنشطة التجارية والحرفية بالذات تتركز فى شمال الحسينية ، وفى الحى الجنوبى قوصون « قيسون الآن » وابن طولون ومصر القديمة، وعلى الشاطىء الغربى للخليج المصرى، بينما ظل مركز بضائع الترف متمركزاً فى « القصبة » بين باب الفتوح وباب زويلة .

وكان فى الحى واحد من أشهر الحمامات العامة ، التى اشتهرت بها القاهرة . وحمام الحسينية لم يرد ذكره فى شرح خريطة وصف مصر ، التى وضعها علماء الحملة الفرنسية، ولكنه ورد مرات عديدة فى حجج المحكمة الشرعية ، خصوصاً دفترعام ١٦٨٦م ودفتر عام ١٦٩٢م ، وذكره « جومار » باسم حمام الحسينية، ولعله يقصد حمام البشرى الذى يرد برقم ٣ فى قائمة بوتى للحمامات . وحسبما يذكر على مبارك فى خططه ، فإن حمام البشرى هذا هو حمام الحبالين ، الذى ذكره ابن إياس فى بدائع الزهور ج٥ ، ص١٥ عام ١٥١٦م ، وتقول الخطط التوفيقية المطبوعة عام ١٨٨٨م إن هذا الحمام مازال قائماً فى رقم ٨ بشارع الحسينية .

●● وحى الحسينية مشهور بموالده المتعددة ، ففيه مولد سيدى على البيومى ، ويبدأ من ١٤ ذى القعدة حتى ٢٢ منه . وله حضرة فى كل يوم جمعة ، ومقرأة ليلة

الأربعاء . . وكذلك مولد سيدى على الخواص ابتداء من ٦ من شهر جمادى الأولى وحتى ١٦ منه وحضرته كل ليلة سبت . . ومولد سيدى محمد الصوابى من ١٤ شعبان إلى ٢٢ منه وحضرته كل يوم جمعة ، وتحضرها النساء المرضى . . ومولد سيدى الشيخ على البنهاوى بدرب عجور ، ابتداء من ١٦ شعبان إلى ٢٢ منه .

واشتهرالحى بأسواقه . . كانت فيه « رقعة » لبيع القمح ببركة الرطل من شارع الحسينية يباع فيها القمح والفول والشعير . وكانت فيه سوق للجمعة تباع فيها المواشى والأغنام والطيور والملبوسات وغيرها . وكان سوق مذبح الحسينية ينصب عصر كل يوم إلى الغروب ، ويباع فيه البقر والجاموس والغنم والجمال .

وفى عهد أسرة محمد على تم إبطال الذبح داخل القاهرة وبنى فى خارجها مذبحان أحدهما بجهة الحسينية ، والآخر قبلى البلد بقرب سور العيون ، وذلك عام ١٢٣٣هـ . وكان لكل منهما حوش كبير به سور من البناء وبعض سقائف تظلل قطعة من الأرض مبلطة بالحجر ، ولم يكن بها مجار لتصفية الدم وغيره ، ولامياه لغسل ذلك ، فكانت - كما يقول على مبارك - على غير قانون صحى ، وكانت عفونتها تنتشر فى الجو إلى مسافات بعيدة ، وتضر بالناس فكثرت الشكاوى وطلب مجلس الصحة إنشاء مذبح مسقوف مستوف لشروط الصحة ، كما الموجود فى المدن الكبرى فى العالم ، ولم ينفذ ذلك إلا أيام الخديو توفيق .

وعندما تم ذلك ، أبطلت المذابح القديمة وتخلص الناس من عفونتها ، وبنى المذبح الجديد بين العيون وزين العابدين . . وهو المذبح الذى ظل يخدم القاهرة حتى تم نقله فى العشر الأواخر من القرن العشرين إلى منطقة البساتين ، بعد أن زادت - أيضاً - شكوى الناس من عدم نظافته ، وتأثيره على الصحة العامة ، بعد أن زادت الكثافة السكانية حوله والذى عرف بسلخانة زينهم !! أو زين العابدين . وإذا كان المذبح قد تم نقله إلى البساتين ، إلا أن المدابغ مازالت كما هى تعتدى على سور العيون وتحتل مساحات كثيرة خلفه . .

واستقر حى الحسينية يحيط به من الشمال السكاكينى وغمرة . . ومن الغرب الظاهر وباب الشعرية وباب البحر . .

ومن الجنوب الجمالية وخان الخليلى . .

ومن الشمال الشرقى حى العباسية . .

مصر الجديدة ..
لماذا هى هليوبوليس ...
ولماذا هى أون ؟!

عندما اختار البارون البلجيكى إدوارد إمبان واحة عين شمس ليقيم عليها مشروعه التعميرى ـ السكنى الرائد كان يحلم بالربط بين عين شمس القديمة . . وعين شمس الجديدة . . بل إنه حاول كثيراً البحث عن بقايا المدينة التاريخية . وعلى الرغم من أن مدينة هليوبوليس القديمة والشهيرة كانت تقع فى مكان أكثر قرباً من الوادى ، فإنه فشل فى العثور على آثارها ، إلا أنه تم إطلاق اسم « هليوبوليس » على الضاحية الجديدة . . مصر الجديدة ، واختار لها الربوة المرتفعة عن مستوى النيل ، قريبة من أطلال مدينة عين شمس القديمة .

وقد جاء اسم مدينة عين شمس فى التوراة باسم « أون » وكان اسم « أون » مازال باقياً ، يطلقه الأقباط على هذه المنطقة أيام الفتح العربى لمصر فى القرن السابع الميلادى . ومعنى هذا الاسم « مدينة الشمس » ، وهو الذى ترجمه اليونانيون فجعلوا اسمها عندهم « هليوبوليس » ، وإن كان العرب قد احتفظوا باسمها القديم « عين شمس » .

يقول آرثور رونيه : « كانت هليوبوليس عاصمة إقليم « هليوبوليت » . وكان اسمها الدينى باللغة المصرية « يون » وعثر عليه فى اللغتين القبطية والعربية « أون » واسمها المدنى « بير ـ رع » ومعناها مدينة الشمس . وبالتالى فإن لفظ هليوبوليس اليونانى هو ترجمه لهذا الاسم . . وكان بجوار هليوبوليس عين ماء معروفة سماها العرب عين

شمس ، فغلب هذا الاسم على المدينة وعرفت به خصوصاً وقد كان فى هذا الاسم ذكرى الشمس وهى معبود أهلها القدماء » .

ووصف د. بتلر حال المدينة فى كتابه عن فتح العرب لمصر عندما أتى العرب ، فقال إنه لم يكن باقياً من مجدها القديم إلا أسوار مهدمة وتماثيل لأبى الهول نصفها مدفون فى الأرض ، و المسلة الشهيرة الباقية إلى اليوم عند قرية المطرية . وكان مرجع بتلر فى ذلك شامبوليون الأصغر ، وقد لاحظ أن الخريطة الحديثة تجعل « أون » فى موضع تل مرتفع عن الأرض ، وتجعل هليوبوليس فى موضع تل الحصن جنوبى هذا التل .

ويقول فؤاد فرج فى كتابه عن القاهرة أن هذا خطأ . . لأن أون هى نفس هليوبوليس ومكانها تل الحصن بجوار المطرية .

أما الدكتور حسن كمال فيقول : ومدينة أون « عين شمس » كانت قاعدة القسم ١٣ من أقسام أو مقاطعات مصر القديمة ، واسمها المدنى « بير - رع » أى معبد أو بيت أو مدينة الشمس ، واسمها القبطى « فرى » بمعنى مدينة الشمس ، وهو الأصل فى تسميتها باليونانية هليوبوليس .

و « أون » هذه كانت منبع الديانة المصرية ومركز دراسة علم اللاهوت والفلسفة. واختط غير بعيد عنها مدينتان شهيرتان هما « آحو » و« حا - بن - بن » والأخيرة هى مدينة بابليون ومكانها الآن مصر القديمة . وكان لهاتين المدينتين شأن عظيم فى حروب أوزيريس . ومن المعروف أن مدن الوجه البحرى هى التى نشرت الحضارة المصرية ووسعت نطاقها ؛ لأن الصلوات و القصائد التى مدحت بها المعبودات وصارت بعد ذلك أصولاً للكتب المقدسة ، كان منشؤها فى مدينة أون . كما يقال لها أيضاً مدينة «يون » . ولما انقسمت مصر إلى أعمال إدارية ، انتهى بها الأمر الى قسمين مستقلين ، فكانت « أون » فى الجهة البحرية مركزا للحكومة ، ومنها انبثق نور المدينة على سكان الأراضى الخصبة وأنشأ فيها الكهنة المدارس والجامعات لبحث أصول الديانات المحلية. وهكذا نشأ نظام الملك فى العالم لأول مرة فى مدينة الشمس على أساس أن الملك ابن الإله رع ، ومثل الآلهة على الأرض - وهو مقدس - وإرادته فوق كل إرادة ، وأصبحت كلمته مطاعة على الشعب دون مناقشة .

وكانت مدينة الشمس فى الجهة الشمالية من المعبد حيث بقايا الأطلال العالية ولم يبق من آثارها شيء . وإن كان قد أقيم مكانها قرية عرفت باسم « تل الحصن » . وكان حول المدينة ومعبدها سور من اللبن . كما كان الحصن شمالها ، وكانت للسور أبواب على أبعاد متساوية ، وكان لكل باب برجان من الحجر الجيرى الأبيض مدون عليهما كتابات هيروغليفية كما ذكر مكسيم ديكان فى كتابه « النيل » . وعندما رفعت وزارة الأشغال الأحجار التى ألقيت خلف وتحت مبانى مقياس النيل بالروضة لتقويتها، وجد على هذه الأحجار كتابات هيروغليفية ، تثبت أنها منقولة من معابد وأبواب مدينة أون القديمة « عين شمس » . ويقول ابن سعيد عن كتاب « لذة اللمس فى حلى كورة عين شمس » إنها كانت مدينة عظيمة الطول والعرض ، متصلة البناء بمدينة مصر القديمة حيث قامت مدينة الفسطاط بعد ذلك . . ومعنى ذلك أنهم أطلقوا اسم عين شمس على موقعها الحقيقى وعلى ما يليه من أماكن إلى بابيلون وإلى حصنها » .

وفى أول العصر التركى ـ آخر العصر المملوكى ـ وقعت معركة عين شمس بين السلطان العثمانى سليم الأول والسلطان طومانباى الذى خلف عمه الغورى . . ودارت المعركة هنا فى الحقول المحيطة بمسلة عين شمس فى يناير ١٥١٧م . . وبذلك دخل العثمانيون مصر واحتلوها حوالى ٤٠٠ عام . وفى هذا المكان أيضاً وقعت معركة عين شمس بين جيش الحملة الفرنسية بقياده الجنرال كليبر ، والقوات التركية التى حاولت استرجاع مصر من الفرنسيين عام ١٨٠٠م .

●● وتؤكد متون الأهرام أن معبد رع بمدينة أون ، ويسمى هذا المعبد باسم «هيت سار » أى قصر الأمير كما تشير المتون إلى الممر المعروف باسم طريق الكباش ، الذى يؤدى إلى الأبواب التى كانت تحرسها تماثيل العجول . .

وهذا المعبد هو الذى بناه سنوسرت الأول من ملوك الأسرة ١٢ عام ٢٤٣٣ق.م بمناسبة عيد الإله ست إله الصحراء ، ولم يبق منه سوى مسلة واحدة من الجرانيت لاتزال قائمة فى مكانها وارتفاعها ٦٦ قدماً ، وتحمل كتابات هيروغليفية ذكر بها اسم

الملك سنوسرت المحبوب من رع إله أون . وكانت بهذا المعبد أماكن مخصصة للعجل منافيس وطائر مالك الحزين الذى سماه اليونانيون « فنكس » بينما اسمه المصرى هو «بنو» ويعرفه الفلاح باسم : البلشون .

وكانت مدينة عين شمس مقر عبادة هذا الطائر ؛ إذ كان الكهنة يرون فيه إما الإله أوزيريس أو روح الإله رع . وتقول الأساطير إن عليها كان يلد هذا الطائر . ويقال إنها الشجرة القديمة المقدسة التى كانت داخل المعبد ، وعلى أوراقها كانت الآلهة تكتب أسماء ملوك مصر تخليداً لهم على أوراقها . . ويقال إنها هى شجرة الجميز المقدسة ، وهى المعروفة الآن باسم شجرة العذراء فى المطرية ، وأنها من هذه الشجرة المقدسة القديمة . إذ عندما جاءت العائلة المقدسة ومعها السيد المسيح إلى مدينة أون خلال هروبها إلى مصر فى عصر هيرودوس حاكم فلسطين الرومانى ، استراحت العائلة المقدسة تحت ظل هذه الشجرة القديمة . . ومنذ ذلك الوقت صارت هذه الشجرة تعرف باسم « شجرة العذراء » .

وتحت هذه الشجرة ضرب الطفل يسوع الأرض بقدمه فانفجرت عين من المياه العذبة المنعشة ، فشربت مريم وطفلها ويوسف والحمار حتى ارتووا . وغسلت السيدة العذراء ملابس طفلها بمياه هذه العين ، ثم ألقت بالمياه المتخلفة على عصا يوسف النجار ، التى كان قد غرست فى الأرض فتحولت إلى شجرة البلسم المعروف باسم البلسان ، ثم أينعت هذه الشجرة وفاحت منها رائحة زكية . ولما نمت زراعة البلسم وأصبح عصيره دواء ناجعاً للجروح والأمراض المستعصية ، أصبح البلسان من أغلى ما يقتنى . وكان البلسان ، يتم حصاده بفصد فروع الشجرة وجمع السائل المتخلف من هذا الفصد فى أوانٍ فضية . . وكانت هذه العملية تتم خلال فصل فيضان النيل . .

أما عين المياه تحت شجرة العذراء فلا تزال باقية فى المطرية ، وقد ركبت عليها ساقية تروى المنطقة . وإذا كانت مياه كل عيون هذه المنطقة ملحية ، إلا أن مياه هذه العين عذبة منعشة . .

وتروى الأساطير أن سكان ضاحية المطرية هذه لا يخمر لهم عجين بسبب بخلهم ؛

حيث لم يقدموا للعائلة المقدسة طعاماً عندما نزلت بالمنطقة . . . وكانت العائلة جائعة . .

●● ولا يمكن أن ننهى الحديث عن عين شمس ، دون ذكر جامعتها ، ولم يبق منها إلا مسلة واحدة ، وهى إحدى مسلتين أقامهما سنوسرت الأول عند مدخل معبد رع . أما المسلة الأخرى فقد سقطت عام ١١٩٠م . وبقيت هذه المسلة شاهداً على عظمة المنطقة والمعبد العظيم الذى اندثر . وبجوار هذه المسلة ، كانت تقوم جامعة عين شمس ، ضمن معبد رع حيث أقدم جامعة فى العالم ، التى خلفتها جامعة الإسكندرية . .

وفى جامعة أو معبد رع بمدينة أون القديمة ، تم زواج يوسف الصديق بعد أن صار وزير مصر الأكبر من ابنة الكاهن الأكبر لمعبد عين شمس . وفى هذا المعبد أقام تحوتمس الثالث [الأسرة ١٨] مسلتين نقلتهما الملكة كليوباترا إلى الإسكندرية ووضعتهما أمام معبد السيزاريوم . وقام محمد على باشا بإهداء إحدى المسلتين إلى مدينة لندن ، فأقيمت عام ١٨٧٧م على ضفاف نهر التيمز ، ونقلت الثانية إلى أمريكا حيث أقيمت فى ميدان سنترال بارك فى نيويورك .

وفى معبد وجامعة عين شمس ، تلقى النبى موسى حكمة المصريين وعلومهم على أيدى كهنة معبد رع . وهنا دار الجدل والحوار بين هيرودوت وأكبر الكهنة . وهنا تلقى أفلاطون علومه . ودرس أدوكسيس عالم الرياضة الحكمة وعلم الفلك ، وتخرج كلود بطليموس الجغرافى الكبير . وهنا رأى استرابون المنازل التى كان يقيم بها العلماء فى العصر اليونانى .

فى هذا المكان ، حيث عين شمس أو أون ، اختار البارون إدوارد إمبان أن يقيم مشروعه العظيم : ضاحية مصر الجديدة ، أو هليوبوليس . . التى هى عين شمس .

وهذه هى أصل الحكاية . .

فماذا عن الضاحية الجديدة التى أقيمت فى هذا الموقع التاريخى أو قريباً منه !!

****

الاتجاه شمالاً .. مصر الجديدة

●● كان لابد من توفير أراضٍ جديدة تصلح ضاحية أخرى للعاصمة المصرية ، بعد أن ضاقت القاهرة عن استيعاب الزيادة السكانية المطردة . . ولأن التوسع العمرانى للعاصمة يتجه شمالاً باستمرار منذ أنشئت الفسطاط ثم شماليها العسكر ثم شماليها القطائع . . ثم شماليها القاهرة . . اتجه أيضاً الفكر التعميرى أيام الوالى عباس الأول ، وخطط الحى الجديد الذى حمل اسمه : العباسية . . واستمر هذا الاتجاه التعميرى سائداً ، أى الاتجاه شمالاً . وهذه المرة جاء الحى الجديد على يد مستثمر طموح بلجيكى الأصل والنشأة ، وإن ساعده وشاركه أرمنى مصرى هو بوغوص نوبار. .

إذًا كانت البداية فى شمال شرق القاهرة ، غير بعيد عن حى العباسية حتى اعتبرها البعض امتداداً للعباسية . . وغير بعيد عن واحة عين شمس ، وعن المدينة والمعبد والجامعة الفرعونية جامعة أون ، أو عين شمس ، التى أطلق عليها اليونانيون «هليوبوليس» .

الفكرة كانت تقوم على إنشاء مشروع سكنى كبير فى هذه الهضبة الصحراوية التى ترتفع عن مستوى القاهرة ومستوى سطح النيل . . هذا الموقع الذى يتمتع بمزايا مناخية من أهمها الجفاف لأنه بعيد عن أى مصدر مائى .

●● وواتت الفكرة هذا المستثمر البلجيكى إدوارد إمبان ، الذى سبق أن حصل فى ديسمبر عام ١٨٩٤م على امتياز مد أول شبكة لخطوط الترام فى القاهرة وجمع رؤوس أموال المشروع من أوروبا . . ولأن الرجل خبر جاذبية الاستثمار فى مصر ، فقد تقدم إلى

الحكومة المصرية يطلب امتيازاً لإنشاء ضاحية جديدة فى هذه المنطقة ـ واحة عين شمس ـ التى تبعد عن القاهرة بحوالى ١٠ كيلومترات . .

وبدأ الرجل تنفيذ مشروعه ، حتى قبل أن يصدر مرسوم تأسيس الشركة . . فمنذ ٢٠ مايو ١٩٠٥م ، بدأ إدوارد إمبان وشريكه المصرى بوغوص نوبار باشا ابن أول رئيس لوزراء مصر ـ شراء الأراضى فى تلك المنطقة . وسرعان ما صدر مرسوم تأسيس شركة واحات هليوبوليس يوم ١٤ فبراير ١٩٠٦م . وباعت الحكومة المصرية ممثلة فى وزارة الأشغال العمومية الشركة الجديدة مساحة ٥٩٥٢ فداناً بسعر جنيه واحد للفدان ـ الفدان ٤٢٠٠ متر ـ وتضمنت الشروط التى وضعتها الحكومة المصرية عدم تخصيص أكثر من سدس المساحة المباعة لشق الشوارع وتشييد المبانى وزراعة الحدائق [وإن كانت هذه المساحة قد زيدت إلى الربع عام ١٩٠٧م] .

●● ولم يكن المشروع الأوّلى يتضمن إنشاء مدينة سكنية . . بل كان يقوم على تقسيم الأراضى ثم بيعها بعد تجهيزها . وبدأ تخطيط ٣٠ كيلو متراً من الشوارع ، وإقامة مشروع للصرف الصحى بطول ١٠ كيلو مترات . ومد خطوط للمياه طولها ٥٠ كم . ولكن المشروع واجه عديدًا من المشاكل . وعانى من الأزمة الاقتصادية التى شهدتها مصر عام ١٩٠٧م . وهنا اضطرت الشركة إلى قيامها ببناء المنازل والعمارات ، بقصد التأجير .

وفى عام ١٩١٠م زادت المساحة الممنوحة للشركة بمقدار ١٢ فدانا إضافية ، لتصبح المساحة ٥٩٦٤ فداناً . ثم زيدت المساحة الكلية إلى ١١٩٠٤ فدادين ، وهنا اشترطت الحكومة مقابل زيادة المساحة الى هذا الحد ، أن تكون الشركة قد أقامت ١٠٠ منزل على الأقل على المساحة الأولى !! . واشترطت أيضاً أن يتضمن البناء إقامة مساكن ومساجد وكنائس وفنادق ومستشفيات ومدارس وأندية وملاعب رياضية . كما اشترطت أن تتولى الشركة إصلاح وتمهيد طريق السويس ، وتحويل خط سكة حديد السويس إلى جنوبى الواحة !!

* * *

خطوط ترام لربط الضاحية

وتشجيعاً للناس على السكنى فى الضاحية الجديدة ، حصل البارون إمبان وشريكه نوبار على امتياز مدته ٦٠ عاماً بإنشاء خط للترام ـ المترو ـ بين كوبرى الليمون وآخر شارع جلال « عماد الدين حالياً » وخط آخر من كوبرى الليمون وينتهى عند واحة عين شمس ، أى هليوبوليس .

وتصف جريدة « الأهرام » فى عددها الصادر يوم ٢٥ أبريل ١٩٠٥م فكرة المشروع فتقول تحت عنوان « واحة هليوبوليس واستعمارها : إن الاكتتاب لمشروع الواحة الجديدة حقق نجاحاً باهراً حيث غطت الأسهم المطروحة ٩٠ مرة . وجمعت الشركة مليونين ونصف المليون جنيه ، ووقعت الشركة الجديدة برئاسة البارون إمبان عقد الامتياز النهائى مع وزارة الأشغال فى ١٣ يونيه ١٩٠٥م .

وعهدت الشركة إلى المهندس والمعمارى البلجيكى إرنست جاسبار ، الذى اتبع أسلوب المدن ـ الحدائق الذى شاع فى أوروبا . وكان نظام المرور الممحور على ميدان الكاتدرائية ـ البازيليك ـ يشتمل على شق شوارع عرضها بين ١٠ و ١١ متراً لتلك التى تفصل بين المساكن ، وعلى شوارع بين ٣٠ و ٤٠ متراً كمحاور رئيسية للحى كله . . وقتها تعجب الناس من عرض هذه الشوارع عندما قارنوها بشوارع القاهرة التى لاتزيد على ٨ أمتار !!

وكان الهدف الأصلى يقوم على إنشاء ضاحيتين تفصل بينهما منطقة صحراوية :

الضاحية الأولى تخصص لإقامة الفيلات والشقق الفاخرة للطبقة البرجوازية . والضاحية الثانية تقام عليها مدينة عمالية ومنشآت صناعية و المساجد . .

ولم ينفذ ذلك التصور ؛ إذ لم تقم المدينة العمالية إلا بعد فترة طويلة ، هى منطقة مساكن ألماظة . . واكتفى المصمم الأول حينها بإضافة أحياء شعبية ومتوسطة .

●● وكانت المبانى تخضع لقواعد صارمة مثل تحديد الارتفاعات وترك مساحات بين كل عمارة وأخرى . وحددت الشركة ٤ نماذج من المبانى : الأول على طراز المدينة ـ الحديقة ثم شقق عمالية ثم بيوت صغيرة من طابق واحد مع عمارات وشقق ثم شقق للإيجار وفيلات . وقامت هذه المبانى على الطراز الغربى . وهنا يقول روبرت إلبرت مؤرخ مصر الجديدة فى كتابه عن هليوبوليس بين عامى ١٩٠٥ و١٩٢٢م قصة مدينة الصادر فى باريس ١٩٨١م « على الرغم من خليط الأنماط وعلى الرغم من التشكك فى سلامة ذوق بعض المبانى إلا أن هليوبوليس تمثل وحدة أكثر عمقاً من الوحدة الناتجة عن قواعد تنظيم المدن . إن سيادة الزخارف الإسلامية المأخوذة فى الغالب من عمارة المساجد تضفى على المدينة سحراً خاصاً . . إننا نجد فى هليوبوليس أسلوباً وإبداعاً حقيقياً . .

وتشجيعاً على أن يبنى الناس بيوتهم فى الضاحية الجديدة ، أقامت الشركة عدة عمارات على حسابها مازالت باقية حتى الآن فى مدخل مصر الجديدة عند وبالقرب من ميدان روكسى ، تتميز بنموذج البواكى المحمولة على أعمدة من الجرانيت الفاخر المجلوب من أسوان لتوفير مساحة من الظل للمشاة . . أو حمايتهم من الأمطار شتاء . . وأبرز هذه العمارات مازال موجوداً فى شارع إبراهيم اللقانى حيث مقر الشركة حتى الآن . .

وعرضت الشركة مساحات من الأراضى على الناس بسعر المتر ٤٠ قرشاً ، على أن تتولى الشركة نفسها بناء المبنى طبقاً للرسومات المحددة بهدف الاحتفاظ بنمط موحد ومحدد للمبانى . ثم يتم تقسيط قيمة الأراضى وتكاليف المبانى على ١٥ سنة بفائدة بسيطة ، وكان مقدم كل هذا بضعة جنيهات . .

* * *

مدينة للأجانب .. وللوطنيين أيضاً

●● كان الهدف إذًا إنشاء حى للأجانب . . وآخر للوطنيين ، ولكن لم يتحقق ذلك كما خطط له المهندس البلجيكى جاسبار ، ولكن أخذ نمو الحى الجديد منحى آخر . . ففى عام ١٩٢٥م وجدنا غالبية السكان من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والأتراك ، أكثر من الأوربيين ولم يزد عدد الأوروبيين وقتها على ٥٠٠٠ شخص من بين ١٦ ألفاً سكنوا الضاحية . . وإن اتجهت كل جالية إلى التجمع مع بعضها . كانوا يتجمعون كما يقول روبرت ألبرت :

« تجمع أبناء كل جالية حول دور العبادة ، أو حول مبانٍ سكنية تتناسب مع مستواها الاجتماعى . وتلاقت الاختلافات الاجتماعية مع الاختلافات العرقية الدينية . وتحكمت إمكانيات السكان المادية فى التوزيع السكانى ؛ إذ تجمع العمال المسلمون فى مكان محدد لأنهم كانوا يحصلون على أقل الأجور . . ولكن من الواضح أن مجمل سكان هليوبوليس كانوا برجوازيين ميسورين . . أوروبيين ومحليين . . موظفين متوسطى الحال ، وأيضاً سكان فقراء . وقد أجرت الشركة إحصاءً عام ١٩١٩م ظهر منه أن مجموع السكان وصل إلى ٦٨٠٠ شخص ، منهم ٣٦٠٠ من الأميين .

وزاد سكان الضاحية بسرعة كبيرة ؛ إذ وصل عددهم بين عامى ١٩٢٠ و١٩٣٠م إلى ٢٠ ألف شخص . وكان هذا خير دليل على نجاح هذا المشروع من ناحيته التعميرية ، وأيضاً من ناحيته الاستثمارية ؛ إذ حقق المشروع أرباحاً هائلة . ويضيف روبرت ألبرت :

« رغم أن شركة هليوبوليس شركة رأسمالية تماماً ، إلا أنها لم تكن شركة تجارة قبل أى شيء آخر ، لقد حصلت على رأسمالها من الدول الأجنبية التى عادت إليها أموالها بعد أن ربحت الكثير . كما نجحت الشركة ـ ونجح المشروع ـ فى الاهتمام بأحوال السكان ؛ فأقامت أشكالاً تعميرية ومعمارية ممتازة . وفرضت نمطاً من الحياة الاجتماعية يشار إليه بالبنان . ولم تكن أبداً استغلالية ، أو مشروعاً استعمارياً أجنبياً . ورغم أن المدينة الجديدة أو الحى الجديد كان سكناً للأقليات ، إلا أنها لم تتسم بأى توتر مذهبى ، رغم أنها شهدت المؤتمر القبطى من ٥ إلى ٨ مارس ١٩١١م .

جذب السكان .. للحى الجديد

وقامت الشركة البلجيكية بحملة دعاية ضخمة لجذب السكان للسكنى فى الحى الجديد . قامت الحملة على أساس صحى ومالى ؛ فالمنطقة جافة ، مرتفعة . . فالهواء نقى . . والإيجار منخفض . وكانت سرعة إنشاء خط الترام الأبيض ـ المترو ـ من وسط القاهرة عند شارع عماد الدين وكوبرى الليمون عاملاً مشجعاً للناس على السكن هناك ؛ إذ تم تشغيل خط المترو هذا عام ١٩٠٦م ، وكان ثمن تذكرة الدرجة الأولى ١٠ مليمات ، والدرجة الثانية ٧ مليمات . ونشرت الشركة إعلاناً بالصحف فى سبتمبر ١٩٠٩م يقول : واحة عين شمس ـ هليوبوليس ـ للإيجار بجوار الجامع الجديد والتراموای الذى سينشأ قريباً . . والبيوت تقام على الطراز التركى . والشقق من ٣ غرف أو ٤ وفسحة . . وفرن . . والإيجار يتراوح بين ٦٠ قرشاً ـ و١٤٠ قرشاً .

وتوسعت الشركة فى تقديم الخدمات ؛ فأقامت ميداناً لسباق الخيل ظل قائماً نشطًا حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين ، وأقامت نادياً رياضياً هو نادى هليوبوليس ، زودته بملاعب الجولف التى وضع تصميمها مهندس وخبير إنجليزى . .

وكانت الشركة تؤمن الإنارة العامة والخاصة ، وكانت توفر لها ما بين ٥٠٠٠ و٢٠ ألف متر مكعب يومياً من مياه الشرب ، بل كانت هذه الكمية كافية أيضاً لرى الحدائق الخاصة ، والعامة . وكانت الشركة البلجيكية قد فرشت فوق الأرض الرملية الصحراوية

طبقة من طمى النيل ، تم نقلها فوق ظهور الجمال ثم بسيارات النقل . وكانت الشركة مسئولة عن تنظيف الحى الجديد بالكامل ، بل وجمع القمامة من البيوت و العمارات وكانت تخصص فرقاً لمقاومة الناموس !!

وأقامت الشركة أماكن للعبادة . . فأقامت كنيسة البازيليك التى دفن فيها البارون إمبان الذى توفى فى بلده بلجيكا يوم ٢٢ يوليو عام ١٩٢٩م ، وتم دفنه بهذه الكنيسة التى حملت أيضاً اسم الكنيسة اللاتينية بناء على وصيته قبل يوم الاثنين ٢٩ يوليو ١٩٢٩م .

وفى يوم ٤ يونيه ١٩١١م ، افتتح الأمير حسين كامل باشا مسجد مصر الجديدة الذى أسسته الشركة ، وحضر الاحتفال مع سموه وزيرا المعارف والأشغال وقاضى القضاة والمفتى وشيخ الأزهر ، وألقى بوغوص باشا نوبار كلمة الشركة باللغة الفرنسية .

كما تم بناء مدرسة الفرير عام ١٩١٠م التى تعتبر بذلك أول مدرسة تقام بالضاحية، وهى بميدان صلاح الدين الآن . وتحتفظ المدرسة ـ حتى الآن ـ فى مدخلها بصورة لها وقت افتتاحها وسط الصحراء . ولم يكن بجوارها إلا كاتدرائية اللاتين «كنيسة البازيليك» .

أيضاً أقامت الشركة أول مدينة للملاهى ، هى اللونابارك أى حديقة القمر ، وكانت محل سينما روكسى الآن ، أى فى مدخل الضاحية !! وبها عديد من الألعاب . وكان هذا أمراً جديداً على المدن المصرية كلها . وكان الهدف هو جذب سكان القاهرة نفسها ، وأيضاً من كل أنحاء مصر لزيارة الحى الجديد أو الضاحية الجديدة للنزهة والمتعة ، فكانت خير إعلان للضاحية .

●● وبذلك زاد الإقبال على السكن فى مصر الجديدة ، التى ظلت تحمل اسم هليوبوليس إلى أواخر الستينيات . . وفى عام ١٩٣٠م بلغت المساحة المبنية ٣ ملايين

متر مربع . وبلغ عدد السكان عام ١٩٣٠م حوالى ٢٨٥٤٤ شخصاً ثم ٥٠ ألف شخص عام ١٩٤٧م . ونقل المترو والترام عام ١٩٢٥م أكثر من ١٠ ملايين راكب .

لقد كانت مصر الجديدة نموذجاً رائعاً للتعمير والبناء فى الصحراء ، وبعيداً عن الأراضى الزراعية غربى النيل . .

* * *

فندق أصبح مقراً رسمياً للحكم

وأبرز المبانى أو المنشآت فى حى مصر الجديدة . . فندق هليوبوليس بالاس . . وبنى ليكون فندقاً ضخماً يواكب الحركة السياحية الجديدة ، التى بدأت تحضر لمصر ، وتشجيعاً على الإقامة فى الحى الجديد . . وبدأ بناء الفندق عام ١٩٠٨م واستمر البناء حتى عام ١٩١٠م ، وهو من تصميم المهندس البلجيكى إرنست جاسبار ، الذى صمم الحى الجديد نفسه ، مصر الجديدة ، وتولت تنفيذه وإقامته شركة ليون رولين «رولان» وشركاه ، وشركة رينتا مارو وفير . وهما من أكبر شركات المقاولات فى مصر . وقام بأعمال الشبكات الكهربائية شركة سيمنز شو برت ـ برلين الألمانية .

وتعتبر القبة من أبرز معالم الفندق ، وهى ترتفع ٥٥ متراً فوق قاعة الاستقبال التى تبلغ مساحتها ٥٨٩ متراً مربعاً ، وصمم هذه القبة ألكسندر مارسيل ، وزينها المهندس جورج لوى كلور وهما مهندسان فرنسيان . أما نجف الفندق فقد صمم ونفذ على الطراز العربى فى دمشق . وغطت السجاجيد الشرقية أرضية الفندق بالكامل . أما السقف فهو يرتفع فوق ٢٢ عموداً ترفع الردهة الرئيسية . أما أثاثات الفندق فقد تم استيرادها بالكامل من لندن ، بعد أن صنعت من خشب الماهوجنى النادر ، وزينت صالات الفندق الرئيسية ، خصوصاً القاعات الكبرى ، بالمرايا من الأرض إلى السقف .

وفى الأول من ديسمبر عام ١٩١٠م ، تم افتتاح الفندق وبه ٤٠٠ غرفة مع ٥٥ شقة فاخرة لكبار الزوار . وكان أول مدير له هو الهر دور هوفر « الألمانى » وكان مسيو بيدار

هو مدير الأغذية و المشروبات . أما رئيس الطهاة فكان الشيف جوين، وجاءوا جميعاً من مطعم بايار الشهير فى باريس .

والفندق الذى كان يملكه مسيو ماركت ، كانت قاعاته لاتقل روعة عن قاعات القصور الملكية مثل عابدين والطاهرة والقبة ورأس التين . وكانت أشهر هذه القاعات: قاعة لويس ١٤ وقاعة لويس ١٥ . وبسبب كبر مساحته وامتداد غرفه تم إنشاء خطوط للسكة الحديد الصغيرة لتوفير الخدمات ، وتربط بين المطابخ و المخازن والثلاجات والمكاتب .

●● وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، استولت القوات الإنجليزية على هذا الفندق الكبير الذى كان أكبر فندق فى أفريقيا والشرق ليتحول إلى مستشفى لعلاج مصابى الحرب بسبب تعدد غرفه وكمال منشآته [٤٠٠ غرفة + المطابخ] ، كما استولت القوات نفسها على المدرسة السعيدية بالجيزة للغرض نفسه .

وبانتهاء هذه الحرب الأولى ، عاد الفندق إلى مهمته الأولى ، وأصبح ملتقى للمشاهير وكبار الزوار . وكانت تقام فيه الحفلات والأفراح والمؤتمرات . واختارته شركات الطيران ليقيم فيه الطيارون وأطقم الضيافة بسبب قربه من مطار ألماظة .. ولأنه كان غير بعيد عن مضمار سباق الخيل فى نادى هليوبوليس ، فقد كان محط أنظار علية القوم من الأجانب المقيمين فى مصر وأغنياء مصر .

●● ولكن بعد أن أقيم عديد من الفنادق العصرية على شاطىء النيل مثل سميراميس « القديم » ثم شبرد ثم هيلتون النيل ، تحول السياح عن فندق هليوبوليس بالاس فى مصر الجديدة ، فأهمل هذا الفندق العريق ، وظل مهجوراً إلى أن تم تحويله إلى مقر للحكومة المركزية عقب إعلان الوحدة بين مصروسوريا عام ١٩٥٨م . وفى الستينيات تحول إلى مكاتب حكومية توارثتها جهات عدة مثل اتحاد الدول العربية ، وحمل اسم : الحكومة الاتحادية . .

●● وعاد الإهمال يلف المبنى الكبير بغرفه وقاعاته إلى أن اختير فى بداية الثمانينيات

ليصبح مقراً رسمياً للحكم فى مصر ؛ بسبب قربه من مقر إقامة رئيس جمهورية مصر الرئيس الرابع محمد حسنى مبارك . وبدأ إعداد الفندق ليلائم المهام الجديدة المسندة إليه ، كمقر رسمى لرئاسة الجمهورية . وتم تجديده بالكامل وطلاؤه باللون الأصفر ، فأصبح يعرف عند العامة « بالقصر الأصفر » . وعادت الحياة إلى قاعاته وغرفه ، التى شهدت الكثير من المؤتمرات الاقتصادية والسياسية مثل مؤتمر الكوميسا عام ٢٠٠١م ، وفى قاعته الرئيسية كرَّم الرئيس مبارك الدكتور أحمد زويل بمناسبة فوزه بجائزة نوبل للعلوم .

وهكذا عادت الأضواء والكاميرات إلى الفندق ، بعد مرور ٩٠ عاماً على إنشائه . وعادت الحياه لتدب ليس فقط فى الفندق الكبير ، بل فى كل المنطقة المحيطة به . .

***

قصر هندى .. أبرز المبانى

●● ولكن ما حكاية قصر البارون الذى يعتبر رمزاً لحى أو لضاحية مصر الجديدة ؟

الحكاية تعود إلى قصر صممه مهندس معمارى عبقرى فرنسى ، هو مسيو مارسيل ، وعرضه هذا المهندس المعمارى فى معرض عالمى للعمارة أقيم فى باريس عام ١٩٠٥م . وشاهد البارون البلجيكى إدوارد إمبان هذا المعرض ، وشاهد القصر ، فأعجب به واشتراه . وتم فك القصر ونقل إلى القاهرة حيث أعيدت إقامته فى مصر الجديدة عام ١٩٠٧م على ربوة عالية ؛ حتى يطل منه على كل الضاحية التى أقامها ، وظل يقيم فيه كلما زار مصر حتى توفى عام ١٩٢٩م [يوم ٢٢ يوليو] . .

والقصر مبنى على الطراز الهندى . وشرفاته تحملها تماثيل على هيئة الأفيال . وفيه برج كان يتحرك فيدور دورة كاملة على قاعدة متحركة كل ساعة . وكان البارون إدوارد إمبان يجلس فى الدور الأخير من هذا البرج ليشرب الشاى عند الغروب ويمتع ناظريه بالجمال الذى زرعه فى هذه البقعة ، التى تبعد عن القاهرة بعشرة كيلو مترات ، وبالجو الجاف الذى تتمتع به ـ المنطقة الصحراوية على أطراف واحة عين شمس القديمة . .

و القصر ـ كان ـ يتوسط حديقة غناء رأيت بقاياها عام ١٩٥٩م عندما أعددت تحقيقاً صحفياً عن القصر نشرته فى مجلة آخر ساعة . وذهبت الحديقة . . وإن بقى القصر ، وبقيت الأرض جرداء . . وبقى السور التاريخى . .

وتداولته أيد عديدة إلى أن اشتراه أحد الأثرياء ، ولكن ثار نزاع حول ملكيته بين الحكومة المصرية التى كانت قد وضعت يديها على الضاحية وعلى خطوط الترام الأبيض [مترو مصر الجديدة] وعلى الشركة البلجيكية نفسها عندما أممت مصر ومصرت المؤسسات المالية الإنجليزية والفرنسية والبلجيكية فى مصر . .

ومازال القصر ينعى من بناه ولم يتحدد مصيره بعد . .

وكان منشىء مصر الجديدة قد قام ـ ضمن ما قام ـ ببناء كنيسة البازيليك ، التى عرفت أحياناً باسم الكاتدرائية اللاتينية التى بنيت عام ١٩١٠م وتم دفنه فيها . وتم إطلاق اسم البارون على الشارع الذى يوصل بين القصر والكنيسة ، وظل الشارع محتفظاً باسم البارون عليه إلى أن تم تغييره فى خطوة خاطئة بلا سبب ، اللهم إلا لأن قراراً جاهلاً صدر ولم يجد من يصححه !!

●● وغير بعيد عن قصر البارون أقام بوغوص نوبار باشا ـ وهو شريك البارون فى المشروع ـ قصراً فخماً على الطراز العربى ، زينه بالخط العربى الكوفى من الداخل والخارج ، وأصبح مقراً بعد ذلك لإدارة التوجيه المعنوى للقوات المسلحة المصرية . .

وبوغوص نوبار باشا هو ابن نوبار نوباريان ، الذى كان أول رئيس للوزراء فى مصر فى عصر الخديو إسماعيل ٢٨ اغسطس ١٨٧٨م . أما ابنه بوغوص فقد تدرج فى المناصب إلى أن اصبح المدير الوطنى للسكك الحديدية المصرية بين عامى ١٨٧٦ و١٨٧٩م ثم مرة أخرى بين عامى ١٨٩١ و ١٨٩٨م .

***

يوم وفاة البارون ..

ويوم علمت مصر بوفاة البارون إدوارد إمبان ، خرجت صحيفة اللطائف المصورة يوم الاثنين ٢٩ يوليو ١٩٢٩م فى عددها رقم ٧٥٥ للسنة الخامسة عشرة ، وكانت من أشهر الصحف الأسبوعية ، وعلى صدر صفحتها الأولى تنعى الفقيد الكبير . ولم يكن بكل الصفحة الأولى إلا خبران . الأول عزل المندوب السامى البريطانى لورد جورج لويد سابع المندوبين الساميين السابقين ، بصورة له بارتفاع الصفحة الأولى كلها . . أما الخبر الثانى فكان عن « وفاة المرحوم البارون إمبان » ونشرت صورة له وكتبت الصحيفة تحتها : المرحوم الجنرال البارون إدوارد إمبان مؤسس شركة هليوبوليس . . وقالت فى الخبر :

« نعت أنباء بروكسل يوم ٢٢ يوليو الجارى عظيماً من العظماء العصاميين ، وماليا من كبار الماليين هو البارون إدوارد إمبان ، الذى كانت له فى دور المال والأعمال فى هذا القطر أياد بيضاء ، وخلف من مدينة هليوبوليس العظيمة ، التى ابتكرت مشروعها قريحته الوقادة وتعهد إنشاءها وتقدمها بجهوده الجبارة خير أثر يضمن لاسمه الخلود فى صفحات تاريخ نهضة مصر العمرانية .

كان رحمه الله ـ تستمر اللطائف قائلة ـ مهندساً نابغاً ، اشتغل فى أول عهده بمشروعات بناء سكك الحديد ، ثم التراموايات الكهربائية . ثم انصرف إلى تأسيس الشركات ، ومباشرة الأعمال الكبرى وغيرها . . وجاء هذا القطر فى سنة ١٩٠٦م

فأسس شركة ضاحية هليوبوليس وسكتها الكهربائية . واشترى بالاشتراك مع صاحب السعادة بوغوص باشا نوبار تلك الصحارى الجرداء من الحكومة بثمن بخس، وحولها فى بضع عشرة سنة إلى مدينة عظيمة ، وحدائق غناء ، ومتنزهات جميلة، حتى أصبح ثمن المتر فيها اليوم يزيد على الثمن الذى اشترت به الشركة الفدان يوم تأسيسها . وقد كان لنعيه رنة حزن فى جميع أنحاء العاصمة ، وأقيم له جناز حافل فى الكاتدرائية اللاتينية فى هليوبوليس . . . رحمه الله وألهم نجله وسائر آله الصبر والعزاء » . .

مصر الجديدة .. أوائل القرن ٢١

●● ولكن ماذا عن مصر الجديدة وهى تقترب من القرن من عمرها المديد. . ما أهم شوارعها . . وأهم ما فيها من منشآت . . وما أهم الأنشطة فيها ؟!

تعالوا لنغوص فى شوارع تلك الضاحية التى بدأت إقامتها عام ١٩٠٦م . .

إذا اعتبرنا أن جسر السويس [شارع سكة حديد السويس القديمة] تحد مصر الجديدة من الشمال الغربى ، يكون نادى مصر الجديدة لسباق الخيل [ومكانه الآن جزء من حديقة المريلاند ومنطقة فيلات شارع نهرو] هو أكبر منشأ شرق هذا الشارع ، ونجد غربه شارع القبة ، وامتداد شارع إبراهيم اللقانى . ونعتبر أن شارع السيد الميرغنى هو الحد الجنوبى للضاحية عند تقاطعه مع شارع الخليفة المأمون ، الذى يفصل الضاحية عن منشية البكرى من الغرب . .

وفى هذه المنطقة الغربية ـ الجنوبية من الضاحية ، نجد نادى مصر الجديدة للألعاب الرياضية الذى هو الآن نادى هليوبوليس ، وأمامه فندق هليوبوليس بالاس الذى أصبح المقر الرسمى لرئاسة الجمهورية الآن ، وبعده جنوب شارع الميرغنى نجد ملعب البولو ثم ملعب الصولجان . وقد انتهى الملعبان : البولو و الصولجان وتحول موقعهما إلى مناطق سكنية . وكان شارع العروبة هو الحد الشرقى للضاحية ، وإن كان التعمير بدأ يزحف شرق هذا الشارع ـ فى أول الخمسينيات ـ فنجد شارع عبدالواحد باشا الوكيل ، وشارع بونابرت .

وكان شارع أبوبكر الصديق هو أكبر شارع عرضى يحد الضاحية من الشمال ، ويحدها من الغرب دار المحكمة الشرعية ، وإذا اتجهنا شرقاً نجد بدايات شوارع هارون الرشيد ونخلة المطيعى ثم محمد بك رمزى ، والخليفة المنصور ، وكلها تتقاطع مع شارع « أبو بكر الصديق » .

تلك إذًا كانت حدود الضاحية فى بداية الخمسينيات . وكانت هى كل مصر الجديدة . وكنا نجد خارجها من الشمال « أى شمال المحكمة » جبانة للمسلمين . وأخرى للأقباط الأرثوذكس . وفى الجنوب كان يقع معهد الصحراء المصرى ، ومن الشرق مدارس البعثة العلمانية الفرنسية . .

هذه المنطقة التى كانت هى كل مصر الجديدة ، أصبحت الآن قلب الضاحية الجديدة . . فماذا عن التفاصيل ؟!

●● إذا اعتبرنا شارع السيد المرغنى هو الحد الجنوبى ، نجد شماله ، من الشرق للغرب شوارع : اللقانى . . . رمسيس . . . إبراهيم . وامتداده شرقاً شارع الثورة . وبينهما شارع نوبار . ومن المؤكد أن المقصود من نوبار هذا بوغوص نوبار شريك البارون فى إنشاء الشركة والمشروع ، وليس الأب نوبار باشا الذى كان أول رئيس لوزراء مصر فى عهد الخديو إسماعيل . ثم نجد شارع الجنرال البارون إمبان ، الذى يصل إلى ميدان الكاتدرائية اللاتينية « البازيليك » ، ونجد هنا شارع شريف باشا . وشارع البارون إمبان هذا كان يصل أو يربط بين قصره . . وقبره ؛ حيث دفن فى يوليو ١٩٢٩م. ثم نجد شوارع الفيوم . . الخرطوم . . القاهرة . . أشمون وغربها كلية الفرير، ثم شوارع منوف . . صلاح الدين . . رشيد . . مراد بك . . الإمام على ، لنصل إلى أكبر شارع هنا هو شارع عمر بن الخطاب ، فشارع فوزى المطيعى بك فشارع رشدى باشا ، وامتداده غربًا شارع ديليسيبس إلى المحور الرئيسى الكبير شارع « أبو بكر الصديق » الذى تخرج منه من الشرق شوارع الخليفة المنصور ، ثم محمد بك رمزى ثم نخلة المطيعى .

أما الشوارع الرئيسية من الشرق إلى الغرب فهى من غرب شارع العروبة : شوارع إسكندر الأكبر . . كليوباترا . . بغداد . . الأهرام . . دمشق . . غرناطة ؛ فإذا اتجهنا شمالاً نجد شوارع الإسكندرية . . هارون الرشيد . . وسوق الخضار . . ثم شارع أسوان ثم شارع أبو سنبل . .

تلك هى إذًا كانت مصر الجديدة . . تخيلوا ؟!

الآن أصبحت مصر الجديدة مدينة قائمة بذاتها وليست مجرد ضاحية .

مصر الجديدة .. فى بداية القرن ٢١

●● بعد أقل من قرن من إقامة الضاحية الجديدة ، توسعت مصر الجديدة التى شاع إطلاق اسم هليوبوليس عليها . ونجد المحاور الرئيسية الكبرى التالية بعد ميدان روكسى الذى يعتبر نقطة الارتكاز ، من الغرب من ميدان التجنيد ونحن نتجه شرقاً نجد ميدان المحكمة ثم ميدان « أبو بكر الصديق » ، ثم ميدان سفير إلى ميدان الطيران لنصل إلى ألماظة شرقاً .

وتصب فى هذه المحاور من الغرب للشرق شارع الحجاز ، الذى يبدأ من ميدان روكسى ومحور شارع دمشق وامتداده هارون الرشيد إلى شارع الأهرام إلى شارع العروبة إلى شارع النزهة فى أقصى الشرق .

ثم نتجه شمالاً فنجد ميدان تريومف ومحاوره الرئيسية شارع النزهة شرقاً ثم عمر ابن الخطاب ، ويتقاطع على هذا المحور شارع عبد العزيز فهمى إلى أن نصل الى ميدان النزهة « الحجاز » ؛ حيث شارع عبد الحميد بدوى وغربه ميدان الألف مسكن . وبين ميدانى النزهة والألف مسكن نجد شارع فريد سميكه .

ثم تنطلق مصر الجديدة أبعد من ذلك إلى حيث مطار القاهرة ، مروراً بمنطقة مساكن شيراتون الحالية وشمالاً إلى الهايكستب وغرباً إلى منطقة النزهة الجديدة .

* * *

فلسفة شوارع مصر الجديدة

●● ليست هناك قاعدة مطلقة فى تسمية الشوارع . .

فى الدول التى ليس لها تاريخ قديم ، نجد قاعدة إطلاق الأرقام على الشوارع . وأبرز مثال على ذلك الولايات المتحدة الأمريكية ؛ إذ لايزيد عمرها كدولة مستقلة على قرنين من الزمان .

وفى الدول العسكرية ذات التاريخ العسكرى والبطولات العسكرية الحاسمة ، مثل إنجلترا و إسبانيا وألمانيا نجدهم يطلقون أسماء ومواقع المعارك العسكرية على ميادينهم وشوارعهم الأساسية ، وأيضاً أسماء القادة العسكريين . .

وفى الدول ذات النظام الملكى العريق ، نجد أسماء الملوك والأميرات ، والأباطرة .

وامتد الأمر إلى الدول المتدينة ذات التاريخ الدينى ، فنجدهم يطلقون أسماء القديسين . وربما أفضل مثل على ذلك فرنسا ؛ إذ نجد كلمة سان ، أو سانت أى القديس أو القديسة على كثير من الشوارع ، وفى باريس نجد أشهر شارع فى الحى اللاتينى هو « سان » ميشيل . بل إن الشارع الرئيسى الذى يصل بين كوبرى الجمعية الوطنية على نهر السين ، وواحد من أشهر أحياء العاصمة الفرنسية اسمه شارع « سان جرمان » . نجد هذه الظاهرة فى إسبانيا . . وفى إيطاليا ، بل وفى روسيا قبل الشيوعية وبعد الشيوعية ، وهذا يتمثل فى مدينة : « سان » بطرسبورج . . وهكذا .

ولكن الوضع فى مصر يختلف ، فنحن شعب تاريخه عريق وعميق ، عاش عهوداً فرعونية زاهرة . . ويونانية . . ورومانية وقبطية ، ثم عهوداً إسلامية امتدت لما يقرب من ١٤ قرناً حتى الآن . هذا التاريخ أعطى لنا وفرة فى الأسماء التى نفخر بأن نطلقها على شوارعنا ومدننا . . وميادينا . .

●● وفى ضاحية أو حى مصر الجديدة ، نجد هذا المثل واضحاً غاية الوضوح .

نجد من الأسماء الفرعونية : رمسيس . . تحوتمس . . أبو سنبل . .

ومن الأسماء اليونانية نجد اسم الضاحية نفسه : هليوبوليس ، ونجد اسم منشىء الإسكندرية ، الإسكندر الأكبر نفسه ، ونجد كليوباترا .

ومن الأسماء القبطية نجد فريد بك سميكه . .

●● أما من العصر الإسلامى فالحديث يطول :

نجد الخلفاء الراشدين الأربعة : أبوبكر . . عمر بن الخطاب . . عثمان بن عفان . . والإمام على ، ثم نجد من الخلفاء : هارون الرشيد . . والخليفة المأمون . . والخليفة المنصور . . . كما نجد الإمام الغزالى .

ونجد شوارع تحمل أسماء المدن العربية والإسلامية ، مثل : بغداد . . بيروت . . دمشق . . غرناطة . . الخرطوم . . بل نجد شارع الحجاز نفسه ، وشارع فلسطين . . وهل ننسى شارع العروبة « كلها » ممثلة فى هذا المحور الرئيسى ، الذى يبدأ من شارع صلاح سالم ، وحتى يصل إلى المطار ! !

ونجد شوارع تحمل أسماء مدن مصرية ، مثل : دمياط . . رشيد . . أسوان . . فارسكور . . المنصورة . . منوف . . أشمون . . طنطا .

ونجد أسماء لقادة تركوا بصماتهم على التاريخ المصرى ، مثل : صلاح الدين . . إبراهيم باشا . . مراد بك . . بونابرت .

ومن الأسماء التى لها تاريخ مرتبط بالتاريخ المصرى ، نجد اسم فردناند ديليسبس . ومن باشوات مصر ، نجد على شوارع مصر الجديدة اسمى اثنين من عائلة المطيعى

اللذين ينسبان الى قرية المطيعة التابعة لمحافظة أسيوط . ونجد شوارع : شريف باشا السياسى الكبير وأبو الدستور المصرى ، وعبد الواحد الوكيل باشا وعبد العزيز فهمى باشا قاضى القضاة وأحد ثلاثه ذهبوا لمقابلة المعتمد البريطانى ريجنالد وينجت؛ ليطلبوا لمصر الاستقلال يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨م . ونجد شارع رشدى باشا أحد رؤساء وزارات مصر ، وشارع عبد الحميد بدوى القانونى المصرى البارع ، الذى أصبح قاضياً بمحكمة العدل الدولية وكان وزيراً مصرياً . ونجد شارع محمد بك رمزى مفتش المالية، الذى وضع سفراً عظيماً عن المدن والقرى المصرية ، يعد واحداً من أهم المراجع فى الخطط المصرية . ونجد شارع نوبار باشا شريك البارون فى مشروع هذه الضاحية ، وكان مديراً مصرياً للسكك الحديدية المصرية لفترتين طويلتين فى نهاية القرن ١٩م ، وهو ابن نوبار نوباريان ، أول رئيس للنظار « للوزراء » فى عصر مصر الحديثة أيام الخديو إسماعيل .

ونجد شارع الميرغنى ، وهو الزعيم السودانى الدينى السيد على الميرغنى زعيم الطائفة الختمية ، وزعيم الميرغينية فى السودان . وكان حليفاً لمصر تواجه به الفرع الآخر للزعامة فى السودان ، وهم المهدية الذين ينتسبون للسيد محمد أحمد المهدى زعيم الأنصار ، وزعيم الثورة المهدية . وكان السيد الحسيب النسيب السيد على الميرغنى يواجه زعيم الأنصار المهدية : السيد عبد الرحمن المهدى باشا ، الذى منحه الإنجليز لقب سير !! .

***

الغرائب .. فى أسماء مصر الجديدة

●● وبجانب كل هذه الأسماء ، نجد أسماء غريبة على ميادين وشوارع الضاحية ، مثل : روكسى . . تريومف . . سفير . فمن هو سفير هذا ياترى ! ثم أى نصر هذا الذى تحقق حتى نطلقه على هذا الميدان الشهير . وما النزهة . وهل كان فى مكان الحى بستان يتنزه فيه الناس ؛ حتى يصبح هناك : النزهة والنزهة الجديدة . .

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢م ، شهدت ضاحية مصر الجديدة تغييراً كبيراً فى الأسماء . وتحولت بعضها إلى أسماء ثورية ، كما دخلت بعض أسماء الأصدقاء السياسيين لمصر مثل نهرو « جواهر لال نهرو » تلميذ الثائر الهندى المهاتما غاندى ، والذى أصبح أول رئيس لوزراء الهند بعد الاستقلال ، وهو والد إنديرا غاندى التى أصبحت رئيسة الوزراء بالهند مرات عديدة ، وشارعه قريب من ميدان روكسى خلف حديقة الميريلاند الشهيرة . .

●● واشتهرت مصر الجديدة بوجود مساحات هائلة من الحدائق والخضرة ، لأن فلسفة تخطيطها قامت على غرار المدن والحدائق فى أوروبا ، بل إن الجزر الوسطى فى المحاور الرئيسية لشوارع الضاحية دائماً ما تزرع بالزهور والأشجار .

واشتهرت الضاحية بالنوادى الرياضية كبيرة المساحة ذات الحدائق والملاعب . ومن أشهر نواديها الآن : نادى هليوبوليس أمام المقر الرسمى لرئاسة الجمهورية بالقرب من ميدان روكسى ، ونادى الشمس على حدود الضاحية مع طريق جسر السويس ، ونادى الغابة ، ونادى هليوليدو الذى كان مكانه نادى سباق الخيل ، بالإضافة إلى نوادٍ تابعة للقوات المسلحة .

المترو .. والترام الأبيض !!

●● إذا كان البارون إمبان هو الذى حصل على امتياز مد خطوط الترام الكهربائية فى القاهرة عام ١٨٩٦م ، فإنه أيضاً حصل على امتياز مد خطوط للترام تربط بين الضاحية الجديدة والقاهرة ، على أن تبدأ من أول شارع جلال (عماد الدين حالياً) إلى كوبرى الليمون ، ثم إلى محطة المعلمين شمالى منشية البكرى ، إلى أن يتفرع إلى فروع ثلاثة لتغطى كل مناطق الضاحية . وكان هناك خط يصل الى منطقة النزهة ، وخط الميرغنى ، وخط عبد العزيز فهمى . وحتى يشجع البارون إمبان الناس على السكنى فى ضاحيته الجديدة ، بدأ تسيير الترام « المترو » عام ١٩٠٦م ، وكانت التذكرة بالدرجة الأولى ١٠ مليمات ، وبالدرجة الثانية ٧ مليمات . وكانت هذه الخطوط منتظمة فى مواعيدها بشكل لافت للنظر . وقدمت إدارة هذا الترام تسهيلات عديدة للركاب وللسكان . ونجحت عملية تسيير هذه العربات ، عندما عزلت الشركة مسار هذه الخطوط سواء من القاهرة إلى الضاحية ، أو داخل خطوط الضاحية نفسها .

وكلما توسعت الضاحية امتدت إليها خطوط المترو ، وبذلك ارتبطت الضاحية بوسيلة مواصلات منتظمة ونظيفة ورخيصة . . وسريعة . .

وحتى تكتمل الخدمة للسكان ـ وتحت مبدأ تشجيع الناس على السكنى فى هذه الضاحية ـ تم مد خطوط أخرى للترام ، كان يسمى الترام الأبيض ، وكان يربط بين المناطق العرضية التى لاتصل إليها خدمات المترو الأم ، وكان العامة يطلقون عليه

«الترام الأوازيزى » للتفرقة بينه وبين المترو . وهذا الاسم مشتق من كلمة « أوازيز » ؛ أى الواحة كنية عن اسم واحة عين شمس . .

●● ولاينتهى الحديث عن عين شمس ، أو هليوبوليس التى تم تأميمها وتمصيرها، عندما تم تأميم كل الممتلكات الأجنبية ، وكانت الممتلكات البلجيكية من بينها . وكان أبرز هذه الممتلكات شركة مصر الجديدة بكل مرافقها ومعها خطوط المترو، وشركة ترام القاهرة ، وعدد من المنشآت المالية ، وذلك عام ١٩٥٧م . . وأصبحت مصر الجديدة ملكاً خاصاً للدولة المصرية منذ هذا التاريخ .

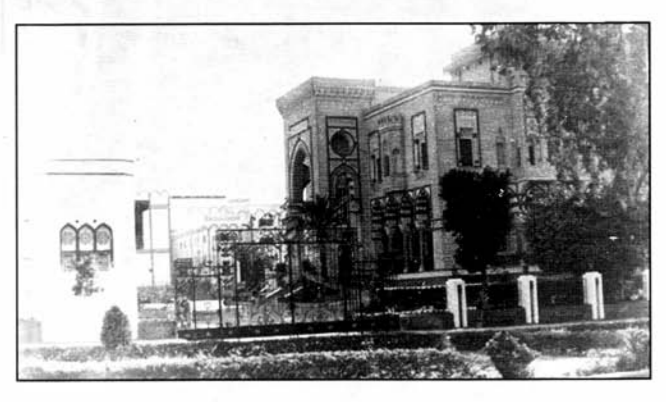
***



قصر البارون أدوارد إمبان مؤسس ضاحية مصر الجديدة تحفة معمارية فرنسية على الطراز الهندى



كنيسة البازيليك أو كاتدرائية اللاتين فى مصر الجديدة حيث دفن البارون إمبان .



. . وقصر شريكه بوغوص نوبار باشا فى ضاحية مصر الجديدة وهو الآن مقر إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة . . وغير بعيد عن قصر البارون نفسه .



ميدان الإسماعيلية أحد أهم ميادين ضاحية مصر الجديدة .



البارون إمبان يقف عند مدخل قصره الشهير فى مصر الجديدة ، عندما كان واحدًا من أغنى الأغنياء فى مصر .



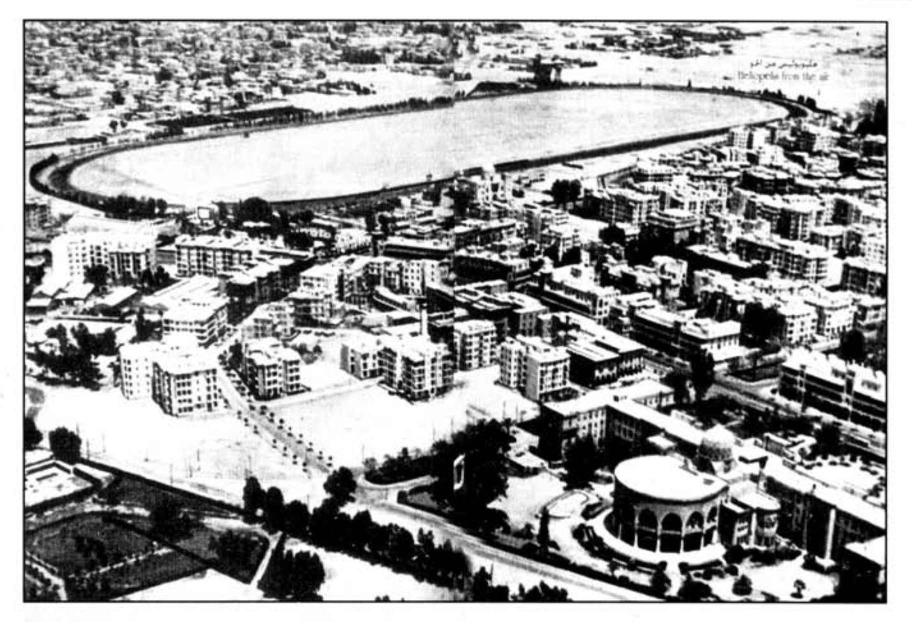
الجنرال البارون إدوارد إمبان مؤسس ضاحية مصر الجديدة .



بوغوص نوبار نجل نوبار باشا أول رئيس للوزراء فى مصر الحديثة . وبوغوص هذا ـ ١٨٥١ ـ ١٩٣٠م ـ هو شريك البارون إمبان فى تأسيس ضاحية مصر الجديدة .



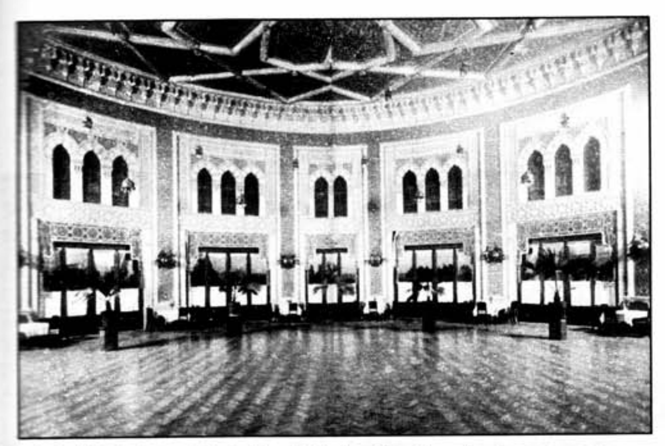
المهندس أرنست جاسبار الذى صمم حى مصر الجديدة . . وصمم فندق هليوبوليس بالاس « مقر رئاسة الجمهورية الآن » .



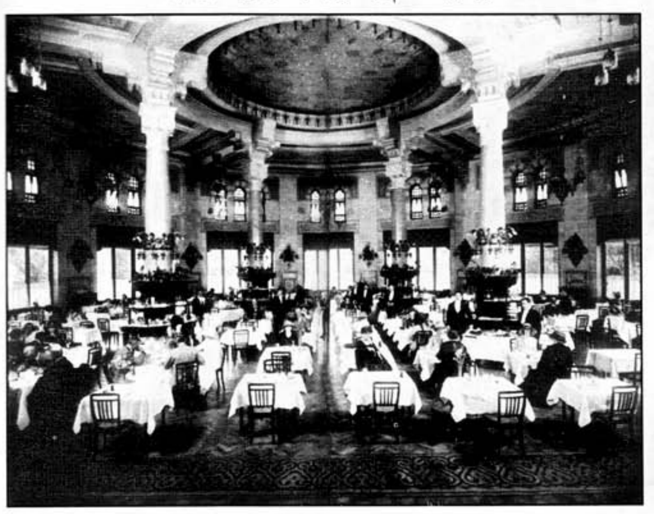
ميدان روكسى ومضمار سباق الخيل الذى أصبح الآن حديقة الميريلاند والصورة فى النصف الأول من القرن العشرين .



القاعة الشرقية بالفندق والنجف المصنوع فى سوريا والأثاث الشرقى .



إحدى قاعات فندق هليوبوليس بالاس تحولت إلى قاعة استقبال واحتفالات بعد أن تحول الفندق إلى مقر رسمى للحكم فى مصر فى عهد الرئيس حسنى مبارك .



القاعة الكبرى عندما كان القصر فندقاً فى بداية القرن العشرين وفى هذه القاعة تم تكريم الدكتور أحمد زويل الفائز بجائزة نوبل .



فندق هليوبوليس أكبر المبانى فى ضاحية مصر الجديدة . . وقد قارب على الانتهاء عام ١٩١٤ بينما أعمال مد خطوط الترام (المترو) على قدم وساق .



عمارات منطقة روكسى فى حى مصر الجديدة ارتبط عمرها بعمر الضاحية ، ومازالت صامدة رغم أن عمرها يقترب من المائة عام .



الملك فاروق وعلى يمينه مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء وحوله الوزراء ورجال الدين وأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى عندما أفتتح الملك مسجد الجيش فى ألماظة يوم ١٣ فبراير ١٩٤٣ .

أسواق القاهرة من عربة كارو
إلى أسواق مسقوفة بالكامل

●● لايمكن إغفال الحديث عن أسواق القاهرة ؛ فالسوق هو عنوان المدينة، أى مدينة. . تتطور أيام الرخاء والعز لتصبح أسواقاً تجذب المتعاملين. . أو تنحدر أيام عصور الانحطاط لتعود كما كانت مجرد « عريشة » متواضعة. .

والسوق يبدأ ببائع يضع بضاعته على قفص على الرصيف، أو ربما فى عرض الشارع. وينادى !! وحتى يحمى بضاعته من حر الشمس أو المطر ، وحتى يحمى نفسه هو من هذه وتلك . . كان يغطى بضاعته ورأسه بمظلة. . تكبر أحياناً لتظلل من يقف يشترى ؛ أى كانت وسيلة للحماية، ولجذب المشترى الذى يجد مكاناً مظللاً يحتمى تحته لحين الانتهاء من شراء ما يلزمه . .

تلك هى بداية السوق المسقوف فى أى مدينة . . وفى أى بلد فى العالم ، متحضراً فى أوروبا وأمريكا . . أو نامياً فى جنوب شرق آسيا . . أو فقيراً بدائياً فى أفريقيا . . الهدف واحد . . والمهمة واحدة : هى ترغيب المشترى ليقف ويشترى ، وهو محمى من الشمس أو المطر !!

وتطورت فكرة السوق المسقوف ـ وهى غير المسجوف فى بغداد على امتداد شارع «أبو نواس » على شط نهر دجلة !! ـ إذ عندما كان الباعة يتجمعون ويتجاورون ليبيع كل منهم بضاعته، والعطار بجوار العطار يرزق !! كان كل بائع ينصب نصبته، أى فرشته، على الأرض أو فوق أقفاص من جريد النخل ، أو على عربة يد ؛ أو مجرد فرشة

خشبية يرفعها على قوائم خشبية . المهم كان يضع مظلة فوق « فرشته » هذه . وبتجاور الفرش أو النصبات وفوقها المظلات ، إما من قماش أو عريش من سعف النخل أو بقايا أقمشة قلوع المراكب أو الخيش . وبتجاور كل هذا ينشأ السوق المسقوف البدائى والبسيط . . من الخيش وعروق الخشب !! ولقد وجدت هذه البدايات فى أسواق دبى والشارقة وأبوظبى قبل نهضتها البترولية .

●● وعندما يزداد النشاط التجارى فى السوق ، يتفق التجار على تركيب سقف مشترك . . يساهم كل بائع بنسبة حجم تجارته أو نصبته . . فكانوا يصنعونه من عروق الخشب ، ويسقف بسعف النخيل ، كما وجدت فى البصرة جنوبى العراق حيث يكثر النخيل وأجود تمور العالم . ولكنه فى بغداد وجدته أكثر تطوراً ؛ أى يتم البناء بعروق الخشب ، ثم تقام عليها ألواح من خشب البغدادلى ، تترك فراغات للتهوية . كما وجدت فى النجف وفى فاس ومراكش والرباط ، وأحياناً يترك فيها وبينها نوافذ .

والشىء نفسه نشأ عندنا فى القاهرة القديمة : الفسطاط حيث مدينة مصر ، وحيث كل أنواع النشاط الاقتصادى ، واستمر هذا الحال فى الفسطاط ، حتى بعد إنشاء العاصمة الثانية العسكر ، ثم العاصمة الثالثة القطائع ؛ لأن النشاط التجارى ظل متمركزاً فى الفسطاط مدينة الجماهير ، لأن العسكر والقطائع كانتا من المدن الملكية التى تبنى لإقامة الحكام ، ومن فى معيتهم . .

واستمر المنهج نفسه مع بناء القاهرة المعزية عام ٩٦٩م . . فقد كانت القاهرة مدينة للخلفاء والوزراء وقادة الجيش ، ومن فى مستواهم ، وكان الناس يعملون فى القاهرة ، ولكنهم يعودون بعد صلاة العشاء منها إلى الفسطاط . . إلى بيوتهم !

ولم تعرف القاهرة الأسواق الحقيقية إلاّ بعد أن تدهورت حالة الخلافة الفاطمية ، وانتقل صلاح الدين وأسرته الحاكمة من دار الوزارة فى القاهرة الفاطمية ، ليقيم فى القلعة . . هنا بدأ التجار يتسللون للعمل والتجارة بكل أنواعها فى الشارع الأعظم ؛ أى قصبة القاهرة ووجدنا لكل حرفة ونشاط وتجارة أقسامها ورجالها . . وأسواقها . .

وفى هذا يقول المقريزى فى خططه :

« كانت القاهرة مدينة للخاصة ، لا ينزلها إلاّ الخليفة وعساكره وخواصه الذين شرفهم بقربه فقط ، بينما كانت الفسطاط هى مدينة العامة والأسواق . ولم يكن مسموحاً للعامة بالإقامة فى القاهرة إقامة دائمة . وكان «المتعيشين » بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء بالقاهرة ، ثم يتوجهون إلى منازلهم بمصر « الفسطاط » تماماً مثل الذين يعملون الآن بالقاهرة ، ولكنهم يسكنون فى بنها أو الزقازيق وقليوب وغيرها ، لأن الفسطاط كانت أرخص أسعاراً من القاهرة . . فالشقق فى القاهرة غالية . . ولهذا يفضلون برغبتهم الإقامة خارج القاهرة . . أما أيام الفاطميين فلم يكن مسموحاً لهم بالبيات فيها . .

●● وهكذا وجدنا فى القاهرة : سوق الشرايحين قرب باب زويلة ؛ أى الذين يبيعون شرائح اللحم التى يتم شيها فى حوانيت هذا السوق ، وهو أول سوق للشوايين. وكان فيه أيضاً مطابخ الرواسين أى باعة لحمة الرأس مطبوخة . ويبدو أن المصريين عرفوا حكاية « التيك أواى » حتى قبل أن يكتشف كولومبوس أمريكا بقرون عديدة . . وأن المصريين كانوا يعشقون الطعام الجاهز خارج بيوتهم . وهل هناك علاقة بين بداية الكباب و الكفتة فى شارع المعز . . وتمركز أفضل مطاعم الشواء فى هذه المنطقة وما حولها ؟!

ووجدنا على امتداد شارع المعز وفى الفسطاط : سوق القماحين أى سوق القمح «الغلال » فى الفسطاط على شط النيل؛ حيث ميناء أثر النبى فى مصر عتيقة الآن ، وسوق الحجارين أى بيع الأحجار المقطوعة من المقطم وطرة لمن يريد أن يبنى بيتاً . . وسوق السراجين أى باعة « السراج » للإضاءة بالزيت . . وسوق الحريريين أى باعة الأقمشة المصنوعة من الحرير ، وكان معظمها يأتى من الشام ومن الهند، وأغلاها ماكان يأتى من الصين . . وبعضها من جنوة والبندقية فى إيطاليا . . وأقلها ما كان يصنع فى مصر فى إخميم أو فوة أو تنيس فى بحيرة المنزلة أو دمياط .

كما وجدنا أسواق : الزياتين « باعة الزيت » . . والجبانين واللبانين أى باعة منتجات الألبان . . والعطارين . . والخضريين وسوق القناديل بجوار جامع عمرو أو زقاق القناديل . . ومازالت هناك حارة ضيقة تحفظ لنا هذه الذكرى فى المنطقة نفسها! . .

وربما يتذكر كبار السن من سكان القاهرة هذه الأسواق ، التى كانت مسقوفة إلى عهد قريب بالخشب والقماش السميك ، على امتداد شارع المعز من باب زويلة جنوباً إلى بابى النصر والفتوح شمالاً !!

على المنوال نفسه ، رأيت وتجولت فى شوارع مماثلة تماماً ـ أصغر أو ربما أكبر ـ فى دمشق ، وبغداد ودبى والشارقة ؛ حيث أشهر سوق للذهب مغطى بالخيش !! والبصرة والنجف . . وفى فاس ومراكش والرباط . .

●● ووجدت أسواقاً عديدة مماثلة ، ولكن بطريقة أكثر تنظيماً ونظافة فى أوروبا وأمريكا . . وأستراليا وآسيا . .

فى أوروبا ـ وفى أسواق اليوم الواحد ـ حيث يذهب المزارع بإنتاجه داخل سيارة نقل تكبر أو تصغر حسب نشاطه إلى منطقة تحددها سلطات المدينة . وليكن فى سرة المدينة ، ويفرش المزارع إنتاجه على طاولات خاصة نظيفة بجوار سيارته ، ثم ينصب مظلته لحماية ما يبيع ويغرى المشترين ، إن كانت المنطقة مشمسة . . أو مطيرة . .

وفى أسواق اليوم الواحد هذه ، يفضل الناس الشراء لعدة أسباب . . أولها أن الإنتاج طازج . . آت مباشرة وفوراً من المزرعة . . وللأوروبى عشق بالإنتاج الطازج ، بعد أن مل من تناول المعلبات و الصناعات الغذائية . . . هى إذًا عودة إلى الطبيعة .

ومن هواياتى أن أبحث عن أسواق كل مدينة أزورها ؛ لأنك حتى تعرف المدينة خير معرفة ابدأ بالسوق . وقبل أن تغرب الشمس ، يجمع المزارع حاجياته وبقاياه ويضعها داخل عربته ، وينظف مكانه فلا يترك حتى زهرة أو ورقة زهرة . . وينتهى السوق بنهاية اليوم . ومن أفضل وأكبر أسواق اليوم الواحد ما وجدته فى فرانكفورت ،

غير بعيد عن بيت شاعر ألمانيا العظيم « جوته » ، ففيه تشترى وتأكل وتمرح وتتمتع وتلهو وتشاهد . . . إلى آخر ما تريد !!وتكاد هذه الأسواق تقام فى كل مدن ألمانيا . . وفرنسا .

أما فى أمستردام عاصمة هولندا ، فوجدت سوق اليوم الواحد فى شارع طويل يمتد أكثر من كيلو مترين يباع فيه كل شىء . . كل شىء . . . من الطعام و الفواكه ، إلى الملابس ، إلى الطيور ، إلى الأسماك ، إلى الهوايات ، إلى مخلفات الناس أى المستعملة . . ولا حرج أمام أى بائع يبيع . . أو أى مشتر !! وتعمدت أن أعود للشارع عند الغروب لأشاهد بقايا ومخلفات البيع والشراء ، فوجدت سيارات البلدية تغسل الشارع بالصابون وتجففه بالبخار !!

ووجدت شارع سوق اليوم الواحد نفسه فى مدريد عاصمة إسبانيا . ويطلقون عليه اسم « شارع البراغيث » . وفى مدينة سانت لويس عاصمة ولاية ميسورى . . وفى مدينة نيو أورليانز عاصمة ولاية لويزيانا على مصب نهر المسيسبى وجدت أيضاً سوق اليوم الواحد : المسقوف النظيف المنظم الصحى، ووجدته فى كوالالمبور عاصمة ماليزيا . . وفى سنغافورة . . وفى مدينة ملقا التاريخية فى ماليزيا .

● السوق المبنى .. آخر مراحل الأسواق المفتوحة :

●● ونصل إلى السوق المبنى ، بعد أن استقرت الأحوال والأموال، وربما ـ فى المشرق العربى ـ يعرف الناس سوق الحميدية الذى ربطت الأغانى ـ زمن الوحدة المصرية ـ السورية بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦١م ـ بينه وبين الموسكى ، لأن أول الموسكى حيث سوق الكانتو كان سوقاً مظللاً مسقوفاً أيضاً . . وسوق الحميدية بنى أيام الحكم العثمانى لسوريا . وربما يقول قائل إنه بنى أيام السلطان « نور الدين محمود » . . ولكن سوق الحميدية على أى حال كان سوقاً مبنياً . وفيه يباع كل ما تهفو إليه النفس ، وإن غلبت عليه الأقمشة السورية بحكم أن سوريا تشتهر بها، وأيضاً الأقمشة المطرزة ، والحلوى ، والباذنجان المكدوس أى المحشو بعين الجمل ، والسكاكر أو الملبسات والحلوى ، وفيه أيضاً المطاعم و المشارب ، وكل النشاطات التجارية .

●سوق إستانبول المغطى ... أعظم وأكبر أسواق العالم :

●● وفى رأيى أن سوق إستانبول المغطى والمبنى بالكامل هو أكبر وأعظم سوق مغطى فى العالم كله . . وهو الأقدم على الإطلاق . .

ويقول البعض إن هذا السوق يعود إلى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، لأنه يعلو بوابة سوق الذهب . فى هذا السوق صورة بارزة لنسر بيزنطى برأس واحد - شاهدته بعينى - وهو الشعار الإمبراطورى لعائلة كومينى ، التى حكمت بيزنطة ، أى الإمبراطورية الرومانية البيزنطية . كما أن طراز مبانى السوق تميل إلى المدرسة المعمارية البيزنطية . . ولكن هذا الكلام ليس له ما يؤيده ؛ لأن المدرسة المعمارية العثمانية تأثرت كثيراً بالعمارة البيزنطية حتى فى المساجد والتكايا والقصور . .

ولكن المتفق عليه أن سوق استانبول هذا يعود إلى بداية فتح السلطان محمد الفاتح «الثانى» لمدينة القسطنطينية عام ١٤٥٣م . . إذ بعد سنوات قليلة من هذا الفتح ، أسس السلطان محمد الثانى هذا السوق فى موقعه الحالى ، وعلى المساحة نفسها التى يشغلها الآن .

وعلى الرغم من أن السوق تهدم مرات عديدة بسبب الحرائق ، التى كان آخرها عام ١٩٥٤م . . إلاّ أن مظهره لا يزال كما كان عليه ، عندما بنى للمرة الأولى ، منذ أربعة قرون !

وهذا السوق مدينة صغيرة قائمة بذاتها ، ومن الطريف أنه تم عمل مسح لنشاط هذا السوق ، فوجدوا فيه - عام ١٨٨٠م - ٤٣٩٩م دكاناً . . و٢١٩٥ورشة . . و٤٩٧ كشكاً . . و ١٢ مخزناً . . و ١٨ نافورة . . و ١٢ مصلى أو مسجداً صغيراً غير المسجد الكبير الذى يظلله بأحجاره . . ومدرسة ابتدائية - فى السوق - ومقبرة !! وقد أضيفت لكل هذه النشاطات مؤسسات تجارية عصرية ، مثل : بعض المطاعم والمقاهى والبنوك ودورات المياه .

وفى هذا السوق شارع لكل نشاط : مثل شارع تجار الجواهر ، والأحجار الكريمة، وشارع لصياغة الذهب والفضة ، وشارع لباعة المفروشات ، وشارع لباعة الخردوات ، وآخر لصانعى الأحذية ، وشارع لباعة الحديد والأدوات المعدنية . . أى إن السوق فيه كل شىء . . أما الصالة الواسعة المقببة المسماة بالسوق القديمة ، فهى فى قلب السوق تماماً ، وهى من المبانى التى بقيت من عهد السلطان محمد الفاتح .

وأجمل ما فى هذا الجزء : الأشياء الثمينة مثل السيوف والأسلحة القديمة والمجوهرات والأوانى الفخارية الكلاسيكية ، التى يقبل عليها السائح . وتلك ليست قديمة أو أثرية ، ولكنها صناعات حديثة تامة التقليد جيدة الصنع تماماً ، مثل ما نجده عندنا فى خان الخليلى أو فى دمشق أو فاس .

والسوق كله يغلق مساءً ـ بعد أن يتم تفريغه ـ ويوضع تحت الحراسة الكاملة بسبب قيمة ما فيه من بضائع ومجوهرات .

والسوق كله مبنى على نظام الأقواس ، والقباب المقامة على أعمدة ، والمزينة بالذهب وماء الذهب والنقوش البيزنطية ـ العثمانية . . ولم يبخلوا على تجميله مثل المساجد والقصور العثمانية ، بل إن الأعمدة الحاملة آية فى الجمال والنقوش والتيجان رائعة الجمال . . .

وهذا السوق اسمه بالتركية « بيوك جارشو » ومعظم مبانيه حجرية . .

●● وعلى غرار هذا السوق العثمانى ، أقام حاكم الشارقة سوق الشارقة الرائع فى منتصف السبعينيات ، على الطراز العربى الإسلامى ، المطعم بملامح خليجية ، وبالذات فى نظام التهوية المعروف فى الخليج باسم « البراجيل » ، التى تسحب الهواء البارد إلى داخل المبنى ، وتطرد الهواء الساخن إلى الخارج من أعلى . . وأضاف عليه من عناصر الجمال عدداً من النوافير وأحواض الزهور والكراسى الرخامية ؛ لراحة المترددين على السوق .

وفى لندن هناك سوق مسقوف مبنى بالكامل ، ومزين من الداخل ، ويقع فى ممر يصل بين شارعى بيكاديللى وريجنت ستريت فى قلب مدينة لندن .

● بواكي مصر .. أصلها وفصلها :

إلى أن نصل إلى الأسواق التى تتخذ من البواكى نظاماً لها ، وهو المعروف فى القاهرة الخديوية وفى بورسعيد وفى ضاحية مصر الجديدة . .

والبواكى تعتمد على توفير مساحة من الظل ، فوق أرصفة الشوارع لتظليل الرصيف خدمة للمشاة . . وأيضاً إضافة مساحة ظليلة أمام المحلات والدكاكين والمطاعم . وأبرزها ما تكون فى شارعى محمد على وكلوت بك ، والشوارع المحيطة بمنطقة الأزبكية حول سور الجنينة الشمالى ؛ أى فى قلب القاهرة الخديوية وحول ميدان العتبة . .

واختيار هذا الأسلوب المعمارى من الأسواق له حكاية . .

●● فقد اختلف الخديو إسماعيل مع مهندسيه ومستشاريه حول طريقة توفير المساحة المغطاة من الأسواق أو الشوارع . .

البعض كان يرى أن تتم زراعة الأشجار ، وبالذات اللبخ على جانبى الشوارع الجديدة أسوة بما تمت زراعته فى المدينة الوليدة الإسماعيلية ، حيث الزهرة البيضاء ذات الحواف الحمراء ، والتى أطلق عليها العامة اسم « ذقن الباشا » ، عندما زرعها محمد على حول شارع شبرا . . وهؤلاء كانت حجتهم أن اللبخ شجرة ظليلة ـ وشديدة الخضرة .

ولكن الرأى المعارض قال إن الأشجار تجلب الناموس مما يضايق السكان . . كما أن الأشجار يمكن أن تتحول إلى سلم يصعد عليه اللصوص لسرقة المساكن . . أما العقود فسوف تنتفع بها البيوت ؛ لأنها تسمح للبيوت أن تبرز بعد الدور الأرضى فوق الرصيف لتعوض سكانها عما ضاع من أرضهم عند نزع ملكية البيوت القديمة ، التى كانت قائمة . كما تنتفع الحكومة من بيعها لأصحاب البيوت بدلاً من ترك المساحات الصغيرة دون فائدة . .

وعاد أصحاب رأى زراعة الأشجار إلى الدفاع عن رأيهم . . ولكن المعارضين قالوا إن الأشجار تحتاج إلى خدمة وإلى ترعة أو مصدر دائم للمياه اللازمة للرى والسقى . . أما العقود فلا تحتاج إلى شىء من ذلك . . ويروى على باشا مبارك هذا الجدل فى خططه التوفيقية .

ولكن يبدو أن الخديو إسماعيل هو الذى حسم الأمر ، عندما قرر الأخذ بنظام البواكى العلوية التى تظلل الأرصفة وتوفر الراحة للباعة والمشترين والمشاة . . فهل تم هذا لأنه تأثر بالبواكى ، التى رآها فى باريس خلال الدراسة ، وبالذات البواكى الموحدة فى شارع ريفولى بالقرب من متحف اللوفر ، وهو الشارع الذى يبدأ من ميدان الكونكورد حيث المسلة المصرية الشهيرة . . ويبدأ من اليمين من سور حدائق التويلرى الشهيرة ، وتمتد على جانبى شارع ريفولى هذه البواكى التى تخدم المارة والمشترين ، والتى يبرز جمالها بسبب اتساع رصيفيها على الجانبين ، ثم يتنقل نظام البواكى إلى الجانب الأيسر من شارع ريفولى ، حيث ميدان الفاندوم ، وحوله أيضاً العمارات التى تأخذ شكل البواكى فى دورها الأرضى ؟!

وتغلب رأى الخديو إسماعيل إذاً ، وتم نزع ملكية ٣٩٨ بيتاً وطواحين وأفراناً ورباعاً وحمامات وزرائب وخرائب ؛ لكى يشق شارع محمد على ، ويجمل منطقة العتبة الخضراء ، وكان حريصاً على تعويض كل من نزعت منه أرضه .

●● وهكذا رأينا العمارات الضخمة فى شارع محمد على ، الذى نلاحظ أنه شبه مستقيم ؛ أى على خط واحد على غير عادة الشوارع فى القاهرة القديمة والفاطمية . وعلى الجانبين قامت البواكى ، واتبع الطراز المعمارى نفسه فى كل العمارات التى أقيمت حول ميدان العتبة . . فى الضلع الشرقى بين شارع محمد على وشارع الأزهر . . ثم فى الضلع الغربى ، حيث كانت قهوة متاتيا التى تم هدمها ، ومع بواكيها فى النصف الأول من عام ١٩٩٩م دون أن يعترض أحد . .

ثم يمتد نظام البواكى إلى شارع كلوت بك على جانبيه تماماً من ميدان الخازندار إلى

أن يصل الشارع إلى ميدان باب الحديد . وأيضاً على طول الضلع الشمالى من حديقة الأزبكية حيث شارع سور الجنينة (حاليا شارع على الكسار) . . إلى أن يصل إلى تقاطعه مع شارع إبراهيم باشا « الجمهورية حالياً » ، ومازالت هذه العمائر العظيمة صامدة ، رغم سوء الاستخدام وقلة الرعاية والاهتمام . .

ولكن مازال نظام البواكى ـ أى الأسواق المسقوفة ـ يقاوم الزمن وجاءت الحماية هذه المرة من رجل أعمال غير مصرى . من « البارون إمبان » البلجيكى ، الذى حصل على امتياز ؛ لإنشاء ضاحية مصر الجديدة عام ١٩٠٦م . . إذ صمم الرجل أن تكون مبانى واحد من أشهر وأكبر شوارعها بطراز البواكى . .

وهكذا نجد البواكى تقوم من جديد فى شارع إبراهيم اللقانى ، الممتد من ميدان روكسى فى أول الضاحية إلى ما بعد شارعى هارون الرشيد ودمشق . . حتى يمكن أن نقول إن هذا الشارع جاء على غرار شارع ريفولى فى باريس ، من حيث اتساع عرض الرصيف ، وأيضاً نوع الرخام المستخدم فى رصف الشارع من نوع من الفسيفساء الصغير.

ويبدو أن البارون إمبان أحيا طراز البواكى وحدثها وأغرى غيره بإعادة بنائها . . ففى شارع طلعت حرب « سليمان باشا سابقاً » ، يتفرع ممر اسمه « ممر بهلر » يصل بين شارعى طلعت حرب وقصر النيل . وقامت على جانبى الممر عمارة بهلر الضخمة التى اعتمدت نظام البواكى ، ولكن ليست بالارتفاع ذاته ، وإن كانت بالاتساع ذاته الموجود فى شارع ريفولى بباريس وبجمالياته نفسها ، بل ربما أكثر بهاءً ويوفر مساحة من الظل توفر تياراً هوائياً منعشاً للمشاة على الجانبين ؛ حيث أحدث محلات القاهرة منذ الأربعينيات بين الشارعين المشهورين : سليمان باشا وقصر النيل . وهذه الظلال والهواء المنعش يجذب المشترين إلى هذه المنطقة التجارية .. وهذا هو الهدف . .

● بواكى بورسعيد :

وما دمنا نتحدث عن البواكى لا ننسى مدينة بورسعيد ، وقد أقيمت فى عصر

الخديو إسماعيل أيضاً ، رغم أنها تحمل اسم عمه محمد سعيد باشا . . والشوارع الرئيسية فيها ـ وهى طولية وعرضية تتقاطع مع بعضها ـ أقيمت مبانيها كلها بنظام البواكى ؛ لتوفير مساحة الظل المطلوبة للسياح والبحارة والتجار ، بحكم أن المدينة هى المدخل الشمالى لقناة السويس ، ومن الضرورى توفير مساحة ظل لمن يطوف بالمدينة ويتسوق بين محلاتها . .

وهكذا جاءت الشوارع التجارية بنظام البواكى ، رغم أن معظم مبانى المدينة أقيمت من الخشب !! ولكن كلها هى والمبانى التى أقيمت بالطوب أو الحجارة اعتمدت نظام البواكى ، فالمدينة تجارية فى المقام الأول . . أى هى المدينة السوق . .

والطريف أننى وجدت مدينة بالتصميم ذاته ، والمبانى والبواكى ذاتها والشوارع الطولية والعرضية المتقاطعة ذاتها . . وجدتها فى عاصمة ـ ولاية لويزيانا الأمريكية . . فى مدينة نيوأورليانز . . ويسمون هذه المنطقة من هذه العاصمة « الحى اللاتينى » نسبة إلى سميه فى باريس ، أى منقول من باريس تماماً ، كما نقل الخديو إسماعيل فكرة مدينة بورسعيد ، وفكرة البواكى عن باريس وعن العمارة الباريسية . .

● سوق العتبة وسوق باب اللوق نموذجان من باريس :

قلنا إن المنطقة عند أول شارعى عبد العزيز ومحمد على كانت عبارة عن مقابر تسمى ترب المناصرة. وعندما قرر الخديو إسماعيل ، شق شارع محمد على ، قرر بناء سوق عصرية ـ مثل تلك التى رآها الخديو فى باريس . . كان هدفه جمع نشاطات بيع الأغذية فى مكان واحد عصرى ، بدلاً من السويقات التى كانت منتشرة فى أحياء القاهرة ، حتى يسهل مراقبتها . .

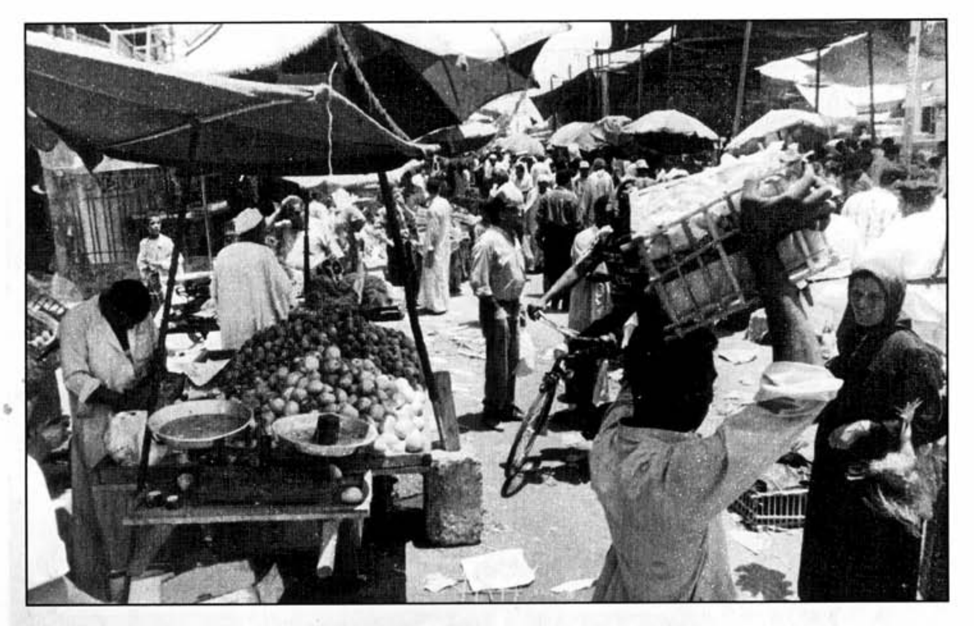
وبالفعل أقام السوق ـ الذى كان مفخرة عند إنشائه عام ١٨٦٩م ـ فى المنطقة التى تمت إزالة المقابر منها لتجميع تجار الخضر والفواكه واللحوم والطيور والأسماك والخبز والبقول . وكانت هناك حول المقابر قبل إزالتها مقاهٍ خشبية ، كان يسمر فيها السوقة ، مدخنو الحشيش ومحبو النوادر وأصحاب القافية .

وحتى يكون السوق الجديد متكاملاً ، أصدر الخديو إسماعيل قراراً إلى نظارة الأشغال فى مايو ١٨٦٩م ، منطوقه «الخرابة » المار فيها شارع محمد على وشارع عبد العزيز ، يعمل فيها سويقة ؛ لبيع الأشياء المعتاد بيعها فى أمثال ذلك بأوروبا ـ لاحظوا المعنى ـ بحيث تكون فى غاية الانتظام . وبما أن «كودريه بيك » سيجرى جلب المياه لحد الأزبكية بالقرب من ذلك المحل ؛ أى السويقة « السوق » . . يصيرتعريفه عن حضور « يقصد توصيل المياه » لحد السويقة المذكورة ، مع إجراء اللازم أيضاً فى تنويرها بالغاز. . !!

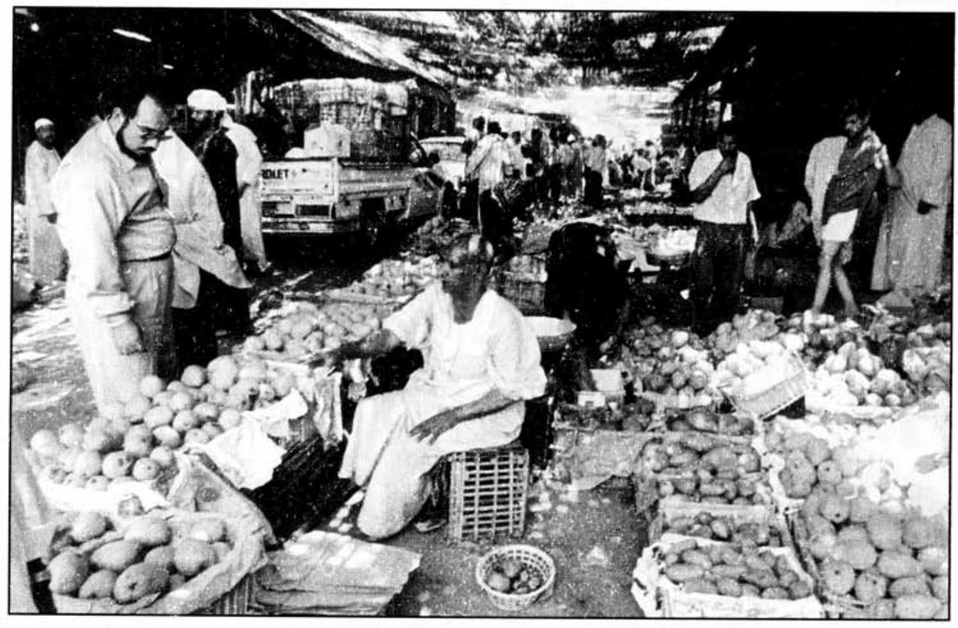
أى أن إسماعيل كانت عينه أيضاً على أسواق أوروبا النظيفة ، التى تتمتع بخدمات المياه من أجل النظافة العامة وضمان سلامة الأغذية، وأيضاً إضاءتها بالغاز الذى كان أحدث وسيلة وقتها للإضاءة . . ثم إن هذا السوق العصرى ـ سوق العتبة ـ أقيم فوق خرابة !! ومن يشاهد الآن هذا السوق بعد ١٣٠ عاماً ، لم تدخله أى عمليات صيانة أو تطوير ـ وربما تنظيف ـ يمكنه أن يتخيل كيف كان هذا السوق عند إنشائه عام ١٨٦٩م .

وكان أيضاً من الأسواق المغطاة التى نتحدث عنها هنا ، فقد كان يتمتع بقنوات رفيعة حتى يسهل تنظيف السوق . كما كان يتمتع بنظام جيد للتهوية ، فضلاً عن أبوابه المتعددة سواء من ناحية شارع الأزهر أو من الناحية الغربية حيث ميدان العتبة . . أو من ناحية شارع محمد على حيث يخدم حى المناصرة. ونلاحظ أن السوق خال من كل الجهات ، ومحاط بشوارع ، ولكن يفصله عن ميدان العتبة عمارة ضخمة ذات بواك؛ للمحافظة على رونق الميدان من حركة السوق وزبائنه .

***



فى السوق البسيط . . يضع البائع مجرد مظلة لتحمى بضاعته من الشمس وتحميه !!



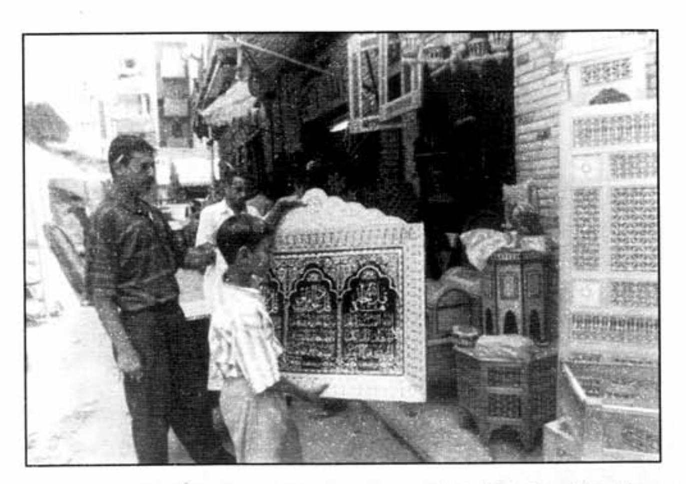
. . وتتوسع الحماية ـ المظلة ـ عندما يشترك عدد من الباعة فى تركيب تعريشة « أو عريش » لتحمى
بضائعهم من حرارة الشمس .



العتبة الخضراء سوق العتبة . . أنشأه الخديو إسماعيل على غرار سوق باريس .



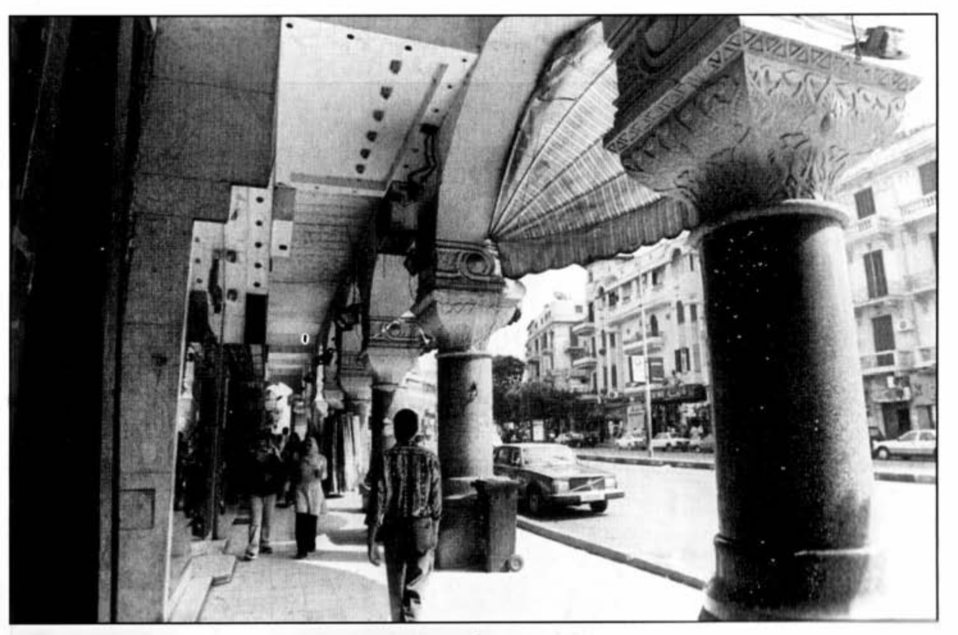
العتبة الخضراء وسوق المناصرة حيث تجارة الموبيليا الشعبية كانت هنا مجرد مدافن .



العتبة الخضراء كانت أسواق العاصمة تتركز حول هذا الميدان عندما كان يمثل قلب القاهرة .



بواكى قاهرة إسماعيل فى شارع كلوت بك . .



بواكى شارع إبراهيم اللقانى فى مصر الجديدة توفر المأوى ومساحة من الظل . . وتحمى المشترين من الأمطار شتاءً .



. . وبواكى ممر بهلر الذى يصل بين شارعى طلعت حرب وقصر النيل فى قلب الحى التجارى بالقاهرة هى آخر ما شهدته القاهرة من هذه الطرز المعمارية التى توفر الحماية للعابرين صيفاً وشتاءً .

المراجع والمصادر

- الخطط التوفيقية . . على مبارك باشا .
- تقويم النيل ٦ أجزاء . . أمين سامى باشا .
- تاريخ المساجد الأثرية . . حسن عبد الوهاب .
- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . . د. سعاد ماهر .
- القاهرة وتنظيمها . . حسن عبد الوهاب .
- كتاب وصف مصر . . إصدار الحملة الفرنسية .
- القاهرة . . تاريخ حاضرة تأليف أندريه ريمون .
- عصر إسماعيل جزءان . . عبد الرحمن الرافعى .
- مصر . . ولع فرنسى . . روبيه سوليه ترجمة لطيف فرج .
- خبايا القاهرة . . أحمد محفوظ .
- الحياة الاجتماعية فى القاهرة د. سمير عمر إبراهيم .
- مجلة مصر المحروسة عدة أجزاء . . د. ماجد محمد على فرج .
- القاهرة . . شحاتة عيسى إبراهيم .

ـ سيرة القاهرة ستانلى لينبول ترجمة . . د. حسن إبراهيم حسن وآخرين .
ـ القاهرة بين حيلين . . حافظ محمد .
ـ القاهرة . . مدينة ألف ليلة وليلة . . أولج فولكف . . ترجمة أحمد صليحة .
ـ التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية . . أندريه ريمون .
ـ القاهرة منارة الحضارة الإسلامية . . د. عبد الرحمن زكى .
ـ القاهرة . . ديزموند ستيوارت . . ترجمة يحيى حقى .
ـ إنجليزى يتحدث عن مصر أ. و. لين ترجمة فاطمة محجوب .
ـ القاهرة جزءان . . فؤاد فرج .
ـ مذكراتى فى نصف قرن أحمد شفيق باشا .
ـ لمحة عامة إلى مصر « مجلدان » كلوت بك .
ـ القاموس الجغرافى للبلاد المصرية . . محمد بك رمزى .
ـ مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية . . محمد عبد الله عنان .
ـ خريطة دليل مدينة القاهرة . . مصلحة المساحة مقياس ١٠٠٠٠ : ١ عام ١٩١٢ .
ـ خريطة دليل مدينة القاهرة . . مصلحة المساحة مقياس ١٥٠٠٠ : ١ عام ١٩٥٢ .

الفهرس

كتب للمؤلف

١ ـ أزمة الخليج واستراتيجية الأمن العربى — الناشر : الزهراء للإعلام العربى — ١٩٩١

٢ ـ غرائب الأسماء المصرية — الناشر : الزهراء للإعلام العربى — ١٩٩٢

٣ ـ غرائب الأسماء العربية — الناشر : الزهراء للإعلام العربى — ١٩٩٤

٤ ـ غرائب الأسفار . . وعجائب الأطباق — الناشر : الدار المصرية اللبنانية — الطبعة الأولى ١٩٩٥
الطبعة الثانية ١٩٩٧

٥ ـ شوارع لها تاريخ — الناشر : الدار المصرية اللبنانية — الطبعة الأولى ١٩٩٧
الطبعة الثانية ٢٠٠٠
« مكتبة الأسرة »

٦ ـ من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق — الناشر : الدار المصرية اللبنانية — الطبعة الأولى ٢٠٠١

٧ ـ أحياء القاهرة المحروسة — الناشر : الدار المصرية اللبنانية — الطبعة الأولى ٢٠٠٣

كتب تحت الطبع :

٨ ـ أولياء الله . . ومساجد الصالحين .

* * *